مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيقه الموسوعة
وحققه هذا السفر
كامل سلمان الجبوري

الجزء التاسع

مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة



دار الكتب العلمية®
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

فهذا هو السفر التاسع من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، المتوفى بها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

وقد تناول فيه تاريخ وتراجم الحكماء والأطباء والفلاسفة.

معتمداً فيه على كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، فقد نقل منه بعض التراجم نصّاً وأخرى مختصراً، وقد أشار في بعضها إلى المصدر وأخرى تركها غفلاً.

واعتمد على مصادر أخرى أشار إليها بين ثنايا هذا السفر، كالوافي بالوفيات للصفدي وغيره.

وقد اعتمدت في تحقيق هذا السفر على ثلاث نسخ وهي:

١ـ نسخة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٢ وهي نسخة قديمة عليها تملك محمد بن علي بن عيسى بن داود بن شيركوه بن شاذي الأيوبي سنة ٧٦١هـ وقد وقّفها السلطان العثماني محمود خان، وعليها ختم باسم أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين. وعليها تأييد الوقفية يعود تاريخه سنة سبع و... وسبعمائة.

وهي (الأصل) في عملي.

٢ـ نسخة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧ وقد كتبت برسم

خزانة المملوكي، الملك المؤيد شيخ ابن عبد الله المحمودي (ت ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١هـ) ووقّفها الملك المؤيد على طلبة العلم بجامعة (المؤيدي). وقد قابلت عليها في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، رقيقة الميكروفلم رقم 41,v.9,c2.

٣ـ نسخة المكتبة الوطنية ـ المخطوطات العربية ـ باريس رقم ٥٨٧٠ وقد قابلت عليها في مكتبة الجامعة الأمريكية ـ بيروت، رقيقة الميكروفلم رقم 41,v.9,c3.

وقد أفدت كثيراً من تعليقات الاستاذ فؤاد سيد على طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل.

أما منهجي في تحقيقه فهو كما ذكرته في مقدمتي للسفر الأول من هذه الموسوعة.

هذا ما استطعت تقديمه للقارىء الكريم والباحث المتتبع، وحسبي أني كنت مخلصاً فيه.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

جمهورية العراق ـ الكوفة

كامل سلمان الجبوري



صفحة العنوان ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٢

فهرست ما فيه من الأسماء

الصفحة الأولى ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم رب أعن

[illegible] الاول [illegible] اني نوبقه [illegible] فانه [illegible] المفاصل

و[illegible] من [illegible] ونبتة منهم عيونا طال ما طال نومها ونأتي

بعوائد [illegible] كم كثر [illegible] ونقتصر على المشاهير والاعيان الذين

يكادون يعدون من المشاهير ونأتي منهم بمن تكلم في العلوم الثلاثة الطبيعي

والرياضي والالهي او احدها واجاد في جميعها او منفردها فنذكرهم على اختلاف

فرق مللهم ونحلهم وبلادهم وتلادهم كل فرقة على حدتها بما [illegible] في قسمة الجانبين

ولم نشم منهم الا من لم [illegible] في افقه ولا [illegible] كوكبه الى

سمائه او اخله ضنه الى نفقه ممن له في علم الكلام اقدام لا يدانيه [illegible]

الثرى وتلطف لا يحاكيه طيف الكرى فقصر على طلبه الاشغال

وقصد في التزيد من مكسبه الايغال ومن هو بالطب طب بنقضي

احوال المزاج لا تخفى عليه نبضة عرق ولا يموه عليه ومضة حذق ولا

يدق مدخل سقام الا وداواه بتبعه وسقاه سوى [illegible] له [illegible]

واولهم هرامسة الثلاثة واليهم تنسب اصول هذه العلوم

وقال ذلك ابو معشر البلخي وقال ان اقليمنتوس الذي يزعم اكثر الحكماء

انه اول من استنبط الحكمة وسيأتي ذكره لم يكن بالمتاله الاول

في صناعة الطب ولا بالمبتدي بها بل انه عن غيره اخذ ولمنهج من سبقه سلك

وقال انه كان تلميذ هرمس المصري قال ابن المطران في اختصار

كتاب الادوية للكسدانيين هرمس [illegible] وقال

في معنى تسميته بالمثلث انه كان ملكا عمت مملكته اكثر المعمور ونبيا

ذكره الله تعالى وقال هو ادريس عليه السلام وهو عند اليهود خنوخ وقيل

الصفحة الثانية ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٢

فليت الشمس لو اتقنه قليلا ووا اسفا على مثله كيف مات على اليهودية

ومنهم محمد بن صغير ناصر الدين طبيب جامع ولبيب تشرف

هماته في المسامع وفاضل لم يقتصر في نوع من الفضايل على كثرة تشغبها

ووجي الدراسة ولقبها مع اخلاق لو تخلقت بها المدام لما قطب شاربها

ولما قدر ان يذكرها عايبها الى فضايل شريفه وشمايل ظريفه واخوة صحبته

الاخاء صريحة الانتماء ولقد اقول جزم انه قد اصبح اليوم فردا واحدا

لما جمع من شتى المحاسن وكمال الاوصاف قرا العلم واشتغل به وخدم

السلطان وباشر المرستان وقرا النحو والادب وتطبب به حتى صار خلفا

له وله في حسن العلاج يد طولة وآثار جميلة وافعال حسنة مشكورة

وهو يرى لطف التدبير في معالجة المرضى وعدم الاقدام عليهم بالادوية وكان

السلطان يشكره ويثني على نشاته الحسنة الى غير هذا مما يتفكه به

من جنى الالسنه

اخر الجزء الثامن من كتاب مسالك الابصار

في ممالك الامصار ويتلوه ان شاء الله تعالى وممن يعد مع الحكماء

اهل علم الموسيقى والحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٢



صفحة العنوان ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقيو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧



الصفحة الأولى ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقيو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧

من حيث [illegible] ان حمدانا وَلهم واحوهم ثم بنو حمدان • ولهم حمدان
[illegible] الناس • وان فعاراً ركبوا العنا مطرق لا ينال الدارس
وان سالموا امست كل والدة على ولدها وان حاربوا اجفلت عن الشمس غبار
خيل مكن زانهم [illegible] بسيفهم • ولا فلا ناجز هم • ولا امنا رب ال ابرهم
على عظم ما لحقوا بما تحرت عنه اصاغرهم • وهذا من قبايحهم اذا نطقوا وسماحهم
اذا اطاعوا الله نصرنا بلبن • وتزيد البلين • وكلاهما غصن فيه ورق
وجار لا يبقى الخاطر له في طرب ومن حلبلها وهب هذا الذهب وهو

قوله قوله

• الخا السوارس لو شهدت مواقفي والخيل من تحت العجاجة تخط •
• لرات منى ما علمت بذا الوغى والبيض تشكل والاسنة تنقط •

ومنه قوله

• وقد علمت ما الاقى منا قبائل يعرب ونزار •
• لعينا هم بارماح طوال [illegible] بالعار تعتاد •

ونقل له في غلام تشكوا فاشار الى غلام له كالرم تبطو وقال

• اسمر هذا الغلام حبي حبيبه من سقام •
• فتور عينيه من دلال اهدى فتورا الى عظامي •
• وامتزجت روحه بروحي تمازج الماء بالمدام •

وقد شبه مازج الماء والدام من الحسن ما يضرب به المثل في الايتام [illegible] شرف
والامتزاج اذا اتحدا ولدا انا لا يتولد احدهما من فرد [illegible] العقل موارد
با شي لقيدها اذا ورد وهذا شعر كله قلوب ومع قلبه ذوب في كل
لفظ جمال فن وطرف فاتر وبغيد [illegible] وعنه تجر ساير •
عن البحر الفاهم من [illegible] الاصقاع [illegible] الامصار • ولله الحمد
الـ • ويتلو في السفر الثاني [illegible] ومنهم ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي

الصفحة ما قبل الأخيرة ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقيو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧

والحمد لله وحده • وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

الصفحة الأخيرة ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧

فحمل الغريض الشعر ورجع الى المدينة فقصد لسكينة وقال لها جعلت فداك
سيدتي ومولاتي ان ابا الخطاب ابقاه الله وجهني اليك قاصدًا قالت اوليس
في خير وسرور وبركة قال نعم قالت وفيم وجهك ابو الخطاب حفظه الله قال جعلت
فداك ان ابن ابي ربيعة حملني شعرًا وامرني ان انشدك اياه فقالت هاته فانشدها

ألمم بزينب ان البين قد افدا قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا

الشعر كله فقالت يا ويحه ما كان عليه الا يرحل يوم غد فوجهت الى النسوة فجمعتهن
وانشدتهن الشعر وقالت للغريض هل عملت فيه شيئا قال قد غنيت ابن ابي ربيعة
قالت فهاته فغناه الغريض فقالت سكينة احسنت والله واحسن ابن ابي ربيعة
ولولا انك سبقت وغنيته ابن ابي ربيعة لاحسنا جائزتك بابياته اعطيك لكل بيت
الف درهم فاخرجت باربعة ابياته اربعة آلاف درهم فدفعتها اليه وقالت سكينة لو
زادنا عمر لزدناك قال ـــ محمد بن سلام حجت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله
فجاءتها الثريا واخواتها ونساء اهل مكة القرشيات وغيرهن وكان الغريض
فيمن جاء ودخل النسوة عليها فامرت لهن بكسوة والطاف كانت قد اعدتها لمن
جاءها فجعلت كل واحدة تخرج ومعها جاريتها تحمل ما امرت لها به عائشة والغريض
بالباب حتى خرج مولياته مع جواريهن الخلع فقال الغريض اين نصيبي من عائشة
فقلن له اغفلناك وذهبت عن قلوبنا فقال ما انا ببارح من بابها او آخذ بحظي منها
فانها كريمة واندفع يغني بشعر جميل

تذكرت ليلى والفؤاد عميد وشطت نواها والمزار بعيد

فقالت ويلكم هذا مولى العبلات بالباب قد ذكر بنفسه هاتوه فدخل
فلما راته ضحكت ثم قالت لم اعلم بمكانك ثم دعت له باشياء امرت له بها ثم قالت
له ان انت غنيتني صوتا في نفسي فلك حكمك فغناها في شعر كثير

الصفحة الأولى ـ مخطوطة المكتبة الوطنية ـ المخطوطات العربية ـ باريس رقم ٥٨٧٠

الصفحة الأخيرة ـ مخطوطة المكتبة الوطنية ـ المخطوطات العربية ـ باريس رقم ٥٨٧٠

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحقق هذا السفر

كامل سلمان الجبوري

الجزء التاسع

مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة

[مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة]

/٤/ بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعِن

وإذ انتهت بنا الأوبة في العلماء إلى نوبة الحكماء، فلنُطبِّق بذكرهم المفاصل، ونطلق من عمود اللحُود المناصل، ونُنبّه منهم عيوناً طالما طال نومها، ونأتي بفوائد فئة كم كثر حسّادها، ونقتصر على المشاهير والأعيان الذين يكادون يعدون من المشاهير، ونأتي منهم بمن تكلم في العلوم الثلاثة: الطبيعي، والرياضي، والإلهي أو أحدها، وأجاد في جميعها أو مفردها، فنذكرهم على اختلاف فرق مللهم ونحلهم، وبلادهم وتلادهم، كل فرقة على حدتها بما وقع في قسمة الجانبين، ولم نُسَمِّ منهم إلاَّ من لم يسامت في أفقه، ولا يساهم أولى كوكبه إلى سمائه، أو أخلد ضَبْنُهُ إلى نفقه ممن له في علم الكلام إقدام لا يدانيه ليث الشرى، وتلطُّف لا يحاكيه طيف الكرى. قصر على طلبه الأشغال، وقصد في التزيد من مكسبه الإيغال، ومن هو بالطبِّ طَبٌّ بتقصي أحوال المزاج، لا تخفى عليه نبضة عرقٍ، ولا يُموَّهُ عليه ومضةُ حِذقٍ، ولا يدق مدخل سقام إلاَّ ودواؤه يتبعه، وسقاؤه سوس يذل له سَبُعُه.

وأولهم: الهرامسة الثلاثة

وإليهم تنسب أصول هذه العلوم، وقال ذلك أبو معشر البلخي[1]،

---

(١) جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أبو معشر الفلكي: عالم فلكي مشهور. كان أولاً من أصحاب الحديث، وتعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، وضربه المستعين العباسي أسواطاً لأنه أخبر بشيء قبل حدوثه فحدث، فكان يقول: أصبت فعوقبت! قال القفطي في وصفه: عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم. وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم. وعمر طويلاً، جاوز المئة. أصله من بلخ، في خراسان. أقام زمناً في بغداد، ومات بواسط سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٦م. وكان يعرف عند الغربيين في العصور الوسطى باسم «Albomasar» تصانيفه كثيرة، منها «كتاب الطبائع»، و«المدخل الكبير ـ خ» ترجم إلى اللاتينية ونشر بها، و«القرانات ـ خ» نشرت قطعة منه، و«الألوف في بيوت العبادات ـ ط» مع ترجمة إنكليزية، و«مواليد الرجال والنساء ـ ط» بعنوان =

وقال[١]: إنَّ أقليننوس[٢] الذي يزعم أكثر الحكماء أنه أول من استنبط الحكمة، وسيأتي ذكره. لم يكن بالمتألّه الأول في صناعة الطبّ، ولا بالمبتدىء بها، بل إنه عن غيره أخذ، ولمنهج من سبقَه سلك، وقال: إنه كان تلميذ هرمس المصري.

قال ابن المطران في اختصار كتاب الأدواء للكلدانيين:

فأما:

[١]
هرمس المثلث بالنعمة[٣]

وقال في معنى تسميته بالمثلث: إنه كان ملكاً عمَّت مملكته أكثر المعمورة، ونبياً ذكره الله تعالى، وقال: هو إدريس عليه السلام، وهو عند اليهود خنوخ، وقيل: / ٥/ أخنوخ، وحكيماً فيلسوفاً، له تصانيف كثيرة في أيدي الناس باقية إلى اليوم: «كتاب الطول» و«كتاب العرض» و «كتاب قضيب الذهب» وغير ذلك.

= «الكتاب في التمام والكمال» و«الدول والملل» و«الملاحم» و«هيئة الفلك» و«طبائع البلدان» و«الأمطار والرياح» و«إثبات علم النجوم» و«الزيج» الكبير، و«الزيج» الصغير، و«الاختيارات في الأعمال والحوائج من أمور السلاطين ـ خ» في خزانة الرباط (٧٦٩ د) نسخة مشرقية كتبت سنة ٥٦٧ هـ.
ترجمته في: الفهرست لابن النديم ١/ ٢٧٧، والقفطي ١٠٦، ووفيات الأعيان ١/ ١١٢ ونواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ٥٤ وفي دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٤٠٤. «اتهمه مصنفو العرب بانتحال مؤلفات غيره وثبت هذا حديثاً من أبحاث لوث «O.Loth».

(١) عيون الأنباء ٣١.

(٢) في عيون الأنباء ٣١: «اسقليبيوس».

(٣) وهو باليونانية اسم لإله من آلهة اليونان ويعرف عند الرومان باسم Mercurius، وهو «عطارد» عند العرب. ويزعم المصريون القدماء أنه نفس الإله «تحوت Thot» وينسبون إليه اختراع كل علم، ويطلق عليه أيضاً «ادريس» و«أخنوخ أو خنوخ» و«إرمس». و«هرمس الهرامسة» و«هرمس المثلث بالنعمة».
ترجمته في: الفهرست ٢٨٦، طبقات الأمم ١٨ و٣٩، أخبار العلماء ١ـ٧ ويذكره باسم «ادريس». وقد كرر القفطي هذه الترجمة أيضاً ضمن ترجمة هرمس الثالث من ص٣٤٧ـ٣٥٠، عيون الأنباء ٣١ـ٣٢، مختصر الدول ١١ـ١٢، ويذكر أن هرمس يلقب باليونانية طريسميجيسطيس، أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباري تعالى بثلاث صفات ذاتية، هي: الوجود والحكمة والحياة. وفي منتخب الصوان لوحة (٦٦) وفي نزهة العيون لوحة ٢٢، البدء والتاريخ ٢/ ٩٧ و١٤٧، كشف الظنون ١/ ٢٥ـ ٢٦، الملل والنحل ٢/ ١٤٢، دائرة المعارف الإسلامية مادة «إدريس»، طبقات الأطباء والحكماء / هامش ص٥.

قال: فهذه ثلاث نعم اجتمعت له لم يُسمع أنها اجتمعت لغيره من الأمم، ورفعه الله في عمود من نور. والهند والصابئة يزعمون أنه وقع في نارٍ بعثها الله إليه، ولهذا الهند تحرق أجسادها بعد الموت، ومنهم من يحرقها قبل الموت، ويزعم أنه تقرب إلى الله وعبادة له.

قال ابن أصيبعة[١]: أمَّا هرمس الأول، وهو المثلث بالنعم، فإنه قبل الطوفان، وهرمس لقب كما يقال كسرى وقيصر، وتسميه الفرس في سيرتها اللجهد، وتفسيرها ذو عدل، وهو الذي تذكر الحرانية يعني الصابئة نُبُوته. ويقول الفرس: إن جده كيومرت وهو آدم عليه السلام، ويقول العبرانيون: أنه خنوخ وهو بالعربية إدريس.

قال أبو معشر: هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وأن جده كيومرت وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل، ومجَّد الله تعالى فيها، وأوَّل من نظر في الطب، وتكلم فيه، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة بأشعار موزونة، وقواف معلومة في الأشياء الأرضية العلوية، وهو أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفةً سماوية تلحق الأرض من الماء والنار. وكان مسكنه صعيد مصر فبنى هنالك الأهرام، ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وهو في الجبل المعروف ببرباه أخميم، وصَوَّر فيها جميع الصناعات، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده حرصاً منه على تخليد العلوم بعده، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم.

قال: وفي الأثر أن إدريس أوَّل من درس الكتب ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفةً ورفعه إليه مكاناً عَلِياً.

قلت:/ ٦/ وقد مرَّ في ذكره ما فيه غِنًى.

وأما:

(١) عيون الأنباء ٣١ـ ٣٢.

[٢]
هرمس الثاني[١]

فإنه من أهل بابل.

قال أبي أصيبعة[٢]: سكن مدينة الكلدانيين بابل، وكان بعد الطوفان في زمن بابل الذي هو أول من بنى بابل بعد نمرود بن كوش، وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة، عارفاً بطبائع الأعداد، وكان فيثاغورس الأرثماطيقي وهرمس هذا جَدَّدا من هذه العلوم ما كان قد درس بالطوفان.

قال: وهذه يعني بابل مدينة الفلاسفة من أهل الشرق وفلاسفتهم أول من جدد الحدود ورتَّب القوانين.

وأما:

[٣]
هُرمُس الثالث[٣]

فإنه سكن مدينة مصر، وكان بعد الطوفان.

قال ابن أبي أصيبعة[٤]: وهو صاحب كتاب «الحيوان ذوات السموم»، وكان

---

(١) ويسمى أيضاً: «هرمس البابلي».
ترجمته في: الفهرست ٣٥٢ـ٣٥٣ وقد ذكره بين الكيميائيين والصنعويين... وأثبت مؤلفاته في الصنعة ٤٩٦، طبقات الأطباء والحكماء ٨ وفيه: أنه كان كيميائياً وإنما الذي له معرفة بالكيميا هو هرمس الثالث. وفي أخبار العلماء ٣٤٦ـ٣٤٧، عيون الأنباء ١/ ١٧، طبقات الأمم ١٨ و١٩ و٤٠ (وهو هناك يخلط بين هرمس الثاني والثالث)، مختصر الدول ١١ـ١٢، نزهة العيون لوحة ٢٢، عيون الأنباء ٣٢، تاريخ الحكماء ٦١، دائرة المعارف مادة «هرمس».

(٢) عيون الأنباء ٣٢.

(٣) ويسمى أيضاً: «هرمس المثلث بالحكمة».
ترجمته في: الفهرست ٣٥٢ـ٣٥٣، وهو يذكره هناك باسم «هرمس الثاني» خطأ، وفي الطبقات ١٨ و١٩و٤٠ (وهو هناك يخلط بينه وبين هرمس الثالث) وفي أخبار العلماء ٣٤٧ـ٣٥٠، وفي عيون الأنباء ٣٢، مختصر الدول ١١ـ١٢، نزهة العيون لوحة ٢٣، دائرة المعارف مادة «هرمس»، طبقات الاطباء والحكماء ص١٠.

(٤) عيون الأنباء ٣٢.

طبيباً فيلسوفاً، عالماً بطباع الأدوية القتالة، والحيوانات المؤذية، وكان جوالاً في البلاد، طوافاً بها، عالماً بنصبة المدائن وطبائعها وطبائع أهلها، وله كلامٌ حسنٌ نفيسٌ في صناعة الكيمياء ينتقل منه إلى صناعات كثيرة كالزجاج والخرز والغضار، وكان له تلميذ يقال له اسقيليفوس، وكان سكنه بأرض الشام.

* * *

مشاهير الفلاسفة

[فلاسفة اليونان]

وأما فلاسفة اليونان:

فأعظمهم قدراً خمسة، وهم: بندقليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو طاليس، وهو ابن نيقوماخس.

فأولهم:

[٤]
بندقليس[(١)]

وهو أول من خاض منهم اللجج، وخاصم بالحجج إلاَّ أنه زلَّ به العقل، وأصدأ مُهنَّدُه كثرة الصَّقل.

قال أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد: إنه كان في زمان داود عليه السلام، وأخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام، ثم انصرف إلى بلاد اليونان فتكلم في خلق العالم بأشياء يقدح ظاهرها في أمر المعاد، فهجره بعضهم. ولطائفة من الباطنية ميل إلى حكمته، وتزعم أن له رموزاً قل ما يوقف عليها.

قال ابن أبي أصيبعة[(٢)]: وإلى قوله في الصفات ذهب أبو الهذيل العلاف.

/ ٧/ ومنهم:

[٥]
فيثاغورس[(٣)]

وهو ممن خرق الفجاج حيث يتشكى طالع الصباح المسرى، وتترامى طوالع الرياح حسرى، وقد كان يروع الليل، وثغر أفقه أشنب وفجر مفرقه مقنب، ويفاجىء البيد وجبالها، وقد كشرت له أنياب أغوال، ورمالها قد حطت له نوائب أهوال، لا يرده قول مؤنِّب، ولا يصده ليل بآفاقه مطنِّب، ولا يثني عزماته الموقنة من بارقة سبوحها، ولا من مطوقةٍ في خضر الغصون جنوحها.

---

(١) (٤٩٥-٤٣٥ ق.م). انظر: عيون الأنباء ٦١، طبقات الأمم ٣٢، تاريخ الحكماء ٨٣.

(٢) عيون الأنباء ٦١.

(٣) (٥٨٢-٥٠٧ ق.م). انظر: عيون الأنباء ٦١- ٧٠، طبقات الأمم ٣٣، تاريخ الحكماء ٨٧، أخبار العلماء ٢٦٨.

قال أبو القاسم صاعد: إنه أخذ الحكمة عن سليمان عليه السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام، وكان قد أخذ الهندسة من المصريين، ثم رجع إلى بلاد اليونان، وأدخل عندهم علم الهندسة، وعلم الطبيعة، وعلم الدين، واستخرج علم الألحان، وتوقيع النغم، وله رموز عجيبة، وأغراض بديعة وله في المعاد مذاهب قارب فيها بندقليس، وكان يرى السياحة، واجتناب مماسَّة القاتل والمقتول، وكان يقول: إنه أُمِرَ بتقديس الحواس، وتعلم العلم بالعدل، وجمع الفضائل، والكف عن الخطايا والبحث عن طبيعة كل شيء، والتحاب والتأدب لشرح العلوم العلويَّة ومجاهدة المعاصي، وعصمة النفوس، وتعلم الجهاد، وإكثار الصيام، والقعود على الكراسي، ومواعظ الملوك، وقراءة الكتب، وأن يُعلّم الرجال الرجال، والنساء النساء، وكان قد اتخذ أكلاً غير مُجوِّع ولا مُعطشٍ لا يتعداهُ، ولم يكن يفرح بإفراطٍ، ولا يحزن بإفراط.

ويحكى أنه أول من قال: إن أموال الأخلاء مشاعة غير مقسومة، وكان يأمر بأداء الأمانة في الوديعة وصدق الوعد، وكان يتكهن فلا يُخطىء، وكان يرمز حكمته.

ومنها قوله: لا تلبس تماثيل الملائكة على فصوص الخواتيم أي لا تجهر بديانتك وأسرار العلوم الإلهية عند الجهال. وكان ممن استوطن أنطاليا بعد أن سافر إلى بلاد شتّى طلباً للعلم، وأخذ عن الكلدانيين والمصريين وغيرهم، وأخذ عن الكهنة، وآخر/ ٨/ أمره أنه كُفِّرَ فبقي مذبذباً لا يليقه بلدٌ، ثم انحاز إلى هيكل تحصن فيه، ولبث فيه أربعين يوماً لا يغتذى، فأطيف به وأحرق عليه الهيكل، فهلك هو ومن معه.

ومن كلامه قوله: الأقوال الكثيرة في الله تعالى علامة تقصير الإنسان عن معرفته.

وقوله: ما أنفع الإنسان أن يتكلم بالأشياء النفيسة، فإن لم يمكنه، فليسمع قائلها.

وقوله: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد.

وقوله: ليكن قصدك من المال اكتسابه من حلالٍ وإنفاقه في مثله.

وقوله: إذا سمعت كذباً فهوّن على نفسك الصبر عليه.

وقوله: ما لا ينبغي أن تفعله احذر أن تخطره في بالك.

وقوله: لا تدنس لسانك بالقذف ولا تُصغ بأذنيك إليه.

وقوله: الأشكال المزخرفة والأمور المموهة في أقصر الزمان تتبهرج.

وقوله: متى التمست أمراً ابدأ إلى ربك بالابتهال في النجح فيه.

وقوله: الإنسان الذي اختبرته بالتجربة فوجدته لا يصلح أن يكون صديقاً وخِلاً

من أن تجعله لك عدواً.

وقوله: ما أخلق بالإنسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهي.

وقوله: ما أحسن بالإنسان أن لا يخطىء، فإن أخطأ فما أكثر انتفاعه بأن يعلم بأنه أخطأ، ويحرص أن لا يعاود.

وقوله: الدنيا دول، مرّة لك وأخرى عليك، فإن توليت، فأحسن وإن تولوك فَلِنْ.

وقوله: ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق، فصبر واحتمل، ولكن الحكيم من حُمل عليه أكثر مما يحتمل فصبر.

وقوله: إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات لعدمها الكلام، وتعرض للإنسان من قبل الكلام.

وقوله: استعمل الفكر قبل العمل.

وقوله: وقد نظر إلى شيخ يحب النظر في العلم ويستحيي أن يُرى متعلماً: يا هذا أتستحي أن ترى في آخر عمرك أفضل منك في أوله؟

وقوله وقد قيل له: ما أحلى الأشياء؟ قال: ما يشتهيه الإنسان.

/ ٩/ ومنهم:

[٦]

سقراط[١]

وهو المعروف بسقراط الحُبِّ، والحُبّ وعاء من فخار كان يجلس فيه ويستغني به عن اللباس اتخذه رياشاً له دون اللباس. أعرض عن ملاذِّ الدنيا ورفضها، وفَرَّغ منها يديه ونفضها، وتجرد من الدنيا إلاَّ جُبَّ، يستره، وجب يشهره كأنما يتوقى من مماطل الفجر إشراكاً خاتلة، ومن رواشق النجوم نبالاً قاتلة، فكان لا يستطيب من دياره مقيلا، ولا يستطيب لعثاره مُقيلاً، فلم يأوِ جداراً ولا أطماً، ولا ألجم رأسه عذاراً ولا خُطماً حتى انتهى إلى ما بلغ، وشفى كلب الموت من دمه ما ولغ.

قال أبو القاسم صاعد: هو من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر على العلوم الإلهية،

---

(١) يكتب أيضاً «سقراطيس».

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٩٥، طبقات الأمم ص٢٣، أخبار العلماء ص١٩٧ـ ٢٠٦، وعيون الأنباء ٧٠ـ ٧٩، ومختصر الدول ص٨٩، ومنتخب الصوان لوحة ٣٠ـ٣٢، ونزهة العيون ٥٩ـ ٨٨، الملل والنحل ٢/ ١٨٥، طبقات الأطباء والحكماء ص٣٠.

وخالف اليونان في عبادة الأصنام، وحاجَّ رؤسائهم بالأدلة، فنقدوا العالم عليه، واضطروا ملكهم إلى قتله، فأودعه السجن، ثم سقاه السُمّ. وله وصايا شريفة، وآداب فاضلة، وحكم مشهورة، ومذاهب قريبة من فيثاغورس وبندقليس إلاَّ أن له في العدد آراء ضعيفة، بعيدة عن محض الفلسفة، خارجة عن المذاهب المحققة.

وكان لا يستودع الحِكَمَ الصُحف والقراطيس تنزيهاً لها، ويقول: الحكمة طاهرة مقدسة غير فاسدة ولا دنسة، فلا ينبغي أن نستودعها إلاَّ الأنفس الحية، وننزهها عن الجلود الميتة، ونصونها عن القلوب المتمردة، ولم يصنف كتاباً ولا أملى على أحدٍ من تلاميذه ما أثبته في قرطاسٍ، وإنما كان يلقنهم علمه تلقيناً.

وكان من عادة ملوك اليونان إذا حاربوا أخرجوا معهم حكماءَهم، فأخرج الملك سقراط معه في سفرة خرج فيها، وكان سقراط يأوي إلى زير مكسور يستكن فيه من البرد، وإذا طلعت الشمس خرج منه فجلس عليه يستدفيء بالشمس، ولهذا سمي سقراط الحُبِّ.

ومن كلامه قوله: إملأ الوعاء طيباً أي حكمة.

وقوله: لا تأكل الأسُود الذئب أي احذر الخطيئة.

وقوله: لا تتجاوز الميزان أي لا تتجاوز الحق.

وقوله: ازرع بالأسْوَدِ، واحصد بالأبيض أي ازرع بالبكاء، واحصد / ١٠/ بالسرور.

وقوله: لا تشيلَنَّ الإكليل أي السنن الجميلة لا ترفعنها لا يحوط حياطة الإكليل للرأس.

وقوله: عجباً لمن علم فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس له فناء.

وقوله: اتفاق النفوس باتفاق هممها، واختلافها باختلاف مرادها.

وقوله: من بخل على نفسه، فهو على غيره أبخل.

وقوله: ما ضاع من عرف نفسه، وما أضيع من جهل نفسه.

وقوله: ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود، والحسود، وحديث عهد بغنى، وغني يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم.

وقوله: العقل مواهب، والعلوم مكاسب.

وقوله: اتقوا من تبغضه قلوبكم.

وقوله: إذا وليت أمراً بَعِّد عنك الأشرار، فإن جميع عيوبهم منسوبة إليك.

وقوله: إنما أهل الدنيا كصور في صحيفةٍ، كلما نُشر بعضها، طوى بعضها.

وقوله: ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب المريض.

وقوله: طالب الدنيا قصير العُمر، كثير الفكر.

وقوله: من كان شريراً، فالموت سبب راحة الناس من شره.

وقوله: إنما جعل للإنسان لسان واحد وأذنان، ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلمه.

وسئل: أي الأشياء ألذ؟ فقال: استفادة الأدب، واستماع أخبارٍ لم تكن سمعت.

وقوله: أنفع ما اقتناه الإنسان الصديق المخلص.

وقوله: الصامت يُنسب إلى العي ويسلم، والساكت ينسب إلى الفضول ويندم.

وقوله: من سَرَّهُ الزمان في حَالةٍ ساءه في أخرى.

وقوله: لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشَرَّ من النساء.

وقوله لتلميذ له: يا بني إن كان لا بد لك من النساء، فاجعل لقاءك لَهُنَّ كأكل الميتةِ لا تأكلها إلاَّ عند الضرورة.

وقوله: وقد قيل له: ما تقول في النساء؟ فقال: هُنَّ شجر الدفِل له رونق وبهاء، فإذا أكله الغِرُّ قتله.

وقوله: لا يصدنك عن الإحسان جحود جاحد النعمة.

وقوله: الجاهل من عثر بحجر مرتين.

/ ١١/ وقوله: اعلم أنك في أثر من مضى سائر، وفي محلِّ من مات مقيمُ، وإلى العنصر الذي بدأت منه تعود.

وقوله: رُبَّ محترزٍ من الشيء تكون منه آفته.

وقوله: داووا الغضب بالصمت.

وقوله لأهل الاعتبار: في صروف الدهر كفاية، وكل يوم يأتي عليك منه علمٌ جديد.

وله شعر باليونانية عُرِّبَ فكان شعراً، وهو: [من المديد]

إنَّما الدنيا وإنْ وَمَقتْ خَطْرةٌ مِنْ لحظِ مُلْتَفتِ

وعاش نحو ثمانين سنة.

ومنهم:

[٧]

أفلاطون(١)

رجل ترى النجوم لديه أسافل، والخصوم بين يديه جوافل، والغيوم معتذرة إليه إذ

(١) ولد أفلاطون سنة (٤٤٧ ق.م) وتوفي سنة (٣٤٧ ق.م).

أتته حوافل، يطأ الأراقم، ويطاول الخطبَ المتفاقم، ويكفُّ بعقله النوازي، ويجلب بعقائله الجوازي، وتقصِّر رويّة الأفكار إذا ارتجل، وتقصي إذا ارتحل، وتقدم النظراء إليه، ثم لا تُرى إلاَّ مبلسة، وتقدم الآراء، ثم لا تنفذ إلاَّ وسهامها مرسلة.

قال ابن جلجل(١): هو من مدينة أثينا، رومي فلسفي، يوناني، طبي، عالمٌ بالهندسة، وطبائع الأعداد، وله في الطب كتاب بعثه إلى طيماوس تلميذه، وله في الفلسفة كتب وأشعار، وله في التأليف كلامٌ لم يسبقه أحدٌ إليه، ضبط به صنعة الديباج، وهو الكلام المنسوب إلى الخمس نسب التأليفية التي لا سبيل إلى وجود غيرها، ثم استشرف إلى علم العالم كله، وعرف موانع الأجزاء المؤتلفات المُمتزجات باختلاف ألوانها وأصباغها وائتلافها على قدر الشبه، فوصل إلى علم التصوير فقامت له صناعة الديباج، وصناعة كل مؤتلفٍ به، وله في الفلسفة كلامٌ عجيب.

وكان قد أخذ في أول أمره في تعلم علم الشعر واللغة، فبلغ من ذلك مبلغاً عظيماً إلى أن حضر يوماً سقراطيس وهو يثلبُ صناعة الشعر فأعجبه ما سمعه منه، وزهد فيما كان عنده منه، ولزم سقراط، وسمع منه خمس سنين ثم مات سقراط، فقصد/ ١٢/ مصر للقاء أصحاب فيثاغورس.

وكان يتبع سقراط في الأشياء المحسوسة، ويتبع فيثاغورس في الأشياء المعقولة، وكان يتبع سقراطيس في أمور التدبير، ثم رجع إلى بلده ونصب فيه بيتي حكمته، وعلم الناس، وفعل الجميل، وأعان الضعفاء، وكان حسن الأخلاق، كريم الأفعال، كثير الإحسان إلى كل ذي قَرابة منه وإلى الغرباء، ثبتاً، حكيماً، صبوراً، وكان يرمز حكمته، ويشير إليها ويتكلم بها ملغوزة حتى لا يظهر مقصده إلاَّ لذوي الحكمة، وصنف عدة كتب، وكتبه يتصل بعضها ببعض أربعة أربعة يجمعها غرض واحد. ويخص كل غرض حد منها غرض خاصٌ يشتمل عليه ذلك الغرض العام، ويسمى كل واحدٍ منها رابوع، وكل رابوع منها يتصل بالذي قبله.

وكان محباً للخلوات والصحارى والوحدة، وكان في الأكثر لا يُستدَّل على

= ترجمته في: الفهرست ٢٤٥ـ٢٤٦، وتاريخ اليعقوبي ٩٦، وطبقات الأمم ص٢٣، وأخبار العلماء ص١٧، وعيون الأنباء ٧٩ـ ٨٦، ومختصر الدول ص٩٠ـ٩١، وفي منتخب الصوان لوحة ٣٢، وفي نزهة العيون لوحة ٨٨ـ١٠٠، والملل والنحل ٢/ ١٩٠ وفي دائرة المعارف الإسلامية مادة «أفلاطون»، طبقات الأطباء والحكماء: هامش (ص٢٣).

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص٢٣.

موضعه إلاَّ بصوت بكائه، وكان يُسمع على ميلين، وكان منقوشاً على خاتمه: تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

ومن كلامه قوله: للمادّة على كل شيءٍ سلطان.

وقوله، وقد قيل له: لم لا تجتمع الحكمة والمال؟ فقال: لعز المال.

وقوله: غاية الأدب أن يستحي المرءُ من نفسه.

وقوله: إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرّت، ونفقت الرذائل ونفعت، وكان خوف الموسر أشدّ من خوف المعسر.

وقوله: العزيز النفس هو الذي لا يذل للفاقة.

وقوله: الحَسنُ الخلق من صبر على السيىء الخلق.

وقوله: أشرفُ الناس من شرَّفته الفضائل لا من تشرف بالفضائل.

وقوله: الأمل خداع النفوس.

وقوله: المشورة تريك طبع المستشار.

وقوله: اطلب في حياتك العلم والمال والعمل الصالح، فإن الخاصّة تفضلك بما تحسن، والعامّة بما تملك، والجميع بما تعمل.

وقوله، وقد سئل عند موته عن الدنيا، فقال: خرجت إليها مضطراً، وعشت فيها متحيراً، وها أنا أخرج منها كارهاً،/١٣/ ولم أعلم فيها إلاَّ أنني لا أعلم. وعاش ثمانين سنة.

ومنهم:

[٨]

أرسطوطاليس[١]

هو ابن نيقوماخس، ذهب مذهب فيثاغورس، رجل لا يقاس به أحد، ولا يقال إن مثله البحر فيخصُّ بحد. أنواع العلماء عليه ضيوف، وأقوال الحكماء لديه زيوف،

---

(١) يكتب أيضاً «أرسطو» (٣٨٤ـ٣٢٢ ق.م).

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٣٢ـ١٠٧، الفهرست ص٢٤٦ـ٢٥٢، طبقات الأمم ص٢٤، وأخبار العلماء ص٢٧، وعيون الأنباء ٨٦ ـ ١٠٥، ومختصر الدول ص٩١ـ٩٤، ومنتخب الصوان لوحة ٣٦، ونزهة العيون لوحة ١٠٠ـ١١٦، وفي الملل والنحل ٣/ ٤، وفي دائرة المعارف الإسلامية مادة: «أرسطو»، طبقات الأطباء والحكماء ص٢٥.

طلع صباحُه فطمى جدوله على الكواكب وطمسها، وطمَّ جُرف نهاره المنهار حُفر الغياهب ودمسها، وعُرِف فضله بالضرورة، وفعله بالمآثر المبرورة، وعني بمداواة الافهام فأبرأ سقيمها، وأنتج عقيمها، فشفى من لمم، وأسمع من صمم، وحاز بانضواء الاسكندر الذي هو أحد ملوك العالم إليه فخراً أصبح به نَدُّه يَفْغَم، وضده يُرغم، إذ كان لا تناط لديه إشارته بإهمال، ولا تنال عنده إلاَّ بالتعويل عليه أعمال، وحسب واصفه أن لا يجد غير قائل، ولا يُحد إلاَّ ثلب الناس وهو قائل.

ذكره أبو القاسم بن صاعد وقال: انتهت إليه فلسفة اليونان، وكان خاتم حكمائهم، وسيد علمائهم، وهو أول من خلَّص البرهان من الصناعات المنطقية، وصَوَّرها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة العلوم النظرية حتى لُقِّب بصاحب المنطق، وله في جميع العلوم الفلسفية كتب شريفة كلية وجزئية.

قال ابن جلجل[١]: كان فيلسوف الرّوم وعالمها، وجهبذها ونحريرها، وخطيبها وطبيبها، وكان أوحداً في الطب، وغلب عليه علم الفلسفة.

قال المبشر بن فاتك: كان أرسطو كثير التلاميذ من الملوك وأبناء الملوك وغيرهم، وعَدَّ منهم أناساً منهم الإسكندر وسماه الاسكندروس.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان نيقوماخس أبو أرسطوطاليس طبيب فيلبس أبي الإسكندر، وكان كل من أبيه وأمه من ولد قلنينوس، وأخذ أرسطو عن أفلاطون، وكان أرسطو خليفة على دار التعليم. ولما قدم أفلاطون من صقلية انتقل أرسطو إلى لوقيون، واتخذ هناك دار التعليم المنسوبة إلى المشائين ثم رجع/ ١٤/ إلى مدينة الحكماء، ثم صار إلى مقدونيا يعلِّمُ إلى أن تجاوز الإسكندر بلاد آسيا، ثم استخلف في مقدونيا، فسعى إليه بعض الكهنة في أرسطو ونسبه إلى الكفر لكونه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد، فشخص أرسطو إلى بلاده، وبقي بها إلى أن مات وهو ابن ثمانين سنة.

ثم ان أهل أسطا نقلوا بدنه، وصَيَّروه في الموضع المعروف بالأرسطوطاليسي، وصيروا عنده مجتمعهم للمشاورة في جلائل الأمور، وكانوا يرون عنده تفريج أحزانهم، وإذا صعب عليهم شيء من فنون العلم، أتوا إلى مكان قبره فتناظروا ما بينهم فيظهر لهم ما أشكل، وكانوا يرون اجتماعهم عنده يذكي عقولهم، ويصحح فكرهم، وكانوا لا يزالون في أسفٍ لفراقه، وحُزنٍ لما فقدوه من ينابيع حكمته.

وذكر المسعودي أنه في بلرم من صقلية، وكان جليل القدر في الناس، مُكرماً عند

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص٢٥. (٢) عيون الأنباء ٨٦ ـ ٨٧.

ملوك زمانه، وكان يحسن السفارة عندهم للرعية حتى اتخذوا عموداً ونقشوا عليه اسمه، وحُسن ما كان يصنعه معهم إلاَّ فرد رجل غاب عن رأيهم في هذا العمود، وعاب أرسطو، وهمَّ بإزالة نقش العمود فأمسك وقتل ثم عمدوا إلى عمود آخر. فزبروه بالبناء عليه كالأول، وذكروا المتعرض المخالف الذي قتل ولعنوه وتبرَّأوا منه.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: إن الإسكندر لما ملك صار أرسطو إلى التبتل والتخلي مما كان فيه من الاتصال بالملوك والملازمة لهم، ولزم موضع التعليم وهو رواق المشائين، وأقبل على العناية بمصالح الناس، ورفد الضعفاء وأهل الفاقة، وتزويج الأيامى وعول اليتامى، ورفد طلبة العلم والتأدُّب مَنْ كانوا، وأي نوع من العلم والأدب طلبوا، والصدقة على الفقراء، ولم يزل في غاية لين الجانب والتواضع وحسن اللقاء للصغير والكبير، والقوي والضعيف. وأمّا قيامه بأمر أصدقائه فلا يوصف.

وقال المبشر بن فاتك: إن أرسطو لما بلغ ثمان سنين حمله أبوه إلى بلد الحكماء، وضمه أبوه إلى الشعراء والبلغاء والنحويين، /١٥/ فأقام متعلماً منهم تسع سنين. وكان اسم هذا العلم عندهم «المحيط» أعنى علم اللسان لحاجة جميع الناس إليه؛ لأنه المؤدي لكل حكمة، وبه يتحصل كل علم، ثم بلغه أن قوماً من الحكماء أزروا بعلم البلغاء واللغويين، وعنَّفوا المتشاغلين به، وزعموا أنه لا تحتاج إليه الحكمة؛ لأن النحويين معلمو الصبيان، والشعراء أصحاب أباطيل وكذب، والبلغاء أصحاب تمحل ومراء، فأدركته الحفيظة لهم فناضل عنهم، واحتج لهم، وقال: إن فضل الإنسان على البهائم بالنطق، وأحقهم بالأنسيَّة لبلغهم فيه، وإذا كانت الحكمة أشرف الأشياء، فينبغي أن تكون العبارة عنها بأشرف المنطق، لأن العيَّ يذهبُ بنور الحكمة، ويقطع عن الأداء، ويقصر عن الحاجة، ويُلبس على المستمع، ويفسد المعاني، فيورث الشُّبهة.

ثم انتقل أرسطو إلى أفلاطون لتعلم العلوم الأخلاقية والسياسية والطبيعية والتعليمية والإلهيَّة، وكان أفلاطون إذا استُدعي منه الكلام، يقول: اصبروا حتى يحضر الناس، فإذا جاء أرسطو قال: تكلموا فقد حضر الناس، وربما كان يقول: اصبروا حتى يحضر العقل، فإذا حضر أرسطو، قال: تكلموا فقد حضر العقل.

وقال حنين: كان منقوشاً على خاتم أرسطو: «المنكر لما لا يعلم أعلم من المقرر بما لا يعلم».

---

(١) عيون الأنباء ٨٨ ـ ٨٩.

ومن كلامه قوله: بالفكر الثاقب يُدرك الرأي العازب، وبالتّأني تسهل المطالب، وبلين الكلمة تدوم المودة في الصدور، وبخفض الجناح تتم الأمور، وبسعة الأخلاق يطيب العيش، ويكمل السرور، وبالإنصاف يحبُّ التواصل، وبالتواضع تكثر المحبة، وبالعفاف تزكو الأعمال، وبالعدل يقهر العدو، وبالحلم تكثر الأنصار، وبالرفق تستخدم القلوب.

بالوفاء يدوم الإخاء.

بالصدق يتم الفضل.

الأيام تفيد الحكم، ومن الساعات تتولد الآفات.

بالعافية يوجد طيب الطعام والشراب، وبحلول المكاره تتكدَّرُ النعم، وبالمنِّ يُدحض الإحسان، وبالجحود يستوجب الحرمان، والبخيل ذليل وإن كان غنياً، /١٦/ والجواد عزيز وإن كان مُقلاً.

الطمع الفقر الحاضر، واليأس الغنى الظاهر.

لا أدري، نصف العلم.

الأدب يغني عن الحسب.

التقوى شعار العالم، والرياء لباس الجاهل.

مقاساة الأحمق عذاب الروح.

الاشتغال بالفائت يضيع الأوقات.

التمني سبب الحسرة.

الصبر تأييد العزم.

صديق الجاهل مغرور.

المخاطر خائب.

من عرف نفسه لم يضع.

المجرب أحكم من الطبيب.

إذا فاتك الأدب فالزم الصمت.

من لم ينفعه العلم لم يأمن من ضرر الجهل.

من افتخر ارتطم.

من عجل تورَّط.

من تفكر سلم.

من سأل علم.

للعادة على أحد سلطان.

كل شيء يستطاع نقله إلاَّ الطباع.

كل شيء يحتال له إلاَّ القضاء.

من عرف الحكمة لحظته العيون بالوقار.

لا يؤتى الناطق إلاَّ من سوء فهم السامع.

الجزع عند مصائب الأحزان أحمد من الصبر.

وصبر المرء على مصيبته أحمد من الجزع.

ليس شيء أقرب إلى تغيير النعم من الإقامة على الظلم.

من طلب خدمة السلطان بلا أدب خرج من السلامة إلى العطب.

إذا أردت الغنى، فاطلبه بالقناعة، فإن من لم تكن له قناعة، لا يغنيه المال وإن كثر.

لا تبطل لك عُمراً في غير نفعٍ ولا تضع لك مالاً في غير حق، ولا تصرف لك قوةً في غنى، ولا رأياً في غير رشد.

العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالماً.

اطلب الغنى الذي لا يفنى، والحياة التي لا تتغير، والملك الذي لا يزول، والبقاء الذي لا يضمحل.

أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك.

افترص من عدوك الفرصة، واعمل على أن الدهر ذو دول.

لا تصادم من كان على الحق، ولا تجاذب من كان متمسكاً بالدين.

لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يثبت.

لا تغفل فإن الغفلة تورث الندامة.

لا ترج السلامة لنفسك حتى يسلم الناس من جورك، ولا تعاقب غيرك على أمر ترخص فيه لنفسك.

اعتبر بمن تقدم، واحفظ ما مضى، والزم الصحة يلزمك النصر.

الصدق قوام أمر الخلائق.

/ ١٧ / الكذب داء لا ينجو من نزل به.

من تجبَّر على الناس أحبَّ الناس ذلته.
من أفرط في اللوم كرهت حياته.
من مات محموداً كان أحسن حالاً ممَّن عاش مذموماً.
من نازع السلطان مات قبل يومه.
أي ملك نازع السوقة هتك شرفه.
من مات قلَّ حاسده.
الحكمة شرف من لا قديم له.
سوء الأدب يهدم ما بناه الأدب.
الجهد شرُّ الأصحاب.
النميمة تُهدي إلى القلوب البغضاء. ومن واجهك فقد شتمك، ومن نقل إليك نقل عنك.
الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديقاً لغيره.
الوفاء نتيجة الكرم.
لسان الجاهل مفتاح حتفه.
الحاجة تفتح باب الحيلة.
بترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل.
ليس زيادة القوة بكثرة ما يرد البدن من الغذاء ولكن بكثرة ما يقبل منه.
امتحن المرءَ في وقت غضبه لا في وقت رضاه، وفي وقت قدرته لا في وقت ذلته.
خير الأشياء أجدُّها إلاَّ الموَدَّات خيرها أقدمها.
وكتب إلى الإسكندر: إذا أعطاك الله الظفر، فافعل ما أحبّ من العفو.

وكتب إليه: الأردياء ينقادون بالخوف، والخيار ينقادون بالحياء، فميز بين الطبقتين، واستعمل في أولئك البطش والخوف، وفي هؤلاء الأفضال والإحسان.

وكتب إليه: ليكن غضبك بين المنزلتين لا شديداً فاشياً، ولا فاتِراً ضعيفاً، فإن هذه من أخلاق السباع، وهذه من أخلاق الصبيان.

* * *

[مشاهير الفلاسفة في الجانب الشرقي]

ومنهم:

[٩]

يعقوب بن إسحاق الكندي، أبو يوسف(١)

فيلسوف العرب، من ولد الأشعث بن قيس، والأشعث من ولد معاوية الأكبر ابن الحارث الأصغر ابن معاوية بن الحارث الأكبر، وكان الأشعث ملكاً على كندة، وله صحبة، وللأعشى فيه مدائح، وكان من آبائه ملوك بالمشقر واليمامة والبحرين. وكان

---

(١) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف: فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ في البصرة. وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة، يزيد عددها على ثلاثمائة. ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم، فوشي به إلى المتوكل العباسي، فضرب وأخذت كتبه، ثم ردت إليه. وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً.
قال ابن جلجل: «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس» توفي نحو سنة (٢٦٠هـ/ نحو ٨٧٣م)، من كتبه «رسالة في التنجيم ـ ط» و«اختيارات الأيام ـ خ» و«تحاويل السنين ـ خ» و«إلهيات أرسطو ـ خ» و«رسالة في الموسيقى ـ خ» و«الأدوية المركبة» ترجمت إلى اللاتينية وطبعت بها، و«رسم المعمور» خرائط وصور عن الأرض، ذكره المسعودي، و«الترفق، في العطر ـ خ» في العطور، و«السيوف وأجناسها ـ ط» رسالة نشرت في مجلة الكتاب، و«المد والجزر ـ خ» و«ذات الشعبتين ـ خ» وهي آلة فلكية، و«خمس رسائل، أولاها في ماهية العقل ـ ط» ترجمت إلى اللاتينية، و«الشعاعات ـ خ» و«الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد ـ ط» نشر باسم «كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى». ونشر الدكتور أبو ريدة «رسائل الكندي ـ ط» في جزأين، اشتملا على بعض رسائله، ومثله زكريا يوسف ببغداد نشر «مؤلفات الكندي في الموسيقى ـ ط»، ورسالة الكندي في «النغم ـ ط»، ورسالة الكندي في عمل الساعات ـ ط» و«عمل السيوف ـ ط» و«حوادث الجوّ ـ ط». وللشيخ مصطفى عبد الرزاق: كتاب «فيلسوف العرب والمعلم الثاني ـ ط» صغير، في سيرته وسيرة الفارابي، ومثله لمحمد كاظم الطريحي، والسيد محمد بحر العلوم وغيرهم.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٨٥ـ ٢٩٣، والمقتطف ٥٧/ ١١، وابن النديم، طبعة فلوجل ٢٥٥ـ٢٦١، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٤١، وطبقات الأطباء والحكماء، لابن جلجل ٧٣، =

إسحاق بن الصباح على الكوفة للمهدي والرشيد، وكان ابنه يعقوب لهذا عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم، وابنه أحمد، أملاكه بالبصرة، وتأدب ببغداد.

وكان عالماً بالطب، والفلسفة، /١٨/ والحساب، والمنطق، واللحون، والهندسة، وطبائع الأعداد، والنجوم، ولم نجد في الإسلام فيلسوفاً خلف أرسطو سواه.

له تصانيف كثيرة في فنون العلم، خدم الملوك، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة، وبيَّن ما جمجم على أهل المعرفة، واحجم على مشاورته كل قسورة، وخاتل دون مساورته كل ابن بهماء مقفرة، وأثرى بعلمه كل مُملق، أربى في يمِّه كل محملق، وقَصَّر لديه حجة كل مناظر، ودرس محجة كل خاطر، وردَّ من عادى كندة من كنود الأبطال، وأكبد بفضلها كبود أهل المطال، حتى خشي من كاد كندة، وخَزي بالقبيح لحسن ما عنده، فلو نُشِرَ ملكها الضلِّيل لما فخر بلسانه قدر ما فخر بإحسانه، ولما حمل راية الشعراء بيده إلاَّ بعد أخذ أمانه، ولا طلب ثأر أبيه ولو قدر عليه إلى زمانه.

ذكره ابن أبي أصيبعة[١]: وذكر من كلامه قوله في وصية: وليتق الله المتطبب ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض.

وقوله: كل ما يجب أن يقال كان سبب عافية العليل وبرءه احذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته.

وقوله مما أوصى به ولده: يا بني الأب ربٌّ، والأخ فخ، والعم غمٌّ، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب، وقول لا، يصرف البلاء، وقول نعم، يزيل النعم، وسماع الغناء برسَام حادّ؛ لأن الإنسان يسمع فيطرب، فينفق فيسرف، فيفتقر فيغتم، فيعتل فيموت، والدينار محموم فإن أصرفته مات، والدرهم محبوس فإن

=

وأخبار العلماء للقفطي ٢٤٠-٢٤٧، والمرزباني ٥٠٧، وابن العبري ٢٥٩، ولسان الميزان ٦/ ٣٠٥، والفهرس التمهيدي ٥٤٥، وآداب اللغة ٢/ ٢١٢، ومجلة الكتاب ٦/ ٣٩٩-٤٠٥، وصرح العيون ١٢٣، وانظر: مفتاح الكنوز ٢٣٦، ٣٧٢، ٣٧٣.

يقول الزركلي: وأراد الأب «لويس شيخو» أن يجعله «نصرانياً» على عادته في كثير من الجاهلين وبعض الإسلاميين، فعرفه في كتاب مجاني الأدب ٤/ ٣٠٧ بـ«الكندي النصراني» (كذا) فتصدى له الأب «أنستاس الكرملي» في مجلة لغة العرب ٥/ ٣٠٢ فأظهر تحريفه للنصوص، وأتى بما لا يقبل الشك في أن الكندي «مسلم» من أسرة عريقة في الإسلام.

وانظر: المخطوطات المطبوعة ٢/ ١١١- ١١٢، ومشاركة العراق، الرقم ٣٩٢، الإعلام ٨/ ١٩٥.

(١) عيون الأنباء ٢٨٨.

أخرجته فَرَّ، والناس سحرةٌ فخذ شيئهمُ واحفظ شيئكَ، ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة تذر بالدار بلاقع.

قلت: وهذا الكندي هو الذي حضر أبا تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم قوله فيه: [من الكامل]

ما في وُقُوفكَ ساعةً مِنْ باسِ

وهو صاحب الواقعة معه فيها. وهي في موضعها من ذكر أبي تمام أشبه.

ومنهم:

[١٠]

أبو العباس[١] .أحمد بن الطيب السَّرْخَسِي

مفَنَّنٌ جليل المفاخر، /١٩/ متقن لعلوم الأوائل، وطرف من علوم الأواخر، هذا إلى خَشن مناظرة، وحسن محاضرة، وبوادر أجوبة حاضرة، ونوادر ما أتت بحرارها أهل بادية ولا حاضرة، ومع هذا كله يزن عقله الجبال، ويوقر فضله الجمال، ويقتدي بفيضه البحر إلاَّ أنه لا يمر، والسحاب إلاَّ أنه الذي ينسكب ولا يدر.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: وهو ممن ينتمي إلى الكندي وعليه قرأ، وكان مفنناً في علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف، آخذاً في النحو والشعر، فصيح الشعر، مليح النادرة، وسمع الحديث الشريف.

وكان خليعاً ظريفاً، وولي حسبة بغداد أيام المعتضد، وكان قبل هذا يعلمه وينادمه، وكان يفضي إليه بأسراره، ويستشيره في أمور ملكه.

وكان يغلب علم السرخسي على عقله، وقتله بحيلة دَبّرها الوزير عليه حتى أخذ خط المعتضد بقتل رجال دَسَّه بينهم، فلما قتل سأل عنه المعتضد، فأخبره القاسم أنه قتل فأنكر خطه فأراه خطه، فسكت ومضى بعد أن بلغ السماء رفعة.

ومنهم:

---

(١) ترجمته في: مروج الذهب ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٥٠٣، ٧٣٠، ٧٣١، ١٣٢٨، ٣٣١٦، والفهرست لابن النديم ١/ ١٧١، الفن ١، ومعجم الأدباء ٣/ ٩٨ـ١٠٢، وأخبار الحكماء للقفطي ٧٧، وعيون الأنباء ٢٩٣ـ٢٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٨ـ٤٤٩ رقم ٢٢١، والوافي بالوفيات ٧/ ٥ـ٨، رقم ٢٩٤٧، ولسان الميزان ١/ ١٨٩ـ١٩٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٨١ـ٢٩٠هـ) ص٣٤١ رقم ٦٠٩.

(٢) عيون الأنباء ٢٩٣.

[١١]
كنكه الهندي(١)

من أقدم الحكماء وأقوم القوم، يبث ما أنزل في الأرض من خير السماء، وأعلم الكل بما ينبت من العقاقير ذوات الأسماء، أخذ عنه الحكماء أصحاب النواميس، واستمد اليونان مما وصل من كتبه إلى أرسطاطاليس، وهو الذي لا يرتفع معه ذكر نابه ولا يقاومه قدر مُشابه.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): إنه حكيمٌ بارعٌ، من متقدمي حكماء الهند وأكابرهم، وله نظر في صناعة الطب، وقوى الأدوية، والطبائع المولدات، وخواص الموجودات، وكان من أعلم الناس بهيأة العالم، وتركيب الأفلاك وحركات النجوم.

وقال أبو معشر: إن كنكه هو المتقدم في علم النجوم عند جميع علماء الهند في سالف الدهر، وعدّد كتبه.

قلت: / ٢٠/ ومنها كتابٌ في أحداث العالم، والدور، والقِران، وهذا كتابٌ مُجدٍ لو وجدَ وهيهات.

ومنهم:

[١٢]
صنجهل الهندي(٣)

وهو ثانيه في الرتبة، وثالثه في صعود الهضبة، فلو نطقت النجوم، لما عدت شكره، أو العلوم، لما عَدَّت إلا برّه.

قال ابن أبي أصيبعة(٤): كان من علماء الهند وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم.

ومنهم:

[١٣]
أبو نصر الفارابي، محمد بن محمد بن أَوْزَلَغْ بن طَرْخَان(٥)

من أهل مدينة فاراب من مدن الترك في أرض خراسان، وكان أبوه قائد جيش،

---

(١) ترجمته في: الفهرست ٤٣٤، عيون الأنباء ٤٧٣، طبقات الأمم ٢٥.
(٢) عيون الأنباء ٤٧٣.
(٣) ترجمته في: الفهرست ٤٣٤، عيون الأنباء ٤٧٣ـ ٤٧٤.
(٤) عيون الأنباء ٤٧٣.
(٥) محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة =

وهو فارسي المنتسب، وكان ببغداد مُدةً ثم انتقل إلى الشام، وأقام به إلى حين وفاته، وكان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً، وإماماً فاضلاً، بحراً منه يغرف، وحبراً له يعرف، قد أتقن العلوم الرياضية، زكيّ النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، متقنعاً منها بما يقوم به أوده، ويسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكان له قوةٌ في صناعة الطب، وعلم الأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: وحدثني سيف الدين أبو الحسن علي بن الآمدي رحمه الله أن الفارابي كان أول أمره ناطوراً في بستان بدمشق، وهو على ذلك دائم الاشتغال

= المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: إن الآلة المعروفة بالقانون، من وضعه؛ ولعله أخذها عن الفرس فوسعها وزادها إتقاناً فنسبها الناس إليه. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات ارسطو (المعلم الأول) وكان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها «الفصوص ـ ط» ترجم إلى الألمانية، و«إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ـ ط» و«آراء أهل المدينة الفاضلة ـ ط» و«إحصاء الإيقاعات ـ خ» في النغم، نحو (٣٠) ورقة، في معهد المخطوطات، و«المدخل إلى صناعة الموسيقى ـ خ» و«الموسيقى الكبير ـ ط» و«الآداب الملوكية ـ خ» و«مبادىء الموجودات» رسالة ترجمت إلى العبرية وطبعت بها، و«إبطال أحكام النجوم ـ خ» نسخه بطهران، و«أغراض ما بعد الطبيعة ـ خ» و«السياسة المدنية ـ خ» و«جوامع السياسة ـ ط» رسالة، و«النواميس» و«الخطابة» و«ما ينبغي أن يتقدم الفلسفة» وكتاب في أن «حركة الفلك سرمدية» ولمصطفى عبد الرزاق، كتاب «فيلسوف العرب ـ ط» في سيرته ومثله «الفارابي ـ ط» لإلياس فرح، و«الفارابي ـ ط» لعباد محمود.

ترجمته في: الفهرست لابن النديم ٣٦٨، وطبقات الأمم لصاعد ٥٣ـ٥٤، وتاريخ الحكماء للقفطي ٢٧٧ـ٢٨٠، وطبقات الأطباء لابن جلجل ٦٠٣ـ٦٠٩، والكامل في التاريخ ٨/ ٤٩١، ووفيات الأعيان ٥/ ١٥٣ـ١٥٧، وعيون الأنباء ٦٠٣ـ ٦٠٩، وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٩٩، ودول الإسلام ١/ ٢١١، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤١٦ـ٤١٨ رقم ٢٣١، والعبر ٢/ ٢٥١، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٨٤ـ٢٨٥، والوافي بالوفيات ١/ ١٠٦ـ١١٣، ومرآة الجنان ٢/ ٣٢٨ـ٣٣١، والبداية والنهاية ١١/ ٢٣٤، والسيف المهند، لبدر الدين العيني ٧٨ـ ٧٩، وشذرات الذهب ٢/ ٣٥٠ـ٣٥٤، وكشف الظنون ٥٢ وغيرها، وهدية العارفين ٢/ ٣٩، وديوان الإسلام ٣/ ٤١٥ـ٤١٧ رقم ١٦١٥، ومفتاح السعادة ١/ ٢٥٩، والأعلام ٧/ ٢٠، ومعجم المؤلفين ١١/ ١٩٤، تاريخ الاسلام (السنوات ٣٣١ـ٣٥٠هـ) ص١٨١ رقم ٣٠١.

(١) عيون الأنباء ٦٠٣.

بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها. وكان ضعيف الحال حتى أنه كان في الليل يسهر بالمطالعة والتصنيف، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس. وبقي كذلك مدة. ثم إنه عظم شأنه وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه، وصار أوحد زمانه وعلاّمة وقته. واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي وأكرمه إكراماً كثيراً، وعظمت / ٢١/ منزلته عنده، وكان له مؤثراً.

ونقلت من خط بعض المشايخ أنَّ أبا نصر الفارابي سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، [ورجع إلى دمشق، وتوفي بها في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة]، عند سيف الدولة علي بن حمدان وفي خلافة الراضي، وصلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلاً من خاصته. ويذكر أنه لم يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه. ولم يكن معتنياً بهيأة ولا مكسب. ويذكر أنه كان يغتذي بما في قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط. ويذكر أنه كان في أول أمره قاضياً، فلما شعر بالمعارف، نبذ ذلك، وأقبل بكليته على تعليمها، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البتة. ويذكر أنه كان يخرج إلى الحراس في الليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرأه. وكان في علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه. ويذكر أنه صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات. ويذكر أن سبب قراءته للحكمة أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطوطاليس، فاتفق أن نظر فيها، فوافقت منه قبولاً، وتحرك إلى قراءتها، ولم يزل إلى أن أتقنها فهماً وصار فيلسوفاً بالحقيقة.

ونقلت من كلام لأبي نصر الفارابي في معنى الفلسفة قال: اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل إلى العربية، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفياً ومعناه إيثار الحكمة. وهو مركب من فيلا ومن سوفيا، ففيلا الإيثار وسوفيا الحكمة. والفيلسوف مشتق من الفيلسفة، وهو على مذهب لسانهم فيلوسوفوس. فإن هذا التعبير هو تعبير كثير من الاشتقاقات عندهم، ومعناه المؤثر للحكمة. والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة.

وحكى أبو نصر الفارابي في ظهور الفلسفة ما هذا نصه قال: إن أمر الفلسفة اشتهر/ ٢٢/ في أيام ملوك اليونانيين، بعد وفاة أرسطوطاليس بالإسكندرية إلى آخر أيام المرأة. وأنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً، وتوالى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس. وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها أوغسطس الملك من أهل رومية، وقتلها واستحوذ على

الملك. فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعتها، فوجد فيها نسخاً من كتب أرسطوطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو [فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو] وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي. وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومية. فصار التعليم في موضعين وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية، وبقي بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا العلم وما يبطل. فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده؛ لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه لا يستعان به على نصرة دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقي بها زماناً طويلاً، إلى أن بقي معلم واحد، فتعلم منه رجلان، وخرجا ومعهما الكتب، وكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو، فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزي والآخر يوحنا بن جيلان. وتعلم من الحراني الأسقف وفوتري وساروا إلى بغداد فتشاغل أيضاً بالدين، وأخذ فوتري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشاغل أيضاً /٢٣/ بدينه وانحدر ابراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها. وتعلم منه متى بن يونان وكذلك يتعلم في آخر الأشكال الوجودية.

وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان. وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرىء بعد ذلك، وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي الإسلام أن يُقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان.

وحدثني عمّي رشيد الدين أبو الحسن علي بن الخليفة: أن الفارابي توفي عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان أخذ الصناعة عن يوحنا بن جيلان ببغداد، وكان في أيام المقتدر وكان في زمانه أبو البشر متى بن يونان وكان أسنَّ من أبي نصر، وكان أبو نصر أحدَّ ذهناً منه وأعذب كلاماً. وتعلم أبو البشر متى من إبراهيم المروزي. وتوفي أبو البشر في خلافة الراضي فيما بين سنة ثلاث وعشرين إلى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وكان يوحنا بن جيلان وإبراهيم المروزي قد تعلما جميعاً من رجل من أهل مرو.

وقال الشيخ أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني في معلقاته: إن يحيى بن عدي أخبره أن متى قرأ إيساغوجي على إنسان نصراني، وقرأ قاطغورياس وباربميناس على إنسان يسمى روبيل، وقرأ كتاب القياس على أبي يحيى المروزي.

وقال القاضي صاعد بن أحمد بن صاعد في كتاب التعريف بطبقات الأمم: إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر فبذ جميع أهل الإسلام فيها، وأربى عليهم في التحقيق بها. وشرح غامضها، وكشف سرها، وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في /٢٤/ كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم. وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمسة، وإفادة وجوه الانتفاع بها، وعرف طرق استعمالها، وكيف تصرف وجوه القياس في كل مادة منها. فجاءت كتبه في ذلك الغاية القصوى الكافية، والنهاية الفاضلة. ثم له بعد ذلك كتاب شريف في إحصاء العلوم، والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه. لا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه. وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون، وأرسطوطاليس، يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقيق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر، وتعرُّف وجوه الطلب، اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً، وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض، ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرَّف بغرضه منها، وسمى تواليفه فيها. ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطو فقدم له مقدمة جليلة، عرف فيها بتدرجه إلى فلسفته ثم بدأ بوصف أغراضه في تواليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً، حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة إلينا إلى أول العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه. ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منها؛ فإنه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها. ولا سبيل إلى معاني قاطيغورياس وكيف بين الأوائل الموضوعة لجميع العلوم. ثم له بعد ذلك في العلم الإلهي والعلم المدني كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة عرف فيهما بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطوطاليس في مبادىء السنة الروحانية، وكيف يؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة. /٢٥/ وعرف فيها مراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرق بين الوحي والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة، واحتياج المدينة إلى السيرة الملكية والنواميس النبوية.

أقول: وفي التاريخ أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر بن السراج يقرأ عليه صناعة

المنطق. وكان الفارابي يشعر أيضاً. وسأل بعضهم أبا نصر: من أعلم أنت أم أرسطو؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته. ويذكر عنه أنه قال: قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة، وأرى أني محتاج إلى معاودته(١).

ومن شعر أبي نصر الفارابي(٢): [من مخلع البسيط]

لمَّا رأيتُ الزمانَ نِكسا — وليسَ في الصُّحبَةِ انتفاعُ
كلُّ رئيسٍ به مَلالٌ — وكلُّ رأسٍ بهِ صُداعُ
لزمتُ بيتي وصُنْتُ عِرْضاً — بهِ مِنَ العِزَّةِ انتفاعُ
أشربُ مما اقتنيتُ رَاحاً — لها على رَاحتي شُعاعُ
لي مِنْ قَواريرِها نَدامَى — ومِنْ قَراقِيرها سَمَاعُ
وأجتني مِنْ حَديثِ قَومٍ — قدْ أقفرتْ منهمُ البِقَاعُ

وقال أيضاً(٣): [من المتقارب]

أخي خَلِّ حَيِّزَ ذي باطلٍ — وكُنْ للحقائقِ في حَيِّزِ
فما الدارُ دارَ خُلودٍ لنا — ولا المرءُ في الأرضِ كالمُعجز
وهلْ نحنُ إلا خطوٌط وَقَعْنَ — على كُرةٍ وقْعَ مُستوفِزِ
يُنافسُ هذا لهذا على — أقلَّ مِنَ الكَلِم المُوجَزِ
محيطُ السماواتِ أولى بنا — فَلِمْ ذا التنافسُ في المَركَزِ

ومنهم:

[١٤]

يحيى بن عدي، أبو زكرياء المنطقي(٤)

حكيم علمه والودق شيئان، وقلمه والبرق سيَّان، كان أول حاله عَلماً في ملته، ومعلماً لأهل قبلته، /٢٦/ وعرف بالمنطق مع أنه بعض علومه، ومن جملة ما دخل من الخصائص في عمومه، وأضاءت له من الأدب لمعٌ تمَّمت فضائله، ونمت هلاله، والبدور الكوامل متضاءلة.

---

(١) الترجمة منذ بدايتها إلى هنا. منقولة عن عيون الأنباء ٦٠٣ـ ٦٠٦.

(٢) عيون الأنباء ٦٠٧. (٣) عيون الأنباء ٦٠٧.

(٤) يحيى بن عَدِيّ بن حميد بن زكريا، أبو زكريا: فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره ولد بتكريت سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٤م)، وانتقل إلى بغداد. وقرأ على الفارابي، وترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية، وتوفي ببغداد سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) ودفن في بيعة القطيعة. =

قال ابن أبي أصيبعة[1]: انتهت إليه الرياسة، ومعرفة العلوم الحكمية في وقته، وكان أوحد دهره في مذهب النصارى اليعقوبية، وكان كثير الكتابة، وكتب تفسير الطبري مرتين، وقال: لعهدي بنفسي أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل.

وأوصى أن يكتب على قبره: [من الخفيف]

رُبَّ مَيْتٍ قدْ صارَ في العِلم حَيّاً ومُبَقًّى قدْ ماتَ جَهْلاً وعِيّا
فاقتنُوا العِلمَ كي تَنالُوا خُلوداً لا تَعدُّو الحياةَ في الجَهْلِ شيّا

ومنهم:

[١٥]

أبو بكر، محمد بن زكرياء الرازي[2]

لم يبق علمٌ ما أتى منه بجذوة، ولا عالمٌ إلاَّ ولديه حبوة. تفنن في أنواع العلوم، فقرأ منها ما أوقر حمل خاطره، وملأ إناء ماطره، وكان فكره المقترح شرر زناد، ونظره

= كان ملازماً لنسخ الكتب بيده، كتب نسختين من تفسير الطبري، وأهداهما إلى بعض الملوك، ونسخ كثيراً من كتب المتكلمين. وقال أبو حيان: «كان شيخاً ليّن العريكة، فروقة مشوّه الترجمة، رديء العبارة.. ولم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينبهر فيها ويضل في بساطتها». من كتبه «تهذيب الأخلاق ـ ط» و«شرح مقالة الإسكندر» في الفرق بين الجنس والمادة، و«مقالة في الموجودات ـ خ» و«مقالة أرسطو في علم ما بعد الطبيعة ـ خ» و«الرد على ما تعتقده الفرق الثلاث، اليعقوبية والنسطورية والملكية ـ خ» في مكتبة الفاتيكان، و«المسائل ـ خ» سبع عشرة مسألة، و«مقالة في أن حرارة النار ليست جوهراً للنار» و«رسالة في الرد على القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ» و«رسالة في تحليل القياسات» و«رسالة في ما تحقق من اعتقاد الحكماء» ومما ترجمه عن السريانية إلى العربية «النواميس» لأفلاطون، و«ما بعد الطبيعة» و«الكلام على الشعر» وأصلح بعض ما نقله بشر بن متى إلى العربية. وله «تفسير الألف الصغرى ـ خ» فيما بعد الطبيعيات، و«نفي القول بأن الأفعال لله والاكتساب للعبد».

ترجمته في: أخبار الحكماء، للقفطي ٢٣٦ـ٢٣٨، وعيون الأنباء ٣١٧ـ٣١٨، وحكماء الإسلام ٩٧، والإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٧، ومفتاح الكنوز ٣٧٢، والفهرست ٢٦٤، وابن العبري ٩٣، ٢٩٦، واللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ٣٥٨، ومخطوطات دير الشرفة ٣٤٥، والآصفية ٣/ ٤٩٠، تاريخ الحكماء ٣١٦، وعلق أحمد عبيد على كتابه «تهذيب الأخلاق ـ ط» بقوله: ونسب في إحدى طبعاته إلى الجاحظ، كما نسب في طبعة أخرى لابن عربي، الأعلام ٨/ ١٥٦.

(١) عيون الأنباء ٣١٧ـ ٣١٨.

(٢) أبو بكر الرازي محمد بن زكريا الرازي، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب. من أهل الريّ. ولد بها سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) وتعلم فيها. وسافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين. يسميه كتّاب اللاتينية «رازيس» .Rhazes أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر في صغره. واشتغل بالسيمياء والكيمياء، =

الملتمح شرك ازدياد، وفضله المنوّع جمّ المذاهب جماع المحاسن الذواهب، وأكثر النقل تقف عنده سلسلته، وأعمق المشكل به تعرف مسألته.

قال ابن أبي أصيبعة: مولده ومنشؤه بالري، وسافر إلى بغداد، وأقام بها مدةً وكان نهماً في العلوم العقلية، مشتغلاً بها، وتعلَّم الأدب ونظم الشعر.

قال: وكان سبب تعلمه الطب أنه لما أتى مدينة السلام، ودخل البيمارستان العضدي، فرأى الصيدلاني به فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها، فقال له: إن

= ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر، وتولى تدبير مارستان الريّ، ثم رياسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد. قال أحد معاصريه: كان شيخاً كبير الرأس، مسفطه، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أخر؛ فيجيء المريض فيذكر مرضه لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك. وعمي في آخر عمره. ومات ببغداد سنة (٣١٣هـ/ ٩٢٥م). وفي سنة وفاته خلاف، بين نيف و٢٩٠ و٣٢٠هـ.

له تصانيف، سمى ابن أبي أصيبعة منها ٢٣٢ كتاباً ورسالة. منها «الحاوي ـ خ» في صناعة الطب، وهو أجلُّ كتبه، ترجم إلى الاتينية وطبع فيها، و«الطب المنصوري ـ خ» طبع بالاتينية و«الفصول في الطب» ويسمى «المرشد ـ ط» نشر في مجلة معهد المخطوطات. و«الجدري والحصبة ـ ط» و«برء الساعة ـ ط» رسالة، و«الكافي ـ خ» و«الطب الملوكي ـ خ» و«مقالة في الحصى والكلى والمثانة ـ ط» و«الأقرباذين ـ خ» و«تقسيم العلل ـ خ» و«المدخل إلى الطب ـ خ» و«خواص الأشياء ـ خ» و«الفاخر في علم الطب ـ خ» و«الباه ومنافعه ومضاره ومداواته ـ خ» و«سر الصناعة ـ خ» طبعت ترجمته اللاتينية باسم «الأسرار» و«أسئلة من الطب ـ خ» و«تلخيص كتاب جالينوس في حلية البرء ـ خ» و«منافع الأغذية ودفع مضارها ـ ط» وكتاب «الفقراء والمساكين ـ خ» و«جراب المجربات وخزانة الأطباء ـ خ» و«الخواص ـ خ» رسالة، و«مقالة في النقرس ـ خ» و«القولنج ـ خ» و«مجموع رسائل ـ ط» نشرته الجامعة المصرية، يشتمل على ١١ رسالة، وكتاب «من لا يحضره الطبيب ـ خ» بالمدينة. وفي مكتبة Marciana بالبندقية، مجموعة من «رسائله» في الطب (رقم ١٥٧=١٠٧=٤١). وللدكتور داود الجلبي الموصلي كتاب «محمد بن زكريا الرازي ـ ط».

ترجمة في: طبقات الحكماء لابن جلجل ٧٧، والفهرست لابن النديم ٥٠٤، وطبقات الأمم لصاعد ٣٣، وتاريخ الحكماء ٢٧٨ـ٢٨٢، وعيون الأنباء ٤١٤ـ٤٢٧، وتاريخ مختصر الدول ١٥٨، ووفيات الأعيان ٥/ ١٥٧ـ١٦١ رقم ٧٠٧، والعبر ٢/ ١٠٥، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥٤، ودول الإسلام ١/ ١٨٨، والوافي بالوفيات ٣/ ٧٥ـ٧٧، ونكت الهميان ٢٤٩ـ ٢٥٠، ومرآة الجنان ٢/ ٢٦٣ـ ٢٦٤، والبداية والنهاية ١١/ ١٤٩، وتاريخ الخميس ٤/ ٣٨٩، ٣٩٠، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٩، وتاريخ الخلفاء ٣٨٥، ومفتاح السعادة ١/ ٢٦٨ـ ٢٦٩، وشذرات الذهب ٣/ ٢٦٣، وروضات الجنات ١٦٥ـ ١٦٦، وكشف الظنون ٥٧٧، وغيرها، وهدية العارفين ٢/ ٢٧، وديوان الإسلام ٢/ ٣٤٠ـ٣٤٣ رقم ١٠٠٧، والأعلام ٦/ ١٣٠، ومعجم المؤلفين ١٠/ ٦، الأعلام ٦/ ١٣٠، تاريخ الاسلام (السنوات ٣٠١ـ٣٢٠هـ) ص٤٢٦ رقم ٤٠.

أول ما عرف منها حياة العالم، وذلك أن رجلاً كان به ورمٌ حارٌّ في ذراعه، فلما أشفى منه ارتاح إلى الخروج إلى شاطىء نهر، فحمل إليه وكان عليه نباته، فوضع يده عليه تَبرُّداً به، فخف ألمه بذلك، فاستطال وضعها عليه ثم أصبح ففعل ذلك فبرىء. فلما رأى الناس سرعة برئه، علموا أنه إنما كان بما وضع يده عليه فسمَّوه حياة العالم، ثم جففوه. ثم لم يزل الرازي /٢٧/ يسأل حتى حسن له التعليم، فتعلم. قال: والذي صَحَّ عندي أن الرازي كان أقدم زماناً من عضد الدولة بن بويه، وإنما كان تردده إلى المارستان قبل أن يجدد.

وقال ابن جلجل: إن الرازي كان في ابتداء أمره يضرب بالعود، ثم أكب على النظر في الفلسفة والطب، فبرع براعة المتقدمين.

وقال صاعد: إنما لم يوغل في العلم الإلهي، ولا فهم غرضه الأقصى فاضطرب رأيه، وتقلد آراء سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثةً، وذم أقواماً لم يفهم عنهم، ولا اهتدى لسبيلهم، وكان يتنقل في البلدان، وكان كريماً متفضلاً، باراً بالناس، محسناً إلى الفقراء، يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم، وكان لا يفارق التسويد والتبييض، وكان في بصره رطوبة لكثرة أكل الباقلا ثم عمي آخر عمره.

قال التنوخي: إنَّ غلاماً قدم الري وهو ينفث الدم، فأحضر إليه الرازي، فلم تظهر له علائم سل ولا قرحة، فسأله متى بدأ به المرض فقال: من الطريق، فسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنها من الصهاريج ومستنقعات الأرض، فوقع في نفس الرازي أنه ابتلع علقة، وأنَّ نفث الدَّم منها، فقال له: إذا كان في غد جئتك فداويتك، ثم لا أنصرف عنك حتى تبرأ بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما آمرهم، فقال: نعم، فلما أصبح أتاه بطحلب كثير، وقال له: ابتلع هذا، فابتلع يسيراً ثم قال: لا أستطيع، فأمر الغلمان بأن ينيموه على قفاه ويفتحوا فاه ثم جعل يبلعه الطحلب كُرهاً، ويطالبه ببلعه، والرجل يستغيث، والرازي لا يكف إلى أن ذرع الرجل القيء، فقذف ما في جوفه، وإذا به اعتلقت به العلقة؛ لأن الطحلب لما وصل إليها رمت إليه بالطبع والتفَّت عليه، ثم قام الرجل مُعافى.

وقال ابن معروف: كان الرازي يقول: أنا لا أُسمِّي فيلسوفاً إلاَّ من علم صناعة الكيمياء؛ لأنه يكون قد استغنى عن الناس، وتنزه عما في أيديهم.

وحكي: أن الوزير /٢٨/ أكل عند الرازي أطعمة استطابها، فتحيل في مشترى طباخته، ثم لم يجد بطبيخها له ما في نفسه، فسألها عن السبب، فأخبرته أن قدور الرازي وماعونه كله ذهب وفضةٌ، فسأله أن يعلمه علم الكيمياء، فأنكره، فخنقه بوترٍ.

ومن كلامه:

قوله: الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج بالكتب دون عمل الحكيم الماهر برأيه خطر.

وقوله: العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه واقتصر على ما جربت.

وقوله: الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار.

وقوله: ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة، وإن كان غير واثقٍ بها، فمزاج البدن تابع لأخلاق النفس.

وقوله: ينبغي للمريض أن يقتصر على واحدٍ يثق به من الأطباء، فخطؤه في جنب صوابه يسيرٌ جداً.

وقوله: من يتطبّبُ عند كثير من لأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحدٍ منهم.

وقوله: بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات.

وقوله: إن استطاع الحكيم أن يُعالج دون الأدوية فقد وافق السَّعادة.

ومن شعره: [من الطويل]

لَعَمْريَ ما أدري وقدْ أَذِنَ البِلَى يُعاجل تَرحالي إلى أينَ تَرحالي
وأينَ مَحلُ الرُّوح بعدَ خروجِها مِنَ الهيكلِ المُنحلِّ والجَسَدِ البالي[١]

ومنهم

[١٦]

أبو سليمان السجستاني[٢]

حكيمٌ حكي من فضله العجائب، وجيءَ من سجله بالسَّحائب، وبعد في العلم

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤١٤ ـ ٤٢١.

(٢) محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، أبو سليمان المنطقي: عالم بالحكمة والفلسفة والمنطق. من أهل سجستان (والنسبة إليها سجستاني وسجزي) سكن بغداد، ولزم منزله، لعور فيه وبرص كانا يمنعانه من غشيان منازل الأمراء والوزراء. وأقبل العلماء والحكماء عليه. وكان عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه يكرمه ويفخمه، توفي نحو سنة (٣٨٠هـ/ نحو ٩٩٠م). له تصانيف، منها رسالة في «مراتب قوى الإنسان» ورسالة في «المحرك الأول» ورسالة في «اقتصاص طرق الفضائل» وكتاب «صوان الحكمة ـ ط» و«شرح كتاب أرسطو».

ترجمته في: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ١٥ و٨٢، وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥، والإمتاع والمؤانسة (الفهارس)، الأعلام ٦/ ١٧١، الفهرست ٤٢٥، عيون الأنباء ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

الجم قليبه، وسعد بالسقيا به بعيده وقريبه. انبعث طِبّهُ في العلل انبعاث النفوس في الأبدان، والشموس في البلدان ولم يزل حتى اطلع بعلم، واضطلع من كُلِّ مُهمّ، فاستعطفت الأجسام أرواحها، واستكفت المنايا رماحها، فأضحت به الصحة مضمونة، والسلامة محققة، وكانت مظنونة، اللهم إلاَّ ما آن لبقية أنظرت، وآجال بها علمت نفسٌ ما أحضرت، وتلك العقرب التي لا يتوقى لها دبيب، والداء الذي أعيا دواؤه كل طبيب.

/ ٢٩/ قال ابن أبي أصيبعة[١]: هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي، وكان مُتقناً للعلوم الحكمية مُطلعاً على دقائقها، واجتمع بيحيى بن عدي وأخذ عنه، وكان له نظرٌ في الأدب وشعرُ.

ومنه قوله[٢]: [من الكامل]

لا تَحْسِدنَّ على تظاهُرِ نِعْمةٍ ... شَخصاً تبيتُ له المُنُونُ بمَرصَدِ
أو ليسَ بعدَ بُلوغِهِ آمالَهُ ... يُفضي إلى عَدَمٍ كأنْ لمْ يُوجَدِ
لو كنتُ أَحسِدُ ما يُجاوزُ خاطري ... حَسَد النجومِ علىً البقاءِ السَّرمدي

وقوله[٣]: [من الكامل]

الجوع يُدفَعُ بالرغيفِ اليابسِ ... فعلامَ أُكثِرُ حَسرتي ووسَاوِسي
والموتُ أنصفَ حينَ ساوَى حكمُهُ ... بينَ الخليفةِ والفقيرِ البائسِ

وقوله[٤]:

أَصبحتْ رمةً تَزايلَ عنها ... فَصُلُها الجَوهري والعَرضَيُّ
وتَلاشَى كِيانُها الحَيَوانِيُّ ... وأَودى بنانُهَا المَنطِقِيُّ
والحواسُ الخَمسُ التي كُنَّ فيها ... ولإدراكهنَّ فِعْلٌ وَحِيُّ
ذهبتْ تلْكُم الصفاتُ جَميعاً ... ومُحالٌ أنْ يذهبَ الأزليُّ

ومنهم:

[١٧]

ابن الخمار، وهو أبو الخير، الحسن بن سوار بن بابا[٥]

طبيب شفى طِبُّه الأمراض، وكفى قربه منافياً للأعراض، لم يوجد في كلامه

---

(١) عيون الأنباء ٤٢٧.
(٢) عيون الأنباء ٤٢٧.
(٣) عيون الأنباء ٤٢٨.
(٤) عيون الأنباء ٤٢٨.
(٥) ترجمته في: الفهرست ٤٢٥، تاريخ حكماء الإسلام ٢٦، عيون الأنباء ٤٢٨ـ ٤٢٩، تاريخ الحكماء ٢٩٦.

الفضول ولم يوجد إلاَّ الفضول، وقع بحدسه الصائب على الوجع، واستعاد ذاهب الصحة وارتجع، وأحسن الاستدلال بالعلامات والاستقلال بعلاج من حيي ومات، ولم يزل، وما إن طُرَّ شاربه ولا استقل بحبله غاربه مُكبّاً على الطلب، وقد وُكِّلَ به منه طرفاً لا يهجع، وإنسان عين بسوى فقد النظَر لا يُفجع حتى انتقلت إلى أحناء صدره تلك الأوقار، وبقي على هذا حتى تقَضّت تلك اللبانات / ٣٠/ والأوطار.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان نصرانياً عالماً بأصول صناعة الطب وفروعها، خبيراً بغوامضها، كثير الدِّراية لها، مَاهراً في الحكمة، وكان في نهاية الذكاء والفطنة.

قال ابن رضوان في «حل شكوك الرازي على جالينوس» ما هذا نصه: كما فعل في عصرنا هذا الحسن بن سوار بن بابا المعروف بابن الخمار، فإنه وصل بالطب إلى أن قَبّل له محمود الملك الأرض. وكان محمود عظيماً جداً، وذلك أن هذا الرجل فيلسوف حسن العقل، حسن المعرفة، حسن السياسة لفقهاء الناس، ورؤساء العوام، والعظماء، والملوك وكان إذا دعاه زاهدٌ مشى إليه راجلاً، وقال له: جعلت هذا المشي كفارة لمروري إلى أهل الفسق والجبابرة، وإذا دعاه السلطان ركب إليه في زي الملوك والعظماء حتى ربما حجبه ثلاثمائة غلام تركب الخيل الجياد بالملابس البهية، ووفَّى الصناعة حقها في اللين للضعفاء، والتعاظم على العظماء. وهذه كانت طريق أبقراط وجالينوس وغيرهما من الحكماء.

ومنهم:

[١٨]
أبو الفرج ابن هندو[٢]

منقبٌ عن البيان يكشف خبأهُ، ويبعث له في كل معنى نشأهُ، وينفثُ فيه رُوحاً

---

(١) عيون الأنباء ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢) علي بن الحسين بن محمد بن هِنْدُو، أبو الفرج: من المتميزين في علوم الحكمة والأدب، وله شعر. نشأ بنيسابور. وكان من كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة. ولبس الدرّاعة على رسم الكتّاب في ذلك العصر. وتوفي بجرجان سنة (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م). له كتب، منها «الكلم الروحانية من الحكم اليونانية ـ ط» و«أنموذج الحكمة» و«الرسالة المشرقة» و«مفتاح الطب ـ خ» في طهران، و«المقالة المشوقة» في المدخل إلى علم الفلك، جمع شعره وحققه د. عبد الرازق حويزي ـ ط القاهرة (٢٠٠٠م).

ترجمته في: فوات الوفيات ٢/ ٤٥، كشف الظنون ١٧٦، عيون الأنباء ٤٢٩ ـ ٤٣٤، حكماء الإسلام ٩٤، تتمة اليتيمة ١/ ١٣٤، مجلة معهد المخطوطات ٦/ ٧٥، تاريخ الحكماء ٣١٤، الأعلام ٤/ ٢٧٨.

كأنه يحسّن لكل فكرة نبأه، ويفتق أكمام الأدب فقل ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾[١] سرٌّ دقيق فتن الناس، وخَمرٌ يذهب بالبأس لا كالتي تدخل بالالتباس على الحواس، وسحرٌ يستلذه الذوق، وينقطع عنده القياس، لو أنَّ للدهر رِقَّتَهُ لانَ قاسيه، أو للجافي ذكر العهد ناسه، أو للأمل ألقى إلى قبضة اليد مراسيه، وما أغيره شهادة، ولا أميره الحسنى إلاَّ امتاز بزيادة، وكانت بضاعته من الطب غير مُزجاة، وصناعته تحقق للمتطبب ما يترجاه لفضل تجلبب بشعاره، وجلب زيادة الحكمة إلى أشعاره، وعلو همته إلى علومها، وقراءة /٣١/ مادَّة كل علم على عليمها، إلى أن جنى ثمر الفنون وجرَّب كل شيء ولم يقدر على دفع المنون، وكان له بالخدم في صناعة الكتابة ارتزاق وبئست بضاعة أرزاق، إلاَّ أنه لم يُقدر عليه بها قُوته، وما كان لمرء لا يفوته، وبقى على تعلاّته واختلاف علاَّته إلى أن أتاه هاذِمُ الأعمار، ووافاه قادم الموت مبسوط الأعذار.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: هو الأستاذ السيد الجليل أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو من الأكابر المتميزين في علوم الحكمة، والأمور الطبية، والفنون الأدبية، له الألفاظ الرائقة، والأشعار الفائقة، والتصانيف المشهورة، والفضائل المذكورة، وكان يخدم بالكتابة واشتغل على ابن الخمار، وكان من أفضل المشتغلين عليه. قال الثعالبي في اليتيمة فيه: هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة، وملكه رقَّ البلاغة والبراعة؛ فرد الدهر في الشعر وواحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد، ونظم القلائد، وترصيع الفرائد، مع تهذيب الألفاظ البليغة، وتقريب الأغراض البعيدة، ويذكر الذين يسمعون ويرون ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[٣].

وأنشد له قوله[٤]: [من الطويل]

يقولونَ لي ما بالُ عَينِكَ إذْ رأتْ ... مَحاسنَ هذا الظَّبْيِ أَدمُعها هُطْلُ
فقلتُ زَنَتْ عَيني بطَلعةِ وجهِهِ ... فكانَ لها مِنْ صَوبِ أدمُعِها غَسْلُ

وقوله[٥]: [من البسيط]

قَوِّضْ خِيامَكَ عَنْ أرضٍ تُضامُ بها ... وجانبِ الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ مُجتَنَبُ
وارحلْ إذا كانتِ الأوطانُ مَنقصةً ... فالمندلُ العَرْفُ في أَوطانِهِ حَطَبُ

وقوله[٦]: [من المنسرح]

---

(١) سورة الفتح: الآية ٣٩.
(٢) عيون الأنباء ٤٢٩ـ ٤٣٠.
(٣) سورة الطور: الآية ١٥.
(٤) شعره ص٧١.
(٥) شعره ص٢٧.
(٦) شعره ص٧٠.

إنْ رحتُ عَنْ بلدةٍ غَدوتُ إلى ... أُخرى فما تَستقُّر أَحمالي
كأنني فكرةُ المُوسوسِ لا ... تَبقى مَدى لَحظةٍ على حالِ

/ ٣٢/ وقوله(١): [من الكامل]

ما للمُعيلِ وللمَعالي إنما ... يسمُو إليهنَّ الوحيدُ الفاردُ
فالشمسُ تجتابُ السماءَ فَريدةً ... وأَبو بناتِ النَّعْشِ فيها راكِدُ

وقوله(٢): [من البسيط]

قالوا اشتغلْ عنهمُ حِيناً بغيرِهُمُ ... وخادِعِ النفسَ إنَّ النفسَ تَنخدعُ
قدْ صِيغَ قلبي على مِقدارِ حبِّهِمُ ... فما لحُبٍّ سِواهُ فيهِ مُتَّسَعُ

وقوله(٣): [من البسيط]

عارضَ وَرْدُ الخُدودِ وَجنَتَهُ ... فاتَّفقا في الجَمالِ واختلفا
يَزدادُ بالقَطْفِ وَرْدُ وجنتِهِ ... وينقصُ الوَرْدُ كلَّما قُطِفا

وقوله(٤): [من الطويل]

تمنَّيتُ مَنْ أَهوى فلما لِقيتُهُ ... بُهِتُّ فلمْ أَملكْ لساناً ولا طَرْفا
وقدْ كانَ في قلبي أمورٌ كثيرةٌ ... فلما التقينا ما نَطَقْتُ ولا حَرْفا

وقوله(٥): [من مخلع البسيط]

عابُوهُ لمَّا التَحَى فقُلنا ... عِبْتُم وغِبْتُمْ عَنِ الجَمالِ
هذا غزالٌ ولا عَجِيبٌ ... تَوَلُّدُ المِسْكِ في الغَزالِ

وقوله(٦): [من البسيط]

لا يُؤيسنَّكَ مِنْ مَجْدٍ تباعدُه ... فإنَّ للمجدِ تَدريجاً وتَرتيبا
إنَّ القناةَ التي أَبصرتَ رِفعتَها ... تَنمي وتَصعدُ أُنبوباً فأُنبوبا

وقوله(٧): [من المنسرح]

تَقولُ: لوْ كانَ عاشِقاً دَنِفاً ... إذاً بَدَتْ صُفرةٌ بخَدَّيهِ
لا تُنكريهِ فإنَّ صُفرَتَهُ ... غَطَّتْ عليهِ دِماءُ عَينيهِ

/ ٣٣/ وقوله(٨): [من مخلع البسيط]

---

(١) شعره ص٤٠.
(٢) شعره ص٥٥.
(٣) شعره ص٥٧.
(٤) شعره ص٦٥.
(٥) شعره ص٦٩.
(٦) شعره ص٢٥.
(٧) شعره ص٨٨.
(٨) شعره ص٧٣.

كَـمْ مِـنْ مَـلـيـحٍ عـلـى أَذاهُ ... يَـسْـتَـلُّ مِـنْ فَـكِّـهِ حُـسـامـا
صَـبَّ قَـذى الـقـولِ فـي صِـمـاخـي ... فـصـارَ حِـلـمْـي لـهُ فِـدامـا

وقوله[1]: [من الطويل]

يَـسُـرُّ زَمـانـي أَنْ أُنـاطَ بـجُـهـدِهِ ... وآنـفُ أَنْ أُعـزَى إلـيـهِ بـجـهـلِـهِ
وُيـعـجـبـنـي أَنْ أخـرَّتـنـي صُـرُوفُـهُ ... فـتأخـيـرُهـا الإنـسـانَ بُـرهـانُ فَـضْـلِـهِ
فَـإنـا رأيـنـا قـائـمَ الـسـيـفِ كُـلَّـمـا ... تَـقَـلَّـدَهُ الإنـسـانُ قُـدَّامَ نَـصْـلِـهِ

وقوله[2]: [من الكامل]

أَوحَـى لـعـارِضِـهِ الـعِـذارُ فَـمـا ... أَبـقـى عـلـى وَرَعـي ولا نُـسْـكـي
فـكـأنَّ نَـمْـلاً قـدْ دبَّـبـنَ بِـهِ ... غُـمِـسـتْ أكـارِعُـهُـنَّ فـي مِـسْـكِ

وقوله[3]: [من المنسرح]

يـا شـعـراتٌ جـمـيـعُـهـا فِـتَـنٌ ... يـتَـيـهُ فـي كُـنْـهِ وصـفِـهـا الـفَـطِـنُ
مـا غَـيَّـروا مِـنْ عِـذارِهِ سَـفَـهـاً ... قـدْ كـانَ غُـصْـنـاً فـأورقَ الـغُـصـنُ

وقوله[4]: [من مجزوء الرمل]

ربَّ روضٍ خِـلْـتُ آذرْ ... يـونَـهُ لـمَّـا تَـوَقَّـدْ
ذَهَـبـاً أَشـعـلَ مِـسْـكـاً ... فـي كَـوانـيـنِ زَبَـرْجَـدْ

وقوله[5]: [من المتقارب]

عَـجِـبْـتُ لـقـولـنـجَ لـلأمـيـرِ ... وأَنَّـى ومِـنْ أيـنَ قـدْ جـاءَهَ
وفـي كـلِّ يـومٍ لـهُ حُـقْـنَـةٌ ... تُـفـرِّغ بـالـزيـتِ أمـعـاءَهَ[6]

ومنهم:

[١٩]

الشيخ الرئيس، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سيناء[7]

رجل الدنيا وواحدها، وعديم النظراء وواجدها. ولد المعاني / ٣٤/ وولدها،

(١) شعره ص٧٢.
(٢) شعره ص٦٥.
(٣) ديوانه ص٨٥ـ ٨٦.
(٤) شعره ص٧٦.
(٥) شعره ص٢٣.
(٦) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.
(٧) الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شَرَف المُلك: الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في =

....

= الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى سنة (٣٧٠هـ/ ٩٨٠) .نشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد. وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتوارى. ثم صار إلى اصفهان، وصنف بها أكثر كتبه .

وعاد في أواخر أيامه إلى همذان، فمرض في الطريق، ومات بها سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م). قال ابن قيم الجوزية: «كان ابن سينا ـ كما أخبر عن نفسه ـ هو وأبوه، من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين». وقال ابن تيمية: «تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات، والنبويات، والمعاد، والشرائع، لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغتها علومهم؛ فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما يأخذ عن الإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من أتباع الحاكم العبيدي، صنَّف نحو مئة كتاب، بين مطوَّل ومختصر، ونظم الشعر الفلسفي الجيد، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين. أشهر كتبه «القانون ـ ط» كبير في الطب، يسميه علماء الفرنج «Canonmedicina» بقي معولاً عليه في علم الطب وعمله، ستة قرون، وترجمه الفرنج إلى لغاتهم، وكانوا يتعلمونه في مدارسهم، وطبعوه بالعربية في رومة وهم يسمون ابن سينا Avicenne وله عندهم مكانة رفيعة. ومن تصانيفه «المعاد ـ خ» رسالة في الحكمة، و«الشفاء ـ ط» في الحكمة، أربعة أجزاء، و«السياسة» و«أسرار الحكمة المشرقية ـ ط» ثلاث مجلدات وأرجوزة في «المنطق ـ ط» ورسالة «حيّ بن يقظان ـ ط» وهي غير رسالة ابن الطفيل المسماة بهذا الاسم، و«أسباب حدوث الحروف ـ ط» رسالة، و«الإشارات ـ ط» و«الطير» في الفلسفة، و«أسرار الصلاة ـ ط» في ماهية الصلاة وأحكامها الظاهرة وأسرارها الباطنة الخ، و«لسان العرب» عشر مجلدات في اللغة، و«الإنصاف ـ خ» في الحكمة، و«النبات والحيوان ـ خ» رسالة، ورسالة في «الهيئة ـ خ» و«أسباب الرعد والبرق ـ خ» رسالة، و«الدستور الطبي ـ خ» قطعة منه، و«أقسام العلوم ـ خ» رسالة، و«الخطب ـ خ» رسالة، و«العشق ـ ط» رسالة في فلسفته. وأشهر شعره عينيته التي مطلعها: «هبطت إليك من المحل الأرفع» وقد شرحها كثيرون، وله «ديوان شعر» حققه ونشره د. حسين علي محفوظ، طهران (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٩م)، ولجميل صليبا «ابن سينا ـ ط» ولجورج شحاتة قنواتي كتاب «مؤلفات ابن سينا ـ ط» المخطوط منها والمطبوع، ولعباس محمود العقاد «الشيخ الرئيس ابن سينا ـ ط» ولبولس مسعد «ابن سينا الفيلسوف ـ ط» ولحمودة عزابة «ابن سينا بين الدين والفلسفة ـ ط»، ومثلهم لمحمد كاظم الطريحي.

ترجمته في: الإكمال لابن ماكولا ١/ ٤٨٣، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٥٢ـ٧٢، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٨٧، وتاريخ الزمان، له ٨٨ـ ٨٩ وفيه وفاته سنة ٤٢٧هـ. والكامل في التاريخ ٩/ ٤٥٦، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٣٧ـ ٤٥٩، والأنساب ٢/ ١٦٢، وتاريخ الحكماء لابن القفطي ٤١٣ـ٤٢٦، ووفيات الأعيان ٢/ ١٥٧ـ١٦٢ و٤/ ٢٥١ و٥/ ١٥٣ و٣٦٣ و٦/ ٧٥، ٢٧٠ و٧/ ٣١٥، وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ٢/ ٢٦٦، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٦١ـ ١٦٢، ودول الإسلام ١/ ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣١ـ٥٣٧ رقم ٣٥٦، والإعلام بوفيات الأعلام ١٧٨، والعبر ٣/ ١٦٥، وميزان الاعتدال ١/ ٥٣٩، وتاريخ ابن الوردي =

وعقم القرائح ووأدها، لا يجيء أرسطو منه سينه، ولا أفلاطون في جبلته طينه، لو أنه في زمن اليونان، لجلس في صدر الرواق، ولاستقلت طوائف المشائين حوله المشي على الأحداق، لعلم جمع بين علوم الإسلام واليونان، ووقع على ما لا يلقط مثله من الأفنان، ولم يقنع إلاَّ بكل عباب، ولا رضي من جنات التصانيف حتى دعي إليها من كل باب، لو قرن به الفارابي لَفَرَّ، أو الكندي لما كدَّ نفسه ولا كَرَّ، بل لو تقدم في عصور الأوائل لتكلم، وسكت كل قائل، وأقرَّ كل طائر الصيت بأنه ما هو عنده طائل، علم أعلام، ومملي كلام، ومالىء طروس وأقلام، شعلة ذكاء. لم يبق شرق ولا

= ١/ ٣٤٤ـ ٣٤٥، وتاريخ الحكماء للشهرستاني ٤١٣ـ٤٢٦، وعيون التواريخ ١٢/ ١٥٩أ، ١٦٦ ب، والوافي بالوفيات ١٢/ ٣٩١ـ٤١٢، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧ـ٥١، وطبقات الفقهاء لطاش كبري زاده ٧٠، والوفيات لابن قنفذ ٢٣٥ـ ٢٣٦ رقم ٤٢٨، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٩٩، والرد على المنطقيّين ١٤١ـ١٤٤، والشقائق النعمانية ١/ ٤٧٥ـ ٤٧٨، والمجددون في الإسلام للصعيد ١٨٥ـ ١٨٩، ولسان الميزان ٢/ ٢٩١ـ ٢٩٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٥ـ ٢٦، وتاج التراجم لابن قطلوبغا ١٩، والطبقات السنية، رقم ٧٦١، وشذرات الذهب ٣/ ٢٣٤ـ٢٣٧، وخزانة الأدب للبغدادي ٤/ ٤٦٦، وتاريخ الخلفاء ٤٢٢، وروضات الجنات ٣/ ١٧٠ـ ١٨٥، وإيضاح المكنون ٢/ ٥٥٥، ٦٧٢، وهدية العارفين ١/ ٣٠٨ـ ٣٠٩، والفهرس التمهيدي ٤٥٣ـ٤٦٤ و٥١٦ـ٥٦٦، وأعيان الشيعة ٢٦/ ٢٨٧ـ ٣٣٧، والذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢/ ٤٨ـ٩٦ و٧/ ١٨٤، وتاريخ فلاسفة الإسلام للطفي جمعة ٥٣ـ٦٦، وتاريخ الفلسفة في الإسلام ١٦٤ـ١٨٨، والخالدون ١٠١ـ١١٦، وكشف الظنون ١٢/ ٣٦، ٥١، ٦٣، ٩٤، ١٨٣، ٢٠١، ٢٣٨، ٣٧٧، ٣٨٠، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٦٣، ٦٢٤، ٦٨٥، ٧٣٦، ٧٥٧، ٧٦٦، ٨٤١، ٨٤٣، ٨٤٦، ٨٥٢، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٧٠، ٨٧٦، ٨٨٠، ٨٨٩، ٨٩١، ٨٩٤، ٨٩٦، ٨٩٧، ٩٠٠، ٩٥٣، ١٠٥٥، ١١٨٦، ١٣١١، ١٣٢٧، ١٣٤١، ١٣٨٩، ١٤٠٨، ١٤٣٠، ١٤٤٠، ١٤٥٤، ١٤٦٦، ١٥٢٠، ١٥٣٣، ١٥٥٠، ١٦٢١، ١٧٨٣، ١٧٩٣، ١٩٠٠، ٢٠٣١، وتراث العرب العلمي لطوقان ٢٨٦ـ٢٩٧، وعقود الجوهر لجميل العظم ١٣٣ـ١٤١، وفهرس مخطوطات الموصل ١٦٦، ٢٣٧، وفهرس المخطوطات المصورة ١/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٠٢ـ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥، وفهرس دار الكتب المصرية ٢/ ٢، وفهرست الخديوية ٦/ ٢، ٣، ١٥، ٢٧، ٤٦، ٩، وسيرة الشيخ الرئيس لعبد الواحد الجوزجاني، والعلماء المسلمون لفهمي إسحاق ٥٣ـ٦٤، والشيخ الرئيس ابن سينا للعقاد، وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون، ترجمة الشواربي ١٢١، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٠٣ـ٢١٠، ومؤلفات ابن سينا للأب قنواتي ٢٦، والكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لابن سينا، طبعة بغداد ١٩٥٢، ومؤلفات ابن سينا لأمين مرسي قنديل ١٩٥٠، ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٠ـ٢٣ وفيه أسماء مصادر ومراجع أخرى، وديوان الإسلام ٣/ ١٢٣ـ ١٢٤ رقم ١٢١١، والأعلام ٢/ ٢٤١، وطبقات أعلام الشيعة (النابس في القرن الخامس) ٦٣، ومعجم المطبوعات لسركيس ١٢٧ـ١٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١ـ٤٤٠هـ) ص٢١٨ رقم ٢٦٢.

غرب حتى أضاء فيه شعاعها، وامتدَّ إليه شراعها، وأشرقت عليه شمسها، وانبسطت به شمسُها وغلب عليه صيتها، وغُلَّ به عفريتها، ومشت فيها الحكماء على قانونه، ورأت الشفاء بمضمونه، وعرفت الحكم بإشارته، وسلكت مثل النحل سُبُلَها ذُللاً بعبارته، وعلمت أنه فيلسوف الإسلام، والمسلم إليه في كل علم بسلام، والمقدم في سائر الطبقات، والمعظم على الأوقات، والمحرم من العلم المحرم إليه في الميقات، كان ندرة في العالم، وزهرة في بني آدم، والمفاض عليه من العلوم ما لا تُزجَرُ بحارهُ، ولا تزخرُ إلاَّ لج فوائد فرائده، وصدره محاره. منبع العلم، وموضع الحلم، ومرتع الفضائل، ومربع الكرم، ووسمي الربيع، متضائل أعجوبة الزمان، وغريبة آل سامان، فخرت دولة ما وراء النهر منه بوزير شرَّف دستها، وصرَّف بجمعه لجهات الممالك شتها، وتقلد أمورها، وقلد المنَّة بولايته أميرها، وتزيَّا بزي أرباب الدول، وأصبح في أصحاب الخول، واقتنى الغلمان الأتراك، ووقع بالحبِّ في الإشراك، وكان غلمانه يلبسون الديباج المنسوج بالذهب، ويشدون مناطق الذهب، المرصعة بالجواهر، يزهر بهم جلوته، وتعمر خلوته. يبيت / ٣٥/ معهم الليالي في الحمام، ويبادر بتنعمه بهم صروف الحمام، حتى قال له ملكهُ: كيف تنهانا عن الاتيان في الحمام؟! فقال: لأن الملك يحب أن يعيش طويلاً، وأنا أحب أن أعيش طيباً، وكان لا يملك صبراً عن غلمانه، ولا يشغل إلا بهم فراغ زمانه حتى كانوا سبب حمامه، وجلب سمامه.

وكان السبب في فعلتهم ومرشدهم في هذا إلى ضَلَّتهم أنهم سرقوا مالاً جليلاً، ثم خافوه، وسئموا فعله الطويل بهم وعافوه، فشابوا له درياق مثرود بطوس كان يستعمله بسمٍّ، أبى إلاَّ أن يقتله، فتعلَّل به عامه حتى ساق الأجل إليه حمامه.

وكانت الوزارة نقصاً عيب به، وأطلقت الحكماء ألسنتها فيه بسببها، وقالوا: أذل العلم ورضي من الفانية بالاستكثار، فقال: لي أسوة بأرسطو في صحبة الاسكندر، وفيما قاله نظر؛ لأن أرسطو كان معلماً للإسكندر ومشيراً، وابن سيناء كان مُكلفاً ووزيراً.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: هو أشهر من أن يذكر، وفضائله أعظم من أن تسطر. قال: ونحن نقتصر في وصفه على قدر ما ذكره عن نفسه. ووصفه أبو عبيد الجوزجاني صاحبه، من أحواله. والذي ذكره هو قال: كان أبي رجلاً من أهل بلخ، وانتقل إلى بخارى في أيام نوح بن منصور، واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية

(١) عيون الأنباء ٤٣٧.

يقال لها حريمين من ضياع بخارى، وهي من أمهات القرى، وبقربها قرية يقال لها أقسة، وتزوج أبي منها بوالدتي، وقطن بها وسكن، وولدت منها بها. ثم أولدت أخي بها، ثم انتقلنا إلى بخارى. وأحضرت معلم القرآن والأدب، وأكملت العشرة من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقتضي مني العجب. وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، وتقبل مذهب الاسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخي. وربما كانوا يذكرونه بينهم وأنا أسمع، وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي. وابتدأوا يدعونني /٣٦/ إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله البابلي وكان يدعي التفلسف، فأنزله أبي إلى دارنا رجاء تعليمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين. وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجي على البابلي. ولما ذكر لي حد الجنس، أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو، وأخذته في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله، وتعجب مني كل التعجب وحذروا والدي من شغلي بغير العلم. وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه. وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق. وكذلك كتاب إقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية، قال البابلي: تول قراءتها وحلها بنفسك، ثم أعرضها عليّ لأبين لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب. فأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه. ثم فارقني البابلي متوجهاً إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب في الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، فصارت أبواب العلم تنفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب الصعبة فيه؛ وعلم الطب فليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علي علم الطب. وتعاهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف /٣٧/ وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر إليه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءات سنة ونصفاً، فأعدت قراءة

المنطق وسائر أجزاء الفلسفة وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ولا اشتغلت في النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهوراً، فكل حجة أنظر فيها أثبت مقدمات قياساته، ورتبتها في الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، وكلما كنت اتحير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح إلي المتغلق، وتيسَّر المتعسر.

وكنت أرجع بالليل إلى داري وأدع السراج بين يدي، واشتغل بالقراءة، والدرس والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي، ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل اتضح لي وجوهها في المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما عملته في ذلك الوقت فهو الذي علمته لم أزدد فيه إلى اليوم حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة. فما كنت أفهم ما فيه، والتبس علي غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين يوماً وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهم المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد الدلال مجلد ينادي عليه. فعرضه علي فرددته متبرماً، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا؛ فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته وإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، فرجعت إلى بيتي، فأسرعت قراءته، /٣٨/ فانفتح عليَّ في هذا الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله عز وجل. وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور، واتفق له مرض بلج الأطباء فيه، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على العلم والقراءة. فأجروا ذكري بين يديه، وسألوه إحضاري، فحضرت وشاركتهم في مداواته، وتوسمت بخدمته، فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق من الكتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد.

وطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها. ورأيت من الكتب ما لا يقع اسمه على كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد.

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها. وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء.

وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسن العروضي. فسألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم، فصنفت له المجموع وسميته به، وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي، ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري.

.وكان في جواري أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي، خوارزمي المولد، فقيه النفس، متوجه في الفقه والتفسير والزهد، مائل إلى هذه العلوم؛ فسألني شرح الكتب، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلداً، وصنفت له في الأخلاق كتاب سميته كتابه البر والإثم. وهذان الكتابان فلا يوجدان إلا عنده فلم يعر أحداً أن ينسخ منه: ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان /٣٩/ ودعتني الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج. وكان أبو الحسين المحب لهذه العلوم بها وزيراً، وقدمت على الأمير بها، وهو علي بن المأمون وكنت على زي الفقهاء إذ ذاك بطيلسان تحت الحنك، وأثبتوا لي مشارفة دارة تقوم بكفاية مثلي. ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا، ومنها إلى مازر ومنها إلى طوس، ومنها إلى سمنيقان، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصدي الأمير قابوس، فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس، وحبسه في بعض القلاع، وموته هناك، ثم مضيت إلى دهستان، ومرضت بها مرضاً صعباً، وعدت إلى جرجان، فاتصل أبو عبيد الجرجاني وأنشدت في حالي قصيدة فيها بيت القائل: [من الكامل]

لَمَّا عظمتُ وليسَ مصرٌ واسعي لَمَّا غَلا ثَمني عَدِمْتُ المُشتري

قال أبو عبيد الجرجاني: فهذا ما حكاه لي الشيخ من لفظه ومن ههنا شاهدت أنا من أحواله. كان بجرجان رجل يقال له أبو محمد الشيرازي يحب هذا العلم، وقد اشترى للشيخ داراً في جواره أنزله بها، وأنا اختلف إليه في كل يوم أقرأ المجسطي وأستملي المنطق. وصنف لأبي محمد الشيرازي كتاب المبدأ والمعاد، وكتاب الأرصاد الكلية. وصنف هناك كتباً كثيرة، كأول القانون، ومختصر المجسطي، وكثيراً من الرسائل، ثم صنف في أرض الجبل بقية كتبه.

كتاب المجموع مجلد، الحاصل والمحصول عشرون مجلداً، الإنصاف عشرون مجلداً، البر والإثم مجلدان، الشفاء ثمانية عشر مجلداً، الأرصاد الكلية مجلد، النجاة ثلاث مجلدات، الهداية مجلد، المختصر المتوسط مجلد، العلائي مجلد، القولنج

مجلد، لسان العرب عشر مجلدات، الأدوية القلبية مجلد، بعض الحكمة المشرقية مجلد، بيان ذوات الجهة مجلد، كتاب المعاد مجلد، كتاب المبدأ والمعاد مجلد.

ومن رسائله: القضاء والقدر، الآلة الرصدية، غرض قاطيغورياس. المنطق بالشعر، قصائد في العظة /٤٠/ والحكمة في الحروف. تعقب المواضع الجدلية. مختصر أوقليدس، مختصر في النبض بالعجمية، الحدود، الأجرام السماوية. الإشارة إلى علم المنطق، أقسام الحكمة في النهاية واللانهاية، عهد كتبه لنفسه، حي بن يقظان، في أن أبعاد الجسم غير ذاتية له. خطب الكلام في الهندبا، في أنه لا يجوز أن يكون شيء واحد جوهرياً وعرضياً. في أن علم زيد غير علم عمرو. ورسائل له إخوانية وسلطانية. مسائل جرت بينه وبين بعض الفضلاء.

ثم انتقل إلى الري بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة، وعرفوه بسبب كتب وصلت معه تتضمن تعريف قدره، وكان مجد الدولة إذ ذاك قد غلبته السوداء، فاشتغل بمداواته، وصنف كتاب المبدأ والمعاد، وأقام بها إلى أن قصد شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد.

ثم اتفقت له أسباب أوجبت بالضرورة خروجه إلى قزوين، ومنها إلى همذان، واتصاله بخدمة كذبانويه والنظر في أسبابها.

ثم اتفق معرفة شمس الدولة وإحضاره مجلسه بسبب قولنج قد أصابه، وعالجه حتى شفاه الله، وفاز من ذلك المجلس بخلع كثيرة، ورجع إلى داره بعدما أقام هناك أربعين يوماً بلياليها، وصار من ندماء الأمير. ثم اتفق نهوض الأمير إلى قرمسين لحرب عناز، وخرج الشيخ في خدمته، ثم توجه نحو همذان منهزماً راجعاً.

ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها، ثم اتفق تشويش العسكر عليه، وإشفاقهم منه على أنفسهم، فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس، وأغاروا على أسبابه، وأخذوا جميع ما كان يملكه. وسألوا الأمير قتله، فامتنع منه، وعدل إلى نفيه إلى عز الدولة طلباً لمرضاته، فتوارى في دار الشيخ أبي سعيد بن دحدول أربعين يوماً فتعاود الأمير شمس الدولة القولنج، وطلب الشيخ يحضر مجلسه، فاعتذر الأمير إليه بكل الاعتذار، فاشتغل بمعالجته، فأقام عنده مكرماً مبجلاً. وأعيدت الوزارة إليه ثانية.

ثم سألته أنا شرح كتب أرسطوطاليس، /٤١/ فذكر أنه لا فراغ له في ذلك الوقت. ولكن إن رضيت مني بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين، ولا الاشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك فرضيت به. فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه كتاب الشفاء، وكان قد صنف الكتاب الأول من القانون.

وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من الشفاء نوبة. وكان يقرأ غيري من القانون نوبة. وكان يقرأ فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيىء مجلس الشراب بآلاته، وكنا نشتغل به، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ من النهار خدمة للأمير، فقضينا على ذلك زمناً، ثم توجه شمس الدولة إلى صارم لحرب الأمير بهاء الدولة، وعاوده القولنج قريب ذلك الموضع واشتد عليه، وانضاف إلى ذلك أمراض أخر جلبها سوء تدبير، وقلة القبول من الشيخ، فخاف العسكر وفاته فرجعوا طالبين به همدان في المهد، فتوفي في الطريق في المهد. ثم بويع ابن شمس الدولة، وطلبوا استيزار الشيخ فأبى عليهم وكاتب علاء الدولة سراً يطلب خدمته، والمصير إليه، والانضمام إلى جوانبه. وأقام في دار أبي غالب العطار متوارياً، وطلبت منه اتمام كتاب كتاب الشفاء، فاستحضر أبا غالب، وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما، وكتب الشيخ في عشرين جزءاً على ثمن بخط رؤوس المسائل. وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها، بلا كتاب يحضره، ولا أصل يرجع إليه، بل من حفظه، وعن ظهر قلبه. ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد، فكان ينظر في كل مسألة، ويكتب شرحها، وكان يكتب في كل يومين خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات. وابتدأ بالمنطق فكتب منه جزءاً. ثم اتهمه تاج الملك بمكاتبته علاء الدولة، فأنكر عليه ذلك، وحث في طلبه فدل عليه بعض أعدائه، فأخذوه وأدوه وأرسلوه إلى قلعة يقال لها فردجان وأنشد هناك قصيدة منها: [من الكامل]

/٤٢/ دُخُولٌ باليقينِ كما تَرَوهُ   وكلُّ الشَّكِّ في أَمرِ الخُروجِ

وبقي فيها أربعة أشهر. ثم قصد علاء الدولة همذان وأخذها، وانهزم تاج الملك ومرَّ إلى تلك القلعة بعينها. ثم رجع علاء الدولة عن همذان، وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة إلى همذان [وحملوا معهم الشيخ إلى همذان] ونزل في دار العلوي، واشتغل هناك بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء، وكان قد صنف بالقلعة كتاب الهدايات، ورسالة حي بن يقظان، وكتاب القولنج. وأما الأدوية القلبية فإنه صنفها أول وروده إلى همذان، وكان قد تقضى على هذا زمان، وتاج الملك في أثناء هذا يمنّيه بمواعيد جميلة، ثم عنّ للشيخ التوجه إلى أصفهان، فخرج متنكراً وأنا وأخوه وغلامان في زي الصوفية إلى أن وصلنا إلى طبران على باب أصفهان، بعد أن قاسينا شدائد في الطريق، فاستقبلنا أصدقاء الشيخ، وندماء الأمير علاء الدولة وخواصه، وحمل إليه الثياب والمراكب الخاصة، وأنزل في محلة يقال لها كونكبيد في دار عبد الله بن بيبي،

وفيها من الآلات والفرش ما يحتاج إليه. وحضر مجلس علاء الدولة فصادف من منزله الإكرام والإعزاز اللذين يستحقهما مثله. ثم رسم الأمير علاء الدولة ليأتي الجماعات مجلس النظر بين يديه بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم، والشيخ في جملتهم. فما كان يطاق في شيء من العلوم.

واشتغل بأصفهان بتتميم كتاب الشفاء، ففرغ من المنطق والمجسطي، وكان قد اختصر أوقليدس والأرثماطيقي والموسقى. وأورد في كل كتاب من الرياضيات زيادات رأى أن الحاجة إليها داعية. أما في المجسطي فأورد عشرة أشكال في اختلاف المنظر وأورد في آخر المجسطي في علم الهيأة أشياء لم يسبق إليها، وأورد في أوقليدس شُبهاً، وفي الأرثماطيقي خواص حسنة، وفي الموسيقى مسائل غفل عنها الأولون، وتم الكتاب المعروف بالشفاء ما خلا كتابي النبات والحيوان؛ فإنه صنفهما في السنة التي توجه فيها /٤٣/ علاء الدولة إلى سابور خواست في الطريق. وصنف أيضاً في الطريق كتاب النجاة، واختص بعلاء الدولة، وصار من ندمائه إلى أن عزم علاء الدولة قصد همذان، وخرج الشيخ في الصحبة، فجرى ليلة بين يدي علاء الدولة ذكر الخلل الواقع في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة، فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال برصد هذه الكواكب، وأطلق له من الأموال ما يحتاج إليه. وابتدأ الشيخ به وولاني اتخاذ آلاتها واستخدام صناعها حتى ظهر كثير من المسائل، فكان يقع الخلل في أمر الرصد لكثرة الأسفار وعوائقها. وصنف الشيخ بأصفهان الكتاب العلائي.

وكان من عجائب أمر الشيخ أني صحبته وخدمته خمساً وعشرين سنة، فما رأيته إذا وقع له كتاب مجدد ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشكلة، فينظر ما قاله مصنفه، فيتبين مرتبته في العلم ودرجته في الفهم. وكان الشيخ جالساً يوماً من الأيام بين يدي الأمير وأبو منصور الجبائي حاضر فجرى في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره، فالتفت أبو منصور إلى الشيخ وقال له: أنت تقول أنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان تصنيف أبي منصور الأزهري، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها، وأنشد ثلاث قصائد وضمنها ألفاظاً غريبة في اللغة. وكتب ثلاثة كتب أحدها على طريقة ابن العميد، والآخر على طريقة الصاحب، والآخر على طريقة الصابئ، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها، ثم أوعز الأمير فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي. وذكر إنا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد فنحب أن

تتفقدها، وتقول لنا ما فيها، فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير ما فيها. فقال له الشيخ إن ما تجهله من هذا الكتاب هو المذكور /٤٤/ في الموضع الفلاني من كتب اللغة، وذكر له كثيراً من الكتب فيما يورده من اللغة المعروفة. ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ، وأن الذي حمله عليه ما جبهه به ذلك اليوم، فتنصل واعتذر إليه ثم صنف الشيخ كتاباً في اللغة سماه لسان العرب لم يصنف في اللغة مثله ولم ينقله إلى البياض حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه.

وكان قد حصل للشيخ تجارب كثيرة فيما باشرها من المعالجات عزم على تدوينها في كتاب القانون. من ذلك أنه صدع يوماً فتصور أن مادة تريد النزل إلى حجاب رأسه، وأنه لا يأمن من ورم يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثير، ودقه ولفَّه في خرقة، وأمر بتغطية رأسه بها، ففعل ذلك حتى قوي الموضع، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي، ومن ذلك امرأة مسلولة بخوارزم أمرها أن لا تتناول من الأدوية سوى الخلنجبين السكري حتى تناولت على الأيام نحو مائة مَنٍ وشفيت المرأة.

وكان الشيخ قد صنف بجرجان المختصر الأصغر في المنطق، وهو الذي وضعه بعد ذلك في النجاة، ووقعت نسخة إلى شيراز، فنظر فيها جماعة من أهل العلم هناك، وقعت لهم الشبهة في مسائل منها، فكتبوها على جزء. وكان القاضي بشيراز من جملة القوم، فأنفذ بالجزء إلى أبي القاسم الكرماني صاحب إبراهيم بن بابا الديلمي المشتغل بعلم المناظر، وأضاف إليه كتاباً إلى الشيخ أبي القاسم وأنفذها على يدي ركابي قاصد، وسأله عرض الجزء على الشيخ أبي القاسم فدخل على الشيخ عند اصفرار الشمس في يوم صائف، وعرض عليه الكتاب والجزء، فقرأ الكتاب ورده عليه، وترك الجزء بين يديه وهو ينظر فيه والناس يتحدثون. ثم رجع أبو القاسم، وأمرني الشيخ بإحضار البياض، وقطع أجزاء منها فسدت خمسة أجزاء كل واحد منها /٤٥/ عشرة أوراق بالربع الفرعوني، وصلينا العشاء، وقدم الشمع، فأمر بإحضار الشراب وأجلسني وأخاه وأمرنا بتناول الشراب، وابتدأ هو بجواب تلك المسائل. وكان يكتب ويشرب إلى نصف الليل حتى غلبني وأخاه النوم، فأمرنا بالانصراف. فعند الصباح قرع الباب فإذا رسول الشيخ يستحضرني، فحضرته وهو على المصلى، وبين يديه الأجزاء الخمسة، فقال: خذها وصر بها إلى الشيخ أبي القاسم الكرماني، وقل له استعجلت في الإجابة عنها؛ لئلا يتعوق الركابي، فلما حملته تعجب كل العجب، وصرف الفيج وأعلمهم بهذه الحالة، وصار هذا الحديث تاريخاً بين الناس.

ووضع في الآت الرصد ما لم يسبق إليه، وصنف فيها رسالة وبقيت أنا ثماني

سنين مشغولاً بالرصد، وكان غرضي تبين ما يحكيه بطليموس عن قصته في الأرصاد، فتبين لي بعضها.

وصنف الشيخ كتاب الإنصاف واليوم الذي قصد فيه السلطان مسعود إلى أصفهان نهب عسكره فيها الشيخ، وكان الكتاب في جملة النهب، وما وقف له على أثر.

وكان الشيخ قوي القوى كلها، وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى وأغلب.

وكان الشيخ يعتمد على قوة مزاجه حتى صار أمره في السنة التي حارب فيها علاء الدولة تاش فراش على باب الكرخ أخذ الشيخ قولنج، ومن حرصه على برئه إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه في يوم واحد ثمان مرات، فتقرَّح بعض أمعائه وظهر به سحج، وأحوج إلى المسير مع علاء الدولة، فأسرعوا نحو إيذج، فظهر به هناك الصرع الذي كان يتبع علته. ومع ذلك كان يدبر نفسه، ويحقن نفسه لأجل السَّحج ولبقة القولنج، فأمر يوماً باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة ما يحتقن به وخلطه به طلباً لكسر الرياح، فقصد بعض الأطباء الذين كان يتقدم /٤٦/ هو إليه بمعالجته، وطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم لست أدري عمداً فعله أم أخطأ؛ لأنني لم أكن معه، فازداد السحجُ به من حدة ذلك البزر. وكان المثرود بطوس لأجل الصرع فقام بعض غلمانه، وطرح شيئاً كثيراً من الأفيون فيه، وناوله، فأكله وكان سبب ذلك خيانتهم في مالٍ كثير من خزانته، فتمنوا هلاكه؛ ليأمنوا عاقبة أعمالهم.

ونقل الشيخ كما هو إلى أصفهان، فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي، وحضر مجلس علاء الدولة. ولكنه مع ذلك لا يتحفظ، ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلة كل البرء، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت. ثم قصد علاء الدولة همذان، فسار معه الشيخ، فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان، وعلم أن قوته قد سقطت، وأنها لا تفي بدفع المرض، فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة. وبقي على هذا أياماً، ثم انتقل إلى جوار ربه. وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكان موته في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكانت ولادته في سنة خمس وسبعين وثلثمائة.

هذا آخر ما ذكره أبو عبيد من أحوال الشيخ الرئيس رحمه الله، وقبره تحت السور من جانب القبلة من همذان. وقيل: إنه نقل إلى أصفهان، ودفن في موضع على باب كونكند.

ولما مات ابن سيناء من القولنج الذي [عرض له] قال فيه بعض أهل زمانه: [من المتقارب]

رأيتُ ابنَ سينا يُعادي الرجالَ وبالحَبسِ ماتَ أخسَّ المَماتِ
فلمْ يَشْفِ ما نالَهُ بالشفاءِ ولمْ يَنْجَ مِنَ مُوتِهِ بالنجاةِ

وقوله بالحبس يعني انحباس البطن من القولنج الذي أصابه، والشفاء والنجاة يريد الكتابين من تأليفه، وقصد بهما بعض أصدقائه، وهو أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي.

ومن كلامه قال:

ليكن الله تعالى أوَّل فكرك وآخره، وباطن اعتبارك /٤٧/ وظاهره، ولتكن عين نفس الرجل مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه؛ مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى، وما فيه من آيات ربه الكبرى. وإذا انحط إلى قراره، فلينزه الله تعالى في آثاره، فإنه باطن ظاهر، تجلى لكل شيء بكل شيء: [من المتقارب]

فَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُّل عَلى أَنَّهُ واحِدُ

فإذا صارت هذه الحال له ملكة، انطبع فيها نفس الملكوت، وتجلَى له قدس اللاهوت، فألف الأنس الأعلى، وذاق اللذة القصوى، وأخذ عن نفسه من هواها أولى، وفاضت عليه السكينة، وحفَّت به الطمأنينة. وتطلع إلى العالم الأدنى اطلاع راحم لأهله، مستوهن لحيله، مستخف لثقله، مستحسن به لعقله، مستضل لطرقه؛ وتذكر نفسه وهي بها لهجة، وببهجتها بهجة، فتعجب منها ومنهم تعجبهم منه، وقد ودَّعها، وكان معها كأن ليس معها. وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكنات الصيام، وأنفع البر الصدقة، وأزكى العمل الاحتمال، وأبطل السعي المراءاة. ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال. وخير العمل ما صدر عن خالص نية؛ وخير النية ما ينفرج عن جناب علم؛ والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1] ثم يقبل على هذه النفس المؤمنة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطخ بما يشينها من الهيئات الانقيادية للنفوس الموادية التي إذا بقيت في النفس المزينة، كان حالها عند الانفصال كحالها عند الاتصال؛ اذ جوهرها غير مشاوب، ولا مخالط، وإنما يدنسها هيأة الانقياد لتلك الصواحب؛ بل يفيدها هيئات الاستيلاء والاستعلاء

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

والرياسة. وكذلك يهجر الكذب قولاً وفعلاً حتى تحدث للنفس هيأة صدوقة، فتصدق الأحلام والرؤيا. وأما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة وإبقاء الشخص والنوع، والسياسة. /٤٨/ أما المشروب فإن يهجر شربه تلهياً بل تشفياً وتداوياً؛ ويعاشر كل فرقة بعادته ورسمه؛ ويسمح بالمقدور والتقدير من المال؛ ويركب لمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه. ثم لا يقصر في الاوضاع الشرعية، ويعظم السنن الالهية والمواظبات على التعبّدات البدنية. ويكون دوام عمره إذا خلا وخلص من المعاشرين تطريه الرتبة في النفس والفكرة في الملك الأول وملكه، وكبس النفس عن عثار الناس من حيث لا يقف عليه الناس عاهد الله أنه يسير بهذه السيرة، ويدين بهذين الديانة، والله ولي الذين آمنوا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن شعر الشيخ الرئيس قاله في النفس وهي من أحسن قصائده وأشرفها(١): [من الكامل]

هَبَطَتْ إليكَ مِنَ المَحلِّ الأَرفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تعزُّز وتمنُّعِ
محجوبةٌ عَنْ كلِّ مُقلةِ عارفٍ ... وهيَ التي سَفَرَتْ ولَمْ تَتَبرقَعِ
وصلتْ على كَرهٍ إليكَ ورُبما ... كَرهَتْ فِراقَكَ وهيَ ذاتُ تفجُّعِ
أَبقتْ وما أيستْ فلما واصلتْ ... أَلِفَتْ مُجاورةَ الخَرابِ البَلقعِ
وأظنُّها نِسيتْ عُهُوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بفِراقِها لَمْ تَقْنَعِ
حتى إذا اتصلتْ بِهاءِ هُبُوطِها ... في مِيم مِرَكزِها بذاتِ الأَجْرَعِ
عَلِقَتْ بها ثَاُء الثقيلِ فأصبحتْ ... بينَ المعالمِ والطلولِ الخُضَّعِ
وتظَلُّ ساجعةً على الدِّمَنِ التي ... دَرَسَتْ بِتَكرارِ الرِّياحِ الأَربَعِ
حتى إذا قربُ المَسير مِنَ الحِمَى ... ودَنا الرَّواحُ إلى الفضاءِ الأَوسعِ
سَجَعَتْ وقدْ كُشف الغِطاءُ فأَبصرتْ ... ما ليسَ يُدرَكُ بالعُيون الهُجَّعِ
وغَدَتْ مُفارقةً لكلِّ مُكلَّفٍ ... عنها حليفِ التُّرب غيرِ مُشَيِّعِ
وغَدَتْ تُغرِّدُ فوقَ ذروةِ شاهقٍ ... والعِلمُ يَرفُع كلَّ مَنْ لَمْ يُرفَعِ
/٤٩/ فلأيِّ شيءٍ أُهبطتْ مِنْ شاهقٍ ... سامٍ إلى قَعْرِ الحَضيض الأَوضعِ
إنْ كانَ أَرسلَها الإلهُ لحِكمةٍ ... طُويتْ عَنِ الفَطِنِ اللبيب الأورعِ
فهُبوطُها إنْ كانَ ضربةَ لازبٍ ... لتكونَ سامعةً لِما لَمْ تَسمعِ
وتَعودَ عالمةً بكُلِّ خَفيةٍ ... في العالمينَ فَخَرْقُهالَمْ يُرقَعِ

---

(١) كاملة في ديوانه ص١٩-٢٠.

وهيَ التي قَطَعَ الزمانُ طَريقَها ... حتى لقدْ غَرَبَتْ بغيرِ المَطلَعِ
فكأنها بَرْقٌ تألَّقَ للحِمَى ... ثُمَّ انطوى فكأنهُ لمْ يَلْمَعِ

وقال في الشيب والحكمة والزهد[1]: [من الوافر]

أما أَصبحتَ عَنْ ليلِ التَّصابي ... وقدْ أَصبحتَ عَنْ ليلِ الشبابِ
تنفَّسَ في عِذارِكَ صبحُ شيبٍ ... وعَسْعَسَ ليلُهُ فكم التصابي
شِهابُك كانَ شَيطاناً مَريداً ... فَرَجَّمَ في مَشِيبكِ بالشهابِ
وأسربَ مَنْ يزاة الدهرُ أَحوَى ... على فَوْدي فألماً بالغراب
عَفَا رَسْمَ الشبابِ ورسمُ دارٍ ... لهمْ عَهْدي به مَغْنَى رَبابِ
فذاكَ ابيضَّ مِنْ قَطَراتِ دَمعي ... وذاكَ اخضرّ مِنْ قَطْر السحابِ
فذا يَنعى إليكَ النفسَ نَعياً ... وذالِكُمُ نُشورٌ للرَّوابي
كذا دُنياكَ تَرْأَبُ لانصداع ... مُغالطةً وتَبني للخَرابِ
ويعلَقُ مُشمئزُّ النفسِ عنها ... بأشراكٍ تَعوقُ عَنِ اضطرابِ
فلولاها لعجلتُ انسلاخي ... عَنِ الدنيا وإنْ كانتْ إهابي
عَرَفْتُ عُقُوقَها فَسلَوتُ عنها ... فلما عفْتُها أغريتُها بي
بُليتُ بعالمٍ يَعْلو أذاهُ ... سِوى صبري ويسفُلُ عَنْ عِتابي
وسُبْلٍ للصَّوابِ خِلاطَ قومٍ ... وكمْ كانَ الصَّوابُ سِوى الصَّوابِ
فَغالَطَهمْ ونفسي في مكانٍ ... مِنَ العَلياءِ عنهمْ في حِجابِ
/٥٠/ ولستُ بمن يخلطه خلاط ... متى اعتبرتْ أبانَ عَنْ تُرابِ
إذا ما لَجَّتِ الأبصارُ نالتْ ... خَيالاً واشمأزَّتْ عَنْ لُبابِ

وقال أيضاً[2]: [من الكامل]

خيرُ النفوسِ العارفاتِ ذَواتَها ... وحقيقُ كِيميَّاتِ ماهياتِها
وبمَ الذي حَلَّتْ ومِمَّ تكوَّنتْ ... أَعضاءُ بِنيتِها على هَيئاتِها
نفسُ النباتِ ونفسُ حِسٍّ رُكِّبا ... هَلاَّ كذاكَ سِماتُهُ كِسماتِها
يا للرجالِ لِعظمِ رُزْءٍ لمْ تزلْ ... منُه النفوسُ تَخُبُّ في ظُلماتِها

وقال أيضاً[3]: [من الخفيف]

هَذِّبِ النفسَ بالعُلومِ لِتَرقَى ... وذَرِ الكُلَّ فهي للكُلِّ بَيْتُ

(١) كاملة في ديوانه ص١٣ـ١٤.
(٢) ديوانه ص١١.
(٣) ديوانه ص٢٠.

إنما النفسُ كالزجاجةِ والعلـ ـمُ سِراجُ وحِكْمَةُ اللهِ زَيْتُ

وقال أيضاً[١]: [من الرمل]

صَبَّها في الكأسِ صِرْفاً غَلَبَتْ ضَوءَ السِّراجِ
ظَنَّها في الكأسِ ناراً فَطَفَاها بالمِزَاجِ

وقال أيضاً[٢]: [من الكامل]

قُمْ فاسقِنيها قهوةً كدِم الطِّلا يا صاحِ بالقَدَحِ المَلا بينَ المَلا
خَمْراً تَظَلُّ لها النصارى سُجَّداً ولها بنو عمرانَ أخلصَتِ الولا
لوْ أنَها يوماً وقدْ وُلِعت لهمْ قالتْ: ألستُ بربِّكُمْ؟ قالوا: بَلَى

نظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[٣].

وقال: [من الرمل]

نَزَلَ اللاهوتُ في ناسُوتِها كنزولِ الشمسِ في أبْراجِ يُوحِ
قال فيها بعضُ مَنْ هامَ بها مثلَ ما قالَ النصارى في المَسيحِ
هيَ والكأسُ وما مازجَها كأبٍ مُتَّحِدٍ وابنٍ ورُوحِ

/ ٥١/ وقال: [الطويل]

شَرِبنا على الصوتِ القديمِ قديمةً لكلِّ قديمٍ أوَّلٍ هيَ أوَّلُ
ولوْ لمْ تكُنْ في حَيِّزٍ قلتُ إنها هيَ العلَّةُ الأُولى التي لا تُعَلَّلُ

وقال أيضاً، وقيل إنها للطغرائي: [من الكامل]

عَجَباً لِقَومٍ يَحسِدُونَ فَضَائِلي ما بينَ عاني إلى عُذَّالِي
عتبوا عليَّ فَضليْ وذمُّوا حِكمتي واستوحشُوا مِنْ نقصِهِمْ وكَمالي
إنِّي وكيدهم وما عبثوا بِهِ كالطَّوْدِ يحقر نَطْحَةَ الأوعالِ

وقال أيضاً: [من الكامل]

أشكو إلى اللهِ الزمانَ بِصَرْفِهِ أَبلى جَديدَ قوايَ وهوَ جَديدُ

وقال أيضاً وقيل، إن هذه الأبيات إذا قيلت عند رؤية عطارد وقت شرفه، فإنها تفيد علماً وخيراً: [من الطويل]

عُطارُد قدْ واللهِ طَالَ تَرَدُّدي مَساءً وصُبحاً كي أراكَ فأَغْنَما

---

(١) أخل بها ديوانه.
(٢) أخل بها ديوانه.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

فها أنَتَ فامدُدْني لكي أُدرِكَ المُنَى وأَحوِي العُلومَ الغامضاتِ تَكَرُّما
ووقِّنِيَ المَحْذُورَ والشرَّ كلَّهُ بأمرِ مَليكٍ خالقِ الأرضِ والسَّما[1]

ومنهم:

[٢٠]

أبو الفرج، عبد الله بن الطيّب، كاتب الجاثليق[2]

كان مع توسعه في الحكمة، وتتبعه لسُرجها المضية في كل ظُلمة، مُصراً على نصرانيته، معظماً لأمور رهبانيته، ينقاد إلى خُدعها، ولا يخفى عليه أنها ضلال، ويتردد إلى بيعها ولا يعتريه ملال، ويعظم صورها الممثلة، ويظل عليها عاكفاً وإليها عاطفاً، وهو على يقين من أنها لا تنطق ولا تمسك عليه من خزائن رزقها ولا تنفق، على أنه كان إماماً في الطبيعي لا يعدو علمه ولا يخاف عدمه، فأما من ذكر سواه فكثيراً ما يجد من واساه.

ذكره ابن أبي أصيبعة / ٥٢/ وقال[3]: هو الفيلسوف الإمام العالم. كان متميزاً بين النصارى ببغداد، ويقرىء الطب في البيمارستان العضدي، جليل المقدار، واسع العلم، شرح كثيراً من كتب أرسطو وأبقراط وجالينوس، وكانت له قوة في التصنيف، وأكثر ما كانت تؤخذ عنه إملاءً من لفظه، وكان الرئيس يحمده في الطب ويذمه في الحكمة.

وقال فيه: وكان يقع إلينا كتب يعملها الشيخ أبو الفرج بن الطيب في الطب ونجدها صحيحة مرضية خلاف تصانيفه في المنطق والطبيعات، وما يجري معها.

وحكى ابن القف: أن رجلين أتيا من بلاد العجم للقراءة على ابن الطيب، فقيل لهما: إنه في الكنيسة للصلاة، فأتيا إليه في الكنيسة، فوجداه لابساً ثوب صوف مكشوف الرأس، وبيده مبخرة فيها بخور، وهو يدور في الكنيسة يبخرها، فتأمّلاه

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.

(٢) عبد الله بن الطَّيِّب، أبو الفرج: طبيب عراقي، واسع العلم، كثير التصنيف، خبير بالفلسفة. قال ابن ابي أصيبعة: كان كاتب «الجاثليق» ومتميزاً في النصارى ببغداد، يعلم الطب في البيمارستان العضدي، ويعالج المرضى فيه. وكان معاصراً للرئيس ابن سينا، توفي سنة (٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م). له «مقالات أرسطو ـ خ» و«شرح أربع رسائل من كتب جالينوس ـ خ» وهي: الفرق، والصناعة الصغيرة، وكتاب النبض الصغير، وكتاب جالينوس إلى أغلوقن. وله «شرح مسائل حنين ـ خ» كما في أنوار البدرين (١٧٠) ونحو أربعين كتاباً في الطب والفلسفة، قرىء عليه بعضها سنة (٤٠٦هـ).
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٣ـ ٣٢٥، ابن العبري ٣٣٠ـ ٣٣١، وتاريخ حكماء الاسلام ٣٠٨، وهدية العارفين ١/ ٤٥٠، والأعلام ٤/ ٩٤.

(٣) عيون الأنباء ٣٢٣ـ ٣٢٤.

وتحدثا بالفارسية، وأداما النظر إليه والتعجب من فعله هذا، وهو من أجل الحكماء، فكأنه رآهما وفهم عنهما ما هما فيه. فلما فرغ من شأنه، لبس ثيابه المعتادة، وقربت له البغلة فركبها، ومشت الغلمان حوله، فتبعاه وسألاه أن يقرئهما، فقال لهما: أحججتما قط، فقالا: لا، فقال: لا أقريكما حتى تحجا، فحجا ثم أتياه وقد علاهما الشحوب، ورؤوسهما محلقة، فسألهما عن مناسك الحج وما فعلاه فيها، فأخبراه بها، فقال لهما: لما رميتما الجمار بقيتما عُراة موشحين وبأيديكما الحجارة وأنتما تهرولان وترميان بها، قالا: نعم، فقال: هكذا الأمور الشرعية، تؤخذ نقلاً لا عقلاً، فعرفا قصده وعجبا منه. ثم اشتغلا عليه وكانا من أجلِّ تلامذته.

ومنهم:

[٢١]

أبو الوليد، محمد بن محمد بن المجلي الجزري، المعروف بابن الصائغ(١)

أثرى بالفضائل وما كنزها، وأثار علوم الأوائل وما ركزها، هذا مع أدب لا يُرنَّق، وطلب لبس ثوب نمر لا يبنق، وشعر هو شعاع بنت الزرجون، وشعاع الفجر المتفرق تحت أرز الدجون.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان إماماً/ ٥٣/ مشهوراً، وعالماً مذكوراً، وفيلسوفاً مميزاً، وأديباً مبرزاً، ويعرف بالعنتري؛ لأنه كان في صباه يكتب أحاديث عنترة العبسي.

ومن كلامه قوله:

تعلم العلم فإنه لو لم ينل به من الدنيا إلا الغنى عمن يستعبدك بحق أو باطل.

---

(١) محمد بن المجلي بن الصائغ الجزري، أبو المؤيد العنتري: طبيب، عالم بالحكمة والفلسفة، أديب، جيد الشعر. من أهل «الجزيرة» بين دجلة والفرات. كان في أول أمره يكتب أخبار «عنترة العبسي» فاشتهر بنسبته إليه. وصنف كتباً، منها: «النور المجتبى» في الأدب والأخبار، رتبه على فصول السنة، و«الجمانة» في العلم الطبيعي والإلهي، و«العشق الإلهي والطبيعي» رسالة، و«الأقرباذين» كبير.
توفي نحو سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٥م).
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٨٩ـ ٣٩٩، معجم الأطباء ٤٢١، وفيه وفاته سنة «٦٥٠ تقريباً» خطئاً، الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٤، وفيه تاريخ وفاته سنة «٥٦٠ تقريباً»، الأعلام ٧/ ١٩.

(٢) عيون الأنباء ٣٨٩ـ ٣٩٩.

تعلم العلم ليريك العالم يقادون بأزمة الجهل إلى الخطأ والصواب.

الجاهل عبدٌ لا يعتق إلا بالمعرفة.

الحكمة سراج النفس فمتى عدمتها، عميت عن الحق.

الحكمة دواء من الموت الأبدي.

الشخص بلا علم كالجسد بلا روح.

من أحب أن ينطق باسمه، فليكثر من العناية بعلمه.

العالم المحروم أشرف من الجاهل المرزوق.

الجاهل يطلب المال، والعالم يطلب الكمال.

الغم ليل القلب والسرور نهاره، وشرب السم أهون من معاناة الهم.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

لوْ كنتَ تعلمُ كلَّ ما علمَ الوَرَى ... حقّاً لكنتَ صديقَ كُلِّ العالَمِ

لكنْ جَهِلْتَ فَصِرْتَ تحسبُ كلَّ مَنْ ... يَهوَى خلافَ هَواك ليسَ بعالِمِ

اسْتَحْيِ إنَّ العَقلَ أَصبحَ ضاحكاً ... مما تقولُ وأنتَ مثْلُ النائمِ

وقوله: [من الخفيف]

قدْ كَشَفْتُ الأَشياءَ بالفِعْل حتى ... ظَهرتْ لي وليسَ فيها التباسُ

وعَرَفْتُ الرجالَ بالعِلِم لمَّا ... عَرَفَ العِلْمَ بالرجالِ الناسُ

وقوله: [من الكامل]

لا تُدنِيَنَّ فتًى يَوَدُّكَ ظاهِراً ... منهُ وضدُّ وُدَادِهِ في طَبْعِهِ

واهجرْ صديقَكَ إنْ تنكَّرَ وُدُّهُ ... فالعضوُ يُحسمُ داؤُهُ في قَطْعِهِ

وقوله: [من الكامل]

عَدِّلْ مِزاجَكَ ما استطعتَ ولاتكنْ ... كَمُسَوِّفٍ آذى بهِ التَّخليطُ

واحفظْ عليكَ حَرارةً برُطوبةٍ ... تَبقى فَتَرْكُكَ حِفظَها تَفريطُ

/ ٥٤/ واعلمْ بأنَّكَ كالسِّراجِ بقاؤُهُ ... ما دامَ في طَرْفِ الذُّبالِ سَلِيطُ

وقوله في مليح تنقل بالرمان على الخمر: [من السريع]

تَنَقَّلَ الرُّمانُ إثْرَ الطِّلا ... مَخافَةً مِنْ ضَرَرِ السُّكرِ

كأنَّهُ وهوَ خَبيرٌ بِهِ ... يُكَسِّرُ الياقُوتَ بالدُّرِّ

وقوله: [من مخلع البسيط]

رأَيـتُ فـوقَ الـرئـيـسِ عِـلْـجـاً أَسـودَ يـعـلـوهُ كـالـحِـمـارِ
يَـدفِـنُ فـي الـعـاجِ آبـنـوسـاً ويُـولِـجُ الـلـيـلَ فـي الـنـهـارِ

وقوله: [من مخلع البسيط]

قـدْ أَقـبـلـتْ غُـولـةُ الـصَّـبـايـا تـنـظـرُ مِـنْ مَـعْـلَـمِ الـنـقـابِ
فـقـلـتُ مِـنْ أَعـظـمِ الـرَّزايـا قُـفْـلٌ عـلـى مَـنْـزلٍ خَـرَابِ

وقال: [من الكامل]

احـفـظْ بُـنـيَّ وصـيـتـي واعـمـلْ بـهـا فـالـطّـبُّ مـجـمـوعٌ بـنـصِّ كـلامِـي
قَـدِّمْ عـلـى طِـبِّ الـمَـريـضِ عِـنـايـةً فـي حِـفْـظِ قُـوَّتِـهِ مَـعَ الأيـام
بـالـشِّـبْـهِ تَـحـفـظُ صِـحَّـةً مـوجـودةً والـضِّـدُّ فـيـهِ شِـفـاءُ كـلِّ سَـقـامَ
أقـلـلْ نـكـاحَـكَ مـا اسـتـطـعـتَ فـإنـهُ مـاءُ الـحـيـاةِ يُـراق فـي الأَرحـامَ
واجـعـلْ طـعـامـكَ كـلَّ يـوم مَـرَّةً واحـذرْ طـعـامـاً قـبـلَ هَـضْـم طَـعـامَ
لا تَـحْـقَـرِ الـمَـرَضَ الـيـسـيـرَ فـإنـهُ كـالـنـارِ تُـصـبـحُ وهـيَ ذاتُ ضَـرامَ
وإذا تـغـيَّـرَ مـنـكَ حـالٌ ظـاهـرٌ فـاحـتـلْ لـرجـعـةِ حَـلِّ كـلِّ نـظـامَ
لا تـهـجـرنَّ الـقَـيءَ واهـجـرْ كـلـمـا كَـيـمـوسُـهُ سـبـبٌ إلـى الأسَـقـامَ
إنَّ الـحِـمَـى عـونُ الـطـبـيـعـةِ مُـسْـعِـدٌ شـافٍ مِـنَ الأمـراضِ والآلامَ
لا تَـشـربـنَّ عَـقِـيْـبَ أكَـلٍ عـاجـلٍ أو تـأكـلـنَّ عَـقِـيـبَ شُـربِ مُـدامَ
/٥٥/ والقيءُ يقطع والقيامُ كِلاهما بـهـمـا ولـيـسَ بـنـوعِ كـلِّ قِـيـامَ
وخـذِ الـدواءَ إذا الـطـبـيـعـة كُـدِّرَتْ بـالاحـتـلام وكَـثْـرةِ الأحـلامَ
إيـاكَ تـلـزمُ أكـلَ شـيءٍ واحـدٍ فـتـقـودَ نـفـسَـكَ لَـلأذى بـزمـامَ
وإذا الـطـبـيـعـةُ مـنـكَ نَـقَّـتُ بـاطـنـاً فـدواءُ مـا فـي الـجـلـدِ بـالـحَـمَّـامَ
وتـزيـدُ فـي الأخـلاطِ إنْ نـقـصـتْ بـهِ زادتْ فـنـقِّـص فـضـلَـهـا بـقـوامَ
والـطـبُّ جـمـلـتُـهُ إذا حـقـقـتَـهُ حَـلٌّ وعَـقَـدُ طـبـيـعـةِ الأجـسـامَ
ولـعـقـلِ تـدبـيـرِ الـمِـزاجِ فـضـيـلـةٌ يُـشـفـى الـمـريـضُ بـهـا وبـالأوهـامَ

وهي تروى للرئيس ابن سينا، ولابن بطلان، والصحيح أنها لأبي الوليد[١].

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٨٩ـ ٣٩٩.

[٢٢]

ابن الخطيب الرازي، ابن خطيب الري

وهو: محمد بن عمر بن الحسين، أبو عبد الله الإمام فخر الدين[١].

حبر الأعلام، وبحر الكلام، طالما أغصَّ المُناظر، وخصَّ بالعجب كل ناظر، وقطف الكلام منوَّراً، وجلا سدف الظلام منوراً، ونظر في كل فن، وحضر له تحقيق في كل ظن، وجاء بحلية المناقب، وزينة النجوم الثواقب، وطاب بذكره كل سمر،

(١) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري سنة (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م) وإليها نسبته، ويقال له«ابن خطيب الري» رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة سنة (٦٠٦هـ/ ١٢١٠م). أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه «مفاتيح الغيب ـ ط» ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات ط» و«معالم أصول الدين ـ ط» و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ـ ط» و«المسائل الخمسون في أصول الكلام ـ ط» و«الآيات البينات ـ خ» مع شرح ابن أبي الحديد له، في خزانة الأسكوريال، المجموعة (٣٣) و«عصمة الأنبياء ـ خ» كراريس من أوله، في خزانة الرباط «المجموعة ١٨٨٠ كتاني» و«الإعراب ـ خ» في شستربتي، الرقم (٣٣٧٤)، و«أسرار التنزيل ـ خ» في التوحيد، و«المباحث المشرقية ـ ط» و«أنموذج العلوم ـ خ» و«أساس التقديس ـ ط» رسالة في التوحيد، و«المطالب العالية ـ خ» في علم الكلام، و«المحصول في علم الأصول ـ خ» و«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ـ ط» بلاغة، و«السر المكتوم في مخاطبة النجوم ـ خ» و«الأربعون في أصول الدين ـ ط» و«نهاية العقول في دراية الأصول ـ خ» في أصول الدين. و«القضاء والقدر» و«الخلق والبعث» و«الفراسة» و«البيان والبرهان» و«تهذيب الدلائل» و«الملخص» في الحكمة، و«النفس» رسالة، و«النبوات» رسالة، و«كتاب الهندسة» و«شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا ـ ط» تهذيبه، و«شرح سقط الزند للمعري» و«مناقب الإمام الشافعي ـ ط» و«شرح أسماء الله الحسنى ـ ط» و«تعجيز الفلاسفة» بالفارسية، وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين.

ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٢/ ٢٨٨، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم، ورقة ٢٣٠، ورقة ٢٣٠، وتاريخ الحكماء ٢٩١ـ٢٩٣، ومرآة الزمان ج٨ ق ٢/ ٥٤٢، ٥٤٣، وقلائد الجمان لابن الشعار ٦/ ٨٠ـ ٨٨ رقم ٦١٣، والتكملة لوفيات النقلة ٢/ ١٨٦ـ ١٨٧ رقم ١١٢١، وذيل الروضتين ٦٨، وعيون الأنباء ٤٦٢ـ ٤٧٠، والجامع المختصر ٩/ ٣٠٦ـ ٣٠٧، وتاريخ مختصر الدول ٢٤٠، ووفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨، ٢٥٢، وتاريخ الزمان لابن العبري ٢٤٩، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٧٧ـ٣٧٩، وتلخيص مجمع الآداب ٣/ ٣٥٧، وتاريخ إربل ١/ ٣٢٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٢، ونهاية الأرب ٢٩/ ٥١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣١٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٤٩، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٠ـ ٥٠١ رقم ٢٦١، وميزان الاعتدال ٣/ ٣٤٠ رقم ٦٦٨٦ «الفخر بن الخطيب»، والمغني في الضعفاء ٢/ ٥٠٨ رقم ٤٨٨٩، ودول الإسلام ٢/ =

وصدق منه حديث ابن عمر، هذا إلى توقير الملوك لجنابه، وتوفير خاطره الذي لو شاء لجنى به، وتعظيم حل به الذرى، وحَلَّى ببعضه الورى، وخَلَّى سهلاً ما بين الثريا والثرى، لعلم قصر من لبه، ومَسَكَ الناس بسببه، وجال ما بين الخافقين، وجاب به فامتدت الجداول من منبعه، وعَدَّت يد الأنواء دون اصبعه، وسرى صيته، والرياح رواكد، وشرّق في البلاد وغرّب، والنجوم إلى الصباح رواصد، وقطع في التصانيف النافعة شُقق الأيام العريضة، وجعل جناح النسر في الليالي الطوال مثل جناح البعوضة، حتى طافت الأقطار، وطارت في كل مطار، وها هي الآن ملتزمة في الأيدي مثل خطوط الراح، وفي نظر العيون مثل فلق الصباح.

= ١١٢ـ ١١٣، والعبر ٥/ ١٨ـ ١٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٧، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ٣٣ـ ٤٠ ٨/ ٨١ـ٩٦، ومرآة الجنان ٤/ ٧ـ١١، والوافي بالوفيات ٤/ ٢٤٨ـ٢٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٥٥ـ ٥٦، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٥٤أ ـ ١٥٥ب، وطبقات الشافعية للمطري، ورقة ١٩٤ب، والوفيات لابن قنفذ ٣٠٨ وفيه «ابن الخطيب الرازي»، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٢٦٠ـ ٢٦١، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ٧٤ـ ٧٥، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٠، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٣٩٦ـ ٣٩٨ رقم ٣٦٦، وطبقات النحاة واللغويين، له ورقة ٤٨، والعسجد المسبوك ٣٣٢ وفيه مولده سنة ٥٤٣هـ، ٣٣٢ـ ٣٣٣ وفيه مولده سنة ٥٤٤هـ. ولم يتنبه المحقق للكتاب إلى أن صاحب الترجمة قد تكرر في السنتين، وهما واحد، ولسان الميزان ٤/ ٤٢٦ـ ٤٢٩ رقم ١٣١١، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٣٢٢ـ٣٢٤، وتاج التراجم ٩٣، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٩٧ـ ١٩٨، ومفتاح السعادة ١/ ٤٤٥، وكشف الظنون ٦١، ٦٧، ٨٣، ٩٤، ١٢٠، ٢٠٤، ٢٢٤، ٩٦٢، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٥٩، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٤، ٥١٥، ٦٠٥، ٦٣٣، ٧٢٥، ٧٣٠، ٧٣٩، ٧٦٠، ٩٥٤، ٩٨٩، ٩٩٣، ١٠٣٥، ١١١٣، ١١٤١، ١١٨٦، ١٣١٢، ١٤٤٥، ١٤٦٧، ١٥٦١، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦٩٧، ١٧١٤، ١٧٢٦، ١٧٢٧، ١٧٥٦، ١٧٧٤، ١٨١٩، ١٨٤٠، ١٨٦٤، ١٩٠٥، ١٩٧٣، ١٩٨٦، ١٩٨٨، ٢٠٠٢، وشذرات الذهب ٥/ ٣١، وروضات الجنات ١٩٠ـ١٩٢، وهدية العارفين ٢/ ١٠٧ـ ١٠٨، وإيضاح المكنون ٢/ ٢٦٩، وديوان الإسلام ٢/ ٣٣٨ـ٣٤٠ رقم ١٠٠٥، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ٢١٦ـ ٢١٧، وطبقات المفسرين للسيوطي ٣٩، ومعجم الشافعية لابن عبد الهادي، ورقة ٤٧ـ ٤٨، وتاريخ ابن سباط تحقيق التدمري ١/ ٢٤٨، وفهرس مخطوطات الظاهرية للعش ٦/ ٢٤٩، وفهرس المخطوطات المصورة ١/ ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٥٣)، وفهرست الخديوية ١٠/ ١٧٣، ٢١٣ـ٢١٦ و٥/ ١٥٨، ١٥٩، ٣٧٠ و٦/ ١٠٥، والخالدون العرب لطوقان ٦٩ـ٧٦، والمجددون في الإسلام للصعيدي ٢٢٤ـ٢٢٨، ومعجم المؤلفين ١١/ ٧٩ـ٨٠، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسرين ٢٨٢، رقم ٥٥٠، الأعلام ٦/ ٣١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٠١ـ٦١٠هـ) ص٢١١ رقم ٣١١.

وحدثني شيخنا قاضي /٥٦/ القضاة جلال الدين القزويني، وقد جرى ذكره، قال: كانت الملوك تتقي حد لسانه حتى احتاج صاحب الألموت إلى إعمال الحيلة في مداراته، وتَسَبَّبَ لمال قبله منه، وأخافه لاستصلاح خاطره؛ لأنه كان لا يزال يبحث في فساد عقيدته، وتزييف أقواله، فينفر الناس عن دعاته، ويرد بالحرمان مساعي سعاته. وإذا كان هذا فعله بصاحب الألموت، وهو الذي كان من عاداه يموت، فكيف كان من يتهيب الآجال، وما عنده إلا نساءٌ في زي رجال.

ذكره ابن أبي أصيبعة، فقال[1]: أفضل المتأخرين وسيد الحكماء المتقدمين، قد أشرعت سيادته، واشتهرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته، وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة تلميذ من الفقهاء وغيرهم، وكان خوارزم شاه يأتي إليه. وكان ابن الخطيب شديد الحرص على تحصيل العلوم الشرعية والحكمية، جيد الفطرة، حاد الذهن، حسن العبارة، كثير البراعة، قوي النظر في منازع الطب، ومباحثه، عارفاً بالأدب وشعوبه، وله شعر بالعربي والفارسي، وكان عبل البدن، ربع القامة كبير اللحية، وكان في صوته فخامة، وكان يخطب في بلدة الري، وغيرها من البلاد، ويتكلم على المنبر بأنواع من الحكمة، وكان الناس يقصدونه من البلاد، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفننهم فيما يشتغلون به، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه، وكان الإمام فخر الدين قد قرأ الحكمة على مجد الدين الجيلي بمراغة، وكان مجد الدين هذا من الأفاضل العظماء في زمانه، وله تصانيف جليلة.

وحكى لنا القاضي شمس الدين الحبوني عن الشيخ فخر الدين ابن الخطيب أنه قال: والله إني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز.

وحدثني محيي الدين قاضي مرند قال: لما كان الشيخ فخر الدين بمرند أقام بالمدرسة التي كان أبي مدرسها، وكان يشتغل /٥٧/ عنده بالفقه، ثم اشتغل بعد ذلك لنفسه بالعلوم الحكمية، وتميز حتى لم يكن أحدٌ يضاهيه، واجتمعت به أيضاً بهمذان واشتغلت عليه، قال: وكان لمجلسه، جلالة عظيمة، وكان يتعاظم حتى على الملوك، وكان إذا جلس للتدريس يكون قريباً منه جماعة من تلاميذه الكبار مثل زين الدين الكتبي، والمصري، والقطب، وشهاب الدين النيسابوري، ثم يليهم بقية التلامذة، وسائر الخلق على قدر مراتبهم، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثونه أولئك

---

(١) عيون الأنباء ٤٦٢.

التلامذة الكبار، فإن جرى بحثٌ مشكلٌ أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه، ويتكلم في ذلك المعنى بما يفوق الوصف.

وحدثني شمس الدين محمد الوتار الموصلي، قال: كنت في بلد هراة في سنة ست وستمائة، وقد كان قصدها فخر الدين بن الخطيب من بلد باميان، وهو في أبهة عظيمة، وحشم كبير، فلما ورد إليها تلقاه السلطان بها وهو حسين بن جرمين وأكرمه إكراماً كثيراً، ونصب له بعد ذلك منبراً وسجادة في صدر الإيوان ليجلس في ذلك الموضع ويكون له يوم مشهود يراه فيه سائر الناس ويسمعون كلامه. وكنت ذلك اليوم حاضراً مع جماعة من الناس وإلى جانبي شرف الدين ابن عُنَين الشاعر رحمه الله، وذلك المجلس حفل جداً بكثرة الناس، والشيخ فخر الدين في صدر الإيوان، وعن جانبه يمنة ويسرة صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف، وجاء إليه السلطان حسين بن جرمين صاحب هراة فسلم، وأمره الشيخ بالجلوس إلى جانبه أو قريباً منه، وجاء إليه أيضاً السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغوري صاحب كيروزكوه فسلم، وأشار إليه الشيخ بالجلوس في موضع آخر قريباً منه من الناحية الأخرى، وتكلم الشيخ في النفس بكلام عظيم وفصاحة بليغة. قال: وبينما نحن عنده في ذلك الوقت وإذا بحمامة تدور في الجامع وخلفها صقر يكاد أن يقتنصها، وهي تطير في جوانب الجامع إلى أن عييت، فدخلت /٥٨/ الإيوان الذي فيه الشيخ، ومرت طائرة بين الصفين إلى أن رمت نفسها عنده. فذكر لي شرف الدين بن عنين أنه عمل شعراً على البديهة، ثم نهض لوقته واستأذنه في أن يورد ما قاله في المعنى، فأمره الشيخ، فقال[١]: [من الكامل]

جاءتْ سُليمانَ الزمانِ حَمِامةٌ والمَوتُ يلمعُ مِنْ جَناحَي خاطِفِ
مَنْ نَبّأ الوَرقاءَ أنَّ محَلَّكُمْ حَرَمٌ وأنَّكَ مَلجأٌ للخائفِ

فطرب لها الشيخ فخر الدين وأدناه وأجلسه قريباً منه، وبعث إليه، بعد ما قام من مجلسه، خلعة كاملة ودنانير كثيرة، وبقي دائماً يحسن إليه.

قال لي شمس الدين الوتار: لم ينشد قدامي لابن خطيب الري سوى هذين البيتين، وإنما بعد ذلك زاد فيها أبياتاً أخر. هذا قوله. وقد وجدت هذه الأبيات المزادة في ديوانه على هذا المثال[٢]. [من الكامل]

يا ابنَ الكرامِ المُطعمينَ إذا شَتَوا في كلِّ مَخمصةٍ وثلجٍ حاسفِ

---

(١) ديوان ابن عنين ٩٥.

(٢) ديوان ابن عنين ٥٣ـ ٥٥.

العاصمينَ إذا النفوسُ تطايرتْ بينَ الصوارمِ والوشيجِ الراعِفِ
مَنْ نَبأ الورقاءَ أنَّ محلَّكمْ حَرَمٌ وأنَّكَ مَلجأٌ للخائفِ
وفدتْ إليكَ وقدْ تَدانى حَتْفُها فَحَبَوتَها ببقائِها المُستأنفِ
ولوَ انها تحيا بمالٍ لانثنتْ مِنْ راحتيكَ بنائلٍ مُتضاعفِ
جاءتْ سليمانَ الزمانِ بشجوها والموتُ يلمعُ مِنْ جَناحي خاطفِ
قَرِمٌ لواُه الفَوتُ حتى ظِلُّهُ بإزائِهِ يَجري بقلبٍ رَاجِفِ

قال: ومما حكاه شرف الدين بن عنين أنه حصل من جهة فخر الدين بن خطيب الري وبجاهه في بلاد العجم نحو ثلاثين ألف دينار، قال: ومن شعره فيه قوله وسيرها إليه من نيسابور إلى هراة. ويهنيه فيها بكون السلطان محمود خوارزم شاه ولاه أمور الوقوف والمدارس في سائر بلاد السلطان / ٥٩/ وهي مدن كثيرة يقول[1]: [من الكامل]

ريحَ الشَّمالِ عَساكِ أَنْ تَتَحَمَّلي خدمي إلى صَدْرِ الإمام الأَفضلِ
وقِفِي بواديهِ المُقدَّسِ وانظُري نُورَ الهُدَى متألقاً لا يأتلي
مِنْ دَوْحةٍ فَخريَّةٍ عُمريّةٍ طابتْ مَغارسُ مَجْدِها المُتأثِّلِ
مكيَّةُ الأنسابِ زاكٍ أصلُها وفُروعُها فوقَ السِّماكِ الأَعْزلِ
واستمطري جدْوى لديهِ فَطالما خَلَفَ الحَيا في كلِّ عامٍ مُمْحِلِ
تغدو سحائبُها تَعمُّ كما بَدَتْ لا يُعرفُ الوَسْمِيُّ منهاً والوَلِيْ
بحرٌ تصدَّرَ في العُلومِ ومَنْ رَأى بحراً تصدَّرَ قلبُهُ في مَحْفِلِ
ومُتَيَّمٌ في اللهِ يسحبُ للتقى والدينِ سِربالَ العَفافِ المُسبَلِ
ماتتْ بهِ بِدَعٌ تمَادَى عُمرُها دَهْراً وكادَ ظَلامُها لا يَنجلي
فَعَلا بهِ الإسلامُ أَرفعَ هَضْبَةٍ ورَسا سِوَاهُ في الحَضيضِ الأَسْفَلِ
غَلِطَ امرؤٌ بأَبى عليٍّ قاسَهُ هَيهاتَ قَصَّرَ عَنْ مَدَاه أَبو علي
لَوْ أنَّ رسطاليسَ يسمعُ لفظةً مِنْ لفظِهِ لعرتْهُ هِزَّةُ أَفْكَلِ
ويحارُ بطليموسُ لوْ لاقاهْ مِنْ برهانِهِ في كلِّ شكلٍ مُشكلِ
فلوَ انهم جُمِعُوا إليهِ تيقَّنُوا أنَّ الفضيلةَ لمْ تكنْ للأولِ
وبهِ يبيتُ الحِلمُ مُعتصماً إذا هَزَّتْ رياحُ الطَّيشِ صفحةَ يَذْبُلِ
يَعفُو عَنِ الذنبِ العظيمِ تكرُّماً ويجُودُ مَسؤُولاً وإنْ لمْ يُسألِ

---

(١) ديوان ابن عنين ٩٥.

أَرضـى الإلـهَ بـفـضـلِـهِ ودفـاعِـهِ عَـنْ ديـنِـهِ وأَقَـرَّ عَـيْـنَ الـمُـرسَـلِ
يـا أيـهـا الـمَـولـى الـذي دَرَجـاتُـهُ تَـرنُـو إلـى فَـلَـكِ الـنـوائـبِ مِـنْ عَـلِ
مـا مَـنـصِـبٌ إلا وقَـدْرُكَ فـوقَـهُ فـبـمـجـدكَ الـسـامـي يـهـنـي مـا تـلـي
فَـمَـتَـى أرادَ اللهُ رِفـعـةَ مَـنـصِـبٍ أَفـضَـى إلـيـكَ فـنـالَ أَشـرفَ مـنـزلِ
/ ٦٠/ لا زالَ رَبْـعُـكَ لـلـوفـودِ مـحـطـةً أبـداً وجُـودُكَ كَـهْـفَ كـلِّ مُـؤَمِّـلِ

وحدثني نجم الدين يوسف بن شرف الدين علي بن محمد الاسفرايني، قال:
وكان الشيخ الإمام ضياء الدين عمر والد الإمام فخر الدين من الري، وتفقه واشتغل بعلم الخلاف والاصول حتى تميَّز تميزاً كثيراً، وصار قليل المثل، وكان يدرس بالري ويخطب في أوقات معلومة هنالك، ويجتمع عنده خلق كثير من حسن ما يورده في نطقه وبلاغته، حتى اشتهر بذلك بين الخاص والعام في تلك النواحي. وله تصانيف عدة توجد في الأصول وفي الوعظ وغير ذلك، وخلف ولدين أحدهما الإمام فخر الدين، والآخر هو الأكبر سناً كان يلقب بالركن، وكان هذا الركن قد قرأ شيئاً من الخلاف والفقه والاصول إلا أنه كان أهوج، كثير الاختلال، فكان أبداً لا يزال يسير خلف أخيه الإمام فخر الدين، ويتوجه إليه في أي بلد قصده، ويشنع عليه، ويسفه المشتغلين بكتبه والناظرين أقواله، ويقول: ألست أكبر منه، وأكثر معرفة بالخلاف والاصول؟ فلم يقول الناس: فخر الدين، فخر الدين، ولا أسمعهم يقولون ركن الدين؟ وكان ربما صنف شيئاً بزعمه ويقول هذا [خير] من كلام فخر الدين، والجماعة يعجبون منه، وكثير منهم يصفونه ويهزؤون منه. وكان الإمام فخر الدين كلما بلغه شيء من ذلك صعب عليه، ولم يؤثر أن أخاه بتلك الحالة ولا أحد يسمع قوله. وكان دائم الإحسان إليه، وربما يسأله المقام في الري أو في غيره وهو يتفقده ويصله بكل ما يقدر عليه. فكان كلما سأله ذلك يزيد في فعله ولا ينقص من حاله. ولم يزل كذلك لا ينقطع عنه، ولا يسكت عما هو فيه، إلى أن اجتمع الامام فخر الدين بالسلطان خوارزمشاه، وأنهى إليه حال أخيه وما يقاسي منه، والتمس منه أن يتركه في بعض المواضع، ويوصي عليه أن لا يمكَّن من الخروج والانتقال عن ذلك الموضع، وأن يكون له ما يقوم بكفايته من / ٦١/ كل ما يحتاج. فجعله السلطان في بعض القلاع التي له، وأطلق له إقطاعاً يقوم به كل سنة بما مبلغه ألف دينار، ولم يزل هنالك مقيماً حتى قضى الله فيه أمره.

قال: وكان الإمام فخر الدين علامة وقته في كل العلوم، وكان الخلق يأتون إليه من كل ناحية، وكان الخطيب أيضاً بالري. وكان له مجلس عظيم للتدريس. فإذا تكلم بذَّ القائلين.

وكان عبل البدن باعتدال، عظيم الصدر والرأس، كث اللحية. ومات وهو في سن الكهولة، أشمط مغير اللحية. وكان كثيراً ما يذكر الله تعالى ويستغفره، ويسأله الرحمة والقبول والتجاوز عن زلَله ويقول: إنني حصلت من العلوم ما يمكن تحصيله بحسب الطاقة البشرية، وما بقيت أؤثر إلاَّ لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

قال: وخلف فخر الدين ولدين ذكرين أكبرهما يلقب بضياء الدين، وله اشتغال ونظر في العلوم، والآخر وهو الصغير لقبه شمس الدين وله فطرة فائقة وذكاء حاذق، وكان كثيراً ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء، ويقول: إن عاش هذا فإنه يكون أعلم مني، وكانت النجابة تتبين فيه من الصغر. ولما توفي الإمام فخر الدين بقي أولاده مقيمين في هراة، ولقب ولده الصغير بعد ذلك فخر الدين لقب والده، وكان الوزير علاء الملك العلوي متقلداً الوزارة للسلطان خوارزمشاه، وكان علاء الملك عالماً فاضلاً متقناً لعلوم الأدب، ويشعر بالعربية وبالفارسية. وكان قد تزوج بابنة الشيخ فخر الدين، ولما جرى أن جنكلي خان ملك التتر قهر خوارزمشاه وكسره، وقتل أكثر عسكره، وبعد خوارزم شاه توجه علاء الملك قاصداً إلى جنكز خان ومعتصماً به فلما وصل إليه أكرمه وجعله من جملة خواصه عندما استولى التتر على بلاد العجم وخربوا قلاعها ومدنها وكانوا يقتلون في كل مدينة جميع من بها، ولا يبقوا أحداً بها، تقدم علاء الملك إلى جنكز خان، وقد توجهت فرقة من عساكره إلى مدينة هراة ليخربوها، ويقتلوا من بها، فسأله أن يعطيه أماناً لأولاد الشيخ /٦٢/ فخر الدين ابن خطيب الري، وأن يجيبوهم مكرمين إليه، فوهب له ذلك، وأعطاهم أماناً. ولما ذهب أصحابه إلى هراة، وشارفوا أخذها، نادوا فيها بأن لأولاد فخر الدين بن الخطيب الأمان، فلينعزلوا ناحية في مكان، ويكون هذا الأمان. وكان في هراة دار الشيخ فخر الدين هي دار السلطنة، كان خوارزمشاه قد أعطاها له وهي أعظم دار تكون وأنهاها وأكبرها وأبهاها زخرفة واحتفالاً. فلما بلغ أولاد فخر الدين ذلك، أقاموا بها مأمونين، والتحق بهم خلق كثير من أهاليهم وأقربائهم وأعيان الدولة وكبراء البلد، وجماعة كثيرة من الفقهاء وغيرهم ظناً أن يكونوا في أمان لاتصالهم لأولاد فخر الدين، ولكونهم خصيصين بهم وفي دارهم، وكانوا خلقاً عظيماً. فلما دخل التتر إلى البلاد وقتلوا من وجدوا بها وانتهوا إلى الدار نادوا بأولاد فخر الدين أن يرونهم، فلما شاهدوهم أخذوهم، وهم ضياء الدين وشمس الدين وأختاهما. ثم سارعوا بسائر من كان في الدار فقتلوهم عن آخرهم بالسيف. وتوجهوا بأولاد الشيخ فخر الدين من هراة إلى سمرقند، لأن ملك التتر جنكز خان في ذلك الوقت بها وعنده علاء الملك، قال: ولست أعلم ما تم لهم بعد ذلك.

قال: وكان أكثر مقام الشيخ رحمه الله بالري، وتوجه أيضاً إلى بلد خوارزم ومرض بها وتوفي في عقابيله ببلدة هراة، وأملى في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني، وذلك في يوم الأحد الحادي وعشرين من شهر المحرم سنة ست وستمائة. وامتد مرضه إلى أن توفي يوم العيد غرة شوال من السنة المذكورة، وانتقل إلى جوار ربه رحمه الله تعالى.

وهذه نسخة الوصية:

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الراجي رحمة ربه الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي وهو في آخر عمره وعهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه /٦٣/ كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل واثق: إني أحمد الله تعلى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان. فأحمده بالمحامد التي تستحقها إلهيته، ويستوجبها لكمال ألوهيته، عرفتها أو لم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب؛ وأصلي على الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين. ثم أقول بعد ذلك: اعلموا إخواني في الدين، وإخواني في طلب اليقين أنَّ الناس يقولون إن الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق، وهذا العالم مخصوص بوجهين: الأول أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سبباً لذلك، والدعاء له آثر عند الله. والثاني ما يتعلق بمصالح الأطفال والأولاد والمعارف وأداء المظالم والجنايات. أما الأول فاعلم أنني كنت رجلاً محباً للعلوم فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كميته وكيفيته سواء كان حقاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً. إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة. وقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن. إنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات. وما ذاك إلاَّ العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك الأودية العميقة، والمناهج الخفية فلهذا أقول:

كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك الذي أقول به وألقى الله تعالى به. وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق

عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو. والذي / ٦٤/ لم يكن كذلك، أقول: يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فلك ما مر به قلبي أو خطر ببالي فاستشهد علمك. وأقول: إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله؛ وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقرير ما اعتقدت أنه هو الحق، وصورت أنه هو الصدق، فلتكن رحمتك معي فذاك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة. فأعني، وارحمني، واستر زلتي، وامح حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينتقص بخطأ المجرمين. وأقول: ديني متابعة سيد المرسلين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما. اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العثرات، ويا راحم العبرات، ويا قيّام المحدثات والممكنات. أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت: أنا عند ظن عبدي بي. وأنت قلت ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1] وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2] فهب أني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم، وأنا المحتاج اللئيم. واعلم أنه ليس لي أحد سواك، ولا أجد أكرم منك ولا أحداً محسناً سواك، وأنا معترف بالزلة والقصور، والعيب والفتور، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمناً من عذابك قبل الموت، وعند الموت، وبعد الموت، وسهل علي سكرات الموت، وخفف عني نزول الموت، ولا تضيق علي سبب الآلام والأسقام، فأنت أرحم الراحمين.

وأما الكتب العلمية التي صنفتها واستكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه، على سبيل التفضيل والإنعام، وليحذف القول السيىء؛ فإني ما أردت إلاَّ تكثير البحث وتشحيذ الخواطر والاعتماد في الكل على الله تعالى.

وأما المهم الثاني / ٦٥/ وهو إصلاح أمر الأطفال والعورات والاعتماد فيه على الله تعالى، ثم على نائبه في أرضه السلطان محمد. اللهم اجعله قرين محمد الأكبر في الدين والعلو، إلا أن السلطان الأعظم لا يمكنه أن يشتغل بمهمات الأطفال، فرأيت أن أفوض وصاية ولدي إلى فلان، وأمرته بتقوى الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ﴾[3].

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٣) سورة النحل: الآية ١٢٨.

وسرد الوصية إلى آخرها، ثم قال:

وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي أبي بكر. فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه، ولعل الله تعالى يوصله إلى خير. وأمرته وأمرت تلامذتي وكل من لي عليه الحق أني إذا مت يبالغون في إخفاء موتي، ولا يخبرون أحداً به، ويكفنوني ويدفنوني على الوجه الشرعي، ويحملونني إلى الجبل المصاقب لقرية مزرجان، ويدفنوني هناك. وإذا وضعوني في اللحد قرأوا علي ما قدروا عليه من آيات القرآن، ثم ينثرون علي التراب. بعد الإتمام ويقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج إليك فأحسن إليه. وهذا منتهى وصيتي من هذا الباب، والله تعالى الفعال لما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة والإحسان جدير.

ومن شعر فخر الدين ابن الخطيب أنشدني بديع الدين السكرهي مما سمعه من الشيخ فخر الدين ابن خطيب الري لنفسه فمن ذلك قال: [من الطويل]

نهايةُ إقدامِ العُقولِ عقالُ ... وأكثرُ سَعْي العالمينَ ضَلالُ
وأرواحُنا في غفلةٍ مِنْ جُسومِنا ... وحاصلُ دُنيانا أذًى ووبالُ
ولَمْ نستفدْ مِنْ بحثِنا طُولَ عُمْرِنا ... سِوَى أن جَمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قدْ رأينا مِنْ رجالٍ ودولةٍ ... فبادُوا جميعاً مُسرعينَ وزالوا
وكم من جبال قد عَلَتْ شُرفاتُها ... فزالوا جميعاً والجبال جبال

وقال: [من الطويل]

فلوْ قنعتْ نفسي بميَسورِ بُلغَةٍ ... لما سبقتْ في المَكرماتِ رجالَها
/٦٦/ ولوْ كانتِ الدنيا مناسبةً لها ... لما استحقرتْ نُقصانَها وكمالَها
ولا أرمقُ الدنيا بعينِ كَرامةٍ ... ولا أتَوقَّى سُوءَها واختلالَها
وذلكَ أنَي عارفٌ بفَنَائِها ... ومُستيقنٌ تَرْحالَها وانحلالَها
أرومُ أُموراً يصغرُ الدهرُ عندَها ... وتَستعظِمُ الأفلاكُ طُرْقَ اتصالَها

وقال أيضاً: [الطويل]

أرواحُنا ليسَ تَدري أينَ مَذْهَبُها ... وفي الترابِ تُوارى هذهِ الجُثَثُ
كَوْنٌ يُرى وفسادٌ جاءَ يتبعُهُ ... اللهُ أعلمُ ما في خَلْقِهِ عَبَثُ[1]

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٦٢ـ ٤٧٠.

[٢٣]

القطب المصري، وهو إبراهيم بن علي بن محمد السُلمي، أبو إسحاق، الإمام قطب الدين[١]

وكان قطب دائرة، ومركز شهب سائرة، ومظهر عجائب، ومشهر غرائب، ومُبيّن فضائل، ومُفنن خمائل، وآية فضل تدرس ومعالمها واضحة، وعلومها ناضحة، وهو وإن كان من الغرب مرماه، فإن في المشرق منماه، وهكذا صاحب تاريخ الأطباء وسماه، وما عدا في هذا واجباً، ولا نكب عن الحق جانباً إذ كان إنما استفاد المشرق وغاية المعلم الذي به ذكر، والفضل الذي عليه قصر.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: قديم أصله مغربي، وأتى مصر وأقام بها مدة، ثم سافر إلى بلاد العجم. ولقي الإمام الرازي فلزمه واشتغل عليه واشتهر هناك، وكان من أجل تلاميذ ابن الخطيب وأميزهم. وصنف كتباً كثيرة في الطب والحكمة، وشرح الكليات بأسرها. قال: ووجدته في كتابه هذا يفضل المسيحي وابن الخطيب على ابن سيناء، قال: وهذا نص قوله:

والمسيحي أعلم بصناعة الطب من أبي علي فإن مشايخنا كانوا يرجحونه على جمع عظيم ممن هم أفضل من أبي علي في هذا الفن. وقال أيضاً: عبارة المسيحي أوضح وأبين مما قاله الشيخ وغرضه في كتبه تقييد العبارة من غير فائدة وقال في تفضيل ابن الخطيب على ابن سينا: /٦٧/ فهذا ما تنخل من كلام الإمامين الفاضلين العظيمين الإمام المتقدم، والإمام المتأخر عنه زماناً، الراجح عليه علماً وعملاً واعتقاداً ومذهباً. وقتل القطب المصري في نيسابور فيمن قتله التتار بها رحمه الله تعالى.

ومنهم:

---

(١) إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، المعروف بالقطب المصري: طبيب، مغربي الأصل، أقام مدة بمصر ورحل إلى خراسان فتتلمذ للفخر الرازي، وصنفا كتباً في الطب والفلسفة، وشرح «الكليات ـ خ» من كتاب «القانون» لابن سينا، في شستربتي (٤١٣٣) ومنه مخطوطة في استنبول. وقتل بنيسابور لما استباحها التتار سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م). ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧١، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٤٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ٤٨، ٨/ ١٢١ـ ١٢٢، والوافي بالوفيات ٦/ ٦٩ رقم ٢٥٠٨، معجم الأطباء ٥٨، طبقات الأطباء طوبقبو ٣/ ٨١٦ـ٨١٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٣٨٣ رقم ٥٥١٠، والمقفى الكبير ١/ ٢٠٨ـ ٢٠٩ رقم ٢٣٠، وحسن المحاضرة ١/ ٣١٢، وهدية العارفين ١/ ١١، والأعلام ١/ ٥١، ومعجم المؤلفين ١/ ٦٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦١١ـ٦٢٠هـ ص٣٩٦ رقم ٥١٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٧١.

[٢٤]

عبد اللطيف البغدادي، هو ابن يوسف [بن] محمد بن علي بن أبي سعيد، عرف بابن اللباد، موفق الدين، أبو محمد، الموصلي الأصل، البغدادي المولد، ويعرف بالجدي المطجَّن(١)

مَسْرَح أمل، ومطمح علم وعمل، وزينة أرض ما هي في السماء لجدي ولا حَمَل، ناطح جديه الكباش فكسرها، ومزقها بظلفه ونسرها، إلى أن أخلى منها

---

(١) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة: من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والأدب. مولده سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) في بغداد ووفاته فيها سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) أقام مدة بحلب، وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز وغيرها. وحظي عند الملوك والأمراء. وكان دميم الخلقة قليل لحم الوجه، قويّ الحافظة. من كتبه «الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار ـ ط» رسالة، و«قوانين البلاغة» و«الإنصاف بين ابن بري وابن الخشاب» في كلامهما على المقامات، و«الجامع الكبير» في المنطق الطبيعي والإلهي، عشر مجلدات، و«بلغة الحكيم» و«الكلمة في الربوبية» و«الحكمة الكلامية» و«تهذيب كلام أفلاطون» و«القياس» أربع مجلدات، و«السماع الطبيعي» و«غريب الحديث» و«المغني الجلي ـ خ» في الحساب، و«التجريد ـ خ» في اللغة، و«ملخص مقالات التاج ـ خ» في الحلية النبوية، و«ذيل الفصيح ـ ط» لثعلب، و«شرح أحاديث ابن ماجه المتعلقة بالطب» واختصر كتباً كثيرة، منها الحيوان للجاحظ، وكتاب في النبات، وكتب رحلات وصف بها اسفاره والبلدان التي زارها. وله رسائل صغيرة سماها «مقالات» منها «النفس» و«العلم الإلهي» و«الماء» و«الحركات المعتاصة» و«العادات» و«حقيقة الدواء والغذاء» و«الحواس» و«النفس والصوت والكلام» و«المدينة الفاضلة» و«العلوم الضارة» و«تزييف ما يعتقده ابن سينا» و«إبطال الكيمياء» و«اللغات وكيفية تولدها» و«القدر».

ترجمته في: التقييد لابن نقطة ٣٨٢ـ٣٨٣ رقم ٤٩٥، وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي ١٥/ ٢٦٧، وإنباه الرواة للقفطي ٢/ ١٩٣ـ١٩٦، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٢٩٧ـ ٢٩٨ رقم ٢٣٦٨، وعيون الأنباء لابن أبي اصيبعة ٦٨٣ـ٦٩٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٢٠ـ٣٢٣ رقم ١٩٥، والمختصر المحتاج إليه ٣/ ٦٥ـ ٦٦ رقم ٨٦٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٥٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣١، والمعين في طبقات المحدثين ١٩٤ رقم ٢٠٥٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤١٤، والعبر ٥/ ١١٥ـ ١١٦، وتلخيص ابن مكتوم، ورقة ١١٤ـ ١١٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٧٣ـ ١٧٤ رقم ١٢٨، وفوات الوفيات ٢/ ١٦ـ ١٩، ومرآة الجنان ٤/ ٦٨، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٢٧٣ـ ٢٧٤، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٣٢، ٨/ ٣١٣ رقم ١٢١٧، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧١، وذيل التقييد للفاسي ٢/ ١٥٠ـ ١٥١ رقم ١٣٢٧، والوافي بالوفيات ١٩/ ١٠٧ـ ١١٥ رقم ٩٩ مكرر، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٣أ، وطبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة، رقة ١٩٠ـ ١٩١، وطبقات الشافعية، له ٢/ ٤١٠ =

المظان، وأبدل بسواد المعزى بياض الضَّان، وأعطاه أهل زمانه حقه في التعظيم وغُمط، وناظر كل قرين وهو الجدي وغيره الذي سُمط، فهادنته جناة الذئاب، وهابته جناة القرظ وطال عليهم الاياب، وجال في الجيل الأول وقد شمخ بقرنه، وسمج لقرنه، وجلَّ فلم ينتسب إليه كل عنزي من عنزة، ولا حسب كفوءاً لقرنه كبش كتيبة، ولا حديد عنزة، وأنسى كل من تقدمه هديا، وفخر به كل بلد قدمه وقدمت دمشق جدياً، وعلم العلم أنه له منتصب، وقامت قامة بلده وقد قيل لها حدباء؛ لأنها تصحيفه إذا نصب.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان مشهوراً بالعلوم، متحلياً بالفضائل، مليح العبارة، جيد التصنيف. وكان متميزاً في النحو واللغة والعربية، عارفاً بعلم الكلام والطب. وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها. وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه؛ وكان والده قد أشغله بصناعة الحديث في صباه. وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشتغلاً بعلم الحديث، بارعاً في علوم القرآن والقراءات، محموداً في المذهب والخلاف والأصول. وكان سليمان عمّ الشيخ موفق الدين [فقيهاً مجيداً. وكان الشيخ موفق الدين] عبد اللطيف كثير الاشتغال لا يخلي أشياء من أوقاته من النظر في الكتب /٦٨/ والتصنيف والكتابة والذي وجدته من خطه أشياء كثيرة جداً بحيث إنه كتب من مصنفاته نسخاً متعددة، وكذلك صحبة كثيرة بالديار المصرية لما كان بها. وكان أبي وعمي اشتغلا عليه بعلم الأدب. واشتغل عليه عمي أيضاً بكتب أرسطوطاليس. وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها، والفهم لمعانيها. وأتى إلى دمشق من الديار المصرية، وأقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمه. ورأيته في آخر مرة بدمشق، وهو شيخ نحيف الجسم، ربع القامة، حسن الكلام، جيد العبارة؛ وكانت مسطرته أبلغ من لفظه. وكان رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه. وكان ينتقص الفضلاء الذين في زمانه وكثيراً من المتقدمين. وكان وقوعه كثيراً جداً في علماء العجم ومصنفاتهم، وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه.

ونقلت من خطه في سيرته التي ألفها ما هذا مثاله قال: «إني ولدت بدار لجدي في درب الفالوذج في سنة سبع وخمسين وخمسمائة وتربيت في حجر الشيخ لا أعرف

= رقم ٣٧٨، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٥٠، وبغية الوعاة ٢/ ٣١١ رقم ١٥٥٥، وكشف الظنون ٣٠ وغيرها، وشذرات الذهب ٥/ ١٣٢، وهدية العارفين ١/ ٦١٤، وديوان الإسلام ٤/ ١٥٥-١٥٧ رقم ١٨٧٤، والأعلام ٤/ ٦١، ومعجم المؤلفين ٦/ ١٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٢١-٦٣٠هـ) ص٣٥٣ رقم ٥٢٢.

(١) عيون الأنباء ٦٨٣.

اللهو واللعب، وأكثر زماني مصروف في سماع الحديث، وأخذت لي إجازات من مشايخ بغداد وخراسان والشام ومصر. وقال لي والدي يوماً: قد سمعتك جميع عوالي بغداد. [وكنت في أثناء ذلك] أتعلم الخط، وأحفظ القرآن والفصيح، والمقامات، وديوان المتنبي ونحو ذلك، ومختصراً في الفقه، ومختصراً في النحو. فلما ترعرعت حملني والدي إلى كمال الدين عبد الرحيم الأنباري، وكان يومئذ شيخ بغداد، وله بوالدي صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية. فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذى كلاماً كثيراً متتابعاً فلم أفهم منه شيئاً، لكن التلاميذ حوله تعجبوا منه. ثم قال: أنا أجفو عن تعليم الصبيان احمله إلى تلميذي الوجيه [يقرأ عليه فإذا توسطت حاله قرأ علي. وكان الوجيه] عند بعض أولاد رئيس الرؤساء، وكان رجلاً أعمى من أهل الثروة والمروءة. فأخذني بكلتي يديه، وجعل يعلمني من أول النهار إلى آخره /٦٩/ بوجوه كثيرة من التلطف، وكنت أحضر بحلقته بمسجد الظفرية، ويجعل جميع الشروحات لي ويخاطبني بها. وفي آخر الأمر أقرأ درسي ويخصني بشرحه. ثم نخرج من المسجد فيذاكرني في الطريق، فإذا بلغنا منزله أخرج الكتب التي يشتغل بها مع نفسه فأحفظه وأحفظ معه، ثم يذهب إلى الشيخ كمال الدين، فيقرأ درسه ويشرح له، وأنا أسمع. وتخرجت إلى أن صرت أسبقه في الحفظ والفهم، وأصرف أكثر الليل في الحفظ والتكرار، وأقمنا على ذلك برهة، كلما جاء حفظي كثر وزاد، وفهمي قوي واستنار، وذهني احتد واستقام، وأنا ألازم الشيخ وشيخ الشيخ. وأول ما بدأت حفظت اللمع في ثمانية أشهر، أسمع كل يوم شرح أكثرها مما يقرؤه غيري، وانقلب إلى بيتي فأطالع شرح الفارسي، وشرح الشريف عمر بن حمزة، وشرح ابن برهان، وكل ما أجد من شروحها. وأشرحها لتلاميذ بحضوري إلى أن صرت أتكلم على باب باب كراريس، ولا ينفد ما عندي. وحفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظاً متقناً. أما النصف الأول ففي شهور. وأما تقويم اللسان ففي أربعة عشر يوماً؛ لأنه كان أربع عشرة كراسة. ثم حفظت مشكل القرآن وغريب القرآن له، وكان ذلك في مدة يسيرة. ثم انتقلت إلى الإيضاح لأبي علي الفارسي فحفظته في شهور كثيرة، ولازمت شروحه، وتتبعته التتبع التام، وتبحرت فيه وجمعت ما قال الشراح. وأما التكملة فحفظتها في أيام يسيرة كل يوم كراساً، وطالعت الكتب المبسوطة والمختصرات وواظبت على المقتضب للمبرد، وكتاب ابن درستويه. في أثناء ذلك لا أغفل عن سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب، وهي مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب.

قال: وللشيخ كمال الدين مائة وثلاثون تصنيفاً، أكثرها في النحو وبعضها في

الفقه وفي الأصولين وفي التصوف والزهد، وأتيت على أكثر تصانيفه / ٧٠/ سماعاً وقراءة. وشرع في تصنيفين كبيرين أحدهما في اللغة، والآخر في الفقه، ولم يتفق له إتمامها، وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه وأكببت على المقتضب فأتممته. بعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافي. ثم قرأت على أبي عبيدة الكرخي كتباً كثيرة منها كتاب الأصول لابن السراج، والنسخة في وقف ابن الخشاب بالمأمونية. وقرأت عليه الفرائض والعروض للخطيب التبريزي، وهو من خواص تلاميذ ابن الشجري. وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءاته معاني الزجاج على الكاتبة شهدة بنت الابري، وسمعت منه الحديث المسلسل وهو: «الراحمون يرحمهم الرحمن؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقال أيضاً موفق الدين البغدادي: إن من مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد أمين الدولة بن التلميذ. وبالغ في وصفه وكثر، وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين، وإلاَّ فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة ولا قريباً منها.

وقال: إنه ورد إلى بغداد رجل مغربي طوال في زي التصوف له أبهة، وليس بمقبول الصورة، عليه مسحة الدين، وهيأة السياحة، يتعقل لصورة من يراه يعرف بابن نائلي، يزعم أنه من أولا المتلثمة. خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن. فلما استقر ببغداد اجتمع إليه جماعة من الأكابر والأعيان، وحضر الرضي القزويني، ومشايخ الشيوخ. وكنت واحداً ممن حضره فاقرأني مقدمة حساب، ومقدمة ابن بابشاذ في النحو، وكان له طريق في التعلم عجيب. ومن يحضره يظن أنه متبحر وإنما كان متطرفاً، لكنه قد أمعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما جرى مجراها، وأتى على كتب جابر بأسرها، وعلى كتب ابن وحشية. وكان يخلب القلوب بصورته ومنطقة وإيهامه. فملأ قلبي شوقاً إلى العلوم كلها، واجتمع بالإمام الناصر لدين الله وأعجبه. ثم سافر وأقبلت على الاشتغال، وشمرت / ٧١/ ذيل الجد والاجتهاد، وهجرت النوم واللذات، وأكببتُ على كتب الغزالي المقاصد، والمعيار، والميزان، ومحك النظر. ثم انتقلت إلى كتب ابن سيناء صغارها وكبارها، وحفظت كتاب النجاة، وكتبت الشفاء وبحثت فيه، وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سيناء وحصلت كثيراً من كتب جابر بن حيان الصوفي وابن وحشية وباشرت على الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة، وأقوى من أضلني ابن سيناء بكتابه في الصنعة الذي تمم به فلسفته التي لا تزداد بالتمام إلا نقصاً.

قال: ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ

بقلبي ويملأ عيني، ويحل ما يشكل عليّ، حتى دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي، لكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً في باقي أجزاء الحكمة، قد استغرق عقله وحسه حسرة الكيمياء وعملها، حتى صار يستخف ما عداها. واجتمع إليَّ جماعة كثيرة، وعُرضت عليَّ مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها. وأقمت بالموصل سنة كاملة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً، وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا أحداً من قبلي مثل ما رأوا مني في سعة المحفوظ، وسرعة الخاطر وسكون الطائر، وسمعت الناس يلهجون في حديث الشهاب السهروردي المتفلسف، ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين، وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء، فهممت لقصده، ثم أدركني التوفيق، وطلبت من ابن يونس شيئاً من تصانيفه، وكان أيضاً معتقداً عليه فوقفت على التلويحات، واللمحة، والمعارج، فصادفت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان، ووجدت لي تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأول. وفي أثناء كلامه يثبت حروفاً مقطعة يوهم بها أمثاله أنها من أسرار إلهية.

قال: / ٧٢/ ولما دخلت إلى دمشق، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي، جمعاً كثيراً، منهم: جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبي النجيب، وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء، وابن طلحة الكاتب، وبيت ابن جهير، وابن العطار المقتول الوزير، واجتمعت بالكندي البغدادي النحوي، وجرى بيننا مباحثات، وكان شيخاً ذكياً مثرياً، له جانب من السلطان، لكنه كان معجباً بنفسه مؤذياً لجليسه، جرت بيننا مباحثات، فأظهرني الله عليه في مسائل كثيرة. ثم أني أهملت جانبه، فكان يتأذى بإهمالي له أكثر ما يتأذى به الناس منه.

وعملت بدمشق تصانيف جمة منها: غريب الحديث الكبير، جمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطابي، وكنت ابتدأته بالموصل، وعملت له مختصراً سميته المجرد، وعملت كتاب الواضحة في إعراب الفاتحة نحو عشرين كراساً، وكتاب الألف واللام، وكتاب رُبَّ، وكتاباً في الصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلمين. وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندي، ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن بابلي نازلاً بالمأذنة الغربية، وقد عكف عليه جماعة، وتحدث الناس فيه له وعليه، وكان الخطيب الدولعي عليه، وكان من الأعيان له منزلة وناموس. ثم خلط ابن بابلي على نفسه فأعان عدوه عليه، وصار يتكلم في الكيمياء والفلسفة، وكثر التشنيع عليه. واجتمعت به وصار يسألني عن أعمال اعتقد أنها خسيسة

نزرة، فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها مني، فكاشفته فلم أجده كما كان في نفسي، فساء به ظني وبطريقه، ثم باحثته في العلوم فوجدت عنده منها أطرافاً نزرة، فقلت له يوماً: لو صرفت زمانك الذي ضيعته في طلب الصنعة إلى بعض العلوم الشرعية والعقلية / ٧٣/ كنت اليوم فريد عصرك، مخدوماً طول عمرك، وهذا هو الكيمياء لا ما تطلبه. ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله، والسعيد من وعظ بغيره. فأقلعت ولا كل الإقلاع. ثم إنه توجه إلى صلاح الدين بظاهر عكا وشكا إليه الدولعي، وعاد مريضاً وحمل إلى البيمارستان فمات. وأخذ كتب المعتمد مشيخة دمشق وكان متيماً بالصنعة. ثم أني توجهت إلى زيارة البيت المقدس، ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا واجتمعت ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ، وكان قد اتصل به خبري بالموصل، فانبسط إليَّ وأقبل علي. وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب، وخيمته إلى خيمة بهاء الدين، فوجدته يكتب كتاباً إلى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة. وقال: هذا كتاب إلى بلدكم، وذاكرني في مسائل في علم الكلام، وقال: قوموا بنا إلى القاضي الفاضل فدخلنا عليه، فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكان يكتب بجملة أعضائه. وسألني القاضي الفاضل عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾[1] أين جواب إذا. وأين جواب لو في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[2] وعن مسائل كثيرة، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء. وقال لي: ترجع إلى دمشق، وتجري عليك الجرايات، فقلت: أريد مصر، فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها، فقلت: لا بد لي من مصر، فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها.

فلما دخلت القاهرة جاء وكيله، وكان شيخاً جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلني داراً قد أزيحت عللها، وجاءني بدنانير وغلة. ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل فدرت الهدايا والصلات من كل جانب. وكان كل عشرة أيام ونحوها تصل تذكرة القاضي / ٧٤/ الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة، وعليها فصل فصل توكيد الوصية في حقي. فأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ أقرئ الناس، وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس ياسين السماني، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي، وأبو القاسم الشارعي، وكلهم جاءوني. أما ياسين فوجدته محالياً كذاباً، يشهد للساقاني

(١) سورة الزمر: الآية٧٣.
(٢) سورة الرعد: الآية٣١.

بالكيمياء، ويشهد له الساقاني بالسيمياء، ويقول عنه أنه يعمل أعمالاً يعجز موسى بن عمران عنها. وأنه يحضر المضروب متى شاء، وبأي مقدار شاء، وبأي سكة شاء. وأنه يجعل ماء النيل خيمة، ويجلس فيها وأصحابه تحتها. وكان ضعيف الحال. وجاءني موسى فوجدته فاضلاً في الغاية قد غلب عليه حب الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا. وعمل كتاباً في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس، ومن خمسة كتب أخر، وشرط أن لا يغير فيه حرفاً إلاّ أن يكون واو عطف أو فاء وصل، وإنما ينقله فصولاً يختارها. وعمل كتاباً لليهود وسماه كتاب الدلالة، ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني. ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها، وكنت ذات يوم بالمسجد، وعندي خلق كثير، فدخل شيخ رث الثياب، نير الطلعة، مقبول الصورة، فهابه الجميع، ورفعوه فوقهم، وأخذت في إتمام كلامي، فلما تصرم المجلس، جاء إمام المسجد وقال: أتعرف هذا الشيخ؟ هذا أبو القاسم الشارعي، فاعتنقته وقلت: إياك أتطلب، فأخذته إلى منزلي، وأكلنا الطعام، وتفاوضنا الحديث، فوجده كما تشتهي النفس، وتلذ العين. سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته. قد رضي من الدنيا بالقليل، لا يتعلق بشيء منها يشغله عن طلب الفضل، ثم لازمني فوجدته قيماً بكتب القدماء، وكتب أبي نصر الفارابي، ولم يكن لي اعتقاد في هؤلاء؛ لأني كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سيناء وحشاها كتبه، فكنا إذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن، / ٧٥/ ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجة. وأنا فلا تلين قناتي لغمزه، ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه، فصار يجذبني شيئاً بعد شيء من كتب أبي نصر والاسكندر وثامسطيوس، يؤنس بذلك نفاري، ويلين عريكة شماسي حتى عطفت عليه أقدِّم رجلاً وأُؤخِّر أخرى.

وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج، وعاد إلى القدس، فقادت الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني، وتوجهت إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة. قريباً بعيداً، سهلاً مجيباً، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[1] وأول ليلة حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك، ويأتي بكل معنى بديع. وكان مهتماً في بناء سور بيت المقدس وحفر خندقه،

---

(١) سورة الحجر: ٤٧.

يتولى ذلك بنفسه، ويحمل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، فيأتي داره، فيمد السماط فيأكل ويستريح. ويركب العصر ويرجع في المشاعل، ويصرف أكثره في ما يعمل نهاراً. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار.

ورجعت إلى دمشق، وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع. وكلما أمعنت في كتب القدماء ازددت فيها رغبة، وفي كتب ابن سيناء زهادة. واطلعت على بطلان الكيمياء، وعرفت حقيقة الحال في وضعها، ومَن وضعها، وكذّب بها، وما كان قصده في ذلك. وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين. وتضاعف شكري لله تعالى على ذلك، فإن أكثر الناس إنما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء.

/٧٦/ ثم إن صلاح الدين دخل دمشق، وخرج يودع الحجاج، ثم رجع فحمّ، ففصده من لا خبرة عنده فخارت القوى، ومات قبل الرابع عشر، ووجد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء. وما رأيت ملكاً حزن الناس لموته سواه؛ لأنه كان محبوباً يحبه البر والفاجر، والمسلم والكافر. ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادي سبأ، ومزقوا في البلاد كل ممزق، وأكثرهم توجه إلى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها.

أقمت بدمشق وملكها الملك الأفضل وهو أكبر الأولاد في السن إلى أن جاء الملك العزيز بعساكر مصر يحاصر أخاه بدمشق، فلم ينل منه بغية. ثم تأخر إلى مرج الصفر لقولنج عرض له فخرجت إليه بعد خلاصه منه، فأذن لي في الرحيل معه، وأجرى عليَّ [من] بيت المال كفايتي وزيادة.

وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلازمني صباحاً ومساءً إلى أن قضى نحبه. ولما اشتد مرضه، وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه، وأشرت عليه بدواء فأنشد: [المديد]

أذودُ الطَّيرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِهْ

ثم سألته عن ألمه فقال: [من الخفيف]

ما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ

وكان سيرتي في هذه المدة، أنني أقرىء الناس في الجامع الأزهر إلى نحو الساعة الرابعة. وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع، فيقرأ قوم آخرون. وفي الليل أشتغل مع نفسي. ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز، وكان شاباً كريماً، شجاعاً، كثير الحياء لا يحسن قول لا. وكان مع حداثة سنه

وشرة شبابه كامل العفة عن الأموال والفرج.

أقول: ثم إن الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة، وله الراتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين، وأتى إلى مصر ذلك الغلاء العظيم والموت الذي لم يشاهد مثله. وألف الشيخ موفق الدين في ذلك كتاباً ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها /٧٧/ ممن عاينها تذهل العقل، وسمى ذلك الكتاب كله «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر».

ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق، وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين، وانتزع ملكهم توجه الشيخ موفق الدين إلى القدس، وأقام به مدة. وكان يتردد إلى الجامع الأقصى ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنف هنالك كتباً كثيرة. ثمَّ إنه توجه إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية، وذلك في سنة أربع وستمائة، وشرع في التدريس والاشتغال، وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرأون أصنافاً من العلوم. وتميز في صناعة الطب بدمشق، وصنف في هذا الفن كتباً كثيرة وعرف به. وأما قبل ذلك فإنما كانت شهرته بعلم النحو، وأقام بدمشق مدة وانتفع به الناس. ثم إنه سافر إلى حلب، وقصد بلاد الروم، وأقام بها سنين كثيرة، وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان. وكان مكيناً عنده، عظيم المنزلة، وله منه الجامكية الوافرة، والصلات المتواترة، وصنَّف باسمه عدة كتب. وكان هذا الملك عالي الهمة، كثير الحياء، كريم النفس. وقد اشتغل بشيء من العلوم. ولم يزل في خدمته إلى أن استولى على ملكه صاحب ارزن الروم، وهو السلطان كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، فقبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر.

قال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف: ولما كان في سابع عشر ذي الحجة من سنة خمس وعشرين وستمائة، توجهت إلى أرزن الروم، وفي حادي عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمائة، رجعت إلى أرزنجان من أرزن الروم، وفي نصف ربيع الأول توجهت إلى كماخ، وفي جمادى الأولى توجهت منها إلى دير زكي، وفي رجب توجهت منها إلى ملطية، وفي آخر /٧٨/ رمضان توجهت منها إلى حلب.

أقول: وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه، وكثرت تصانيفه. وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك العسكر بحلب جاري حسن، وهو متخلي لتدريس صناعة الطب وغيرها، ويتردد إلى الجامع يسمع الحديث ويقرىء العربية. وكان دائم الاشتغال، ملازماً للكتابة والتصنيف. ولما أقام بحلب قصدت أن

أتوجه إليه واجتمع به فلم يتفق ذلك، وكانت كتبه أبداً تصل إلينا ومراسلاته، وبعث إليَّ بأشياء من تصانيفه بخطه، وهذا نسخة كتاب كتبته إليه لما كان بمدينة حلب: «المملوك يواصل بدعائه وثنائه، وشكره وانتمائه إلى عبودية المجلس السامي المولوي، السيدي السّندي، الأجلي الكبيري، العالمي الفاضلي، موفق الدين، سيد العلماء في الغائبين والحاضرين، جامع العلوم المتفرقة في العالمين، ولي أمير المؤمنين. وأوضح الله به سبل الهدى والهداية، وأنار ببقائه طرق الدراية، وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية. ولا زالت سعادته دائمة البقاء، وسيادته سامية الارتقاء، وتصانيفه في الآفاق قدوة العلماء، وعمدة سائر الأدباء والحكماء. المملوك يجدد الخدمة، ويهدي من السلام أطيبه، ومن الشكر والثناء أعذبه، وينهي ما يكابده من أليم التطلع إلى مشاهدة أنوار شمسه المنيرة، وما يعانيه من الارتياح إلى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة، وما تزايد من القلق، وتعاظم عند سماعه قرب المزار من الأرق: [من الوافر]

وأَبْـرَحُ مـا يـكـونُ الـشـوقُ يَـومـاً إذا دَنَـتِ الـديـارُ مِـنَ الـديـارِ

ولولا أمل قفول الركاب العالي، ووصول الجناب الموفقي الجلالي، لسارع المملوك إلى الوصول، ولبادر المبادرة بالمثول، ولجاء إلى شريف خدمته وفاز / ٧٩/ بالنظر إلى بهي طلعته. فيا سعادة من فاز بالنظر إليه، ويا بشرى من مثل بين يديه، ويا هناء من حظي بوجه إقباله عليه، ومن ورد بحار فضله روي من نميرها، واستضاء بشمس علمه، فسرى في ضياء منيرها، نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع، وتحصيل الجمع بين مسرتي الأبصار والأسماع، بمنِّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومن مراسلات الشيخ موفق الدين عبد اللطيف أنه بعث إلى أبي في أول كتاب، وهو يقول فيه عنّي: ولد الولد أعز من الولد. وهذا موفق الدين ولد ولدي وأعز الناس عندي، وما زالت النجابة تتبين لي فيه في الصغر. ووصف واثنى كثيراً.

وقال فيه: «لو أمكنني أن آتي إليه بالقصد ليشتغل علي لفعلت».

وبالجملة فإنه كان قد عزم أن يأتي دمشق ويقيم بها، ثم خطر له أنه كان يحج قبل ذلك، ويجعل طريقه على بغداد. وأن يُقدِّم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه. ولما وصل إلى بغداد مرض في أثناء ذلك.

وتوفي رحمه الله يوم الأحد ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة، ودفن بالوردية عند أبيه، وذلك بعد أن خرج عن بغداد، وبقي غائباً عنها خمساً وأربعين عاماً. ثم إن الله تعالى ساقه إليها وأماته بها.

ومن كلام موفق الدين عبد اللطيف، مما نقلته من خطه قال:

«ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى فراشك، وتنظر ما اكتسبت في

يومك من حسنة تشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة تستغفر الله منها، وتقلع عنها. وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات، وتسأل الله تعالى الإعانة على ذلك».

وقال: «أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب، وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم. وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه، ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه. وعليك بتعظيمه وترحيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل، وإلا بلسانك وثنائك. / ٨٠/ وإذا قرأت كتاباً فاحرص كل الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستغن عنه، لا تحزن لفقده. وإذا كنت مكباً على قراءة كتاب وتفهمه فإياك أن تشتغل بآخر غيره معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه. وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله. فإذا قضيت وطرك فانتقل إلى علم آخر. ولا تظن أنك إذا حصلت علماً فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته؛ [ومراعاته] تكون بالمذاكرة والتفكر، واشتغال العلم بالتعليم والتصنيف. وإذا تصديت لتعلم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره، فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه كمن يستعين بلغة أخرى إذا ضاقت عليه أو جهل بعضها».

وقال: «وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم، وعرف خيرهم وشرهم».

قال: «وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول، فأقرأ سيرة النبي ﷺ، وتتبع أحواله وأفعاله، واقتف آثاره ما أمكنك، وبقدر طاقتك. وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه، ومنامه، ويقظته، وتمرضه، ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأفعاله مع أعدائه، وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد».

قال: «وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم، وتتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار، ومع الاستبداد الزلل. ومن لم يتردد إلى أبواب العلماء، لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس، ومن لم يبكتوه لم يسد، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن / ٨١/ لم يكدح لم يفلح. وإذا خلوت من التعلم والتفكير فحرِّك لسانك بذكر الله وبتسابيحه، وخاصة عند النوم، فتشربه لبك، ويتعجن في خيالك، وتتكلم به في منامك. وإذا حدث لك فرح أو سرور ببعض أمور الدنيا، فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات؛ وإذا حَزَبَكَ أمر، فاسترجع، وإذا اعترتك غفلة، فاستغفر، واجعل الموت نصب عينك، والعلم والتقى زادك إلى الآخرة. وإذا طلبت أن تعصي

الله، فاطلب مكاناً لا يراك فيه. واعلم أن الناس عيون الله على العبد يريهم خيره وإن أخفاه، وشره وإن ستره، فباطنه مكشوف لله، والله يكشفه لعباده. فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهرك، وسرك أصح من علانيتك. ولا تتألم إذا أعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل. وقلما يتعلق في العلم ذو الثروة، إلا أن يكون شريف الهمَّة جداً، وأن يثري بعد تحصيل العلم. وإني لا أقول: إن الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها؛ لأنَّ همته مصروفة إلى العلم فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجودها، فإذا غفل عن أسبابها، لم تأته وأيضاً فإن طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة، والمكاسب الدنية، وعن أصناف [التجارات]، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أحوالهم. ولبعض إخواننا بيت شعر: [من الكامل]

مَنْ جَدَّ في طَلَبِ العُلوم فإنَّهُ شَرَفُ العُلومِ دنَاءَةُ التحصيلِ

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ لها وحذق فيها، وصرف الزمان إليها. والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك، وإنما ينتظر أن تأتيه الدنيا بلا سبب، وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها، وهذا ظلم منه وعدوان. ولكن إذا تمكن الرجل في العلم وشهر به، خطب من كل وجه وعرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور، وعرضه ودينه مصون. / ٨٢/ واعلم أن للدين عقبة وعرفاً ينادي على صاحبه، ونوراً وضياء يشرق عليه ويدل عليه، كتاجر المسك لا يخفى مكانه، ولا تجهل صناعته. وكمن يمشي بمشعل في ليل مُدلهم. والعالم مع هذا محبوب أينما كان، وكيفما كان، لا يجد إلا من يميل إليه، ويؤثرً قربه ويأنس به، ويرتاح بمداناته. واعلم أن العلوم تغور، ثم تفور في زمان، وتغور في زمان بمنزلة النبات وعيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم ومن صقع إلى صقع».

وقال: «وإياك والهذر، والكلام فيما لا يعني؛ وإياك والسكوت في محل الحاجة، ورجوع النوبة إليك إما لاستخراج حق، أو اجتلاب مودة، أو تنبيه على فضيلة. وإياك والضحك مع كلامك، وكبر الكلام، وتنبيره. بل اجمع كلامك سرداً بسكون ووقار، بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه، وأنه عن خميرة سابقة، ونظر متقدم».

وقال: «إياك والغلطة في الخطاب، والجفاء في المناظرة. فإن ذلك يذهب ببهجة الكلام، ويسقط فائدته، ويعدم حلاوته، ويجلب الضغائن، ويمحق المودات، ويصير القائل مستثقلاً، سكوته أشهى إلى السامع من كلامه، ويثير النفوس على معاندته، ويبسط الألسن بمخاشنته وإذهاب حرمته».

وقال: «لا تسترفع بحيث تستقل، ولا تتنازل بحيث تستخسّ وتستحقر».

ومن دعائه رحمه الله قال: «اللهم أعذنا من شموس الطبيعة، وجموح النفس

الردية. واسلس لنا مقاد التوفيق، وخذ بنا في سواء الطريق. يا هادي العمى؛ يا مرشد الضلال، يا محيي القلوب الميتة بالإيمان، يا منير ظلمة الضلالة بنور الإيقان؛ خذ بأيدينا من مهواة الهلكة، ونجنا من ردغة[1] الطبيعة، وطهرنا من درن الدنيا الدنية، بالإخلاص لك والتقوى. إنك مالك الآخرة والدنيا».

وله تسبيح أيضاً: «سبحان من عم بحكمته الوجود، واستحق بكل وجه أن يكون هو المعبود. /٨٣/ تلألأت بنور وجهك وجلالك الآفاق، وأشرقت شمس معرفتك على النفوس إشراقاً وأي إشراق»[2].

ومنهم:

[٢٥]

ابن الخُوَيِّي، أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى الشافعي، شمس الدين أبو العباس قاضي القضاة[3]

أوحد العلماء، مجموع الفضائل، دوحة مجد، اخضَرَّ فرعها، ودَرَّ كالمعصرات

---

(١) الردغة: الطين والوحل الشديد.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٨٣ـ ٦٩٦.

(٣) أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، أبو العباس شمس الدين المهلبي الخويي: قاض شافعي، من العلماء بالكلام. له معرفة بالطب. ولد في خوي (بأذربيجان) سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وتعلم بها وبخراسان. ثم ولي قضاء القضاة بالشام. وتوفي بدمشق سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) له كتب، منها: كتاب في «علم الأصول» وكتاب قال ابن أبي أصيبعة: يشتمل على رموز حكمية صنفه للسلطان الملك المعظم، عيسى بن أبي بكر بن أيوب، و«السفينة النوحية ـ خ» في النفس والروح، ذكر في مقدمته أنه كان يزمع شرح كتاب الفخر الرازي في النفس وأحجم عنه إلى تأليف هذا الكتاب المختصر وضم فيه ما يغني عن التطويل. والنسخة خزائنية نفيسة كتبت سنة (٨٦٨)، وفي (٣١) ورقة، في مجموع بدمشق. وله كتاب في «العروض» قال أبو شامة؛ هو عندي بخطه. وهو والد القاضي محمد بن أحمد، المتوفى سنة ٦٩٣هـ كما في الأعلام.

ترجمته في: قلائد الجمان لابن الشعار ١/ ٢٤٩ـ ٢٥١ رقم ٩٨، ومرآة الجنان ج٨ ق٢/ ٨٣٠، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٥٣٧ رقم ٢٩٤١، والتاريخ المنصوري ١٢٢، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٦٤٦ـ٦٤٧، وذيل الروضتين ١٦٩، وبغية الطلب لابن العديم المصور ١٤٨/٢ رقم ٦٦، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ١٠٦ـ١٠٩، ونهاية الأرب ٩/ ٢٧٢ـ٢٧٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦٤، والعبر ٥/ ١٥٢ـ ١٥٣، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٦٤ـ ٦٥ رقم ٤٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤١٥، والمشتبه ١/ ١٩٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٠٠ـ ٥٠١، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٥أ، ب، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥٥، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٥ـ ٣٧٦ رقم ٣٨٧٨، ونثر الجمان لليافعي ٢/ ورقة ١١٢ـ ١١٣، ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٦ـ ١٧ رقم ١٠٤٤، وطبقات الشافعية =

ضرعها، ومدّت الأفياء والظلال، وردَّت الأحياء والضال، طال على يد المجتنى منعها، وطاب ثمرها المثمر ونبعها، جاءت له العلياء وفاقاً، وجادت له السحب الرواء دفاقاً، فطنبت شمسه على السماء رواقاً، وتطلبت فواضله للنفاق أشواقاً، ثم حل لدن المعظم شرف الدين عيسى فحل بيت شرفه، وحل مكاناً في مقاعد غرفه، ثم لم يتحول من أفقه، ولا أضاء له ضوء نهار إلا بين أصيله وشفقه.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان أوحد زمانه في العلوم الحكمية، وعلاَّمة وقته في العلوم الشرعية، عارفاً بأصول الطب وغيره، حسن الصورة، كريم النفس، كثير الحياء، مُحباً لفعل الخير، ملازماً للصلاة والصيام وقراءة القرآن، اتصل بالملك المعظم عيسى فعرف فضله، وقرر له الراتب، وقرأ عليه الطلبة، وانتفعوا به، وكان حسن العبارة، قوي البراعة، فصيح اللسان، بليغ البيان، وافر المروءة، ظاهر الفتوة، أخذ عن القطب المصري، وأخذ المصري عن الإمام الرازي، ثم ولاه المعظم قضاء الشام، وكان عظيم التواضع، لطيف الكلام، يمشي إلى الجامع الأموي لأداء فرائض الصلوات في أوقاتها، ولم يزل على هذا حتى توفي في سن الشباب في سابع شعبان سنة تسع وثلاثين وستمائة.

قلت: وحكى لي شيخنا الإمام شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب قال: لحقت جماعة أدركوا شمس الدين الخويي أيام قدومه دمشق، وحدثوني / ٨٤/ أنه قدم في زي فقير صوفي، وكان يلعب ببعض آلات الطرب حتى عرف بذلك، وكان يستدعى به لأجل ذلك، والملك المعظم صاحب دمشق إذ ذلك، فقيل له عنه، فأمر به فأحضر، ولعب بين يديه، فأعجبه لعبه لاتقان صنعته، فجعله من ندمائه، فلما تردد إليه ظهر له علمه، وتحقق لديه فضله، فاختصه بالمجالسة وقرَّبه منه، فلما خلا القضاء عينه له فاستعفاه، فألزمه به حتى وليه، فلما ولي القضاء انقطع عن الملك المعظم ففقده في أوقات أنسه، فقال له: مالك انقطعت هذه الليالي، فجعل يعتذر والملك المعظم لا يقبل منه، ويحثه على الملازمة على عادته، فقال له: مولانا يعلم ما بقي يتعلق بي وبذمتي من أقضية المسلمين وعقودهم وما يجمل بي أن أظهر العدالة، وأبطن الفسق،

= الوسطى له، ورقة ٢٦ب، ونزهة الأنام لابن دقماق، ورقة ٤٠، طبقات الأطباء ٢/ ١٧١، وشذرات ٥/ ١٨٣، ونشرة ٣/ ٢٨٠، والخزانة التيمورية ٣/ ٩٤، وذيل الروضتين لأبي شامة ١٦٩ وفيه: ولادته سنة ٥٨٢ ١١٨٦م، وطبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبة، ورقة ٨٣، وطبقات الشافعية، له ٢/ ٤٠١ رقم ٣٧٠، والمقفى الكبير للمقريزي ٥/ ١٦٦ـ ١٦٧ رقم ١٧١٦ في ترجمة ابنه محمد، وتبصير المتنبه ١/ ٣٧٦، وتوضيح المشتبه ٢/ ٥٤٥، وعقد الجمان ١٨/ ورقة ٢٣٢ـ ٢٣٣، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣١٦، والقضاة الشافعية للنعيمي ٦٥ـ ٦٦، وشذرات الذهب ٥/ ١٨٣، ومعجم المؤلفين ١/ ٢١٦، الأعلام ١/ ١٢١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣٠ـ ٦٤٠هـ) ص٣١٥ رقم ٤٥١.

(١) عيون الأنباء ٦٤٦.

وقد صرت قاضياً. ومولانا مخيرٌ إن شاء تركت القضاء، وعدت إلى ما كنت عليه في خدمته، وإن شاء تركني على القضاء وأعفاني؛ لأخلص ذمتي وذمته. فقال: بل استمر على القضاء، ودع ما سواه، فكان غاية في الخير حتى كان كأنه لم يكن ذاك.

ومنهم:

[٢٦]

الرفيع الجيلي، أبو حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي(١)

شجرة توقدت ناراً، وأوقدت شناراً، فحنظلت ثمراتها، وأبرت سَمُراتُها، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، وينعها كأنه تلفٌ لنفوس السلاطين، وذلك أنه والى عدوّ الدين، وتبعه في بعض ما يدين. صحب السامرة، وسحب في أنديتهم أذيال المسامرة، ولم يكن بزة بالرفيع، ولا زمنه بالربيع، فجدّ السامري في غيه، ومدَّ له من حبال بغيه، وكان قد اتخذ له منه عجلاً جسداً، واتحد به حتى تفقأ منه حسداً، حتى سقط في مهواته، وسقى دمه الجبل بل لهواته.

---

(١) عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل، رفيع الدين الجيلي: طبيب، باحث، من أهل جيلان (وراء طبرستان) تميز في علوم الطب والفلسفة والدين، وسكن دمشق، وولي قضاء بعلبك، ثم قضاء القضاة بدمشق سنة (٦٣٨ هـ). وساءت سيرته، فقبض عليه في دمشق، وقتل بالقرب من بعلبك سنة (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤م، له «شرح الإشارات والتنبيهات» ألفه للمظفر الأيوبي، و«اختصار الكليات» من قانون ابن سينا.

ترجمته في: مفرّج الكروب ٥/ ٢٣٧، ٣٤١ـ٣٤٢، ومرآة الزمان ج٨/ ٧٤٩ـ٧٥١، وذيل الروضتين ١٧٣ـ١٧٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٦٤٧ـ٦٤٨، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٠٣ـ٣٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٠٩ـ١١١ رقم ٨٤، والعبر ٥/ ١٧٢ـ١٧٣، ودول الإسلام ٢/ ١١١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٩٤ـ١٩٦، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٢٧ـ١٤٢٨، وفوات الوفيات ٢/ ٣٥٢ـ٣٥٤ رقم ٢٨٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٣ـ١٧٤ وفيه: «الرقيع» ووفاته في سنة ٦٤١هـ، والبداية والنهاية ١٣/ ١٦٢ـ١٦٣، في وفيات ٦٤١هـ، وطبقات الشافعية لابن كثير مخطوط روقة ١٧١أ ـ ١٧٢أ، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٩٢ـ٥٩٤ رقم ٥٤٧، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٤ـ٥٢٦ رقم ٥٢٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧١ـ١٧٢، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٣٤ وفيه «عبد العزيز بن إسماعيل بن عبد الهادي» وهو خطأ، والفلاكة والمفلوكون للدُلجي ٧٥، وفيه وفاته ٦٤٣هـ، والمنهل الصافي ٧/ ٢٨٢ـ٢٨٥ رقم ١٤٣٦، والدليل الشافي ١/ ٤١٥ رقم ١٤٣٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٠، والدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٨٨، وقضاة دمشق للنُّعيمي ٦٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢١٤ـ٢١٥، الأعلام ٤/ ٢٢، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي للتدمري ق٢ ج٢/ ٢١٣ـ٢١٤ رقم ٥٤٩، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٥١ـ٢٥٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١ـ٦٥٠هـ) ص١٢٥ رقم ١٠٤.

قال ابن أصيبعة[١]. كان من الأكابر في الحكمة، وأصول الدين والفقه، والعلم الطبيعي، والطب، وكان فقيهاً بالعذراوية / ٨٥/ يشتغل بها، ثم ولي القضاء ببعلبك، وأقام بها، وكان صديقاً لأمين الدولة وزير الصالح اسماعيل، فلما ملك الصالح دمشق وتوفي قاضيها شمس الدين الخويي ولي عوضه، وارتفعت منزلته، ووقع بينه وبين أمين الدولة وأثرى، وكثر تظلم الناس منه، وشكواهم من سوء سيرته، فانتهى إلى أن قبض عليه وقتل. بُعِثَ إلى هوةٍ عظيمةٍ قريب بعلبك لا يعرف لها قرار تعرف بمغارة آدم، فكتف ودفع فيها.

وقال بعض الذين كانوا معه: إنه لما دفع في تلك الهوة تحطم في نزوله، وكأنه تعلق في بعض جوانبها، قال: فبقينا نسمع أنينه نحو ثلاثة أيام، وكلما مرَّ يوم يضعف ويخفى حتى تحققنا موته ورجعنا عنه.

قلت: وقد حكى الثقات أنه كان يفتعل الحجة بشهود زور، كان أعدَّهم على الرجل ذي الجدَّة واليسار، ويكتُبها لمن يطلب الرجل إلى مجلسه، ويدَّعي بالمبلغ عليه، فإذا أنكر أقام تلك البينة عليه، ثم يلزمه بالمال، فإذا قبض كان للسلطان النصف، وله ولأمين الدولة وللشهود والمدعي النصف، وجرى على هذا مدة ثم كان لا ينصف أمين الدولة، ففسد ما بينهما وقالوا: إنه لما كثر فعل مثل هذا من القاضي الرفيع عرف عليه، فصار ذوو المال يأتونه قبل افتعال الحجج، فيقدمون له ما يختص به فيسكت عنهم فإذا ذكرهم الأمين الخائن له دافع عنهم، فأوغر ذلك صدره وكَدَّر له ورده وصدره، حتى حالت به الحال، وآل إلى ما آل.

وحكى لي شيخنا الإمام أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب قال: حدثني شيخنا قاضي القضاة ابن خلكان قال: كان الرفيع ذا كرم وسخاء، وكان جاريه لا يقوم ببعض كفايته، فكان يتجشم البلايا، ولقد ألجأته الضرورة إلى أن باع مرةً عمامته وانفق ثمنها، فلما أصبح وأراد الركوب إلى موكب السلطان، استعار ما لبسه وركب به.

قلت: / ٨٦/ وقد رأيتُ كتباً كثيرةً من كتب الأملاك والأوقاف، وفيها إسجالات على القاضي الرفيع، فلما اتصلت تلك الكتب بمن بعده من القضاة وصلوها إليهم بمن كان قبل الرفيع وأضربوا عنه، فلم ينفذ له حاكم جاء بعده حُكماً إلاَّ كتاباً واحداً كان في وقف مدرسة بالمدينة الشريفة النبوية، وأظن أنه سُومح فيه لتيقن براءته من غرض في ذلك إذ كان لجهة بِرٍّ، ولم يكن هو أول من حكم به، ولا أول من نفذ حُكم من حكَم به، ومع هذا لم أرَ من كبار أهل هذا الشأن إلاَّ من عجب منه، وأحببت التنبيه على ذلك ليعرف عند الحاجة لئلا ينسى بتطاول المُدد.

---

(١) عيون الأنباء ٦٤٧.

ومنهم:

[٢٧]

الشهاب السهروردي[(١)]

المقتول، والردي المختول، جاء بما سحر أعين الناس وحَيَّرَ الألباب، فحيَّر الفطن، وحيز كل الأرض إلى محل الوطن بخوارق حملت على المخاريق، وأحلَّت دمه

---

(١) عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله - ويلقب عمويه - بن سعد بن الحسن بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السهروردي: فقيه شافعي، مفسر، واعظ. من كبار الصوفية. مولده في «سهرورد» سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٥م) ووفاته ببغداد سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) كان شيخ الشيوخ ببغداد. وأوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولاً. وأقعد في آخر عمره، فكان يحمل إلى الجامع في محفة، له كتب، منها «عوارف المعارف - ط» و«نخبة البيان في تفسير القرآن - خ» و«جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب - ط» رسالة، و«السير والطير - خ» رسالة. وله شعر حسن في «كناش - خ» عند الزركلي. وله «مشيخة - خ» عند الزركلي أيضاً تصويرها، له عليها سماع سنة (٦٢٠) لعلها الوارد ذكرها في شستربتي، الرقم (٣٤٩٥) الفقرة التاسعة. و«رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية - خ» ذكرته مجلة oriens.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٤١-٦٤٦، معجم البلدان ٣/ ٢٠٤، وذيل تاريخ مدينة السلام بغداد لابن الدبيثي بارس ٥٩٢٢ ورقة ٢٠٢، ومرآة الزمان ج٨ ق ٢/ ٦٧٩- ٦٨٠، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٣٨٠- ٣٨١ رقم ٢٥٦٥، وذيل الروضتين ١٦٣، والجامع المختصر لابن الساعي ٩٩، ١٤٥، ٢٥٩، وأخبار الزهاد له، ورقة ٩٥-١٠٢، وتاريخ إربل لابن المستوفي ١/ ١٩٢-١٩٤ رقم ٩٦، وقلائد الجمان لابن الشعار ٥/ ١٩٠- ١٩١ رقم ٥٣١، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦-٤٤٨، والحوادث الجامعة ٤٢، وتلخيص مجمع الآداب ١/ ٦٨، ١٢٣، ١٥٨، ٢١٤، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٩٢ وفيات ٦٣هـ، وسير الأولياء للخزرجي ٦٧، ودول الإسلام ٢/ ١٣٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٤، والمعين في طبقات المحدثين ١٩٦ رقم ٢٠٧٦، والعبر ٥/ ١٢٩، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٥٨، وميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٣-٣٧٧ رقم ٢٣٩، والمختصر المحتاج إليه ٣/ ١٠٨-١٠٩ رقم ٩٥٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦١-١٦٣، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٠٩-٢١٠ رقم ١٦١، ومرآة الجنان ٤/ ٧٩-٨٢، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٣- ٦٤ رقم ٦٥١، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٤٣، ٨/ ٣٣٨-٣٤١، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٧- ٦٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٣٨-٣٤٣، ٦٣١هـ و٦٣٢هـ، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٦ب- ١٦٧، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧٥، وطبقات الأولياء له ٢٦٢، ٢٦٥، ٤٦٨، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٥، ونزهة الأنام لابن دقماق ورقة ٨- ٩ والفلاكة والمفلوكون ١٢٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٦٧- ٤٦٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٣- ٢٨٥ في وفيات ٦٣١هـ، والقلائد للتادفي ١١١- ١١٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شبهة ٢/ ٤١٣- ٤١٤ رقم ٣٨١، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٤، ولسان الميزان ٤/ ٣١٧، وحسن المحاضرة ١/ =

للمريق، فأرى ما لا يُرى وصَوَّر ما لم يوجد، وأتى بما ادعاه بعض ذوي العقول الأفنة من المتصوفة من طي الزمان المكان، وجاء بما لم يكن في إمكان، فخيَّل ما لم يكن، وهوَّن ما لم يهن، وأضلَّ جبلاً كثيراً، واستزلَّ جبلاً كبيراً، ولو طال لبثه أو خلى ماؤهُ الآجن حتى يطول مكثه لأكثر وأكبر البلية وساد، لكن الله سلَّم وذبحه، وكان لو كلم جماداً تكلم.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان أوحدَ في العلوم الحكمية، جامعاً للفنون الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة. لم يناظر أحداً إلاّ بذَّه، ولم يباحث محصلاً إلاَّ أربى عليه. وكان علمه أكثر من عقله.

حدثني الشيخ سديد الدين بن عمر قال: كان شهاب الدين السهروردي قد أتى إلى شيخنا فخر الدين المارديني وكان يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد أحداً /٨٧/ مثله في زماني، إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره، وقلة تحفظه أن يكون ذلك سبباً لتلافه. قال: فلما فارقت شهاب الدين السهروردي من الشرق، وتوجه إلى الشام وأتى إلى حلب وناظر بها الفقهاء، ولم يجاره أحدٌ، فكثر تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام. فتكلم معهم بكلام كثير بانَ له فضلٌ عظيم، وعلم باهر، وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه، وصار مكيناً عنده مختصاً به، فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وأرسلوها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين. وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق فهو يفسد كل ناحية كان فيها من البلاد. وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه: إنَّ الشهاب السهروردي لابد من قتله، ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجهٍ من الوجوه. ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك، وأيقن أنه يقتل، وليس له جهة إلى الإفراج عنه، اختار أن يقرر في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقى الله تعالى، ففعل به ذلك. وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب، وكان عمره نحو ست وثلاثين.

قال الشيخ سديد الدين محمود بن عمر: لما بلغ شيخنا فخر الدين المارديني قتله قال لنا: أليس كنت قلت لكم عنه هذا من قبل، وكنت أخشى عليه منه.

= ٢٤٦، وشذرات الذهب ٥/ ١٥٣ـ ١٥٤، وروضات الجنات ٥٠٥، وكشف الظنون ١٢٦، وإيضاح المكنون ١/ ٦٣، ١١٨، وهدية العارفين ١/ ٧٨٥، وديوان الإسلام ٣/ ٤٣٤ـ ٤٣٥ رقم ١٦٤١، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٤٤٠، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٣١٣، والأعلام ٥/ ٦٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ٦٤٠هـ) ص١١٢ رقم ١١٢.

(١) عيون الأنباء ٦٤١.

أقول: ويحكى عن شهاب الدين السهروردي أنه كان يعرف علم السيمياء، وله فيه نوادر شوهدت عنه من هذا الفن. من ذلك حدثني الحكيم إبراهيم/ ٨٨/ بن أبي الفضل بن صدقة أنه اجتمع به وشاهد عنه ظاهر باب الفرج، وهم يتمشون إلى ناحية الميدان الكبير، ومعه جماعة من التلاميذ، وغيرهم، وجرى ذكر هذا الفن وبدائعه وما يعرف الشيخ منه وهو يسمع. فمشى قليلاً، وقال: ما أحسن دمشق وهذه المواضع. قال: فنظرنا وإذا من جهة الشرق جواسق عالية متدانية بعضها من بعض مُبيَّضة، وهي من أحسن ما يكون بناءً مزخرفاً، ولها طاقات كبار وفيها نساء أحسن ما يكون منهن، وأصوات المغاني والملاهي ورأينا أشجاراً ملتفة بعضها على بعض، وأنهاراً جارية كباراً، ولم نكن نعرف ذلك قبل ذلك، فعجبنا من ذلك وانذهل الجماعة مما رأوا. قال: فبقي ذلك ساعة ثم غاب عنا، وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمان. قال: إلا أنني في رؤية تلك الحالة العجيبة أحس في نفسي كأنني في سِنةٍ خفية لم يكن إدراكي كالحالة التي أتحققها مني.

وحدثني بعض الفقهاء العجم قال: كنا مع الشيخ شهاب الدين عند القابون، ونحن مسافرون عن دمشق، فوجدنا قطيع غنم مع تركمان، فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذا الغنم رأساً نأكله، فقال: معي عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم لكم. فأخذناها فاشترينا رأساً من التركماني ومشينا فلحقنا رفيق التركماني وقال: ردوا الرأس وخذوا أصغر منه، فإن هذا ما عرف يبيعكم يسوى هذا الرأس الذي معكم أكثر من الذي قبض منكم. فتقاولنا نحن وإياه، ولما عرف الشيخ ذلك، قال لنا: خذوا الرأس واحشوا وأنا أقف معه وأرضيه، فتقدمنا وبقي الشيخ يتحدث معه ويمنيه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت إليه، ولما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى وقال: أين تروح وتخليني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه، وبقيت في يد التركماني ودمه يجري / ٨٩/ من يده، فبهت التركماني، وتحير في أمره، ورمى اليد وخاف. فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا. وبقي التركماني راجعاً وهو يلتفت إلينا حتى غاب. ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديله لا غير.

وحدثني صفي الدين خليل بن أبي الفضل الكاتب قال: حدثنا الشيخ ضياء الدين بن صقر رحمه الله أن في سنة تسع وتسعين وخمسمائة قدم إلى حلب شهاب الدين السهروردي، ونزل في مدرسة الحلاوية، وكان مدرسها يومئذ الشريف رئيس الحنفية افتخار الدين رحمه الله. فلما حضر شهاب الدين وبحث مع الفقهاء، كان لابس دلق، وهو مجرد بابريق وعكاز خشب، وما كان أحد يعرفه. فلما بحث تميَّز بين الفقهاء، وعلم افتخار الدين أنه فاضل فأخرج له منديلاً فيه ثوب عتابي وغلاله ولباس وبقيار، وقال

لولده: تروح إلى هذا الفقير، وتقول له: والدي يسلم عليك ويقول لك أنت رجل فقير، وتحضر مجالس الفقهاء في الدرس، وقد أرسل إليك شيئاً تلبسه إذا حضرت. فلما وصل ولده إلى الشيخ شهاب الدين، وقال له ما أوصاه به، سكت ساعة وقال له: يا ولدي حُطَّ هذا القماش، وتفضل واقض لي حاجة. وأخرج له فص بلخش في قدر بيضة الدجاجة رُمَّاني اللون، ما ملك أحد في قدره ولونه، وقال: تروح إلى السوق، وتنادي على هذا الفص، ومهما جاب لا تطلق بيعه حتى تعرفني. فلما وصل إلى السوق قعد عند العريف، نادى على الفص، فانتهى ثمنه إلى خمسة وعشرين ألف درهم. فأخذه العريف وطلع إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وهو يومئذ صاحب حلب وقال: هذا الفص قد جاب هذا الثمن، فأعجب الملك الظاهر قدره ولونه وحسنه فبلغ به إلى ثلاثين ألف درهم. فقال العريف: حتى أنزل إلى ولد افتخار الدين وأقول له. وأخذ الفص ونزل إلى السوق وأعطاه له، وقال له: تروح تشاور والدك على هذا الثمن. واعتقد العريف / ٩٠/ أن الفص من عند افتخار الدين، فلما جاء إلى شهاب الدين السهروردي وعرفه بالذي جاب الفص صعب عليه، وأخذ الفص وجعله على حجر وضربه بحجرٍ آخر حتى فتته وقال لولد افتخار الدين: خذ يا ولدي هذه الأثواب، وارجع إلى والدك، وقبل يده عني وقل له لو أردنا الملبوس ما غلبنا عنه، فمضى إلى والده، وعرفه صورة ما جرى، فبقي حائراً في قضيته. وأما الملك الظاهر، فإنه طلب العريف، وقال له: أريد الفص. فقال له: يا مولانا أخذه صاحبه ابن الشريف افتخار الدين مدرس الحلاوية. فركب السلطان ونزل إلى المدرسة فقعد في الإيوان، وطلب افتخار الدين إليه وقال له: أريد الفص فعرفه أنه لشخص فقير نازل عنده. قال: فأفكر السلطان وقال: يا افتخار الدين، إن صدق حدسي فهذا شهاب الدين السروردي. ثم قام السلطان واجتمع بشهاب الدين وأخذه معه إلى القلعة، وصار له شأن عظيم. وبحث مع الفقهاء في سائر المذاهب وعجزّهم، واستطال على أهل حلب، وصار يكلمهم كلام من هو أعلى منهم قدراً، فتعصبوا عليه وأفتوا في دمه حتى قتل. وقيل: إن الملك الظاهر أرسل إليه من خنقه، قال: ثم إن الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه، وقبض على جماعة منهم واعتقلهم، وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة.

قال العدل بهاء الدين الديلمي: كنت أصحب الشيخ شهاب الدين السهروردي الحكيم بحلب، فلما اعتقل بقلعة حلب كنا نتردد إليه، وكان تحت القلعة شخص جزار، وكان كلما رآنا مترددين إلى الشيخ يسبه ويسبنا، فلما أكثر حكينا أمره للشيخ، فقال: احتالوا على أن تأخذوا طوله، وتأتوني به، فاحتالوا لذلك وأحضروه إليه، فأمرهم أن يقطعوا عصا على مقدار طوله فلما أحضروها حَزَّ فيها حزاً مثل الرأس، وأمر بعض تلامذته أن يأخذ معه سكيناً وإذا قال له: اضرب يضرب بها، فقعد الشيخ وجعل

يقرأ شيئاً في / ٩١/ نفسه، ثم قال لحامل السكين: اقطع فقطع من الموضع الذي حزه، وإذا صيحة هائلة تحت القلعة، فسألوا عنها، فقيل إن الشخص الجزار قد قتل أو كما قال.

حدثني سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيقة. قال: كان الشيخ شهاب الدين السهروردي لا يلتفت إلى ما يلبسه، ولا له احتفال بأمور الدنيا.

قال: وكنت أنا وإياه نتمشى في جامع ميافارقين، وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجليه زربول ورآني صديق لي، وهو إلى جانبي فقال: ما جئت تماشي إلاَّ هذا الخربندار؟ فقلت له: اسكت هذا سيد الوقت، شهاب الدين السهروردي. فتعاظم قولي، وتعجب ومضى.

وحدثني بعض أهل حلب قال: لما توفي شهاب الدين رحمه الله، ودفن بظاهر مدينة حلب، وجد مكتوباً على قبره، والشعر قديم: [من البسيط]

قدْ كانَ صاحبُ هذا القبرِ جوهرةً ... مكنونةً قدْ براها اللهُ مِنْ شَرَفِ
فلمْ تكنْ تعرفُ الأيامُ قيمتَهُ ... فردَّها غَيرةً منهُ إلى الصَّدَفِ

ومن كلامه قال في دعاء:

اللهم يا قَيَّام الوجود، وفائض الوجود، ومنزل البركات، ومنتهى الرغبات، نور النور، ومدبر الأمور، وواهب حياة العالمين، امددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك، ومعاينة أضوائك، ومجاورة مقربيك، وموافقة سكان ملكوتك. واحشرنا اللهم مع الذين أنعمت اللهم عليهم من الملائكة والصديقين، والأنبياء، والمرسلين.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

أبداً تحنُّ إليكمُ الأَرواحُ ... ووصالُكمْ ريحانُها والراحُ
وقلوبُ أهلِ ودادِكمْ تَشتاقُكُمْ ... وإلى لذيذِ وِصالكمْ تَرتاحُ
وإذا همُ كَفُّوا تحدَّثَ عنهمُ ... عندَ الوُشاةِ المَدمعُ السفَّاحُ
فإلى لقاكمْ نفسُهُ مشتاقةٌ ... وإلى رضاكمْ طَرْفُهُ طَمَّاحُ
/ ٩٢/ عُوذوا بنُورِ الوَصلِ مِنْ غَسَقِ الجَفَا ... فالهجرُ ليلٌ والوِصالُ صَباحُ
وتمتَّعوا فالوقتُ طَابَ لكمْ وقدْ ... رقَّ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وقوله: [من الوافر]

أقولُ لجارتي والدمعُ جاري ... ولي عزمُ الرحيلِ عَنِ الديارِ
ذَريني أَنْ أَسيرَ ولا تنوحي ... فإنَّ الشُّهْبَ أَشْرَقُها السَّواري
فإنّي في الظلامِ رأيتُ ضَوءاً ... كأنَّ الليلَ زُيِّنَ بالنهارِ
ولمْ أرضَ الإقامةَ في فَلاةٍ ... وفوقَ الفرقدينِ رأيتُ داري
ويأتيني مِنَ الجَرعاءِ بَرقٌ ... يذكِّرني بها قُربُ الديارِ

وقوله: [الرمل]

قُلْ لأَصحابٍ رأوَني مَيتاً ... فبكَوني إذْ رأوَني حَزنا
لا تظنوني بأنّي مَيِّتٌ ... ليسَ ذاكَ المَيْتُ واللهِ أنا
أنا عُصفورٌ وهذا قَفَصي ... طِرْتُ عنهُ فتخلَّى بَدَنا
وأنا اليومَ أناجي مَلأً ... وأرى اللهَ عِياناً بهَنا
فاخلعوا الأنفسَ مِنْ أجسادِها ... لتَرَوا للحقِّ حَقّاً بيِّنَا
لا تَرُعكُمْ سَكرةُ المَوتِ فما ... هي إلاّ انتقالٌ مِنْ هُنا[1]

قلت: حدثني شيخنا أبو الثناء الكاتب الحلبي رحمه الله عن أشياخه أن الشهاب السَّهروردي كان لا يقرُّ للملك الظاهر بمعرفة السيمياء وينكره ذلك، وكان الملك الظاهر لا يشك في أنه يعرف ذلك ويحب أن يراه، وكان لا يزال يقول له عن ذلك وهو ينكره ويجحد، فلمّا كان ذات يوم قال له: بالله يا مولانا أرني شيئاً من السيمياء، فقال له: بسم الله، وكان الملك الظاهر واقفاً على بركة يريد أن يغتسل فيها ثم إن الملك الظاهر نزل فغطس، ثم طلع ومملوكه /٩٣/ واقف بيده منشفة، فلما خرج ناوله المنشفة فتنشف، ثم قال: أين أنا، فقال له ذلك المملوك: هنا في دارك وملكك بحلب، فقال: ويلك كم لي غائب عنكم، فقال: قدر ما غطست في الماء، فقال: ويلك أنا لي غائب عنكم سنين وغرقت فما طلعت إلاّ من ساحل بحر عدن، وتزوجت امرأة هناك من بيت خطاب، وأولدتها أولاداً فقال المملوك: أعيذك يا خوند بالله، وأعيذ عقلك، وكلما قال هذا يغتاظ الملك الظاهر، ويقول: ويلك تغالطني وتدهيني في عقلي، والمملوك يعيد قوله، فضحك السهروردي، ففطن الملك الظاهر، وقال له: هذه عملاتك معي، فقال له السهروردي: لا والله بل هذه عملاتك أنت مع نفسك.

وأجريت ذكره مرةً مع الشيخ العارف جمال الدين الحويزاوي شيخ الشيوخ بالديار المصرية، فقال: كان رجلاً جليل القدر من أفراد العالم وفضلاء الدهر وأعيان

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٤١ـ ٦٤٦.

أهل التصوف، وأخذ نفسه في أول حاله بالتجريد، واجتهد فيه، ولكن غلبت عليه شقاوته وجهل صباه، فقتل بسيف الشرع، ثم أنشد: [من الطويل]

وذاكَ قـــتـــيـــلٌ لا يُـــطَـــلُّ لـــهُ دمٌ

ومنهم:

[٢٨]

الخُسْرُوشَاهي، عبد الحميد بن عيسى، شمس الدين، أبو محمد(١)

نسبة إلى قرية تعرف بخسروشاه من قرى تبريز.

سَمَرُ حديث مغرب، وقمرٌ مشرقٌ ومغرب، قدم الشام فكان أزين له من هشام، وحَلَّ في أمِّ بلدانه حلول ابن ذي يزن في غمدانه، ونزل بالكرك، وأناخ نزول بالشاذياخ فأسعف وأعان، وذَكَّر المنازل أهلها بين البلقاء ومعان، وأفاض في تلك المعالم الإحسان فوق آل غسانٍ، استقدمه الناصر داود وقدمه تقديم الودود، فنشر علم علمه، وشرَّع مورد يَمِّه، وجعل حوضه لمن يمتاح، وروضه لمن يرتاح، فغدت حضرته محطاً للركائب، ومحلاً للرغائب، فكثر من عنده الممتار، ورجع يشهده المشتار، ونمى عدد

---

(١) عبد الحميد بن عيسى بن عمُّويه بن يونس بن خليل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد، شمس الدين: من علماء «الكلام» نسبته إلى خسروشاه (من قرى تبريز) ومولده فيها سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م). تقدم في علم الأصول والعقليات والفقه، وأقام في دمشق والكرك، عند الملك الناصر داود، سنين كثيرة، وتوفي بدمشق سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م). له «اختصار المهذب» في فقه الشافعية، و«اختصار الشفا» لابن سينا، و«تلخيص الآيات البينات» للفخر الرازي.
ترجمته في: عيون الأنباء ٦٤٨ـ ٦٥٠، والفوائد الجلية ١٥١ـ ١٥٢، ومعجم البلدان ٣/ ٤٣٨، ومرآة الزمان ج٨ ق ٢/ ٧٩٣، وذيل الروضتين ١٩٨، الإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٢، والعبر ٥/ ٢١١ـ ٢١٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٨١، والوافي بالوفيات ١٨/ ٧٣ـ٧٥ رقم ٧٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٦٠، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٧٥أ، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٧٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٣٩ رقم ٤١٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٥٥، وهدية العارفين ١/ ٥٠٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٠٦، والأنباء ٦٤٨، الحوادث الجامعة، وفيه: «عبد الحميد بن حسن بن شاهي»، وعقد الجمان ١/ ٩٤، والدليل الشافي ١/ ٣٩٥ رقم ١٣٥٩، والمنهل الصافي ٧/ ١٤٩ رقم ١٣٦٣ وتاريخ الخلفاء ٤٧٦، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٠٣، والأعلام ٣/ ٢٨٨، ، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١ـ٦٦٠هـ) ص١٢٥ رقم ٦٨)

الفضلاء، وطمى مدد الفضل في ذلك / ٩٤/ الفضاء، وتزاحمت الملوك على خطبته، واستزارته من خطته، وهو بذروة ذلك الجبل ممتنع، وبيسير ذلك البلل مقتنع، ودأبه في زيادة علوم وإفادة خصوص وعموم، وأيَّامه بالفضائل مشحونة، ولياليه من الرذائل مصونة، ثم أتاه أجله، وحلَّ عليه من دَين النعاء مؤجله، فاتصلت تلك الروح الزكية بعالمها، وخلصت من ظلم الدنيا ومظالمها.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: هو إمام العلماء، وسيد الحكماء، قدوة الأنام، شرف الإسلام. تميز في العلوم الحكمية، وحرر الأصول الطبية، وأتقن الأحكام الشرعية ولم يزل دائم الاشتغال، جامعاً للفضل والإفضال. وكان شيخه الإمام فخر الدين بن خطيب الري وهو من أجل تلامذته. ومن حين وصل الشام اتصل بخدمة الملك الناصر داود بن المعظم، وأقام عنده بالكرك، وكان عظيم المنزلة عنده وله من الإحسان الغزير والإنعام الكثير. ثم أتى دمشق وتوفي بها في شوال سنة اثنتين وخمسين وستمائة. ودفن بجبل قاسيون.

قال: رأيته يوماً وقد أتاه بعض فقهاء العجم بكتاب دقيق الخط ثُمن البغدادي، معتزلي القطع. فلما نظر فيه صار يقبله ويضعه على رأسه، فسألته عن ذلك فقال: هذا خط شيخنا الإمام فخر الدين بن الخطيب رحمه الله.

قلت: ولما كان الشيخ شمس الدين الخسروشاهي عند الملك الناصر داود بالكرك، كان جدي الصاحب جمال الدين أبو المآثر فضل الله وزيراً عنده، واتحدت له صحبة بالشيخ، فأخذ معه ولده عمي الصاحب شرف الدين أبا محمد عبد الوهاب رحمه الله وقدمه للشيخ، وقال: هذا ولدي وأعز ما أقدر عليه، وقد قدمته لك، فقبله منه قبولاً حسناً، وأقرأه «الأربعين في أصول الدين»، وانتفع به. ثم لما أتى الأمير الكبير الكافل جمال الدين أبو الفتح موسى بن يغمور لزيارة الشيخ طلب منه عمي / ٩٥/ أن يكون عنده فآثره به، ثم اتصل بالملك الصالح أيوب بسببه على ما ذكرت ذلك في ترجمة عمي في «فواضل السمر».

ورثى الخسروشاهي جماعة منهم العز الضرير منها: [من الطويل]

أصابَ العُلا شمسَ العُلا عندما استوتْ ... وأودَى ببدرِ الفضْلِ والبدرُ كاملُ
فتًى بَذَّ كلَّ العالمينَ بصمتِهِ ... فكيفَ إذا وافيتَهُ وهوَ قائلُ
أتدري المنايا مَنْ رَمَتْ بسهامِها ... وأيّ فتًى أودى وغالَ الغَوائلُ
رمتْ واحدَ الدنيا وبحرَ عُلُومِها ... ومَنْ قصرتْ في الفضْلِ عنهُ الأوائلُ

---

(١) عيون الأنباء ٦٤٨.

ولَوْ كانَ بالفضلِ الفتى يدفعُ الردى   لَمَا غَيَّبَتْ عبدَ الحميدِ الجَنادلُ
فبَعْدكَ شمسَ الدينِ أعوزَ عالمٌ   وأبَدى الدعاوى في المحافلِ جاهلُ[(١)]

ومنهم:

[٢٩]

السيف الآمدي، علي بن [أبي] علي بن محمد بن سالم، سيف الدين أبو الحسن التغلبي الآمدي[(٢)]

سيف لا يعرف التقليد، وسيل يَشيبُ لهولِه الوليد، توقَّى كل مناظر حدَّ مضربه، وعاد كل صادر بريق مشربه، ساجل فقطع غمار اللجج، وجادل فقطع حجاج الحجج،

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٤٨ـ ٦٤٩.

(٢) علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي: أصولي، باحث. أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)، وتعلم في بغداد والشام. وانتقل إلى القاهرة، فدرس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفياً إلى «حماة» ومنها إلى «دمشق» فتوفي بها سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م). له نحو عشرين مصنفاً، منها «الإحكام في أصول الأحكام ـ ط» أربعة أجزاء، ومختصره «منتهى السول ـ ط» و«أبكار الأفكار ـ خ» في طوبقبو، الأول والثاني منه، في علم الكلام، و«لباب الألباب» و«دقائق الحقائق» و«المبين في شرح معاني الحكماء والمتكلمين ـ خ» كراستان، في المكتبة العربية بدمشق.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٥٠ـ ٦٥١، تاريخ الحكماء للقفطي ٢٤٠ـ ٢٤١، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦٩١، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٣٥٩ـ ٣٦٠ رقم ٣٥٠٨، وذيل الروضتين ١٦١، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٩٣ـ ٢٩٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥٥ـ ١٥٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٤ـ٣٦٦ رقم ٢٣٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، دول الإسلام ٢/ ١٣٦، والعبر ٥/ ١٢٤ـ ١٢٥، مفرّج الكروب ٥/ ٣ـ١١ وفيات ٦٣٠هـ، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦٠، ومرآة الجنان ٤/ ٧٣ـ٧٥، والوافي بالوفيات ١٢/ ورقة ١٢٤ـ١٢٦، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٠ـ ٦١، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ١٣٧ـ ١٣٨، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٢٩، ٨/ ٣٠٦ـ ٣٠٧، والبداية والنهاية ١٣/ ١٤٠ـ ١٤١، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٦ ب، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤١٠ـ٤١٢ رقم ٣٧٩، والوفيات لابن قنفذ ٣١٢ـ ٣١٣ رقم ٦٣١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٥، وتاريخ الخلفاء ٤٦٤، وحسن المحاضرة ١/ ٢٥٩، مفتاح السعادة ٢/ ٤٩، وتاريخ الأزمنة للدويهي ٢١٧، وشذرات الذهب ٥/ ١٤٢ـ١٤٤، وديوان الإسلام ١/ ٧٦ـ ٧٧ رقم ٨٣، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٥٥، الأعلام ٤/ ٣٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ٦٤٠هـ) ص ٧٤ رقم ٤٥.

ولم يخل منهله من زحام، ولا تصرفه من زمام، فكم جاءت إليه الأفواج، وتزاحمت في بحره الأمواج، ونداه يسع، وجداه لا يدع، وجعل مدينة حماة سوقاً لفوائده، ومعدناً لفرائده، وكان قصدها لا يعد إلاَّ في معالي الرتب، ولا يزال يرحل إليه على كور وقتب، وهو على هذا الازدحام، وكثرة من حلَّق عليه وحام، لا يودع الحكم غير أهلها، ولا يدع للشفة إلاَّ قدر نهلها، فكان لا يزال لديه شفيع لطالب، ومتوسلٌ بخلائقه الأطايب، فلم يكن مثله سيف لا يزال يخدمه القلم، وينشر لعلمه على جناح الجوزاء العلم، وكانت ملوك زمانه تجله، ولو قدرت عرفت من نجاد ممالكها أين تحله، فقد كان سيفاً مشرفياً، ومثقفاً سمهرياً، طالما طال /٩٦/ المفارق والطلا، وطاب معدنه، فلم يحتج إلى تنميق الحمائل والحُلى، هذا وليس به فلول من قراع الكتائب ولا ذهول، وبحره جمُّ العجائب.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان أذكى أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالحكمة والشريعة والمبادىء الطبية، بهي الصورة، فصيح اللسان، جيد التصنيف، خدم الملك المنصور صاحب حماة، وأقام عنده سنين ورتب له الرواتب السنية، فلما توفي أتى الملك المعظم عيسى فبالغ في الإنعام عليه وإكرامه، وولاه التدريس، وكانت الناس تتعجب له في المناظرة والبحث، وقل أن كان يشتغل في العلوم الحكمية. وتشفع العماد السلماسي بابن بصاقة اليد ليقرأه، فكتب إليه: [من البسيط]

يا سيداً جَمَّلَ اللهُ الزمانَ بِهِ ... وأَهلَهُ [من] جَميعِ العُجْمِ والعَرَبِ
العبدُ يذكرُ مَولاهُ بما سَبَقَتْ ... وُعُودُهُ لعمادِ الدينِ عَنْ كَثَبِ
ومثلُ مَولايَ مَنْ جاءتْ مَواهِبُهُ ... مِنْ غيرِ وعدٍ وجَدواهُ بلا طَلَبِ
فأَصْفِ مِنْ بحرِكَ الفيَّاضِ مَورِدَهُ ... وأَغْنِهِ مِنْ كُنوزِ العِلْمِ لا الذهَبِ
واجعلْ لهُ نسباً يُدلي إليكَ بهِ ... فلُحمةُ العِلمِ تَعْلُو لُحَمةَ النسبِ
ولا تَكِلْهُ إلى كُتبٍ تُنبئُهُ ... فـ(السيفُ أصدَق أنباءً مِنَ الكُتُبِ)[٢]

ومنهم:

[٣٠]

البَدِيع الأَصْطُرْلابي، وهو بديع الزمان أبو القاسم، هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي[٣]

حكيمٌ فاق بتفنن علمه الحكماء، ولم يكف نظره فسيح الأرجاء حتى شق

---

(١) عيون الأنباء ٦٥٠.

(٢) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٦٥٠ـ ٦٥١.

(٣) البَدِيع الأَسْطُرْلابي: هبة الله بن الحسين بن يوسف الأسطرلابي، أبو القاسم، فيلسوف من علماء الأطباء ومن كبار علماء الفلك. من أهل بغداد. كان في أصبهان سنة (٥١٠) واشتهر بعمل الآلات =

السماء، ولم يقنع باستقصاء أمزجة البشر حتى سأل عن أمزجة النجوم، وميَّز ذوات البِشْر وأمنها والوجوم، وأتقن عمل الاصطرلاب ليقوم تحريكه للعضادة مقام جسه للنبض، ونظره لما بين المشارق والمغارب بمحيط ما يجمع الأرض. هذا مع اتقان بقية فنون الحكمة، وما في غضون ذلك من الأمور المهمة. على انه لم يخل الأدب من /٩٧/ لطيف نظر، وشريف ذكاء وقف به على ما لا تنافر من محاسن كل نفر.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[١]: من الحكماء الفضلاء، والأدباء النبلاء، عالم، فيلسوف، متكلم، غلبت عليه الحكمة وعلم الكلام، والرياضي، وكان متقناً لعلم النجوم والرصد، وكان أوحد أهل زمانه في علم الاصطرلاب وعمله، فعرفَ به.

ومن بديع شعر البديع قوله: [من الهزج]

قامَ إلى الشمسِ بآلاتِهِ ليَنظرَ السعدَ مِنَ النَّحْسِ
فقلتُ: أينَ الشمسُ؟ قالَ الفتَى في الثورِ. قُلتُ: الثورُ في الشمسِ

وقوله [من المديد]:

قيلَ لي: قد عشقتَهُ أمردَ الخَدِّ وقدْ قيلَ: إنَّهُ نكريشُ
قلتُ: فَرخُ الطَّاوُوسِ أَحسنُ ماكا نَ إذا ما عَلاهُ الرِّيشُ

= الفلكية اختراعاً. وحصل له من عملها مال كثير في خلافة «المسترشد» العباسي. ولما مات لم يخلفه في عملها مثله. وكان أديباً شاعراً، يميل إلى المجون والفكاهة. له «ديوان» جمعه هو، و«زيج» سماه «المعرب المحمودي» ألفه للسلطان محمود أبي القاسم بن محمد. وأولع بشعر ابن حجاج، فجمعه ورتبه وسماه «درة التاج من شعر ابن حجاج» وتوفي في بغداد بعلة الفالج. سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م، وعرَّفه ابن العبري بهبة الله «الأصفهاني» وقال: كان في وسط المئة السادسة من الأطباء المشار إليهم في الآفاق ثلاثة أفاضل معاً، من ثلاث ملل، كل منهم هبة الله اسماً ومعنى، من النصارى واليهود والمسلمين: «هبة الله بن صاعد بن التلميذ، وهبة الله بن ملكا، وهبة الله بن الحسين» .

ترجمته في: معجم الأدباء ١٩/ ٢٧٣-٢٧٥، وأخبار العلماء للقفطي ٢٢٢، ومرآة الزمان ج٨ ق١/ ١١٢، وعيون الأنباء ١/ ٣٧٦- ٣٨٠، ووفيات الأعيان ٦/ ٥٠- ٥٢، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٢ رقم ٣٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد للدمياطي ٢٤٥- ٢٤٦ رقم ١٩٠، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦١- ٢٦٣، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٤٨- ٣٥٠ وفيات ٥٢٣هـ، وفوات الوفيات ٢/ ٦١٤- ٦١٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٥ وفيات ٥٣٩، وكشف الظنون ١/ ٧٣٩ و٧٦٥، ٧٧٦، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٣- ١٠٤، وهدية العارفين ٢/ ٥٠٥، وتاريخ ابن سباط ويقال: هبة الله بن الحسن، الأعلام ٩/ ٨١، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١-٥٤٠هـ) ص٣٦١ رقم ٢٢١.

(١) عيون الأنباء ٣٧٦.

وقوله: [من مجزوء الكامل]

كُنْ كيفَ شئتَ فإنني قدْ صُغْتُ قلباً مِنْ حَديدِ
وقعدتُ أنتظرُ الكُسُو فَ وليسَ ذلكَ بالبَعيدِ

وقوله في جزع دان، وهو الذي يوضع في مجالس الكبراء لصب تكعيب القدح:
[من المنسرح]

إنِّي إذا ما قعدتُ في مَلأ عُدِدتُ مِنْ بعضِ آلة الفَرَحِ
إذا تصدرتُ في مجالسِهِمْ تَنَغَّصُوا لي بفاضِلِ القَدَحِ

وقوله: [من السريع]

هلْ عثرتْ أقلامُ خَطِّ العِذارْ في مَشْقها. فالخالُ نَقْطُ العثارْ؟
أوِ استدارَ الخَطُّ لمَّا غَدَتْ نقطتُهُ مركزَ ذاكَ المَدارْ[1]

ومنهم:

[٣١]

وهو أبو علي، الحسين بن عبدالله /٩٨/ بن يوسف بن شبل البغدادي شبل[2]

حكيم رأي الدنيا بعين الاحتقار، ونظر كل ما فيها بذل الافتقار، وزخرت له

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٣٧٦ـ ٣٨٠.

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشِّبل، البغدادي، أبو علي: شاعر حكيم. من أهل بغداد مولداً ووفاة، توفي سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م). قرأ علوم الفلسفة والأدب، ونظم الشعر الجيد. وكان ظريفاً نديماً له «ديوان شعر».
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٣٣ـ ٣٤٠، دمية القصر ٢/ ٩٠٧ـ ٩٠٨، والأنساب المتفقة ٨٥، والمنتظم ٨/ ٣٢٨ـ ٣٢٩ رقم ٤١٧، ١٦/ ٢١٣ـ ٢١٤ رقم ٣٥١١، والأنساب ٧/ ٢٨٤، ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٣ـ ٢٥، وفيه: «الحسين بن عبد الله بن يوسف»، واللباب ٢/ ١٠، وخريدة القصر قسم شعراء العراق ٢/ ٢٤٧، والمحمدون من الشعراء للقفطي ٤٦٢ـ٤٧٠، تاريخ إربل لابن المستوفي ١/ ٢٤٩، وطبقات الأطباء ١/ ٢٤٧ـ٢٥٢ وفيه: «الحسين بن عبد الله»، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٩٣ في ترجمة ابن نقطة وفيه: «محمود بن الحسن بن ابي الشبل»، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٣٠ـ ٤٣١ رقم ٢١٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٨ـ ٩، والوافي بالوفيات ٣/ ١١ـ ١٦، والبداية والنهاية ١٢/ ١٢١ـ ١٢٢، وفوات الوفيات ٣/ ٣٤٠ـ٣٤٤، والبدر السافر ٩١، والنجوم الزاهرة ٥/ ١١١، وكشف الظنون ٧٦٦، ٣١٣، ودائرة معارف بطرس البستاني ٣/ ٢٥١، والأعلام ٦/ ١٠٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٧١ـ٤٨٠هـ) ص ٩٩ رقم ٩٠.

بحار الحكم، فخاض لججها الغمار، وأذكيت له سرجها فجنى من غصونها المهل له الثمار، وتناهى نظره في المال، فلم يزد بصيرةً في الاعتبار، ولم يرد زيادة للاختبار، إلاَّ أنه كان جريء اللسان، مسيء الإحسان، خرجت به الفلسفة إلى مهامهها العريضة، فضل في فجاجها الفيح، وظل في ذيل انفراجها الفسيح، ودام يخبط في سماء سماواتها، ويخطب ولا يلج خطبه اسماع أهل مداواتها، وأعذب مساع نطقه، ومسالك باطله المموه بحقه، تأدب بأدب الحياة في الوجنات، وذو الإغفاء في المقل السنات بألطف منه موقعاً، وأعطف لأعنَّة الأذنين إليه معاً، ولكنه لم يجد أذناً، ولم يلق من يعير بصيرته فطناً.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: مولده ومنشؤه ببغداد، وكان حكيماً فيلسوفاً، متكلماً فاضلاً، أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، ومن شعره قوله: [من الوافر]

بربِّكَ أيها الفَلَكُ المُدارُ ... أقصداً ذا المسيرُ أم اضطرارُ
مَدارُكَ قُلْ لنا في أيِّ شيءٍ ... ففي أَفهامِنا عنكَ انبهارُ
وفيكَ نَرَى الفضاءَ. فهلْ فضاءٌ ... سِوى هذا الفضاءِ بهِ تُدارُ
وعندكَ تُرفعُ الأرواحُ أمْ هلْ ... معَ الأجسامِ يُدركُها البَوَارُ
وموجٌ ذا المجرةُ أمْ فريدٌ ... على لُجَجِ الدروعُ لهُ أُوارُ
وفيكَ الشمسُ رافعةٌ شُعاعاً ... بأجنحةٍ قَوادِمُها قِصارُ
وطوقٌ في النجوم مِنَ اللآلي ... هِلالُكَ أمْ يَدُفيها سَوارُ
وشهبٌ ذا الخواطبُ أمْ ذُبالِ ... عليها المَرْخُ يُقْدَحُ والعَفَارُ
وترصيعٌ نُجومُكَ أمْ حَبابٌ ... يُؤلفُ بينهُ اللجُجُ الغِزارُ
تمدُّ رُقُومَها ليلاً وتَطوي ... نهاراً مثلَ ما طُويَ الإزار
/٩٩/ فكمْ بصِقالِها صَدِيَ البَرَايا ... وما يَصْدا لمضرَبها غِرارُ
تُباري (ثُمَّ) تَخْنِسُ راجعاتٍ ... وتكنسُ مثلَ ما كَنَسَ الصُّوارُ
فَبينا الشرقُ يَقْذفُها صُعُوداً ... تلقَّاها مِنَ الغربِ انحدارُ
على ذا ما مَضَى وعليهِ يَمضي ... طِوَالٌ ما وآجالٌ قِصارُ
وأيامٌ تفرِّقُنا مُدَاها ... لها أنفاسُنا أبداً شِفارُ
ودهرٌ ينشرُ الأعمارَ نشراً ... كما للغُصْنِ بالوَرْدِ انتثارُ
ودنياً كُلما وَضَعَتْ جَنيناً ... غَذاهُ مِنْ نَوائِبها ظُؤارُ

---

(١) عيون الأنباء ٣٣٣.

هي العَشواءُ ما خَبطتْ هَشيماً ... هي العجماءُ ما جَرَحَتْ جُبارُ
فمِنْ يومٍ بلا أَمَسٍ ليومٍ ... بغيرِ غدٍ إليهِ ما يُسارُ
ومِنْ نفسينِ في أَخذٍ وردٍّ ... لروحِ المرءِ في الجسمِ انتشارُ
فكمْ مِنْ بعدِ ما ألفتْ نفوسٌ ... جُسُوماً عَنْ مَجاثِمِها تُطارُ
ونَنتظرُ الرزايا والبَلايا ... وبعدُ فبالوعيدِ لنا انتظارُ؟
ونخرجُ كارهينَ ما دَخلْنا ... خُروجُ الضَّبِ أخرَجَهث الوجارث
ألمء تكث بالجوارحش آنساتس ... فكمء بالقُربِ عادَ لها نفارُ
فإنْ يكُ آدمٌ أشقى بنيهِ ... بذنبٍ ما لَهُ منهُ اعتذارُ
ولمْ يَنفعْهُ بالأسماءِ عِلْمٌ ... وما نَفَعَ السُّجُودُ ولا الجِوارُ
فأُخرِجَ ثُمَّ أُهبِطَ ثمَّ أوْدَى ... فتُربُ السَّافياتِ لهُ شِعارُ
فأدركهُ بعلمِ اللهِ فيهِ ... مِنَ الكَلماتِ للذنبِ اغتفارُ
ولكنْ بعدَ غُفرانٍ وعَفوٍ ... يُعيَّرُ ما تَلا ليلاً نهارُ
لقدْ بلغَ العَدوُّ بنا مُناهُ ... وحَلَّ بآدمَ وبنا الصَّغارُ
وَقَفْنا تائهينَ كقومِ مُوسى ... ولا عِجْلٌ أَضَلَّ ولاَ خُوَارُ
/١٠٠/ فيا لَكِ لُقْمةً قدْ كانَ منها ... علينا نِقْمةٌ وعليهِ عارُ!
نُعاقَبُ في الظُّهورِ وما وُلِدنا ... ويُذبحُ في حَشَا الأمِّ الحُوارُ
فماذا الامتنانُ علَى وُجُودٍ ... لغيرِ الواجدين بهِ الخيارُ؟
وكانتْ أنعماً لوْ أنّ كُنَّا ... نُخَيَّرُ قَبْلَهُ أو نُستشارُ
أهذا الداءُ ليسَ لهُ دَواءٌ ... وهذا الكَسْرُ ليسَ لهُ انجبارُ
تَحيَّرَ فيهِ كلُّ دقيقِ فَهْمٍ ... وليسَ لعُمْقِ جُرحِهِمُ انستارُ
إذا التكْويرُ غالَ الشمسَ عنَّا ... وغالَ كواكبَ الليلِ انتثارُ
وبُدِّلنا بهذي الأرضِ أرضاً ... وطَوَّحَ بالسماواتِ انفطارُ
وأذُهِلتِ المَراضعُ عَنْ بنيها ... لحيرتها وعُطِّلتِ العِشارُ
وغَشى البدرَ مِنْ فَرَقٍ وذُعْرٍ ... خُسُوفٌ للتوعُّدِ لاسرارُ
وسُيِّرتِ الجبالُ فكُنَّ كُثْباً ... مَهيلاتٍ وسُجِّرَتِ البِحارُ
فأَينَ ثَباتُ ذي الألبابِ مِنَّا ... وأَينَ معَ الرُّجُومِ لنا اصطبارُ؟
وأينَ عُقولُ ذي الأفهامِ فيما ... يُرادُ بنا وأَينَ الاعتبارُ؟
وأينَ يغيبُ لُبٌّ كانَ فينا ... ضياؤكَ مِنْ سَناهُ مُستعارُ؟
وما أرضٌ عَصَتْهُ ولا سماءٌ ... ففيمَ يَغُولُ أنجُمَها انكدارُ؟

وقـدْ وافـتْـهُ طـائـعـةً وكـانـتْ ... دُخـانـاً مـا لِـثـائـرِهِ شَـرارُ
قـضـاهـا سـبـعـةً والأرضُ مـهـداً ... دَحـاهـا فـهـيَ لـلأمـواتِ دارُ
فـمـا لـسـمـوٍّ مـا أعـلـى انـتـهـاءٌ ... ولا لـسـمُـوكِ مـا أرَسَـى قَـرَارُ
ولـكـنْ كـلُّ ذا الـتـهـويـلِ فـيـهِ ... لِـذي الألـبـابِ وعْـظٌ وازدجـارُ

ومنه قوله: [من الوافر]

وكـأنَّـمـا الإنـسـانُ فـيـهِ عِـبْـرةٌ ... مُـتـلـوِّنـاً. والـحُـسـنُ فـيـهِ مُـعـارُ
/١٠١/ متصرفاً ولهُ القضاءُ مُصرِّفٌ ... ومُـكـلَّـفـاً وكـأنَّـهُ مُـخـتـارُ

وقوله: [من المتدارك]

ثَـقُـلَـتْ زُجـاجـاتٌ أتَـتـنـا فُـرَّغـاً ... حـتَّـى إذا مُـلِـئَـتْ بِـصِـرْفِ الـرَّاحِ
خَـفَّـتْ فـكـادتْ أنْ تَـطـيـرَ بـمـا حَـوَتْ ... وكـذا الـجُـسُـومُ تَـخِـفُّ بـالأرواحِ

وقوله: [من البسيط]

قـالـوا: الـقـنـاعـةُ عِـزٌّ والـعَـفـافُ غِـنًـى ... والذُّلُّ والعارُ حِرْصُ النفسِ والطَمَع
صَـدْقـتُـمُ مَـنْ رِضـاهُ سَـدُّ جَـوعـتِـهِ ... إنْ لَـمْ يُـصـبْـهُ بـمـاذا عـنـهُ يـقـتـنـعُ؟

وقوله: [من البسيط]

تـلـقَّ بـالـصـبـرِ ضـيـفِ الـهَـمِّ تَـرحـلُـهُ ... إن الـهُـمُـومَ ضـيـوفٌ أكـلُـهـا الـمُـهَـجُ
فـالـخَـطْـبُ مـا زادَ إلا وهـوَ مُـنـتـقِـصٌ ... والأمـرُ مـا ضـاقَ إلا وهـوَ مُـنـفـرِجُ
فَـرَوِّحِ الـنـفـسَ بـالـتـعـلـيـلِ تَـرْضَ بـهِ ... عَـسـى إلـى سـاعـةٍ مِـنْ سـاعـةٍ فَـرَجُ

وقوله: [من البسيط]

بـشـنـا إلـى الـديـرِ مِـنْ درنـي صَـبَـابـاتُ ... فـلا تَـلُـمْـنـي فـمـا تُـغـنِـي الـمَـلامـاتُ
فـكـمْ قـضَـيـتُ لـبُـانـاتِ الـشـبـابِ بـهِ ... غُـنْـمـاً وكـمْ بَـقِـيَـتْ عـنـدي بَـقِـيَّـاتُ
مـا أمـكـنـتْ دولـةُ الأفـراحِ مُـقـبـلـةً ... فـأنـعَـمْ وَلَـذَّ، فـإنَّ الـعَـيـشَ تـاراتُ
قـمْ فـاجْـلُ فـي فـلـكِ الـظـلـمـاءِ شَـمسَ ضـحًـى ... بُـروجُـهـا الـدهـرَ طـاسـاتُ وكـاسـاتُ
تـلـوحُ فـي أذرُعِ الـسـاقـيـنَ أسْـورَةً ... تِـبْـراً. وفـوقَ نُـحـورِ الـشَّـرْبِ جـامـاتُ
قـدْ وقّـعَ الـدهـرُ سـطـراً فـي صـحـيـفـتِـهِ ... لا فـارقـتْ شـاربَ الـخـمـرِ الـمَـسـرَّاتُ
خـذْ مـا تـعـجَّـلَ، واتـركْ مـا وُعِـدتَ بـهِ ... فِـعْـلَ الـلـبـيـبِ فـلـلـتـأخـيـرِ آفـاتُ[1]

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٣٣٣ـ ٣٤٠.

[٣٢]

النصير الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين، أبو عبد الله، الطوسي الفيلسوف(١)

رجل ما عرف أياماً، ولا تبرقع بالحياء لثاماً، أقدم على خالقه، /١٠٢/ وحصل من السعي على خافقه، وتجاهر بالفسوق، وتظاهر بالتبضع من السوق، ولم يخف عاقبة التهور، ولا التدلي على الشريعة والتسور، فلم يزل في قبح أحدوثة، وطريق سبيل عهود منكوثة، على توسعه في العلم، ومعرفته بما به يستتم، فقد كان ذا فضائل غزيرة،

---

(١) محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي: فيلسوف. كان رأساً في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات. علت منزلته عند «هولاكو» فكان يطيعه فيما يشير به عليه. ولد بطوس (قرب نيسابور) سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) وابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، اجتمع فيها نحو أربعمائة ألف مجلد، وقرر منجمين لرصد الكواكب وجعل لهم أوقافاً تقوم بمعاشهم. وكان «هولاكو» يمده بالأموال. وصنف كتباً جليلة، منها «شكل القطاع ـ ط» يقال له «تربيع الدائرة» و«تحرير أصول اقليدس ـ ط» و«تجريد العقائد ـ ط» يعرف بتجريد الكلام، و«تلخيص المحصل ـ ط» مختصر المحصل للفخر الرازي، و«حل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا ـ ط» و«شرح قسم الإلهيات من إشارات ابن سينا ـ ط» و«أوصاف الأشراف ـ خ» و«تحرير المجسطي ـ خ» في الهيئة و«الأكر ـ خ» و«الحرارة والبرودة وتضادّ فعليهما ـ خ» رسالة، و«تحرير كتاب المساكن ـ خ» و«تحرير كتاب المناظر ـ خ» و«مئة مسألة وخمس من أصول إقليدس ـ خ» و«تحرير الطلوع والغروب ـ خ» و«تحرير المطالع ـ خ» و«تحرير المأخوذات ـ خ» و«تحرير المفروضات ـ خ» و«التذكرة في علم الهيئة ـ ط» بإيران، و«تحرير ظاهرات الفلك ـ خ» و«تحرير جرمي النيرين وبعديهما ـ خ» و«شرح كتاب ثمرة بطليموس ـ خ» و«المتوسطات الهندسية ـ خ» منه نسخة قديمة نفيسة في اللورنزيانة، بفلورانس، رقم (١٦٤) شرقي؛ و«تحرير الكرة المتحركة ـ خ» و«المقالات الست ـ ط» و«البارع ـ خ» في علم الهيئة والبلدان، و«التحصيل ـ خ» في النجوم، و«المخروطات» و«بقاء النفس بعد بوار البدن ـ ط» مع شرح للزنجاني، باسم «بقاء النفس بعد فناء الجسد» قاله عبيد. و«مصارع المصارع ـ خ»، و«آداب المتعلمين ـ ط» و«الجبر والمقابلة» و«إثبات العقل»، ومن مطبوعات حيدرآباد بالهند «مجموعة» في مجلدين، تشتمل على (١٦) رسالة له، بينها بعض ما تقدم ذكره. وله شعر كثير بالفارسية. توفي ببغداد سنة (٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م).

ترجمته في: الحوادث الجامعة ١٨٣، وتاريخ الملك الظاهر ٩٨، والمقتفي للبرزالي ١/ ورقة ٤٣ أ، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ٨، وذيل مرآة الزمان ٣/ ٧٩، وتاريخ الزمان ٣٣٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٦ـ ٢٨٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٩١، ودول الإسلام ٢/ ١٤٧، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٦، والعبر ٥/ ٣٠٠، ومسالك الأبصار (خ) ٥/ ٣٨٠ـ ٣٨٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٢٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٦٧ـ ٢٦٨، والوافي بالوفيات ١/ ١٧٩ـ١٨١ رقم ١١٢، =

وفواضل غزيزة، واستيلاء على عقول السلاطين، واستخفاء في كيد ولا تبلغه الشياطين، مع كرم عميم، وكر على مال، ولا يبقى معه عديم، وتظاهر بفراغ وطلب فصل رام مثله وراغ، ولكن الله إذا أرد لامريء أمراً يسّره لفعله، وقدّره على فعله ليمضي سابق إرادته، ويقضي بشقاء العبد أو سعادته، ولهذا لج في عمهه ولم يبصر، ودام على غيه ولم يقصر، فما أقبل على اعتذار ولا أسمعه المشيب الإنذار.

كان رأساً في علم الأوائل، لا سيما في الأرصاد، والمجسطي؛ فإنه فاق الكبار. قرأ على المعين سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي وغيره، وكان ذا حرمة وافرة، ومنزلة عالية عند هولاكو، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصريفه، فابتنى في مدينة مَراغة قبة ورَصَداً عظيماً واتخذ في ذلك خزانة عظيمةً، فسيحة الأرجاء، ومَلأَها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد، وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة والفضلاء، وجعل لهم الجامكية، وكان سمحاً، كريماً، جواداً، ـ حليماً، حسن العشرة، غزير الفضائل، جليل القدر، ذا هيأة.

حكى لنا شيخنا الأصفهاني: أنه أراد العمل للرصد، فرأى هولاكو كثرة ما ينصرف عليه، فقال: هذا العلم المتعلق بالنجوم ما فائدته؟ أيدفع ما قدر أن يكون؟ فقال: أنا أضرب لمنفعته مثالاً، القان يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان، ويدعه يرمي من أعلاه طست نحاس كبيراً من غير أن يعلم به أحداً، ففعل ذلك، فلما وقع كانت له وقعة عظيمة هائلة رَوَّعَتْ مَنْ هناك، وكاد بعضهم يصعق، وأما هو وهولاكو فإنهما ما تغير عليهما شيء لعلمهما بأن /١٠٣/ ذلك واقع، فقال له: هذا العلم النجومي له هذه الفائدة يعلم المتحدث فيه ما يحدث، فلا يحصل له من الروعة والاكتراث ما يحصل للذاهل الغافل عنه، فقال: لا بأس بهذا، وأمره بالشروع فيه أو كما قيل.

= وفوات الوفيات ٢/ ٣٠٧، وعيون التواريخ ٢١/ ٥٢، والسلوك ج١ ق ٢/ ٦١٤، وعقد الجمان ٢/ ١٢٤ـ ١٢٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٤٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٣٦، وكشف الظنون ٩٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٩١، ٨٥٩، ٨٩٦، ٩٥٠، ٩٦٩، ١١٠٣، ١٣٦١، ١٤٣٦، ١٤٩٣، ١٦٤٤، ١٧٣٩، وشذرات الذهب ٥/ ٣٣٩ـ ٣٤٠، وإيضاح المكنون ٢/ ٢٤٣، ٣٥٢، ٣٥٣، ٤٢٠، ٤٢١، وهدية العارفين ٢/ ١٣١، والفوائد الرضوية لعباس القُمّي ٦٠٢ـ ٦١٥، وأعيان الشيعة ٤٦/ ٤ـ ١٩، والأعلام ٧/ ٣٠ـ ٣١، ومعجم المؤلفين ١١/ ٢٠٧ـ ٢٠٨، وتاريخ الخلفاء ٤٨٣، وديوان الإسلام ٤/ ٣٠٨ـ ٣٠٩ رقم ٢٠٨٥، وروضات الجنات ٦٠٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١ـ٦٨٠هـ) ص١١٣ رقم ٨٦.

ومن دهائه ما حكاه لي عنه شيخنا الأصفهاني أيضاً قال: إنه حصل له غضب على الجويني صاحب الديوان، وأظنه قال علاء الدين فأمر بقتله، فجاء أخوه إليه، وذكر له ذلك، فطلب منه إبطال ذلك، فقال: هذا القان وهؤلاء القوم إذا أمروا بأمر ما يمكن رده، خصوصاً إذا برز إلى الخارج، فقال: لا بد من الحيلة في ذلك، فتوجه إلى هولاكو، وبيده عكاز وسبحة واصطرلاب، وخلفه من يحمل مبخرة والبخور يضرم، فرآه خاصة هولاكو الذين على باب المخيم، فلما وصل أخذ يزيد في البخور، ويرفع الاسطرلاب ينظر فيه ويضعه، ويسأل عن هولاكو ويقول: هو سالم، هو سالم، يكرر ذلك، ويقولون: نعم، فيحمد الله ويسجد، فلما رأوه يفعل ذلك دخلوا إلى هولاكو، وأعلموه وخرجوا إليه، فقالوا: ما الذي أوجب هذا؟ فقال: القان أين هو؟ قالوا له: جوا، قال: طيب معافى موجود في صحة؟ قالوا: نعم، فسجد شكراً لله تعالى، وقال لهم: هو طيب في نفسه؟ قالوا: نعم، وكرر هذا ومثله، وقال: أريد أرى وجهه بعيني إلى أن دخلوا إليه وأعلموه بذلك، وكان وقت لا يجتمع به فيه أحدٌ، فأمر بإدخاله، فلما رآه سجد وأطال السجود، فقال له: ما خبرك؟ قال: اقتضى الطالع في هذا الوقت أن يكون على القان قطع عظيم إلى الغاية، فقمت وعملت هذا وبخرت هذا البخور ودعوت بأدعية أعرفها أسأل الله صرف ذلك عن القان، والطالع يقتضي أن يحقن القان دماء كثيرة، ويفرج عن نفوس كثيرة ليحقن دمه ويفرج عنه، ويتعين الآن أن القان يكتب إلى ممالكه ويجهز الألجيَّة في هذه الساعة إليها بإطلاق من في الحبوس والاعتقال، والعفو عمن له جناية أو أمر بقتله لعل الله أن يصرف هذا الحادث العظيم، ولو لم أر وجه القان ما صدقت، فأمر هولاكو في /١٠٤/ ذلك الوقت بما قال، وأطلق صاحب الديوان في جملة الناس، ولم يذكره النصير الطوسي، وهذا غاية في الدهاء بلغ به مقصده، ودفع عن الناس أذاهم، وعن بعض الناس إزهاق أرواحهم.

قال أبو الصفاء[1]: ومن حلمه ما وقفت على ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما يقول فيها له: يا كلب يا ابن الكلب، فكان الجواب وأما قوله لي كذا وكذا، فليس بصحيح لأن الكلب من ذوات الأربع وهو نابح، طويل الأظفار، وأنا فمنتصب القامة، بادي البشرة، عريض الأظفار ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص، وأطال في نقض كل ما قاله، هكذا برطوبة وتأن غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة.

---

(١) الوافي بالوفيات ١/ ١٨٠ـ ١٨١.

ومن تصانيفه «كتاب المتوسِّطات بين الهندسة والهيأة» وهو جيد إلى الغاية، و«مقدمة في الهيأة» وكتاب وضعه للنُصيرية، وأنا أعتقد أنه ما يعتقده؛ لأن هذا فيلسوف، وأولئك يعتقدن إلهيّة علي، واختصر «المحصل» للإمام فخر الدين وهذبه وزاد فيه، وشرح «الإشارات» وردّ فيه على الإمام فخر الدين في شرحه، وقال: هذا جرح وما هو شرح. قال فيه: إني حررته في عشرين سنة وناقض فخر الدين كثيراً.

ولقد ذكره قاضي القضاة جلال الدين القزويني رحمه الله يوماً، وأنا حاضر، وعَظَّمه ـ أعني الشرح ـ فقلت: يا مولانا ما عمل شيئاً؛ لأنه أخذ شرح الإمام، وكلام سيف الدين الآمدي، وجمع بينهما، وزاده يسيراً، فقال: ما أعرف للآمدي في الإشارات شيئاً، قلت: نعم كتاب صنفه وسماه «كشف التمويهات عن الإشارات والتنبيهات»، فقال هذا ما رأيته.

ومن تصانيفه: «التجريد في المنطق»، و«أوصاف الأشراف»، و«قواعد العقائد» و«التلخيص في علم الكلام» و«العروض» بالفارسية، و«شرح الثمرة» لبطليموس و«كتاب مجسطي» و«جامع الحساب في التخت والتراب» و«الكرة» و«الأسطوانة» و«المغطيات» و«الظاهرات» و«الباطن» و«الليل والنهار» و«الكرة المتحركة» و«الطلوع والغروب» و«تسطيح الكرة» و«المطالع» / ١٠٥/ و«تربيع الدائرة» و«المخروطات» و«الشكل المعروف بالقطائع» و«الجواهر» و«الأسطوانة» و«الفرائض على مذهب أهل البيت» و«تعديل العيار في نقد تنزيل الأفكار» و«بقاء النفس بعد بوار البدن» و«الجبر والمقابلة» و«إثبات العقل الفعال» و«شرح مسألة العالم» «رسالة الإقامة» «رسالة إلى النجم دبيران الكاتبي في إثبات واجب الوجود» و«حواشي على كليات القانون» و«رسالة ثلاثون فصلاً في معرفة التقويم» و«كتاب كرمانالاوين» و«الزيج الإيلخاني» وأكثر ما ورثه سبعون، وله شعر كثير بالفارسية.

وقال الشمس بن المؤيد العرضي: أخذ النصير العلم عن الشيخ كمال الدين ابن يونس الموصلي، والمعين سالم بن بدران المصري المعتزلي وغيرهما. قال: وكان منجماً لأبغا بعد أبيه، وكان يعمل الوزارة لهولاكو من غير أن يدخل يديه في الأموال، واحتوى على عقله حتى أنه لا يركب ولا يسافر إلاَّ في وقت يأمره به، ودخل عليه مرة ومعه كتاب مصور في عمل الدرياق الفاروق فقرأه عليه، وعظّمه عنده، وذكر منافعه، وقال: إن كان منفعته كذا، فتسحق مفرداته في هاون ذهب، فأمر له بثلاثة آلاف دينار لعمل الهاون.

وولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده، وكان له في كل بلد نائب يستغل

الأوقاف، ويأخذ عشرها، ويحمله إليه ليصرفه في جامكيات المقيمين بالرصد، ولما يحتاج إليه من الأعمال بسبب الأرصاد.

وكان للمسلمين به نفع خصوصاً الشيعة والعلويين والحكماء وغيرهم، وكان يبرهم، ويقضي أشغالهم، ويحمل أوقافهم، وكان مع هذا كله فيه تواضع وحسن ملتقى.

قال حسن بن أحمد الحكيم: سافرت إلى مراغة، وتفرجت في هذا الرصد، ومتوليه صدر الدين علي بن خواجا نصير، وكان شاباً فاضلاً في التنجيم والشعر بالفارسية، وصادفت الشمس ابن المؤيد العروضي والشمس الشرواني، وكمال الدين الأيكي، وحسام الدين الشامي، فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً، منها ذات الحلق، وهي خمس دوائر متخذة من /١٠٦/ نحاس الأول دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، ودائرة الدائرة الشمسية يعرف بها سمت الكواكب، وإسطرلاب يكون سعة قطره ذراعاً، وإسطرلابات كثيرة وكتب كثيرة.

قال: وأخبرني شمس الدين بن العرضي: أن النصير أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه إلا الله، وأقل ما كان يأخذ بعد فراغ الرصد لأجل الآلات وإفراغها وإصلاحها عشرون ألف دينار خارجاً عن الجوامك للحكماء والقومة.

وقال الخواجا نصير الدين في الزيج الإيلخاني: إني جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء منهم: المؤيد العُرضي من دمشق، والفخر المراغي الذي كان بالموصل، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس، والنجم دبيران القزويني، وابتدأنا ببنائه في سنة سبع وخمسين وستمائة في جمادى الأولى بمراغة، والأرصاد التي بنيت قبل، وعليها كان الاعتماد دون غيرها هو رصد ابن بحيش وله مبنيّاً ألف وأربعمائة سنة، وبعده رصد بطليموس، وله ألف ومائتا سنة وخمس وثمانون سنة، وبعده في ملة الإسلام رصد المأمون ببغداد وله أربعمائة سنة وثلاثون سنة، والرصد الثاني في حدود الشام، والرصد الحاكمي بمصر، ورصد بني الأعلم ببغداد، وافق فيها الرصد الحاكمي، ورصد ابن الأعلم ولهما مائتان وخمسون سنة. وقال الأستاذون: إن أرصاد الكواكب السبعة لا يتم في أقل من ثلاث وثلاثين سنة؛ لأن فيها يتم دور هذه السبعة، فقال هولاكو: اجتهد أن يتم رصد هذه السبعة في اثني عشر سنة، فقلت له: أجهد في ذلك.

وكان النصير قد قدم من مراغة إلى بغداد، ومعه جماعة كثيرة من تلامذته وأصحابه، فقام بها مدة أشهر ومات، وخلف من أولاده صدر الدين علي، والأصيل، والفخر أحمد، وولي صدر الدين علي بعد أبيه غالب مناصبه، /١٠٧/ فلما مات ولي

مناصبه أخوه الأصيل، وقدم الشام مع غازان، وحكم تلك الأيام في أوقاف دمشق، وأخذ منها جملة، ورجع مع غازان، وولي ولاية بغداد مديدة فأساء السيرة فعزل وصودر وأهين، فمات غير حميد. وأما أخوهما الفخر أحمد فقتله غازان لكونه أكل أوقاف الروم وظلم.

ومنهم:

[٣٣]

القطب الشيرازي(١)

رجلٌ يرجع إلى خير، وينتجع في أوّل وأخير، فلم يخلِ واديه من منتجع، ولا ناديه من حفل قوم مجتمع، وكان له من بني جنكزخان محلٌ حلَّى بالمنن ترائبه، وخلَّى كمد داء الأنواء راتبه، حتى اصطفاه السلطان أحمد، فبعثه إلى الحضرة المنصورية رسولاً، وبلغه من المسرة بتلك المشاهد سولاً، فحالت الأقدار دون مُراده، وأحلت له السمام في مَراده، فلم يُبلغ الرسالة، ولا سوع له زمنه الذي أساله.

---

(١) محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي، قطب الدين الشيرازي: قاض، عالم بالعقليات، مفسر. ولد بشيراز سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، وكان أبوه طبيباً فيها، فقرأ عليه، ثم قصد نصير الدين الطوسي وقرأ عليه. ودخل الروم فولي قضاء سيواس وملطية. وزار الشام. ثم سكن تبريز، وتوفي بها (سنة ٧١٠هـ/ ١٣١١م). وكان ظريفاً لا يحمل هماً ولا يغير زي الصوفية، يجيد لعب الشطرنج ويديمه، ويتقن الشعبذة، ويضرب بالرباب ويجلس في حلق المساخر. وهو من بحور العلم. من كتبه «فتح المنان في تفسير القرآن» نحو (٤٠) مجلداً، منه الجزء الأول مخطوط، و«مشكلات التفاسير ـ خ» و«حكمة الإشراق ـ ط» و«تاج العلوم ـ خ» و«شرح كليات القانون في الطب لابن سينا ـ خ» المجلد الرابع منه بخط مشرقي مشرق، كتب سنة (٧٣١) في خزانة الرباط (١٤٨ كتاني) و«مفتاح المفتاح ـ خ» في البلاغة، و«غرة التاج» في الحكمة، و«نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» في علم الهيئة، و«شرح الأسرار للسهروردي» و«رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم ـ خ» و«الانتصاف، شرح الكشاف ـ خ» و«شرح مختصر ابن الحاجب ـ خ» و«التحفة الشهية ـ خ» في الهيأة، و«التبصرة ـ خ» هيأة، «وشرح التذكرة الناصرية ـ خ» و«رسالة في البرص ـ خ».

ترجمته في: الوفيات لابن رافع ١٠/ ١٢٩ـ ٢٢٨، ٩٤/ ٣٣٩ـ٣٤١، وذيل العبر ٥٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٨، والتحفة الملوكية ٢٣٨، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ٦٣، والمقتفي ٢/ ورقة ١٦٦أ، ومرآة الجنان ٤/ ٢٤٨ـ ٢٤٩، وفيه: «محمد»، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢٤٨ وفيه: «محمد»، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٢٨٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥٩، وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٩١ـ ٩٢ رقم ٥٢٣، والسلوك ج٢ ق١/ ٩٦ـ ٩٧، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣، وبغية الوعاة ١/ ٣٩٠، ومفتاح السعادة ١/ ١٦٥، والبدر الطالع ٢/ ٢٩٩، وهدية العارفين ٢/ =

وحدثني شيخنا الأصفهاني قال: كان لا يزال بينه وبين خواجا رشيد الوزير بغضاء تفرق اللحم، وتدب دبيب النار في الفحم، وكان لا يزال ينغص عليه مقرره، ولا يريه إلا مكدره، فكانت جدته لا تقوم بتكاليفه، ومواده لا تنهض بمصاريفه، على أنه كان ينسب إلى هنات ومعايب بينات على فضل ينتاب، وكرم لا يرد بعتاب.

ومنهم:

[٣٤]

الشيخ صفي الدين الهندي(١)

إمامٌ لم يبق إلا من اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، واشترف به على ما أعيا العيان، وأخفى البيان، وقرب البعيد ولم يأن، وكان بحراً يطفح، وقطراً يسفح، يرجع

=

٤٠٦، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٢١١، وذيله ٢/ ٢٩٦، والأعلام ٨/ ٦٥، ومعجم المؤلفين ١٢/ ٢٠٢، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ٤٢٨، وأعيان العصر ٥/ ٤٠٩ـ ٤١٢ رقم ١٨٤٨، وكشف الظنون ٣٦٧، ٣٦٨، ٦٨٤، ١٢٣٥، ١٤٧٧، ١٦٩٥، ١٧٦٣، ١٨٥٣، ١٩٨٥، وروضات الجنات ٢١٤ـ ٢١٥، وفهرست الخديوية ٥/ ٢٢٥، وإيضاح المكنون ١/ ٢٥٠، وفهرس المخطوطات المصورة ٣/ ١٠٧ـ ١٠٨، والأعلام ٧/ ١٨٧ـ ١٨٨، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦هـ) ص١٠٠ رقم ٢٥٤.

(١) محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، أبو عبد الله، صفي الدين الهندي: فقيه أصولي. ولد بالهند سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)، وخرج من دهلي سنة (٦٦٧هـ)، فزار اليمن، وحج، ودخل مصر والروم. واستوطن دمشق (سنة ٦٨٥) وتوفي بها سنة (٧١٥هـ/ ١٣١٥م). ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية. له مصنفات، منها «نهاية الوصول إلى علم الأصول ـ خ» ثلاثة مجلدات منه، و«الفائق ـ خ» في أصول الدين، و«الزبدة» في علم الكلام، و«الرسالة التسعينية في الأصول الدينية ـ خ».
ترجمته في: المقتفي للبرزالي ٢/ ورقة ٢٣٤أ، ونهاية الأرب ٣٢/ ٢٣٠، وذيل العبر ٨٣ ـ ٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٣٠١، ومعجم الشيوخ ٥١٧ رقم ٧٦٧، ودول الإسلام ٢/ ٢٢١، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٢٤٠، وطبقات الشافعية الوسطى، ورقة ٧٩ ب، ومرآة الجنان ٤/ ٢٧٢، ونثر الجمان ٢/ ورقة ١١١ب، والبداية والنهاية ١٤/ ٧٤ـ ٧٥، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ٢٠٣، وتذكرة النبيه ٢/ ٧٢ـ ٧٣، ونزهة الخواطر ٢/ ١٣٨، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٨٢ ـ ٨٣ رقم ٥١٥، والوافي بالوفيات ٣/ ٢٣٩، وأعيان العصر ٤/ ٥٠١ـ٥٠٥ رقم ١٦١٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٨٣، والسلوك ج٢ ق ١/ ١٥٨، والبدر الطالع ٢/ ١٨٧، ومفتاح السعادة ٢/ ٢١٨، وتاريخ الخلفاء ٤٨٧، وهدية العارفين ٢/ ١٤٣، والدارس ١/ ١٣٠، وكشف الظنون ٧٨٣، شذرات الذهب ٦/ ٣٧، وديوان الإسلام ٣/ ٢٠١ رقم ١٣٢٠، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ١١٦، وذيله ٢/ ١٤٢، والأعلام ٦/ ٢٠٠، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١٦٠، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦هـ)، ص١٣٧ رقم ٤٢١.

إلى كرم سجايا لو قذف بها النار، لما اضطرمت، أو سجرت بها البحار لما التطمت، إلاَّ أنه كان لا تطيعه العبارة إذا نطق، ولا يحذر صيب سيله إذا اندفق.

أخذ عنه أكابر العلماء بدمشق كابن المراحل، وابن الزملكاني، وبلغوا به فوق الأماني، وحصل به /١٠٨/ ابن المرحل علوماً كانت نجايا الصدر، وأمن ابن الزمكاني أن يعرو النقص كماله كما يعرو البدر، ولولاه لما اتسع بالشام مجال الكلام، ولا طلعت للمعقول شمسٌ تمحق الظلام، وكان على تدفق بحره، وتأنق سحره لا ينفث سحره في عقد الأقلام، ولا يكتب في نهايته إلا ما لا يرضى به في بدايته من الغلام.

ومنهم:

[٣٥]

علي بن اسماعيل بن يوسف الإمام العلامة، القدوة العارف، ذو الفنون، الشيخ علاء الدين، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ أبو الحسن، القونوي، التبريزي(١)

جمع الطريقتين، ونفع الفريقين، وولي المنصبين، ورعى في جانبيهما المخصبين، فعلا على الألى، وارتقى أهل النقى، وعلا على مجد ما وصل إليه ذو مجد، ودرّس في الإقليمين فأعجب، وغرس فيهما كل غرس فأنجب، ولم يرد أهل العلم والصلاح إلا بقيته، ولا شهد أهل مصر والشام إلا أولويته، ذللت له فيهما الرتب، وسهلت عليه الأماني فبلغ أقصى علاهما، وطاب به الواديان كلاهما.

---

(١) علي بن اسماعيل بن يوسف القُونَوِي، أبو الحسن، علاء الدين: فقيه، من الشافعية. ولد بقونية سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، ونزل بدمشق سنة (٦٩٣هـ). وانتقل إلى القاهرة، فتصوف، وتلقى علوم الأدب والفقه. ثم ولي قضاء الشام سنة (٧٢٧هـ)، فأقام بدمشق إلى أن توفي سنة (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م). له «شرح الحاوي الصغير ـ خ» فقه، و«الابتهاج في انتخاب المنهاج ـ خ» في شستربتي (٣٠٨١) و«التصرف في التصوف» و«الطعن في مقالة اللعن ـ خ» رسالة.
ترجمته في: دول الإسلام ٢/ ٢٣٨، وذيل العبر ١٦٢ـ ١٦٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٣٠٨، والمعجم المختص ١٦٢ رقم ١٩٨، وتاريخ حوادث الزمان ٢/ ٣٦٧ـ٣٧٠ رقم ٣٧٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٤٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩١ـ ٢٩٢، ومرآة الجنان ٤/ ٢٨٩، وأعيان العصر ٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٥ رقم ١١٢٢، والبداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٦ رقم ٩٦٩، ودرة الأسلاك ٢/ ورقة ٢٥٩، وتذكرة النبيه ٢/ ١٩٣ـ ١٩٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ١٢٤ـ ١٢٥ رقم ٥٥٢، ونهاية الأرب ٣٣/ ٢٩٥، ونثر الجمان ٣/ ورقة ٩٠أ، والسلوك ج ٢/ ٣١٥، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، وبغية الوعاة ٢/ ١٤٩ـ ١٥٠ رقم =

ولد سنة ثمان وستين وستمائة، وتوفي بدمشق سنة تسع وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة، ودفن بسفح جبل قاسيون بتربة اشتريت له. تفقه وتفنن وبرع وناظر، وقدم دمشق أول سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فرتب صوفياً، ثم درّس بالإقبالية، وسمع من أبي حفص بن القواس، وأبي الفضل بن عساكر وجماعة بمصر من الأبرقوهي وطائفة، واستوطن مصر، وولي مشيخة سعيد السعداء، وأقام عشرين سنة يصلي الصبح ويقعد للأشغال إلى أذان الظهر، وتخرج به الأصحاب، وانتفع به الطلبة خصوصاً في الأصول، وكان ساكناً، وقوراً، حليماً، مليح السمت والوجه، تام الشكل، حسن التعليم، ذكياً، قوي اللغة والعربية، كثير التلاوة والخير. درّس بالشريفية بالقاهرة، وبها كان سكنه واشتغاله ثم لما حضر قاضي القضاة القزويني إلى الديار المصرية عوضاً عن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة عينه /١٠٩/ السلطان لقضاء قضاة الشام، فأخرج كارهاً وكان يقول لأصحابه الأخصاء سراً: أخملني السلطان كونه لم يولني قضاء الديار المصرية، وليت كان عينني لذلك، وكنت سألته الإعفاء.

ولما خرج إلى الشام حمل كتبه على البريد معه وأظنها كانت وقر خمسة عشر فرساً أو أكثر، وباشر المنصب أحسن مباشرة بصلف زائد، وعفة مفرطة، ولم يكن له نهمة في الأحكام بل رغبته وتطلعه إلى الاشتغال والإفادة، وطلب الإقالة أولاً من السلطان، فما أجابه، وكان منصفاً في بحوثه، رضياً معظماً للآثار، ولم يغير هيأة التصوف. خرّج له ابن طغريل وابن كثير ووصلهما بجملة، وشرح الحاوي في أربع مجلدات موجودة، وله «مختصر المنهاج» للحليمي سماه «الابتهاج» وله «التصرف شرح التعرف من التصرف».

وكان يعرف الأصلين والمنطق وعلوم الحكمة، ويعرف الأدب، وكان مع مخالفته لابن تيمية وتخطئته له في أشياء كثيرة يثني عليه ويعظمه، ويذب عنه إلا أنه لما توجه من مصر إلى دمشق قال له السلطان: إذا وصلت خل نائب الشام يفرج عن ابن تيمية، قال: يا خوند على ماذا حبستموه؟ فقال: لأجل ما أفتى به في تلك المسألة

= ١٦٧٤، والبدر الطالع ١/ ٤٣٩ـ ٤٤١، وتاريخ الخلفاء ٤٨٨، وقضاة دمشق ٩١، والدارس ١/ ٩٧، وتاريخ ابن سباط ٢/ ٦٥٠، وكشف الظنون ٤١٨ و٤٢٠ و٦٢٥ و١٨٧١، وشذرات الذهب ٦/ ٩٠، وهدية العارفين ١/ ٧١٧، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٨٦، وذيله ٢/ ١٠١، وديوان الإسلام ٤/ ٣١ـ ٣٢ رقم ١٦٩٩، الأعلام ٤/ ٢٦٤، معجم المؤلفين ٨/ ٣٧ـ ٣٨، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ق٢ ج ٣/ ٢٩ـ ٣٠ رقم ٧٠٨، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦هـ)، ص٢٦٤ رقم ٨١٩.

فقال: إنما حبس للرجوع عنها، فإن كان قد رجع أفرجنا عنه، فكان ذلك سبب تأخيره في السجن، وكان له ميل إلى محيي الدين بن العربي إلا أنَّ له ردوداً على أهل الإلحاد، وكان يتحدث على حديث أبي هريرة: «كنت سمعه الذي يسمع به»، ويشرحه شرحاً حسناً ويبينه بياناً شافياً، وكان يكتب مليحاً قوياً جارياً.

قال أبو الصفاء[١]: ورأيته يكتب بخطه على ما يقتنيه من الكتب التي فيها مخالفة السنة من اعتزال أو غيره: [من الهزج]

عَـرَفْـتُ الـشـرَّ لا لـلـشَّـرِّ لـكـنْ لـتـوقِّـيـهِ
ومَـنْ لا يـعـرفُ الـشـرَّ مِـنَ الـخـيـر يـقـعْ فـيـهِ

/١١٠/ وكان يترسل جيداً من غير سجع، ويستشهد بالآيات المناسبة والأحاديث والآيات اللائقة بذلك المقام، ومات بورم الدماغ بقي به أحد عشر، ومات في بستان ضمنه، وتأسف الناس لموته أسفاً كثيراً: [من الكامل]

عَـمَّـتْ فَـضـائـلُـهُ فـعـمَّ مُـصـابُـهُ ... فـالـنـاسُ فـيـهِ كـلُّـهُـمْ مـأْجُـورُ

كتب[٢] إلى ناصر الدين شافع، وقد طلب منه شيئاً من شعره: [من الكامل]

غَـمَـرتـنـي الـمَـكـارمُ الـغُـرُّ مـنـكـمْ ... وتَـوَالـتْ عـلـيَّ مـنـهـا فُـنُـونُ
شَـرْطُ إحـسـانِـكُـمْ تَـحـقُّـقَ عِـنـدي ... لـيـتَ شِـعْـري الـجَـزاءُ كـيـفَ يـكـونُ

يقبل اليد الشريفة لا زالت للمكارم مستديمة، وفي سبل الخيرات مستقيمة، وينهي أن بضاعة المملوك من كل الفنون مزجاة، لا سيما من الأدب فإنه فيه في أدنى الدرجات، وقد وردت عليه إشارة مولانا حرسه الله تعالى، في طلب شيء من الشعر الذي ليس المملوك منه في عير ولا نفير، ولا حظي منه بنقير ولا قطمير[٣]، سوى ما نبذ من الهذيان، الذي لا يصلح لغير الكتمان، ولا يحفظ إلا للنسيان، والمسؤول من فضل مولانا، وكرمه المبذول أن يتم إحساناً إليه بالستر عليه، فإنه وجميع ما لديه من سقط المتاع، ولا يعار لسقاطتهِ ولا لنفاسته ولا يباع، والله يؤيد مولانا ويسعده، ويحرسه بالملائكة ويعضده.

وكتب إليه وقد وقف على كتابه الذي سماه «مخالفة المرسوم في حل المنثور والمنظوم»: [من الطويل]

مـخـالـفـةُ الـمَـرسُـومِ وافـقـت الـمُـنَـى ... وحازتْ مِنَ الإحسانِ حَصْل المفاضل

---

(١) أعيان العصر ٣/ ٢٩١. (٢) أعيان العصر ٣/ ٢٩١ـ ٢٩٢.
(٣) القطمير: القشرة الخفيفة بين النواة والتمرة.

أثارتْ علـى بُخْلِ الأثيـرِ أثـارةً ... مِنَ العِلمِ مَفتُوناً بها كلُّ فاضلِ[1]

ومنهم:

[٣٦]

القاضي جلال الدين القزويني، أبو المعالي، محمد ابن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد الشافعي الدُّلفي[2]

قاضي القضاة، خطيب الخطباء، أوحد الأئمة، مفيد العلماء، عمدة الطالبين، لسان المتكلمين، /١١١/ من ولد أبي دُلف، ومن مدد ذلك السلف، ومن بيت قضاء وإمامة، وضرائر بحر وغمامة. ولي أبوه وأخوه، وتشبهت النظراء ولم يواخوه، قدم مع

(١) إلى هنا من أعيان العصر.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق. من أحفاد أبي دلف العجلي: قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م). ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة (٧٢٤هـ)، فقضاء القضاة بمصر (سنة ٧٢٧) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة (٧٣٨) ثم ولاه القضاء بها، فاستمر إلى أن توفي سنة (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م). من كتبه «تلخيص المفتاح ـ ط» في المعاني والبيان، و«الإيضاح ـ ط» في شرح التلخيص، و«السور المرجاني من شعر الأرجاني» وكان حلو العبارة، أديباً بالعربية والتركية والفارسية، سمحاً، كثير الفضائل.

ترجمه في: ذيل العبر ٢٠٥ـ ٢٠٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٣١٣، وذيل تذكرة الحفاظ ٢١ـ ٢٢، ودول الإسلام ٢/ ٢٤٥، المختصر في أخبار البشر ٤/ ١٢٨ـ ١٢٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٢٤ـ ٣٢٥، ومرآة الجنان ٤/ ٣٠١، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٢٣٨ـ ٢٣٩، عيون التواريخ ١/ ورقة ٣٥أ، وذيل تذكرة الحفاظ ٢١، والوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٢ـ ٢٤٣، رقم ١٢٥٥، وأعيان العصر ٥/ ٤٩٢ـ٤٩٩ رقم ١٦١٠، والبداية والنهاية ١٤/ ١٨٥، ونثر الجمان ٣/ ورقة ١٧٣ب ـ ١٧٤أ، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٢٣٩ رقم ٩٦٣، وتاريخ الملك الناصر للشجاعي ٥٤، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ١٣٨ـ ١٤٠ رقم ٥٦٣، ٩٤/٣ـ ٦ رقم ٢، والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩، والمنهل الصافي ٦/ ورقة ٦٨٥أ، ب، وبغية الوعاة ١/ ١٥٦ـ ١٥٧ رقم ٢٦١، تاريخ الخلفاء ٤٨٨، والدارس ١/ ١٩٦ـ ١٩٧، وقضاة دمشق ٨٧ـ٩١، ومفتاح السعادة ١/ ٢٠٩ـ ٢١٠ و٢/ ٣٥٩ـ٣٦٠، وكشف الظنون ١/ ٢١٠ و٤٧٣، و٤٧٤ و٢/ ١٠٠٩ و١٦٩٢ و١٧٦٤، وشذرات الذهب ٦/ ١٢٣ـ ١٢٤، والبدر الطالع ٢/ ١٨٣ـ ١٨٤، وهدية العارفين ٢/ ١٥٠، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٨٩٦، وفهرس المخطوطات الإسلامية في قبرص ٣٩٥ـ ٣٩٦ رقم ٧٢٣ و٧٢٤، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٢، وذيله ٢/ ١٥، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١٤٥، ورفع الإصر ورقة ١٠٤، والدارس ٢/ ١٩٧، وطبقات الفقهاء الشافعي للعبادي ١٧٨ـ ١٧٩، وتذكرة النبيه ٢/ ٢٩٩ـ ٣٠٠، ودرة الأسلاك ٢/ ٣١٠، والأعلام ٦/ ١٩٢، وذيل الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦هـ) ص٣٥٣ رقم ١٠٦٣.

أخيه الشام وناب عنه بمدينة دمشق واستوطنها، وولي الخطابة وسقى فننها، ورقى أعواد المنابر وهَزَّ غُصنها، وكان صدر المحافل إذا عقدت، وصيرفي المسائل إذا انتقدت، وإذا جمعت المجالس كان لسانها، وإذا نظرت المدارس كان إنسانها. وكان خرق اليدين وطلق الكرم وإن كان بالدَّين، وكان له من سلطاننا نظرة عناية ترمقه، وتكبت به البحر إذا أشبهه تدفقه، وكذلك كانت له من كافل الممالك تنكز حتى اتخذه في حجه رفيقاً، وجعله له إلى الله طريقاً، ثم تنكر له بحره، فكادت تنسفه أمواجه، وتلقيه في مهالكها فجاجه، ودام السلطان له على كرم سجيته، وشيم أريحيته، فكتب إلى تنكز في توليته قضاء القضاء بالشام حين خلا منصبه، وتخلى له مخصبه، فأظهر تنكز له المعايب، وأساء محضره وهو غائب، فأصر السلطان على ولايته وصمم، وكمل بادي رأيه فيه وتمم، وطلبه إلى حضرته مكرماً، وأخمد عنه نار النائرة متضرماً، وأوفى عنه ما أثقل إصره من الديوان الذي اتخذها ذلك المنكر له عيباً، وانتهب له غيباً، ثم قدم دمشق جامعاً بين الخطابة والقضاء، وتصرف في الإنفاق والإمضاء، ثم لم تطل به المدة حتى طلبه السلطان إلى حضرته ثانياً وولاه بحضرته القضاء، وأظهر به إذا كرهه نائبه الارتضاء، وكان له منه المنزلة الرفيعة، والمكانة التي ما ردت قط شفيعه، حتى حدثت هنات، وجنيت نبات، فأعاده إلى الشام على القضاء، فما لبث حتى حل به صرف القضاء.

وكان ممن قدم وحصل جانباً صالحاً من الفقه واللغة، وعلم المعاني والبيان، وعلم الكلام، واعتنى به وبرع فيه، وأتقن علم الحكمة إتقاناً قل فيه من كان يدانيه، واشتهر بحسن البديهة في المجالس والمدارس، /١١٢/ ولم يك مقصراً في شان، ولا ثانياً من عنان، وتزيد في دمشق إكبابه على الاشتغال وطلب العلم وتحصيله وقراءة الكتب ومطالعتها ومذاكرة العلماء ومباحثتهم.

حكى لي: أنه كان لشدة حرصه يحضر بعض خزائن الكتب المشهورة الموقوفة وكان خازنها لا يرى إخراجها إلى عارية أحد فكان، يقنع منه بأن يجلس عنده يومه كله لمطالعة ما يحتاج إليه منها، وأنه دام على هذا سنين كثيرة.

وهو من بيت تقدم أوّلوه، وتصرفوا في القضاء وولوه، وهم من أقرباء القاضي رضي الدين قاضي قزوين المبعوث منها هو وابن صاحب ختن إلى حضرة منكوتمرقان لإحضار طائفة لاقتلاع قلاع الاسماعيلية حين عمَّ ضررهم، واستشرى شرهم، فبعث هولاكو بن تولي فتجاوز الحد وقتل ونسي العد، وكاد يبلغ بخيله أقصى المغرب، وبعث لأمر فجعله طلب ملك لنفسه.

ولما قدم قاضي القضاة إمام الدين أبو حفص عمر قدم معه أخوه جلال الدين

هذا، فلما ولي الحكم بدمشق ناب عنه، وسدد خلل أخيه لنقص علم كان فيه، ثم لما ولي ابن صصرى القضاء استنابه ثم خاف منه وقيل له إنه اتفق هو وجماعة من الفقهاء والصاحب أبي يعلى حمزة بن القلانسي، وطائفة من الرؤساء بدمشق على عمل محضر عليه يحكم فيه بفسقه، وأنه كُتب وهيىء ليحكم به في صبيحة يومه، فسارع ابن صصرى إلى عزله، وعجل إعلامه به مع العدول الثقات، فبطل ما عملوا، وذهب الصباح بما كانوا بيتوا له، وبقي في قلب جلال الدلين من هذا ما لم يكن له معه حيلة، إلا أنه اتفق مع ابن الزملكاني على إدامة تبكيته في المجالس وإظهار جهله وتزييف كلامه وداما على هذا وكان يحتاج إلى أنه لا يزال يداريهما ويصانعهما ويضيفهما ويتفقدهما بالعطايا وهما على ما هما عليه من تتبع عثراته وتقصد مساويه.

حكى لي الأمين سليمان الحكيم المتطبب قال: حضرت مرة عنده في بستانه بالسّهم وهما عنده في يوم قد أضافهما فيه /١١٣/ واحتفل، فقال لي: أقم اليوم عندنا فأقمت فرأيت من تنويع إكرامه لهما ما يتجاوز الوصف ورأيتهما يتغامزان عليه ويتحدثان فيه إذا قام بأنواع القبائح وينسبان إليه غرائب الفضائح، فلما انصرفا تقدمت إليه وقلت له: قد كان من إكرامك لهذين الرجلين ما لا يُحدّ وهما يفعلان كذا ويقولان كذا، فما الذي يحملك على إنفاق مالك على من تكون هذه أفعاله في حقك، وهذا باطنه في أمرك؟ فقال لي: يا أخي أنا والله أعلم منهما ما قلت، وفوق ما قلت وإنما كيف عملي، هذان رجلان إمامان عالمان فاضلان جريئان وما عندهما تقوى. هذا ابن القلانسي كما تعرف، وإذا أراد استشهد كل أهل دمشق بأن النهار ليل والليل نهار فعل ولم يعجز، وهذا قاضي القضاة التقي سليمان الحنبلي قاض بطاش، ويرى ضرري وضرر أمثالي من الشافعية قربة ولولا هذا والله ما داريتهما، ولكن احتاج مع وجود هذه البلايا إلى مداراتهما من خلف اذني. قال: فسكت وعلمت عذره.

قلت: فلما مات ابن صصرى، وولي الزرعي خاب أمل جلال الدين وكان يظن أن المنصب لا يتخطاه، فكان هو وابن الزملكاني وابن القلانسي ممن حسنوا في أمره ما حسنوا حتى سلقته الألسنة، وتجنيت له الذنوب، وعزل، ثم صمم السلطان على ولاية جلال الدين، وتنكز يعيبه، وآخر ما عابه بما عليه من الدين وبولده عبد الله، وما هو عليه من سوء السيرة، فطلبه السلطان وأوفى دينه، وترك عبد الله مقيماً بمصر، وأعاد جلال الدين إلى دمشق حاكماً كما تقدم.

فشرع في معاداة الكبراء وإسخاط قلوب الرؤساء، وراك المدارس بين الفقهاء، وطلب الفقهاء بالعرض، وبقي يقول للرجل تعرض وإلا تُعرض، وأتاه رجلٌ من الفقهاء

بأبيات فقال: الشعر للمجالس والفقه للمدارس، وبقي النائب يعجبه وقوع مثل هذا منه، ويظهر له الاستحسان له؛ ليغري به الناس ويملأ عليه الصدور، وكان يريد ذهاب روحه، فبينا هو في هذا إذ سأل قاضي القضاة بدر الدين / ١١٤/ ابن جماعة الإقالة لكبر سنه وعجزه، فأقيل وصرف إلى بيته مكرماً وطلب جلال الدين وولي قضاء القضاة بمصر عوضه، وولي ابنه بدر الدين محمد الخطابة بدمشق عوضه مضافاً إلى تدريس المدرسة الشامية الجوانية، فدخل جلال الدين في عين السلطان ومساه الحظ من خاطره، وصار يحدث السلطان في كثير من أمور الناس، وقضيت للناس على يده حوائج، ونجحت مطالب، وبلغت مآرب، فكثر ولده عبد الله واقتنى كرائم الخيل الثمينة، وصار يسابق بها الأمراء، وخدام الأدر السلطانية، ويخالط أولاد الأمراء، ويتوسع في الأبنية واقتناء الجواري الحسان والمطربات، ويتعرض إلى أمور كثيرة، وكان يحمل حب أبيه له على أنه لا يرده عنها، إلى أن فاض خاطر السلطان، وامتلأ عليه وطرد ابنه عنه، ثم توسل في إعادته، فأعيد ثم طرده، ثم توسل في إعادته فأعيد، ثم سعى النشو ناظر الخاص، وابن المرواني والي القاهرة عليه، وأطلقا فيه ألسنتهما وأوصلا به سعايتهما وسددا فيه نكايتهما، فعزله السلطان، وأراد تعريضه للهوان فنهض له فرد الدهر الأصفهاني، وقام معه قيام مثله من إفراد الدهر، وركب إلى سرياقوس، وكان السلطان قد خرج إليها بعد أن صرف جلال الدين عن القضاء، وأتى قوصون وكان قوصون لا يرى إلا أنه ولدٌ له، فلما أتاه قام له وأكرمه، وقال له: قد جئت إليكم لأجتمع بالسلطان في مصلحة له ولكم ما أمكنني إخفاؤها عنكم، فقام قوصون لوقته وعرّف السلطان بمجيئه بما قال، فأكبر السلطان مجيئه، وقال: قل له يعرفنا بالمصلحة التي رآها، فقال له، فقال: اعلم أن هذا القاضي جلال الدين قاضٍ كبير ومشهور في الشرق والغرب، وقد زوج بناتكم، وزوجكم، وأثبت كتب أملاككم وأوقافكم، وحكم لكم أحكاماً كثيرة، ومتى عزل هكذا وخلى بلا قضاء مع كونه لم يعجز، ولا بلغ به الكبر، حصل / ١١٥/ هذا التطرق إليه، وإذا تطرق إليه انتقض عليكم جميع ما حكم لكم به. وقال له من هذا ومثله ما بلغه إلى السلطان، فقال: صدق الشيخ ولوه قضاء الشام كما كان، فأمر له به وجهزه إليه فأقام به مدة، وتنكز لا يبش به ولا يمكنه منعه، ثم حصل له استرخاء وفالج أبطله، فاستناب ولده الخطيب عنه في كل ما ولاه السلطان، وبقي يراجع في جلائل الأمور إلى أن مات، ودفن بمقابر الصوفية.

وهو ممن أخذتُ عنه علم المعاني والبيان، وقلت أرثيه وكتبت بها إلى ولده الخطيب بدر الدين محمد: [من الطويل]

أَحقاً بأنَّ البحرَ خَفَّ مَعِينُهْ ... وأنَّ وقُورَ الطَّوْدِ خَفَّ رَزِينُهُ
أَحقاً بأنَّ السيفَ أغْمِدَ حَدُّهُ ... بطيفِ كَرًى ليستْ تَنامُ جُفُونُهُ
أَحقاً بأنَّ الشمسَ غابَ ضياؤُها ... وقدْ بانَ مِنْ بدرِ التمامِ جَبينُهُ
أَحقاً بأنَّ النَّوْءَ أَقلَعَ نائياً ... وآلى يَمِيناً لا تجُودُ يمينُهُ
أَحقاً بأنَّ الدُّرَّ آنَ ابتذالُهُ ... وأهوى مِنَ الجَفْنِ القَريحِ ثمينُهُ
أَحقاً بأنَّ العِلْمَ خَفَّ نبَاتُهُ ... وأضحى فما فاءتْ عليهِ غُصُونُهُ
أَحقاً لقدْ غاضَ الندى بكمالِهِ ... نَعَمْ ومَضَى تحتَ التُّرابِ خَدِينُهُ
أَحقاً دَعا داعي الرَّدى عَلَمَ الهُدى ... أم الدهرُ بالعلياءِ جُنَّ جُنُونُهُ
لقدْ خَرَّ في المِحرابِ تقوى منيبةٍ ... وفي صدرِ إيوانِ القضاءِ مبينُهُ
مضى بجلالِ الدينِ كلُّ فضيلةٍ ... وأعظمُها عندَ المفاخرِ دينُهُ
مضى طاهرَ الأثوابِ ما شانَ عِرضَهُ ... حسودٌ إذا ما شاءَ شَيناً يَرِينُهُ
مضى وهوَ ملءُ الدَّستِ صَدراً مُعظماً ... يطولُ إليهِ شوقُهُ وحنينُهُ
إذا ما يراعَ الخَطِّ صَرّ صريرُهُ ... فما ذاكَ إلا للعَويلِ أنينُهُ
نَعَى باسمهِ الناعي فما شكَّ سامعٌ ... بأنَّ انقضاءَ الدهرِ قدْ حَان حينُهُ
/١١٦/ تغيَّرَ ضَوءُ الصبحِ يومَ وفاتِهِ ... فلمْ يبقَ في الآفاقِ مَنْ يَستبينُهُ
كأنّ جلالَ الدينِ ما كانَ في الوَرَى ... إماماً لهمْ حتى أتتهُ مَنونُهُ
فتًى دُلَفيٌّ في الأبُوَّةِ جَدُّهُ ... أبو دُلَفٍ هلْ شِبْهُهُ أوْ قرينُهُ
سَقَى قبرَهُ الوضاحَ مثلَ بَنانِهِ ... سَكُوبُ الغَوادي لا تغبُّ هُتُونُهُ
يضاحكُهُ بالسفحِ بارقُ ليلِهِ ... تغازلُهُ تحتَ الظلامِ جُفُونُهُ
فهلْ بعدَ هذا اليومِ يَدَّخرُ الفتى ... بُكاءً عزيزاً عندَهُ لا يُهِينُهُ
أرى الخطباءَ اليومَ بعدَكَ أُلبِسوا ... حِداداً عليهمْ في المَلابسِ جُونُهُ
أرى منصبَ الحُكمِ العزيزِ تضاءلتْ ... مَعاليهِ وأرفضَّتْ عليكَ مُتُونُهُ
أرى المنبرَ العاليَ استكنَّ لما بهِ ... وكانَ بهِ فوقَ السُّها مُستكينُهُ
أرى قلمَ الافتاءِ قدْ فاتَ وقتُهُ ... وكانَ نَضيرَ الغُصنِ تُجبَى فُنُونُهُ
أرى منطقَ التدريسِ أُخرِسَ نُطْقُهُ ... وأصبحَ إنْ قالَ النُّهى لا تبينُهُ
أرى مجلسَ التصديرِ أقوتْ رِحابُهُ ... ولمْ يَرْضَ إيداعَ الصُّدورِ ضَنينُهُ
لقدْ أُغلقَ التصنيفُ أبوابَ كُتْبِهِ ... وأغفتْ لأحداثِ الزمانِ عيُونُهُ
فَمَنْ للمُرَجِّي خابَ ما كانَ يرتجي ... وماتَ أريجيٌّ كريمٌ يُعينُهُ
لعمرِكَ ما يُجدي الحَنينُ على امرىءٍ ... تَحُطُّ بأكنافِ القُبورِ ظُعُونُهُ

تمهَّلْ بهِ يا حاملَ النعشِ إنَّهُ ... يُقطِّعُ أَصلابَ الرجالِ شُطُونُهُ
وهلْ يعلمُ الآتي إلى لَحْدِهِ بِهِ ... بأنَّ الهلالَ المُستنيرَ دفينُهُ
لقدْ عُطِّلَ الدَّستُ الرحيبُ أمامَهُ ... وفارقَهُ مأمونُهُ وأَمينُهُ
وواللهِ إنَّ المَوتَ أكرمُ نازلٍ ... بِحُرٍّ ولا يقضي عليهِ غبونُهُ
فهلْ ساكنٌ في الدهرِ ليسَ يسُوْؤُهُ ... ومُستأمِنٌ للدهرِ ليسَ يخُونُهُ
وذو غَرَرٍ بالموتِ ألا تغرُّه ... أمانيهِ في الدنيا نَعَمْ وظنُونُهُ
/١١٧/ لِتبكِ المعالي بالدماء سواكباً ... أباها ويبكي للبكاءِ حَزينُهُ
فيا أيها الناعي رُويدَكَ إنَّهُ ... يَوَدُّ بمَنْ ينُعَى لنا لو تكونُهُ
غلطتَ أهلْ قاضي القضاةِ قَضَى ردًى ... أَمِ الشامُ بالزلزالِ هُدَّتْ حُصونُهُ
ترفَّقْ ولا تبغي العُلا بوفاتِهِ ... فَذكراكَ ميعادُ البُكا وضَمِينُهُ
لعلَّ حزيناً يملكُ الصبرَ قلبُهُ ... يَجودُ بصبرٍ فاضلٍ أستدينُهُ
فيا سائقَ الأظعانِ قدْ أَمَّ جِلَّقاً ... وفي التربةِ الفيحاءِ يلقَى قرينهُ
تعمَّدْ بنا تلكَ القُبورَ فإننا ... نَروُدُ بها روضاً جَنياً جَنينُهُ
وقفْ بي على ذاكَ الضريحِ مُسلِّماً ... فإنَّ فُؤادي في التراب رهينُهُ
إليكَ وإلا لا يئنُّ صبابةً ... كئيبٌ ولا تبدو عليهِ شُؤونُهُ
تولَّى ابنُ إدريسٍ ووَلَّيتَ ذاهباً ... فما عادَ للتدريسِ حِرزٌ يَصونُهُ
تَضعضعتِ الدنيا فلمْ يبقَ مذهبٌ ... لَعَمْري لقدْ هَزَّ الجبالَ سُكُونُهُ
فَمَنْ بعْدَهُ هَلْ في الطَّريقينِ سالِكٌ ... وهلْ لاحَ في الوَجهينِ بِشْرٌ يَزينُهُ
فكلُّ طريقٍ منهُ قدْ سُدَّ مَذْهَب ... وفي كلِّ وجهٍ بانَ عيبٌ يَشينُهُ
ولولا كِرامٌ مِنْ بنيهِ أَعِزَّةٌ ... لأَوحشَ منهُ سيفُهُ ووضِينُهُ
ومَنْ مِثلُ بدرِ الدينِ بلْ ليسَ مِثلُهُ ... فما غاضَ بحرُ العلمِ وهوَ مَعِينُهُ
فما مثلُ مَنْ قدْ ماتَ في الناسِ سيدٌ ... ولا مثلُ هذا الحيِّ يَحمي عرينُهُ

ويعز عليه أن يكتب إلى مولانا معزياً، أو يسليه عمن لم يجد هو ولا جميع أهل الدنيا عنه مسلياً، وإنما هي عادة الأيام، وسنة الدين والإسلام، فالله يعظم أجر مولانا، ويرحم ميته، ويحسن عزاء الإسلام فيمن شيد بجهاده بناءه وثبته، فلقد كان والله من حماة الدين بسيفه وقلمه، وكماة الكلام في المدارس والمنابر بعمله وعلمه، فرحم الله تلك المزايا الكرام، وفتح لها أبواب الجنة، وأدخلها /١١٨/ إليها بسلام، والعزاء مشترك، ومن نظر بعين الحقيقة علم أن الدهر أخذ أقل مما ترك.

وتوفي في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين عن أربع وسبعين سنة.

قلت: ولما ولي كراي المنصوري كفالة الشام أتاها وقد هبت به ريح العدو والمتنسم، والثغور قد استطار برعب من جاورها قلب بارقها المتبسم، طلب خيل الحجر التي جرت العادة بطلبها معونةً من البلاد إذا قدم العدو وعدم الهدو، ولم يكن الاضطرار قد بلغ إلى حد تطلب فيه المعونة، وتحمل به البلاد المؤونة، وشرع النجم ابن هلال في توزيع ذلك الطلب، وتفريغ ذلك الظلم الذي باء منه بسوء المنقلب، فطلب من جهات الملك والوقف ما كان يكون لها ثمناً، واتخذها له مأكلة حتى كاد يتفقأ سمناً، وكان أخا بطنة يأكل حتى يكاد يتبعج، وجرأة لا يبالي من أي باب منه على النار يتولج، فاجتمع أهل البلد إلى جلال الدين؛ لأنه إمامهم المتبع، ورأس المصلين في الجماعة وهم له تبع، فقام هو والعلامة مجد الدين أبو بكر التونسي في درء هذه المظلمة، وإخفاء نجم بن هلال الطالع في هذه الليلة المظلمة، فجمعا أهل الجامع الأموي ومن انضم تحت أعلام الخطابة، وأسرع إلى هذه الدعوة المجابة، وخرجوا بالمصحف العثماني والأثر النبوي، وكراي راكب في موكبه قد شمخ العجب بهامته، فحين رآهم سأل عنهم، فلما أخبر الخبر جن جنونه، وظن ظنونه، فأمر الحاجب أن يأتيهم فيأمرهم بالرجوع بالمصحف والأثر، ويتقشع سواد ذلك الجمع الذي حضر، ثم يأتيه منهم من يعي عنه الخطاب، ويسمع منه الجواب، فأتاه الخطيب والتونسي وقدما له الإنذار، وأغلظا ولا سيما التونسي في الإنكار، فأوما إلى الخطيب ليضربه بيده، وأمر بالتونسي فُرمي وكشف عن جسده ثم ضربه ضرباً جاز أدنى الحد في عدده، فخرجا والناس تتحرق ولا ماء يطفي النار، وتتأكّل لهم، ولا يجد من أنصار، وكان من العجب المقدر وغرائب الاتفاق التي تذكر أن السلطان كان قد /١١٩/ أمر بإمساك كراي، وخرج المجهز لإمساكه، ثم بقي في وثاق المحبس إلى حين هلاكه ويقال: إن التونسي كتب في ذلك اليوم له من الحروف ما كان من أسباب ما حل به من الصروف. أتي كراي بخلعة السلطان، فركب بها وجلس في الإيوان، فأحضر محضر ذلك التشريف معه كتاباً قرى وهو في تلك الحال، وقد ظن أن الدهر عن طباعه قد استحال فإذا فيه المرسوم إلى الأمراء بإمساكه، فأمسك وقيد، والخلعة عليه ما حلت إزارها، ولا أرته عينه إلا ما كأنه غرارها، ولا أجدته إلا وفي نفعها ضرارها.

وكان الخطيب قد كتب إلى السلطان كتاباً مضمونه:

الحمد لله رافع السموات وبانيها، وساطح الأرض وداحيها، ومثبتها بالجبال وراسيها، ومزيح الملوك عن أسرتها وكراسيها. أرسل محمداً ﷺ إلى الخلائق جميعاً دانيها وقاصيها، وبعد ذلك لما تقدم المرسوم الشريف العالي المولوي السلطاني

الملكي الناصري أدام الله أيامه، وجعل النصر وراءه وأمامه، بأن يستخرج من الأملاك التي بالبلاد الشامية حق أربع شهور، ولا يعفى عن وقف ولا عما يكون ليتيم أو مسكين، فأردنا أن ننبه الذي رسم بأن الأوقاف لا تعفى، وأن يؤخذ من الجامع الشريف ما أخفى، فطلعنا في يوم الاثنين في شهر الاستغفار جميع علماء المسلمين وأئمة الدين، الذين قال رسول الله ﷺ في حقهم: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1]، وقد حملنا على رؤوسنا كتاب الله المبين وأثر سيد الأولين والآخرين حتى نعلم أن الجامع لا يوجب لأَنْ يؤخذ منه حبّة، ولا يتعرض إليه من في قلبه دين، فبدا إلينا حاجب الملك الذي ولاه أمور الدين، وجعله بجهله حاكماً على المسلمين، ولم يمكنا من الدخول إلى نائب السلطنة المعظمة حتى نشكو إليه ضرر المساكين. شهد الله العظيم أنهم ما استهابوا ولا هابوا كلام ذي القوة المتين، إلا جودوا الضرب على الرؤوس /١٢٠/ والأكتاف والوتين، وقد طلع من كان قبلنا إلى الذي استفتح البلاد وكان كافراً بالله العظيم، فنزل عن ظهر جواده، ومشى إليه خاضعاً متذللاً كالمسكين يتذلل وهو تذلل مستكين، وعفا عن العباد والبلاد وأوصى جيوشه أن لا يسعوا في الأرض مفسدين احتراماً لكتاب الله ولأثر سيد الأولين والآخرين فلما طلعنا وردنا خائبين طلب نائب السلطنة إماماً من أئمة المسلمين، وقد نفخ الشيطان في معاطسه حين خلاه بما يحدث رهيناً أيّ رهين، وجلد ذلك الإمام وعمل شيئاً ما سبقه إليه أحدٌ من العالمين، وجعل يقول بجهله وقلة عقله، وقد أمر بقتله: أحرقني إن كان لك برهان من البراهين، فراقب ذلك الإمام مولاه ناداه في سره ونجواه: يا من لا يشغله شأن عن شان ولا تغلطه مسائل السائلين اقض بالحق على الظالم، يا ديّان يوم الدين. أيها العبد الصالح إنـا خشينا عليك أن تفتن كما فتن الذين من قبلك ثم تولوا مدبرين فإذا حكم رب السموات والأرض ونادى يوم القيامة أحضروا الظالمين، فكيف ينطق من قد افترى على العلماء والفقهاء وأئمة الدين وما احترم كتاب الله الذي أنزل فيه ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾[2] فهذا الكتاب يجتمع عليه فقهاء الديار المصرية، ويحكمون فيمن لا يخاف يوم تنشر فيه الدواوين، وتحشر فيه الخلائق أجمعين، وينادي منادٍ من قبل الله عز وجل: هذا يوم يجزي الله المتقين ويحشر فيه

(١) السلسلة الضعيفة للألباني ٦٦٦، تذكرة الموضوعات ٢٠، الأسرار المرفوعة للقارىء ٢٤٧، كشف الخفاء للعجلوني ٢/ ٨٣، الفوائد المجموعة ٢٨٦، الدرر المنتثرة للسيوطي ١١٣.

(٢) سورة المعارج: الآية ٣٨.

الظالمون. وقد علم سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين وهو أعلم بمن كان قبله من الملوك والسلاطين بأن لا يوجَب أنْ يؤخذ من العامة أموالهم ولا يتعرض إليهم من في قلبه من الملوك والسلاطين بأن لا يؤخذ من العامة أموالهم ولا يتعرض إليهم من في قلبه دين إلا إذا التقت الفئتان ونودي هذا يومٌ لا قبله ولا بعده وكانت أمراء الدولة قد اضحمل ما عندهم من الأموال والسلاح والخيل، فهنالك عمن تخلف عن ذلك اليوم فقد أمسى بما كسبت يداه، وهو رهين / ١٢١/ وأعلم أن ما يسبق أحد من خلق الله إلى الجنة غير المجاهدين، فيجب عليك أن تنصر كتاب الله وكلام الله وتأخذ الحق ممن افترى وطغى، فيقف على هذا الكتاب فقهاء الديار المصرية والسلام.

ومنهم:

[٣٧]

السيد العبري، برهان الدين، عبيد الله بن محمد الحسيني العبري(١)

الإمام العلامة ابن الإمام العلامة، لسان جُبِلَ على الكلام، وبيان جعل لكشف الظلام، سل على الباطل حسامه، وجذب من يده خطامه، ولي القضاء فأرضى، وأقام سنة وفرضاً، وهو على ما بلغنا حي يحيا به العالم، وتجلى به العواتم، ويكف نداه وينهم، ويأمر الدهر فيأتمر، ويقف الجواد دون مداه ويستمر.

قال الدهلي: ولد بتبريز وهو الآن قد جاوز الستين إمام في العقليات منطقها وحكمتها وطبها، وله قوة عظيمة في الخلافيات والجدل. بحاثٌ، مناظرٌ في الغاية لم نرَ أحداً يقدر على التدريس مثله، يلقي الدروس في علوم شتى أكثر من ثلاثين علماً في

---

(١) عبد الله (أو عبيد الله) بن محمد الفرغاني الهاشمي الحسيني الملقب بالعبري: عالم بالحكمة وفقه الشافعية. كان قاضي تبريز، ووفاته فيها سنة (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م). شرح مصنفات القاضي البيضاوي، فصنف «شرح المنهاج - خ» في أوقاف بغداد (٤٩٥٣) و«شرح المطالع - خ» بها (٥٣٦٦)، و«الغاية» و«المصباح». ولعل الأرجح في اسمه «عبيد الله» أما العبري فضبطها ابن قاضي شهبة بكسر العين، وقال: ولا أدري نسبته إلى أي شيء؟ وضبطها السيوطي بالضم وقال: نسبة إلى عبرة من بطون الأزد. وهو في خزانة التيمورية مضبوط بالشكل بفتح العين والباء؟

ترجمته في: علماء بغداد ٧٥، والبدر الطالع ١/ ٤١١، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣٣، وخزائن الأوقاف ١٠٤، ١١٩٠، وشذرات الذهب ٦/ ١٣٩، والخزانة التيمورية ٤/ ١٦٨، معجم الأطباء ٢٨٤-٢٨٥، والأعلام ٤/ ١٢٦.

مشكلات الكتب لأفاضل الزمان في كل يوم في بيته ولم يناظره أحد إلا وغلب معه، وكان فقيهاً في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، عريقاً في أصوله وفروعه، مفتياً لهم، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وحفظ «الحاوي» على ابن مصنفه جلال الدين محمد، وصار إماماً في مذهبه أصلاً وفرعاً، يفتي في المذهبين، وولي قضاء القضاة بجميع مملكة إيران، شرح «الطوالع» و«المصباح» في الكلام، و«المنهاج» في أصول الفقه، و«إيلاقي» في الطب، ونقد «الصحائف» في الكلام، وعمل كتاباً في المنطق في يوم، وأخذ العلوم عن القاضي محيي الدين أبي الحسن بن أبي الفضل بن عبد الحميد بن محمد القزويني قاضي القضاة، وأخذ العقليات عن قطب الدين الشيرازي والعبيدي ووالده، وكان من جملة المحققين، وروى «جامع الأصول» عن القطب الشيرازي، و«شرح السنة» عن محيي الدين القزويني وروى عن أبيه / ١٢٢/ عن شيوخه منهم العلامة سيف الدين الباخرزي، قال: وله نظم مليح، وخط حسنٌ، وجاهٌ عظيم، وحشمة في الغاية. وترجمته عند السلاطين أستاذ البشر العقد الحادي عشر. وله ابن هو شمس الدين محمد.

قال الدهلي: هو المشتهر ببيرك. فاضل في أكثر العلوم، حسن الجد والخط والعبارة.

ولد سنة عشر وسبعمائة، وأخذ عن السيد أكثر فضلاء الشرق ومنهم النصير الحلي، وروى عن «المشارق الروية» عن الصغاني.

ومنهم:

[٣٨]

الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وهو محمود بن أبي القاسم بن أحمد، أبو الثناء(١)

الإمام، العالم، العلامة، قدوة العلماء، والحكماء، والفقهاء والفقراء. وارث العلم والحكمة، واحد الدهر، معلم الوجود. شمسٌ أضاءت، وسماء على الدنيا

(١) محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ثم الدمشقي، أبو الثناء. شهاب الدين: أديب كبير. استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً. ولد بحلب سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م)، وولي الإنشاء في دمشق. وانتقل إلى مصر، فكتب بها في الديوان. وعاد إلى دمشق، فولي كتابة السر نحو ثماني سنين إلى أن توفي بها سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م). وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، ويقال: لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله. وهو إلى ذلك شاعر مكثر. له =

فاءت، وإمامٌ قدم دمشق وهي تحكي بغداد زمان عمارتها، وقرطبة حيث استقلت بنو أمية بإمارتها، لكثرة نجوم العلماء الطالعة، وغيوم النعماء الهامعة، وابن تيمية ونياح قمره، وابن الزملكاني لفيف سَمره، والخطيب القزويني والإجماع عليه في المعقول معقود، وحلق المسجد والفقهاء قعود، فلم يبق إلاَّ أن اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، فخلف في فن الأصول فننها الرَّطيب، ونسي به ابن خطيب الري فضلاً عن القزويني الخطيب، ولم يعد يُلتفَت عليه بعد أن قدم في الأصول حلقة إقراء، ولا شكت الوَجى إليه أقدام القرّاء. طلع صباحاً، وسطح مصباحاً، وأتى في زي تاجر جاء بمتاع، فكانت فرائد الدرر أهون أعلاقه، وكتم نفسه وضوء الشمس لا تخفى لوامع إشراقه، ونزل بدار ابن هلال، ودارة الهلال أحق بموضعه، وطلع بدمشق وأفق السماء أولى بمطلعه، وترددت إليه العلماء، وسعت إليه العظماء، وأقام ينشر العلوم، ويمدُّ جناح الفضائل على العموم، ويعلم في علم الأوائل أن القطب عليه دار، /١٢٣/ وأن الطوسي وإن نشر جناح الطاووس، عجز عنه لما طار، وأن الآمدي امتد معه، فقصَّر في المضمار، وأن الفارابي لم يُنجه منه إلا الفرار، وأن ابن سيناءَ ما نجا سينُه من حروفه وهي جمل الفقار، هذا إلى علوم شرعية وفهوم لوذعية، ومعرفة بالفقه على مذهب الشافعي يجمع بين قوليه، ووجوه للأصحاب ناضرة ناظرة إليه، واختلاف في طرق الخراسانيين والعراقيين تتفرق وتتجمع عليه، مع علم حديث ما ابن شهاب فيه عنده إلاَّ كالأعمش، وعربيَّة ما الجاحظ لديه فيها إلاَّ كالأخفش، وحقيقة ما صاحب كل طريقة بالنسبة إليها معه إلاَّ واقف في مجاز، وتبحر في تفسير جاء فيه بالإعجاز، وغير هذا من كرم ما البحر عنده إلاَّ مُبخل، ولا السيل المنصب من مكانه العالي إلاَّ مخلخل، ولا الغمام إلاَّ وقد تقطعت عُرَاهُ، وغمض جفن لأنه كراه، وقيدت إذا همَّ

= تصانيف، منها «ذيل على الكامل لابن الأثير ـ خ» و«أهنى المنائح في أسنى المدائح ـ ط» و«الذيل على ذيل القطب اليونيني» و«مقامة العشاق» و«منازل الأحباب ومنازه الألباب ـ خ» و«حسن التوسل إلى صناعة الترسل ـ ط» وكان يكتب التقاليد الكبيرة والتواقيع بديهة من غير مسودة. وقد جمع منها بعض الفضلاء مجلدين. قال ابن حجر: إن قصائد الشهاب تدخل في ثلاثين مجلدة، ونثره لو جمع لبلغ مثلها.

ترجمته في: فوات الوفيات ٤/ ٨٢، والبداية والنهاية ١٤/ ١٢٠، والدرر الكامنة ٤/ ٣٢٤، وشذرات الذهب ٦/ ٦٩، ذيول العبر ١٤٠، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤، وأعيان العصر ٥/ ٣٧٢ـ٣٩٩ رقم ١٨٤٠، القلائد الجوهرية ٢١٤، وديوان الصفي الحلي ٢٢٧، والدارس ٢/ ٢٣٦، وكتبخانة عاشر أفندي ١٦٦، والأعلام ٧/ ١٧٢، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ٧٤٦ هـ)، ص٢٣٢ رقم ٧٢٥.

الليل عن سراه. كل هذا إلى خلق به يتخلق الأبرار، وتتحقق صفات الأخيار، ويدل على ما وراءها من العمل لما فيه نعم عقبى الدار.

كان في بلده جليلاً، وفي عدده كثيراً، لا يجد مثلهُ إلاَّ قليلاً، صحب السلطان محمد بن خدابنده، وكان في سيارته من مدرسي السيارة، وهم جماعةٌ كان يقرر أن يكونوا بالاردو حيث خيم السلطان، وكان من أنظار القطب الشيرازي وأمثاله، وأحسن حالاً منه عند خواجا رشيد لما كان يجده في نفسه على الشيرازي، ويرجى به طرفه من الغضاضة، ويتقصد به جناحه من الإهاضة، وكان يُعلي شيخنا الأصفهاني ويرفعه، ويزين به أفق المجالس ويطلعه، وكان يحاضره ويسامره، ويفيد العلم ويذاكره، وكان يجزل له العطاء، ويدر له الصلات، وينوه بذكره، وينبه على جلالة قدره، وقرأ عليه ابنه الوزير الكبير آخر وزراء الشرق بل ملك الرياسة بحكم الحق أمير محمد بن خواجا رشيد، وتخرَّج به وحصَّل، وقدم الشيخ الأصفهاني دمشق واستوطنها فارغاً من تلك البلاد / ١٢٤/ على عظم مكانته فيها وامتلأ صدور أهلها بتعظيمه، وأقام والطلبة تتسامع به وتتواصل إليه، وتأتيه من كل جهة ومكان.

وكان شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية يثني عليه أحسن الثناء ويصفه بالفضل الوافر والعلوم الجمة، قال لي: ما قدم البلاد علينا مثل الشيخ شمس الدين الأصفهاني.

ورأيت شيخنا الأصفهاني قد زاره مرةً فقام إليه ومشى خطوات لتلقيه، وعرض عليه أن يجلس مكانه فأبى، وكنَّا في ذلك الوقت نقرأ عليه، ودخل وأنا أقرأ في المسح على الخفين من «العمدة» في الأحكام الصغرى، فقال ابن تيمية للأصفهاني: ما نتكلم وأنت حاضر.

فقال له الأصفهاني: الله، الله يا مولانا، مولانا شيخ السنة وإمام العلماء.

فقال لي ابن تيمية: ما فيها اليوم قراءة، اليوم يوم فراغ لسماع فوائد الشيخ، وأشار إلى الأصفهاني، فلبثت ساعةً رأيت مجمع البحرين ومطلع النيرين، فكانا فحلين يتصارعان، وسيفين يتقارعان، تركتهما وأنا أظن أن مكة قد انطبق أخشباها، وأن المدينة قد تلاقت حرَّتاها، ثم طفقت استثبت هل دمشق قد أنقع شرفاها، والأرض قد اجتمع طرفاها، ثم كنت لا أزال أسمع ابن تيمية يعظمه، وكذلك ابن الزملكاني، وأمَّا الخطيب، فإلى غاية لا تبلغ.

وقال ابن تيمية مرة في تقرير مدرس حضرهُ جُلَّة العلماء وحضره الأصفهاني فتكلم رجل من أعيان العلماء فيه، فقال ابن تيمية: اسكتوا لنسمع ما يقول الشيخ وأشار إلى الأصفهاني، ثم قال: الشيخ شمس الدين بزرك، والبزرك هو الكبير باللغة الفارسية.

ثم كان الخطيب لفرط محبته في الحكمة وعلم الكلام يدعو الأصفهاني إليه، ويدع من يقرأ بحضوره عليه ليستفيد، وجرى بينه وبين ابن جملة مرةً نزاع في حديث، وكان النقل مع الشيخ فيه، فوبخ ابن جملة على تجرئه على مثله، وغاية مثله أن يكون كأحد تلاميذه وطلبته الآخذين عنه، /١٢٥/ وأقام الشيخ سنين بدمشق كأنما هو مرفوع على الرؤوس لإفراط التعظيم والإجلال، ثم لما طلب الخطيب إلى مصر وولي القضاء بها كان لا يزال يتشوق ويتشوف إلى مقدمه عليه، ومقامه بمصر، فلما طلبني السلطان شركته في ذلك وزدت عليه، واتصل خبره بالسلطان وطلبه، وأقبل عليه وأكرم، وأدنى منه مجلسه وبسطه وآنسه وأمره بالمقام بحضرته، فأقام وأجرى عليه مرتباً، وأبقى عليه معلوم التصدير بدمشق مع الإقامة بمصر للأشغال بها، ثم كنت يوماً أنا وقاضي القضاة الخطيب القزويني عند السلطان بالدِّركاه داخل باب مسجد رديني بالأدر السُّلطانية في عقدٍ عُقِدَ لبعض الحرم، فأجرى ذكر الشيخ الأصفهاني وكانت المدرسة المعزية بمصر المعروفة بمنازل العز قد شغرت فولاها له، ثم بنى الأمير قوصون له الخانقاه التي بالقرافة، وكان ينزل في كل وقت إليه ويقعد قدامه وبين يديه، ويقضي كل حوائجه، ويبعث بالجُمل ليعمل بها أوقات، ويحضرها بنفسه، ويكون فيها مثل أحد تلاميذ الشيخ. وعظمت منزلة الشيخ عند السلطان، وكبرت مكانته في صدره حتى أمر قوصون أن يقول له: السلطان يقول لك: أنت عندنا كبير، ومكانتك تعرفها، ونريد أننا لا نرد عليك قط في شيء تطلبه منا، ونحن نوصيك بأنك لا تتحدث في اثنين، ثم مهما أردت قل يسمع منك، وهما عبد الله بن القاضي جلال الدين، وأوحد ابن أخي الشيخ مجد الدين الأقسرائي شيخ خانقاتنا بسرياقوس؛ فإن هذين الاثنين قد ثبت عندنا نحسهما، وما يمكن أن نقبل فيهما شفاعة.

قلت: فكان الشيخ لهذا لا يرى التثقيل عند السلطان في شيء؛ لئلا يطلب ما يستثقل به ويقضيه رعاية له، ثم إن السلطان أبا سعيد بهادر خان بعث كتاباً إلى السلطان يطلب فيه إنفاذ الشيخ إليه لاشتياق الوزير أمير محمد وأهل البلاد إليه، وأكد في طلبه، وجاء /١٢٦/ قرينه كتاب من الوزير يقول فيه: إنه من أولاد الشيخ وتلاميذه، وكم يصبر الولد عن والده، والتلميذ عن شيخه، وسأل الصدقات السلطانية في تجهيزه، فقال لي السلطان: نحن والله ما نسمح بالشيخ، ولكن قولوا له قد بعث أبو سعيد يطلبك هو والوزير، وأهل تلك البلاد، وقد حَيَّوا السلطان بسببك، والسلطان قد جعل الأمر إليك، فقال الشيخ: لا والله ما أفارق ظل السلطان، ولا استبدل بهذه البلاد، فأنا ما فارقت تلك البلاد بنية من يعود إليها فأعجب السلطان هذا منه كل الإعجاب، ووقع منه

أحسن المواقع، وجل في صدره، وعظم في عينه، وعرف محله، وتحقق مكانته في بلاده، وأنه مع ذلك لم يزد إلا حيث استعلت كلمة الإسلام، وكانت مباعث الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

ثم لما سعت نمال النميمة في القاضي جلال الدين وتحتم عزله، وكاد يُفضى به الأمر إلى ما أعاذ الله منه نواب شريعته، وعلماء دينه الذي ارتضى، قام الشيخ في أمره حتى ولي قضاء الشام على ما تقدم ذكره في ترجمته. ولما طلب السلطان أعيان الفقهاء للارتياد بعد جلال الدين لم يفصل رأياً حتى حضر الشيخ، وأخذ رأيه وكان هو المعظم في ذلك المجلس، والمقدَّم عند السلطان على ذلك الجمع الجم ثم إن السلطان أمسك ابن صورة وكان على نظر الأهراء السلطانية، وكان الشيخ مُزَوَّجاً بابنته، وكان قد اتهم بأخذ مال جليل للسلطان، وقد أمسكه السلطان، وشدد عليه في الطلب، فأتى الشيخ بنفسه إلى قوصون بسببه فاعتذر إليه وقال: هذه ساعة غضب السلطان ما أقدر أكلمه فيها، فقال له الشيخ: أنا أتحدَّث مع السلطان ثم أتاه وطلب الإذن عليه، فأذن له فدخل، فلما رآه وقف له وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقال له: في خير ما جاء الشيخ إلاَّ في حاجة، فقال له: نعم. قال: ما هي؟ قال: ابن صورة، قال: خذه والله ما أقدر أردك، ولولاك /١٢٧/ لكان له حال آخر، فخرج الشيخ فأخذه وانصرف.

قلت: وهو اليوم في مصر لإقراء أنواع العلوم الشرعية والعقلية وعلم المعاني والبيان، والنحو والعربية والإفتاء وإفادة الطلبة، والأذن لنبهاء الفقهاء بالإفتاء، وإنشاء أهل العلم والتحصيل حتى كثر عدد العلماء، واخضر به قلم الإفتاء، ولولاه لجف بموت من مات من العلماء؛ لأنه أذن لجماعة بمصر والشام وحلب، وتضرَّم به وقود الأذهان والتهب، وهو ممن قرأت عليه أصول الفقه وعلم المعاني والبيان، وممن أذن لي وأحسن وجاد بما أمكن.

ولما رحل صاحبنا الشيخ الإمام الفاضل بدر الدين أبو عبد الله محمد الشبلي الحنفي إلى الديار المصرية، كتب إليه بسببه كتاباً نسخته:

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، ومنهم واحد الدهر وكفى، سيدنا ومولانا ومبصرنا بمصالح آخرتنا وأولانا، ومتحفنا بما يقصر منه عن شكرنا أولانا، السيد العالم الرباني، المكمل لنقائص الصور والمعاني، المسلك على الطريقة، والمملك لأزمة الحقيقة، قطب الأولياء، وارث الأنبياء، الإمام المجتهد المطلق، والبحر المزبد المطبق، الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والساعي ببلغ من مصالح الامة في أدنى يوم ما يعجز [عنه] في سنة، الحجة الواضحة، والمحجَّة

اللآئحة، آخر المجتهدين، شمس الدنيا والدين، مُعلِّم المتكلمين، إمام المتأخرين والمتقدمين [البسيط].

سَلْ عنهُ وانطقْ بهِ وانظرْ إليهِ تَجِدْ   ملءَ المسامعِ والأفواهِ والمُقَلِ

لا زالت البصائر به مُنوَّرة والحدائق بسحبه منورة، والحقائق بعلمه مصورة، والشرائع بذبه عن حوزتها مسوّرة، والبحار الزواخر في مغيض صدره مغوَّرة، وشمس السماء بضياء شمسه مكورة، وأرض القدماء لدى رياضه اليانعة مُبوّرة، ومنابت الخَط إذا نظرت إلى ميامن قلمه تشاءمت بكعاب /١٢٨/ رماحه المدوَّرة، ودول الأيام تسعد بخيالات أيامه المطورة، ولا برحت السيوف تعنو لهممه، والسيوف تعزو النفع إلى كرمه، ولا فتى فتي الدهر وشيخ أبنائه، ولا انفك أنف كل معاند راغماً بسار أنبائه، ولا كن مكان فوق فرق الفرقد إلاَّ دون أدنى بنائه حتى يلتحق بالزمرة السعداء، ويلقى الله ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾[1].

خدم بها المملوك على قصوره، وخضوع أبياته التي كان يتطاول بها في العلياء إلى شوامخ قصوره، مُذكراً بعبودية قديمة لا يزال لها في كل حين بارقة على أطلاله، وقائلة في ظلاله، وحائمة على زلاله، ومتشوقة في آفاق الأقمار إلى مطلع هلاله، وملتفة إلى ما يغض الأبصار من بديع جلاله، مع وثوقه بأنه إن أغبَّ بتذكاره أو غاب، وسكت سعيه أو هدر يطلب رغاب لا يلوى لحظه من سيده مطال مطالب، ولا يغير عوائد تَعهُّده، وراب مارب، ولا يبرح له ذاكر لا ينساه، ومؤانس له، والدهر قليل المواساة إلاَّ صفوة إخوان بهم يُبل الرمق وقليل ما هم، ويقل القلق وهو كثير لولاهم، ومنهم السيد الأخ العزيز، الشيخ الجليل، الإمام العالم، الفاضل الفقيه، المحدث المفنن، مجموع الفضائل، فلان الماثل على حضرته المشرفة بها، والخائض إليها ظُلم الليالي، لا يبالي بجنح غيهبها، وهو على ما هو عليه من التحلي بالوفاء في الزمان الغادر والإنصاف بالصفاء في وقت يبدو فيه الكدر، وأوله ما يبدو من الشفق المحمر في لُجّ الصباح الزاخر من ذوي الفضل المتعدد، والعلم المتجدد، والذهن الساطع، والرأي الصائب القاطع، واليد التي لم تقتصر به في التصنيف، ولم تعذر بسببه فيها تهب المسامع التشنيف، هذا إلى ذهن شفت سرائره، وعرفت أمائره، وتُقى صلحت مُضغة قلبه لتصلح سائره. وقد أمَّ الآن الديار المصرية المحروسة التي هي الآن فلك شمسه، وحضرة قدسه، /١٢٩/ وموضع ثمار العلماء من غرسه، وقد حمل ظمأ إلى

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

بحره، وشق ظلمه إلى فجره، وجاب الفيافي في طلب العلم لديه، واشتمل ذيول الفجاج لحصول الاشتمال عليه، وله أسوة بالعلماء الذين امتدت شمسه النيرة نجومهم، وقدحت مشكاته المضيئة فهومهم، وأمطرت سحبه الروية علومهم، وأطلق أذنه الشريف قلم فتاويهم، وشرف قدره المنيف همم معاليهم، ورعى إحسانه المطيف ذمم قصدهم، يقتحمون مناحل أيامهم، وجحافل لياليهم، وهو إن لم يكن أظهر منهم استحقاقاً، وأكثر لإحراز الفوائد استراقاً فما هو بدون جماعتهم ولا بأضعفهم طاقةً عن جهة استطاعتهم والمملوك ممن يثني بين يدي مولانا عليه باستحقاقه، ويصفه بما لا يقدر أحدٌ فيه على شقاقه، وسيظهر له ما يزكي شهادة المملوك في الثناء على فضله والشكر له، وإن لم يكن المملوك من رجال هذا المقام ولا من أهله، وإن لم يكن: [من الطويل]

فـــقـــفْ وقـــفـــةً قُـــدَّامَـــهُ تَـــتَـــعـــلَّـــمُ

وفي هذا كفاية ومقنع، وغاية وممتع، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكنت كتبت على يده نسخة إذن لي بالإفتاء، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع أقدار العلماء، ونقع بورد الشرائع غلل الظماء، ورفع بصباح الحق المنير دجى الظلماء، ونصب أعلام الأئمة ليهتدى بهم كنجوم السماء، نحمده على نعمه التي زينت بمجالس العلماء المعابد، وبيّنت فضل العلم إذ كان العالم الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد .ونشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده، لا شريك له، شهادة تهتز بها الأقلام وتعتز ألوية الأئمة الأعلام، وتبتزُّ بأيدي حماتها حملة العلم ضوال الإسلام.

ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي هدى به من الأضاليل، وحمى من الأباطيل، وفضَّله على الأنبياء، وجعل علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه أئمة الهدى، / ١٣٠/ وأزمة النَّدى، وتتمة كل خيرٍ يبتدا، صلاةً متصلةً لا تنتهي إلى مَدَى، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلما كان مراد العلم أخصب ما انتجع، وزمان الطلب أحق ما يبكى على فائته لو ارتجع، وهو الذي تشد إليه الرحال وتُجدَّ إليه الرجال، وتمتطى إليه الهمم، ويخاض الليل، وقتير الصباح ما دَبَّ في سواد اللمم، وتركب إليه الرياح، وتتخطى إليه الرماح، ولم يزل أهل الطلب تفارق فيه الكرى، وتُشَمِّرُ الأهداب للسُّرى وتنهض، وقد

أقعد الحرمان أكثر الورى، وتجول في طلبه الآفاق، وتجوب البلاد والنجوم في اللحاق، وتفترق الدجى والقفر وهذا البحر، وهذا الرقراق، وتتفاوت في هذا ومثله رُتب الطلب، وتتباين قصب العلم والطرب، ولأهل الحديث الشريف النبوي زاده الله شرفاً في هذا الوسع مجال، وأنجع ركائب تأتي عليها رجال عجال، ويزداد في توسيع ذيل الارتحال وتوسيع أردية الأصل قبل حطّ الرحال من تفقه في الدين وتنبه، وما له خدين واشتغل بمذهب أوّل الأئمة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه حتى ودَّ شقيق الشفق لو نسب إلى نعمانه، ورفيق أوّل السلف لو تأخر إلى زمانه، وظهر من فضائله ما وضح وضوح النهار، وأظهر فضوح البحر وفي قلبه النار، وجدل الأقران لما ناظر، وعلّل السبب في رقة النسيم بلطائفه لما حاضر، وتفسح في هذا المذهب المُذهب وأذكى ضرام فهمه فيه، فكاد يتلهَّب من دَلَّهُ علمه على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وسبب السفور لجلاء كل مظلم إذا كان العلم هو الذي يتماثل في وجوب طلبه المسلمون، ويتفاضل في علو رتبه من قرأ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وفي الحديث «العلماء ورثة الأنبياء» وقد جاء «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وقال بعض السلف لرجل قال له: إلى متى يحسن بي التعلم، قال: ما حسنت بك الحياة. وطالب /١٣١/ العلم نهمٌ لا يشبع، ومغتنم لا يقنع، وإناءٌ لا يمتلئ، ومجتهدٌ لا يأتلي، فلما أخذ عن علماء بلده، ونقع بماء منهله الغدير، ولم يغترف غرفةً بيده، لم يجد ذلك، وإن كان البحر الزاخر ناقعاً لأوامه، ولا ذلك الخصب الممتد، وإن أمري نافعاً لسوامه، ورأى أن تلك الرحاب الفساح في الطلب لا تسعه، وأن تلك المدد الطوال التي قضاها في التحصيل لا تقنعه، فأمَّ مصر حرسها الله تعالى حيث هي المصر الجامع، والأفق التي تُزينه من علمائه النجوم الطوالع، وأتى لا يريد إلاَّ العلم ولقاء أهله، والزيادة منه لو وجد مزيداً من فضله، فلم يدع غماماً يُستسقى، ولا إماماً عن مثله يُتلقَّى، ولا من يمتاح له من قليب، ولا من يرتاح إليه على بُعد، فكيف والمزار قريب حتى كادت ركائبه لا تنهض بما أوسقت، وسحائبه لا تبيض بما سقت، وكان فلان هو الذي استفاد وأفاد، وانتقى واستزاد، وضاهى في طلب العلم سرى الغَمام، وباهى البدور الكوامل، وزاد في التمام الذي اقتحم الدجى لا ترهبه الأسنة، ولافح الرياح لا تزاحمه الأعنة، وفهم التنزيل، فسكنت نفسه المطمئنة، وعلَم الحديث فسلك به طرقاً إلى العلم ليسلك الله له به طريقاً إلى الجنة طالما رفعت أعلام

---

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

الدين بجداله الذي يمنع، وخضعت رؤوس الخصوم بجلاده الذي لا يقنع، ووضعت الملائكة أجنحتها له لأنه طالب علم رضي بما يصنع، وهو ممن حصَّل من كل علم غاية أو طرفاً، وحلَّ كل علاً وتبوَّأ غُرفاً، وأجاد في علم الفقه وتوجيهه، وعلم تشعب طرقه ووجوهه وعرف فيه وجوه الاختلاف، ووجوب الائتلاف، ووجود المقتضي للترجيح، والمرتضى فيما يفتى به على الصحيح، ومن أين استنبطت الأدلة، وعرف المعلول والعلة، وتردد إليَّ، وقرأ عليَّ، وبحث مع أفاضل العلماء لديَّ، وناظر بحضوري أماثل الفقهاء فملأ أذني، وتكرَّر حضوره عندي، وظهر لي من مدده السحابي أنّ محلته لا تكدى، ورأيته / ١٣٢/ أهلاً للإفتاء والتدريس والتصدير وولاية المدارس وغير ذلك مما ينافس فيه من هذه الرتب العلية المنافس، وقد استخرت الله وأذنت له أن يطلق قلمه بالافتاء ويلحق بشأو الكهول في سن الفتاء، وأن يرشد الضلال، ويرشف من قلمه الزلال، ويتصدر لإشغال الطلبة، ونشر الفقه على ما يوافق في النص والقياس مذهبه واقفاً فيما يفتى به عند الصحيح الراجح والحق الواضح، والذي عليه نصَّ مذهب إمامه أبي حنيفة رضي الله عنه، وأصحابه مما عليه الفتوى، وعلى ما ترشد إليه ما أوصيه به من التقوى، متيقناً أنه أطال الله عمره يموت ويبقى ما كتبت يداه، وأن الفتيا إذا خرجت من يده ربما وقعت في أيدي عداه، ثم إن الله سيسأله عمَّا كتب فليعدَّ قبل أن يجيب على الفتوى الجواب، وليعد النظر مما يكتب به فمن أعاد النظر لم يعدم الصواب، والله تعالى يمد له أجلاً يسرى به في ليل الشبيبة حتى يرى صباح المشيب، ومهلاً لا تجف لأنديته ضرع ندى ولا يخمد لهيب، وأن يبقيه خلفاً في الإسلام وما ذلك من عوائد كرم الله بعجيب. والمسؤول من الله أن يوافق ولاة الأمور أعزهم الله بعز طاعته، وصرف كُلاً منهم في الخير وسع استطاعته لإعلاء قدره، واستجلاء بدره، واستملاء ما يكنه من العلم الجم في صدره، وأن يكثروا به في هذا الزمان عدد الفضل القليل، ويأثروا منه الأثر الجميل، ويقدموا منه مستحقاً لو أجالوا الفكر، لم يجدوا مثله في هذا الجيل؛ ليصلوا به حبلاً لولا مثل هذا في كل أوان، لانقرض، ويقيموا بنياناً لولا شبه هذا في كل مكان، لانتقض، وينظروا لآخر الأمة في مدِّ مدد العلم الذي لولا بقية العلماء، وهذا منهم، لم يخض.

فلما وصلت إليه، تلقاها بالقبول وكتبها بخطه إذناً له بالفتوى، وكتب إلي جوابه، فأجبته بما صورته:

يقبل الباسط الأشرف الطاهر الزكي / ١٣٣/ المولوي السيدي الإمامي العلاّمي العاملي الفريدي الأوحدي الحُجي المسلكي العارفي المالكي المخدومي الشيخي

الشمسي، علم الأعلام، شيخ مشايخ الإسلام، مفيد أهل مصر والعراق والشام، فرد الوجود ورد الجود، منشيء العلماء والمفتين، إمام المتكلمين سيف الحق، ملجأ الخلق، جامع الطرق، شمس الأفق، ولي أمير المؤمنين لا زالت الأيام رافلة في حبره، والأقلام ناقلة لخبره، والإعلام الشوامخ متضاءلة لدى كبره، والكرام تعترف بفضله الذي تُعد معه عبرة الغمام من عبره، والأحكام لا تطبع حديد مواضيها إلا من زبره، والسهام لا تقطع آراؤها الصائبة قطع سيوفه ولا تحز حز ابره تقبيلاً يؤدي حق شكره ويوفي في بعض نذره، ويولي القبل قبلة إحسانه، ويوصي بنيه بأداء ما في ذمته فرضه، وعجز عن ذكره بلسانه، وينهي ورود المثال العالي فقام المملوك له ووقف على قدمه، ووقف لديه معرضاً لخدمه، ونظر إليه فبهت، وحاول شكر أدنى معروفه فصمت واستظل بظل غمامته، واستقل سروراً بسلامته، واستقبل الدهر برفع ملامته، وتأمل كرمه، ومد يده إلى مدامته، وأفضى منه إلى فضاء ملؤه الكرم، ورسيله البحر، وتلوه الديم، فترامى المملوك عليه، وكرع في غدير تلك الصحيفة، وأمن به وقد أوجس البرق في نفسه خيفة، وبايع مؤدبه الرشيد لما رآه المهدي مهديه خليفة وقلب وجهه في سماء ذلك السماح، وقلبه في سراء تلك المواهب التي لو جاراها البحر، قالت له إياك والطماح، وجنبه في نعماء تلك النعم التي خطت إليها الرياح، وتخطت الرماح، واستبق مضمونه ولسان محضره في وصف ندى عهده، وكرم لم يزل يعد منه يداً مجدده، وهدى فرق به النحر لما أبصر فرقده، ومعروف ما برحت تعرف به الأعلام وترف به الأعلام، وتصرف بالفتاوى الأقلام وتشرف القبل / ١٣٤/ بالتهاوي إلى مواطن الإقدام، وتلك صدقات مولانا التي شملت من شهد علمه الشريف باستحقاقه، ولهذا أطلق فيه رسن قلمه، ونبّه له وسن طرفه من حلمه، وأذن له في الإفتاء الذي آن لأن يُشرق في أفقه بدره الطالع، ويَشرق بغصص حسده عدوه الطامع، فجاء مسروراً من كريم جنابه، محبوراً بإحسانه بعد أن حظي بالمثول في فنائه الرحيب، وأحسن عن المملوك في مثابة المولى الشيخ الفقيه الإمام العالم الكامل الفاضل الحافظ المحدث المتقن المفنن، العلامة أوحد العلماء، جمال أهل الإفتاء، فخر المحدثين، شمس العصر بدر الدين الشبلي زاده الله فضلاً ولله هو من مستحق قدم مولانا منه إماماً، وأمطر طلبة العلم به غماماً، وناوله قلم الإفتاء، وقد توشّح بالمداد زماماً، وكثر عدد العلماء به، وقد قلوا وأرشد السواد الأعظم ببدره الطالع، ولولاه لضلوا، وأهَّل الصدور التصدير منه من مطوى غلّة المحاريب إحناء ضلوعها، وتجري السماء إذ لم ترَ مثله أعين دموعها، ووصل ووصف وأراه ما كساه، فما ظن إلا أنه عليه من ورق الجنة

قد خصف، وذكر وشكر وما جاء إلا بالمعنى المتداول مما أجمع الناس عليه من إحسان مولانا، وهو يظن أنه قد ابتكر، وقال، وقال، وهيهات أن تبلغ البلاغة أو تحيط الفكر، وناول المملوك المثال العالي الذي لا مثال له إلا ما كتبه كاتب اليمين، وذهَّبه موقد جمر الشفق وكابت به الدر الثمين، وقبله وسابق نهب اللاثمين، وحلا بما تضمنه وإذا بالبحار الزواخر، والرياض الزواهر، والسحب إلا أنها سحب نيسان التي تولد الجواهر. والله الله في مسامحة المملوك في قصور هذا التمثيل، وفتور هذا التشبيه الذي كم له مثيل لشيء ما له مثيل، ولقد وقع هذا الإحسان بموقع من المملوك، وعم سائل القلوب وعدّ فصل النعم به إلا أنه / ١٣٥/ غير محسوب، وأرى المملوك زمان مثوله بين يدي سيده حيث المزار قريب والزمان غر، ولو لا هذا لم يكن صنعه الجميل بغريب، وقد رام المذكور على طلاقة لسنه، وامتداد سنه، وقدرته على الكلام، وكثرة حسنة، أن يعترف المملوك بما أولاه من مننه المنوَّعة، ولا زاد على أنه اعتراف أنه لا يطيق واعتذر وها هو الآن قد تصدى لما أخذ عن مولانا علمه، وحرك له عزمه، وأحيا الله به موات أموات هذا المذهب، واستعاد فوات ما لو لم يدرك مولانا بقية آخر رمقه بهذا ومثله من العلماء، لكاد أن يذهب، وألسنة أهل دمشق كلها بالأدعية لمولانا موليهم هذه النعمة بسببه ناطقة، وبضائع صنائع مولانا في سوق شكرهم نافقه، والمملوك عنهم المترجم ولإدلاله قد طال ويقبل بثقيل المتهجم، والمملوك يستعرض المراسيم العالية التي هي طوالع السعود لا ما يدعيه المنجم، لا برحت طلبته مثرية المطالب مورية الهدى في الغياهب، مجرية الأقلام بالإفتاء وفي آثارها، ولا تلحق زمن الكواكب.

* * *

[مشاهير فلاسفة المغاربة وحكمائها بالأندلس]

ومن فلاسفة المغاربة وحكمائها ومتكلميها ممن كان بالأندلس:

[٣٩]

يحيى بن يحيى، المعروف بابن السمينة(١)

كان من أهل قرطبة، أتقن العلم والحساب، وعلم التصور والاكتساب، وعانق الصبر والاحتساب، وعانى مهم الفن حتى أوتي أجره بغير حساب، فمات وآخر الحياة الموت، ونهاية الدرك الفوت، بعد خيرات آثرها، ومبرات بقيت وقد أكلت الأيام مؤثرها، وعمل صالح بلا اكتراث، وعلم نافع يبقى إذا انقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): قال القاضي صاعد: إنه كان بصيراً بالحساب، والنجوم، والطب، متصرفاً في العلوم، متفنناً في المعارف، بارعاً في اللغة، والعروض، ومعاني الشعر، والفقه، والحديث، والأخبار، والجدل، ورحل إلى المشرق ثم انصرف.

قلت: وقد ذكره /١٣٦/ ابن المازري وقال: قدم علينا مصر حاجاً، وتسامع به الناس فأتوه من كل فج، وقرأوا عليه كتبه وغيرها، وحبوه بالذهب، وأنواع الحباء فلم يقبل لأحد شيئاً، وكان متقللاً من الدنيا، زاهداً في حطامها، لا يزال يذكر الموت وهول المطلع، ويقول: ليت أمي لم تلدني. قال: وكان كثير الصدقة والبر ولاسيما إذا رأى ذا عجز ظاهر، ملازماً للصلوات في أوقاتها، نزل في دار قريبة من المسجد الجامع ليقرب عليه أداء الفرائض في الجماعة، وكان إذا صلى ظهر عليه من الخشوع، وفيض الدموع ما يكاد يرحمه به من رآه، قال: وكان لا يزال ينشد: [من الطويل]

إذا نَظَرَ الدنيا بصيرٌ بحالِها ... تيقَّنَ أنَّ الدهرَ جَمُّ المَصائبِ

---

(١) توفي سنة (٣١٥هـ).

ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/ ١٨٨ رقم ١٥٨٠، عيون الأنباء ٤٨٢، نفح الطيب ٣/ ١٧٦، وطبقات النحويين ٢٨٩، وطبقات الأمم ٨٧، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١_٣٢٠هـ) ص٥٠٥ رقم ٢٤٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٢.

فمِنْ عارفٍ تصطادُهُ باقتسارِها وغِرٌّ بها تصطادُهُ بالرَّغائبِ
فما ماؤُها إلاّ سَرابٌ بِقيعَةٍ وما عيشُها إلاّ تحلُّمُ كاذِبِ
لَحَى اللهُ مُغتراً بها وبصَرفِها وفي بعضِها للمرءِ كلُّ العَجائِبِ

قال ابن المازري: وأظنها له.

ومنهم:

[٤٠]

أبو القاسم، مسلمة بن أحمد ابن المرجيطي(١)

من أهل قرطبة، مسح الأفلاك وقسمها خططاً، ووسمها وما سامها شططا، وكان كأنه بعض كواكبها إشراقاً، وجواريها الكنس إشفاقاً، أشرق إشراق زُهرها، وتدفق تدفق المجرة على زهرها، ونفض على الآفاق صبغة أصلها، وذر في مقلة الصباح زرقة كحلها، وكان بقرطبة حلية لأيام بني مروان، وزينة لذلك الأوان، أعاد ذاهب زمانهم والركائب ترد عليهم، وترد وجوه النجائب إليهم.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان في زمان الحكم.

وقال صاعد: كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته، وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب، وشغف «بالمجسطي» كتاب بطليموس، وله /١٣٧/ عدة كتب، وأنجب له ملأ من التلاميذ الأجلاء، ولم

---

(١) كذا ورد في الأصل، وفي عيون الأنباء «المرحيطي»، أما في المصادر فقد ورد: «المجريطي».
وهو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن قاسم بن عبد الله المَجْرِيطي، أبو القاسم، فيلسوف، رياضي، فلكي، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم، ولد بمجريط (مدريد) سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥م، وتوفي فيها سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م.
ذهب بعض المؤرخين إلى أنه مؤلف «رسائل إخوان الصفا ـ ط» ولم يثبت ذلك، من كتبه: «ثمار العدد» في الحساب، يعرف بالمعاملات، و«اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني» و«رتبة الحكيم ـ خ» و«غاية الحكيم ـ ط» و«كتاب الأحجار ـ خ» و«روضة الحدائق ـ خ» رسالة صغيرة.
وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي فنقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وزاد فيه جداول حسنة، إلاّ أنه ـ كما يقول القفطي ـ اتبعه على خطأه ولم ينبّه على مواضع الغلط فيه.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٢ـ ٤٨٣، والصلة لابن بشكوال ٣/ ٨٩٩، وطبقات الأمم ٩٠، ونفح الطيب ٣/ ١٧٦، وتاريخ الحكماء ٣٢٦، وطبقات الأطباء ٢/ ٣٩، وخلاصة الأثر ٤/ ٨، وفيه وفاته سنة ٣٥٣هـ، وأخبار الحكماء ٢١٤، جلاء العينين ٨٦، الأعلام ٧/ ٢٢٤.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٢.

ينجب عالم بالأندلس مثلهم، ومنهم ابن السمح، وابن الصفار، وهو أول من أتقن علم الاصطرلاب بالمغرب ـ والزهراوي، والكرماني، وابن خلدون.

قلت: وقد رأيت اصطرلابات من عمله عليها اسمه، وكانت غاية في الحسن للعروض التي عملت لها صفائحها، إلاَّ أن كواكبها كانت تحتاج إلى تحريك لطول المدة منذ عملت. ورأيت له رسالة في المجنب والأفاقية كتبتها بخطي لإعجابي بها، ثم غالتها يد الضياع، وغالبت عليها غلبة الأيام التي لا تستطاع.

ومنهم:

[٤١]

ابن السمح، أبو القاسم، أصبغ بن محمد بن السَّمْح الغرناطي المهندس[١]

حكيم تعرف له المبار، وطبيب تدفع به المضار، قيمٌ بتركيب الأدوية، وتفاضل التفضيل والتسوية. أحيا الله به القوى الحيوانية، وحفظ النفس الإنسانية. سلك بنظره في الأبدان، وملك ما ليس لأحد به يدان، ونظر في تفاريق العضل، وتفاريع ما كفى من الأغذية وفضل، واستدل بالنبض على ما وراءه، وعرف دواءه على الحقيقة وداءه، بحدس صحيح حصر على ضيق المجاري واتساعها، وانحطاط الدرجات في الأدوية وارتفاعها، إلى غير ذلك من أسباب في علوم وحساب ونجوم وأمور كان بها يقوم.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان في زمان الحكم.

وقال صاعد: كان محققاً لعلم الأدب والهندسة، متقدماً في علم هيأة الأفلاك،

---

(١) أصبغ بن محمد بن السمح المهري، أبو القاسم: عالم بالحساب والهندسة والهيئة والفلك وله عناية بالطب، من أهل قرطبة. ولد سنة (٣٦١هـ/ ٩٧٢م)، انتقل إلى غرناطة وتأثل فيها نعمة واسعة، ومات بها سنة (٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م). كان من مفاخر الأندلس. له كتاب «المدخل إلى الهندسة» و«ثمار العدد» ويعرف بالمعاملات، و«تفسير كتاب إقليدس» وكتاب كبير في «الهندسة» وكتاب في «الأسطرلاب» و«تاريخ» كبير ذكره صاحب الإحاطة ولم يسمه.

ترجمته في: التكملة لابن الأبار (انظر: فهرس الأعلام)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٨٣ـ ٤٨٤، والإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ٢٦٤، والوفيات لابن قنفذ ٢٣٤ رقم ٤٢٦، وكشف الظنون ٥٢٣، ٩٦٥، ١٣٩٠، ١٤٧٢، ١٦٤٢، وإيضاح المكنون ١/ ٥٨٣، وتراث العرب العلمي لقدري طوقان ٢٩٩، ومعجم المؤلفين ٢/ ٣٠٣، الأعلام ١/ ٣٣٣، وتاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١ـ٤٤٠هـ)، ص١٧٢ رقم ١٩٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٣.

وحركات النجوم، وكانت له عناية بالطب، وتواليف حسان، وقال: أخبرني تلميذه أبو مروان الباسي أنه توفي بغرناطة.

ومنهم:

[٤٢]

أبو الحكم الكرماني، وهو عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي من أهل قرطبة[١]:

طبيب لا يدق عليه غامض، ولا يشق عليه خفاء وامض، وكان مقدماً في التعاليم، ومعظماً في الأقاليم، وجامعاً من القوى النفسانية التقاسيم، /١٣٨/ وأجاد الكلام في أحكام الطب، وأحكام ما يحتاج إليه المستطب، وعرف في القوى الطبيعية المخدومة والخادمة، والبداية والخاتمة، إلى أن أبرز كل خفية وأحرز قد الكمية والكيفية، ولم يزل يعود بملاطفته ويعود بعاطفته، حتى انتعشت به الأرواح في أجسامها، وأمنت به من انتهاب الأقسام واقتسامها، وطردت الصحة الأمراض وقامت جواهر النفوس بالأعراض.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: هو أحد الراسخين في العدد والهندسة.

وقال صاعد: إن تلميذه الحسين بن محمد المهندس المنجم قال: إنه ما ألفى أحداً يجاريه في علم الهندسة. ولا شق غباره في فك غامضها، وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها. ورحل إلى المشرق، وانتهى إلى حران، وعني هناك بطلب الهندسة، ثم رجع إلى الأندلس، واستوطن ثغر سرقسطة، وأدخل معه رسائل إخوان الصفا [وله عناية بالطب] ومجربات فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكلى والكي والقطع والشق والبط، وغير ذلك من أعمال الطب، ولم يكن بصيراً بالنجوم، ولا بالمنطق.

ومنهم:

[٤٣]

ابن وافد[٣]

بيت حكمة، ونبت حشمة، ورئيس طب، ومنية محب، عنيت الدول برفع

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٤ـ ٤٨٥، طبقات الأمم ٩٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٤.

(٣) الوزير، أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي: =

أخمصه، ودفع منتقصه، وقدمته باستحقاقه لأن يكون مقدماً، ويسدد رأيه ليفوت السمهري مقوماً، فلهذا كان مجاريه لا يقدر له على لحاق، وحاسده ولو كان البدر لا يرى إلا في المحاق، بلطف لو سحب ردنه الروض لأبهج رقيمه، أو ا لأصيل المعتد لشفاه وما صح من النسيم سقيمه. لم تمد يد إلى مجاذبته، ولا طمع في مجانبته.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: هو الوزير أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي أحد أشراف أهل الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، والسابقة القديمة فيهم. عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها، ومطالعة / ١٣٩/ كتب أرسطو وغيره من الفلاسفة وتعقلها.

قال صاعد: وتمهر في تعلم الأدوية وصنف فيه كتاباً جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما قاله ديسقوريدس وجالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب. قال: وأخبرني أنه عانى جمعه وترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وتفصيل قواها وتجديد درجاتها نحواً من عشرين سنة، حتى كمل موافقاً لغرضه، مطابقاً لبغيته. وله في الطب منزع لطيف ومذهب شريف، كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو كان قريباً منها، ثم إذا اضطر إلى الأدوية لا يرى التداوي بالمركب ما أغنى المفرد بمفردها، فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل يقتصر على الأقل ما يمكنه منه. وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخيفة بأيسر العلاج. واستوطن طليطلة، وكان أيام ابن ذي النون.

ومنهم:

[٤٤]

محمد بن يوسف المنجم[2]

أديب غلب عليه التنجيم، وعلا قدره فما حصر بالتقويم، وسير الشهب حتى

= عالم بالفلاحة والصيدلة، طبيب أندلسي من أهل طليطلة ولد سنة (٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م). تعلم بقرطبة، له تآليف، منها «مجموع في الفلاحة» وكتاب في «الأدوية المفردة» استعمله أهل عصره، و«الوساد» ذكره ابن الأبار ولم يبين موضوعه. ثم قال: وهو الذي تولى غرس جنة المأمون ابن ذي النون الشهيرة في طليطلة، توفي سنة (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م).

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٩٦، طبقات الأمم ١٠٥ـ١٠٦، أخبار الحكماء ١٥٢، لسان الميزان ٣/ ٤٣٣، والفهرس التمهيدي ٢١٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٢٥، مخطوطات دار الكتب ٤، الأعلام ٣/٣٢٦.

(١) عيون الأنباء ٤٩٦.

(٢) ترجمته في: انموذج الزمان ٣٢٧، الوافي بالوفيات ٥/٢٤٨ـ ٢٤٩ رقم ٢٣٢١.

صورها من توليد خاطره، وصيرها على لسانه بدلاً من ناظره، وحيرها حتى وقفت له فأصبحت قريحته منها متخيرة، وأضلتها بلألاء أنواره فظلت متحيرة.

قال ابن رشيق[1]: وشعره صحيح البناء، ملتئم الأجزاء، ملموم الثواء، كأنه قطعة واحدة. غلب عليه التنجيم كأبيه، وكتب ليعلى بن فرح، ثم لولده بعده، وامتدح نصير الدولة مرات.

وأورد من شعره قوله[2]: [من الطويل]

لَعَمري لئنْ كُنا حليفَي صناعةٍ ... لقدْ سبقتْ رِيشَ الخَوافي القَوادمُ

فقلْ للذي استهزا بنا في فِعالِهِ ... مَقاليَ يقظانٌ وعِرضُكَ نائمُ

سيغسلُ عنّي الماءُ فِعْلَكَ كلَّهُ ... وقوليَ باقٍ والعظامُ رَمائمُ

/١٤٠/ تَدِبُّ على الأعضاءِ منهُ عَقاربُ ... وتَنفُثُ في الأحشاءِ عنه أراقمُ

فإنْ كانَ ذا عِرض تلوحُ كُلُومُهُ ... فعندي ضَماداتٌ لهُ ومَرَاهمُ

ومنهم:

[٤٥]

أبو بكر بن باجة، ابن الصائغ، واسمه محمد بن يحيى الأندلسي[3]

أديب رُمي من حالق، وبُلي بحارق، ولم يقنع صاحب القلائد بأن يضع عليه سمة الفاسق، ذكره ويا بئس ما جاء به من سوقه النافق، قال فيه: رمد جفن الدين وكمد

---

(١) انموذج الزمان (٣٢٧). (٢) انموذج الزمان (٣٢٧).

(٣) محمد بن يحيى بن باجَّهْ، ويعرف بابن الصائغ، أبو بكر التجيبي الأندلسي السرقسطي: من فلاسفة الإسلام. ينسب إلى التعطيل ومذهب الحكماء. ولد في سرقسطة، واستوزره أبو بكر بن إبراهيم والي غرناطة ثم سرقسطة. وذهب إلى فاس فاتهم بالإلحاد، ومات فيها، قيل: مسموماً سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، قبل سنّ الكهولة، والإفرنج يسمونه (Avenpace) حمل عليه الفتح بن خاقان (في قلائد العقيان) حملة شديدة. وكان مع اشتغاله بالفلسفة والطبيعيات والفلك والطب والموسيقى، شاعراً مجيداً، عارفاً بالأنساب. شرح كثيراً من كتب أرسطاطاليس وصنف كتباً ذكرها ابن أبي أصيبعة (في طبقات الأطباء) ضاع أكثرها، وبقي ما ترجم منها إلى اللاتينية والعبرية. ومما بقي من كتبه «مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعيات ـ خ» و«رسالة الوداع ـ ط» مع رسالتين من تأليفه، هما «اتصال العقل» و«النبات» وكتاب «النفس ـ ط» وتعليق على كتاب العبارة للفارابي ـ خ» من املائه، و«تعليق على كتاب الفارابي في القياس ـ خ» من تأليفه كلاهما في دار الكتب، مصوران عن الاسكوريال (٦١٤/ ٤ و٢١٢/ ٥) كما في المخطوطات المصورة (١/ ٢٠٣).

=

نفوس المهتدين به اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان علاّمة في وقته في العلوم الحكمية، وبلي بمحن كثيرة وشناعات سيئة، وقصد هلاكه مرات. وكان حافظاً للقرآن الكريم. وقال ابن الإمام: كان في ثقابة الذهن. ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه. وكان من أجل نظار وقته أضرب عن النظر ظاهراً لما لحقه من المطالبات في دمه بسببه. وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها وزاحم لكنه لم يلح عليه ضياء هذه المعارف، ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم، فإذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سيناء والغزالي، وهما اللذان فتح عليهما بعد أبي نصر بالمشرق في فتح تلك العلوم، ودونها، بان لك الرجحان في أقاويله. وحسن فهمه. والثلاثة أئمة دون ريب.

وأنشد له الفتح في القلائد قوله[٢]: [من البسيط]

يا سائقي حيثُ لا أسطِيعُ أُدْرِكُهُ ... ولا أقولُ غداً أغدو فألقاهُ

أمّا النهار فَليلٌ ضمَّ شَملتَهُ ... على الصباح فأولاهُ كأخْرَاهُ

أَغرُّ نفسي بآمالٍ مُزخرفَةٍ ... منها لقاؤُكَ والأيامُ تأباهُ

وقوله[٣]: [من الكامل]

/١٤١/ فَعَسَى أرى ذاكَ النَّعيمَ وربُّهُ ... فَرِحٌ وربُّ البُؤسِ وهوَ سَقيمُ

هَيهاتَ ساوتْ بينهمُ أجداثُهمْ ... وتشابَهَ المَحسُودُ والمَرحُومُ

وقوله[٤]: [من الطويل]

أقولُ لنفسيْ حينَ قابلَها الرَّدى ... فَرَاعَتْ فِراراً منهُ تَسري إلى يُمنَى

=

ترجمته في: قلائد العقيان ٤/ ٩٢١ـ ٩٤٧، وخريدة القصر/ قسم شعراء المغرب والأندلس ٢/ ٣٣٢ـ٣٣٤، وق٤ ج٢/ ٦٠٨، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي ٤٠٦، وانموذج الزمان ٣٢٧، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٥١٥ـ ٥١٧، والمغرب في حليّ المغرب ٢/ ١١٩، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩ـ٤٣١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٩٣ـ ٩٤ رقم ٥٤، والوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٠ـ ٢٤٢، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٤٤ـ٣٤٨، ومرآة الزمان ج٨ ق ١/ ١٧٢ـ ١٧٣، ونفح الطيب ٧/ ١٧ـ٢٥ و٢٧، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٣، وهدية العارفين ٢/ ٨٧، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٥، ومعجم المؤلفين ١٢/ ١٠٣ـ ١٠٤، والأعلام ٧/ ١٣٧، وإيضاح المكنون ١/ ٤٨٦، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ)، ص٣٣١ رقم ١١٦٣.

(١) عيون الأنباء ٥١٥.
(٢) قلائد العقيان ٤/ ٩٣٣.
(٣) القلائد: ٤/ ٩٤١.
(٤) القلائد ٤/ ٩٤٦.

فرى يحملني بعضَ الذي تكرهينَهُ فقدْ طالَما عنيت بالفرار إلى الأَهْنَى

وقوله[١]: [من الطويل]

أسكانَ نعمانَ الأراكِ تيقَّنُوا بأنكمُ في رَبْع قَلبيَ سُكَّانُ

ودُوموا على حِفْظِ الوُدادِ فإننا بُلِينا بأقوام إذا ائتمنوا خانُوا

سلِ الليلَ عنِّي مذْ تناءَتْ ديارُكمْ هلِ اكتحلتْ لي فيهِ بالنوم أجفانُ

وهلْ أُغمدتْ يوماً سُيوفُ بُرُوقِكمْ فكانَ لها إلا جُفُونيَ أجفانُ

ومنهم:

[٤٦]

المبشر بن فاتك، وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الآمري[٢]

طبيب لو جس نبض البرق لما اختلف، أو لاطف ما ينافر من الطبائع لأتلف، أعرف باختلال الفروق من الخيال بالطروق، وأهدى إلى معالجة الداء الدوي من الطفل إلى الثدي، لو عالج النار لخمدها، أو البحار لجمدها، أو شكت إليه الفراقد طول السهر لرد عليها غمضها، أو السحب المتصببة من الرُّحَضاء لأزال ممضها. تيسرت على يديه الممتنعات، وأمنت بحسن طبه التبعات، إلا أن أدواء المنية أعيته، وطوارف الأجل بيتته، فلم يجد لداء منيته طِبّاً، ولا لرجاء أمنيته طَبَّاً، هذا مع ما كان له من أسلاف وأمرة، وبيت كم لمعتفيه من طواف به وعمرة لكنه لم يدافع عنه زمرة، ولا تجلت عنه غمره.

ذكره ابن أبي أصيبعة[٣] قال: كان من أعيان مصر وأفاضل علمائها يحب الفضائل والاجتماع بأهلها، واجتمع بجلّة /١٤٢/ الحكماء وأهل الطب وأخذ عنهم، وكانت له خزائن كتب، وكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلاَّ المطالعة والتعليق يرى أن ذلك أهم ما عنده، فلما مات عمدت زوجته إلى الكتب فألقتها في بركة ماء كبيرة كانت في وسط الدار، ثم شيلت وقد غرق أكثرها، وإنما فعلت ذلك لحنقها على الكتب؛ لكونه كان يتشاغل بها عنها.

ومنهم:

---

(١) القلائد ٤/ ٩٤٤.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٠ـ ٥٦١، وتاريخ الحكماء ٢٦٩، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٧١.

(٣) عيون الأنباء ٥٦٠.

[٤٧]

الحفيد أبو بكر، محمد بن زُهر[(١)]

فاضل متميز، وكاملٌ إلى الأطباء متحيز، أخذ من كل علم بحظ وافر، وحق ما الفائز به إلى الظافر، وكان يقيس الأمور بأنظارها، ويحوزها من سائر الأطراف باستحضارها، فأطل على ربواتها، واطلع على هفواتها، حتى كان يعرف نبض البرق في اختلافه، ويحيط علماً بكل موافق وخلافه. هذا إلى آداب ترق، ويهب لطفها النسيم ويسترق، ومات وفي يده أزمة الطب، وذهب هو والمستطب، ولم يدفع عن حوبائه تلك المعارف، ولا ذادت من حينه الأجل المشارف، فاستوطن التُّرب مخلياً للتِّرب ومُخلياً للسرب، فآهاً ثم آهاً وويلاه لحسرات لا تتناهى كيف يأفل مثل قمره، وكيف ينقضي طيب سمره، وكيف يذهب مثله من العلماء، ويذهب من بين نجوم السماء، وطالما جلا الدجى، وأنهج طرق الحجا، وامتدت نحوه أيدي الخلفاء، واعتدت له بحسن الوفاء، وثنت العلياء له الوسائد وأخدمته الأيام والليالي ولائد.

قال ابن أبي أصيبعة[(٢)] فيه: هو الإمام الوزير، الحكيم، الأديب، الحسيب،

---

(١) ورد في الأصل: «أبو بكر بن محمد...» وما أثبتناه والمصادر الأخرى.
وهو محمد بن عبد الملك بن زُهْر الإيادي، أبو بكر: من نوابغ الطب والأدب في الأندلس. ولد بإشبيلية سنة (٥٠٧هـ/ ١١١٣م)، وخدم دولتي الملثمين والموحدين. ولم يكن في زمنه أعلم منه بصناعة الطب، أخذها عن أبيه وعرف بالحفيد ابن زهر. له «الترياق الخمسيني» في الطب، ورسالة في «طب العيون» وشعر رقيق، وموشحات انفرد في عصره بإجاده نظمها، أشهرها موشحة مطلعها:

«ما للمولَه، من سكره لا يفيق»

وثانية مطلعها:

«أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع»

توفي بمراكش سنة (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م).

ترجمته في: معجم الأدباء ٥٢١ـ٥٢٨، وعيون الأنباء ٥٢١ـ ٥٢٨، والوافي بالوفيات ٤/ ٣٩ـ٤٣ رقم ١٤٩٧، ونفح الطيب ١/ ٦٢٥، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٦٤٢، والمطرب لابن دحية ٢٠٧، والمعجب للمراكشي ١٤٥، وتكملة الصلة ٢/ ٢٥٥، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٣٤ـ٤٣٧، والعبر ٤/ ٢٨٨، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٢٥ـ٣٢٧ رقم ١٧١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧١ـ ٧٢، وإنسان العيون ورقة ٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ وشذرات الذهب ٤/ ٣٢٠، والكنى والألقاب للقمي ١/ ٢٩٣ـ ٢٩٤، والأعلام ٦/ ٢٥٠، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١ـ٦٠٠هـ)، ص٢٠٢ رقم ٢٦٥.

(٢) عيون الأنباء ٥٢١.

الأصيل مولده بمدينة إشبيلية ونشأ بها وتميَّز في العلوم، وأخذ الطب عن أبيه، وباشر أعمالها وكبر، ولم يتغير عليه سوى ثقل السمع. حفظ القرآن الكريم، وسمع الحديث الشريف، واشتغل بالأدب، وأتقن اللغة، وقال الشعر، وأجاد /١٤٣/ في الموشحات.

وكان متين الدين ملازماً للأمور الشرعية، قوي النفس، له جرأة في الكلام، ولم يكن في زمانه أعلم منه بالطب، لازم عبد الملك الباجي سبع سنين يشتغل عليه، وقرأ المدونة لسحنون في مذهب مالك، ومسند ابن أبي شيبة وكان يجذب قوساً وزنه مائة وخمسين رطلاً بالإشبيلي، ورطلها مائة وستون درهماً، وكان جيد اللعب بالشطرنج، وخدم الملثمين والموحدين، وبقي إلى أيام عبد الملك الناصر بن منصور يعقوب، ومات بمراكش.

وحكي: أنه كان له صديق يلاعبه الشطرنج، فرآه يوماً منقبضاً فسأله عما به، فأخبره أن له بنتاً زوَّجها من رجل، وأنه يحتاج في جهازها إلى ثلاثمائة دينار، فقال له: العب، وما عليك فإن عندي ثلاثمائة دينار إلاَّ خمسة، واستدعى بها فأعطاها له، فلما كان غير بعيد أتاه الرجل بالذهب، فقال له الحفيد ابن زهر: ما هذا؟ قال: بعت زيتوناً لي بسبعمائة دينار وقد اتيتك منها بثلثمائة إلا خمسة عوض ما أقرضتني وقد بقيت عندي البقية، فقال الحفيد: خذه إليك، فإني ما أعطيتكه على أن أعود فيه. فقال له الرجل: لا تفعل فإنني في سعة وترى ذا، فقال له ابن زهر أنت عدوي أو صديقي؟ قال: بل صديقك وأحب الناس فيك، فقال: إن الصديقين مالهما واحد فخذه، فإن لم تفعل عاديتك بسببه، فأخذه وشكر له.

قال القاضي أبو مروان الباجي: وكان المنصور قد قصد أن لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده. وأباد كثيراً منها بإحراقها بالنار وشدد في أن لا يرجع أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى وجد أحداً ينظر في هذا العلم أو وُجدَ عنده شيء من الكتب المصنفة فيه، فإنه يلحقه ضرر عليه. ولما شرع في ذلك جعل أمره مفوضاً إلى الحفيد أبي بكر بن زهر، وأنه الذي ينظر إليه. وأراد الخليفة أنه إن كان عند ابن زهر وإنه الذي ينظر فيه المنطق والحكمة لم يظهر، ولا /١٤٤/ يقال عنه إنه يشتغل بها، ولا يناله مكروه بسببها، ولما نظر ابن زهر في ذلك، وامتثل أمر المنصور في جمع الكتب من عند الكتبيين، وغيرهم، وأن لا يبقى شيء منها، وإهانة المشتغلين بها. كان بإشبيلية رجل من أعيانها يعادي الحفيد ويحسده وعنده شر عظيم، فعمل محضراً في أن ابن زهر دائم الاشتغال بهذا الفن والنظر فيه، وأن عنده شيئاً كثيراً من كتبه، وجمع فيه شهادات كثيرة، وبعث إلى المنصور. وكان المنصور حينئذ في حصن الفرح وهو موضع

بناه قريباً من أشبيلية على ميلين منها صحيح الهواء بحيث بقيت الحنطة فيه ثمانين سنة لم تتغير من صحته. وكان أبو بكر بن زهر هو الذي أشار أن يبنيه المنصور في ذلك الموضع، ويقيم فيه في بعض الأوقات. فلما كان المنصور به، وقد أتاه المحضر نظر إليه، ثم أمر أن يقبض على الذي عمله، وأن يودع السجن ففعل به ذلك. وانهزم جميع الشهود الذين وضعوا خطوطهم فيه. ثم قال المنصور: إنني لم أترك ابن زهر في هذا إلا حتى لا ينسبه أحد إلى شيء منه، ولا يقال عنه. والله لو أن جميع أهل الأندلس وقفوا قدامي وشهدوا على ابن زهر بما في هذا المحضر لم أقبل قولهم، لما أعرفه في ابن زهر من متانة دينه وعقله.

وحدثني أبو العباس أحمد بن محمد الإشبيلي قال: كان قد أتى إلى الحفيد اثنان يشتغلان عليه بصناعة الطب، فدخلا عليه يوماً وبيد أحدهما كتاب صغير في المنطق، فلما نظر إليه نهض حافياً ليضربهما وانهزما وهو يتبعهما، ولم يرجع إلاَّ من مسافة بعيدة، وانقطعا عنه أياماً، ثم توسلا إليه واعتذارا وأظهرا التوبة مما فعلاه، فقبل عذرهما، وأذن لهما في الدخول عليه مستمرين في قراءة الطب على عادتهما، ثم بعد مدة أمرهما بحفظ القرآن، وقراءة التفسير والحديث والفقه، وأمرهما بمواظبة الأمور الشرعية وآدابها وسننها، وعدم الإخلال بذلك حتى بقي ذلك لهما سجية وطبعاً /١٤٥/ وعادة قد ألفاها، ثم بعد ذلك أخرج لهما الكتاب بعينه، وقال لهما: الآن صلحتما لقراءة هذا الكتاب وغيره من أمثاله، وابتدأ في إشغالهما فيه، فتعجبا من فعله رحمه الله. وهذا يدل على كمال عقله وتوفر مروءته.

وحدثني القاضي أبو مروان الباجي قال: كان أبو زيد عبد الرحمن بن برجان وزير المنصور يعادي الحفيد ويحسده لما يرى من علو منزلته وعلمه فاحتال عليه في سم قدمه إلى الحفيد في بيض، وكانت عنده بنت أخته، وكانت أخته وابنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء، يدخلان على المنصور، لا يقبل للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أمها. فلما أكل الحفيد وبنت أخته من ذلك البيض ماتا جميعاً، ولم ينفع فيهما علاج. قال: ولم يمت أبو زيد عبد الرحمن بن برجان إلاَّ مقتولاً قتله بعض أقربائه.

ومن شعره يتشوق إلى ولده: [من المتقارب]

وَلِي واحِدٌ مِثْلُ فَرخِ القَطَا ... صَغِيرٌ يُخلِّفُ قَلبي لَدَيهِ
نَأَتْ عَنهُ داري فيا وَحشَتي ... لِذاكَ الشُّخَيصِ وذاكَ الوُجَيهِ
تَشَوَّقَني وتَشَوَّقْتُهُ ... فيبكي عَليَّ وأبكي عَلَيهِ[1]

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٥١٧ـ ٥٢٤.

ومنهم:

[٤٨]

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف، الإمام العلامة المتقن، جامع أشتات الفضائل، ركن الدين، أبو عبد الله، ابن القَوْبع القرشي الهاشمي الجعفري المالكي التونسي(١)

لبيب مبصر لا يخاف منه التخبيط، وطبيب مكثر لا يؤتى عليه من التخليط. أتقن العلم إتقاناً، ودرب العمل إذ كان لا يغب له إتياناً، هذا إلى فضل متسع، وسبق وراءه كل متبع. جد في الطب، حتى كأن جُذيله المُحكَّك، وعُذيقه المُرجَّب لا يشكل وكان حين وخط المشيب عارضنه، وأسكت معارضه، أشد مما كان عارضة وأشد معارضة، /١٤٦/ فلم يمتد معه لمجادل نفسه، ولا رفع رأسه نحو مناظر إلا نكس، لثاقب فكرة حط عنها قناعها، وكثر لكل قريع الحزم قراعها، فتقهقر كل متقدم عن مكانه، وعلم أن دونه ما في إمكانه، لم أر له نظيراً في مجموعه وإتقانه واستحضاره واطلاعه.

كان مجيداً في الأصول، والحديث، والفقه، والأدب، واللغة، والنحو، والعروض، وأسماء الرجال، والتاريخ، والشعر، يحفظ للعرب، والمولدين، والمتأخرين. غاية في الطب والحكمة، ومعرفة الخطوط خصوصاً خطوط المغاربة، قد مهر في ذلك وبرع، وإذا تحدث في شيء من ذلك كله تكلم على دقائقه وغوامضه ونكته حتى يظن سامعه إنما أفنى عمره في ذلك الفن.

قال شيخنا العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي وهو ما هو: ما أعرف أحداً مثل

---

(١) ابن القُوْبَع، العلامة، الفيلسوف، الحكيم، ركن الدين، محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف القُرشي، الجعفري، التونسي، المالكي.
ولد سنة (٦٦٤هـ) بتونس، وقرأ النحو على يحيى بن الفرج بن زيتون، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس. وقدم مصر عام تسعين. وسمع بدمشق من ابن الواسطي، وابن القواس، وبحماة من المحدث ابن مزيز.
قال الذهبي: وكان صاحب فنون وبارع في الطب والفلسفة. وفيه رقة دين. وكان يجعل الراء غيناً. خلف ثروة، وله نظم يسير سمع منه ابن الدمياطي، وغيره.
توفي في ١٧ ذي الحجة سنة ٧٣٨هـ.
ترجمته في: تاريخ حوادث الزمان ٣/ ١٠٦٣ رقم ١٣٨٢، والوفيات لابن رافع ١/ ٢٣٤، ٢٣٥ رقم ١٠٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٣٨ـ٢٤٧، وأعيان العصر ٥/ ١٤٨ـ١٦٣ رقم ١٧٤٥، والبداية =

الشيخ ركن الدين أو كما قال. وقد رأى جماعة ما أتى الزمان لهم بنظير بعدهم مثل الشيخ.

وحكى أبو الفتح بن سيد الناس: أنه لما قدم إلى الديار المصرية وهو شاب حضر سوق الكتب، وابن النحاس شيخ العربية حاضر وكان مع المنادي ديوان ابن هانىء المغربي، فأخذه الشيخ ركن الدين وأخذ يترنم بقول ابن هانىء: [من الكامل]

فَتَكَاتِ لَحظِكِ أَمْ سُيوفَ أَبيكِ   وكؤوسَ خَمْرِكِ أَمْ مَرَاشِفَ فيكِ

وكسر التاء وفتح الفاء والسين والفاء، فالتفت إليه ابن النحاس وقال له: ماذا إلا نصبٌ كثيرٌ. فقال له الشيخ ركن الدين بتلك الحدة المعروفة منه والمعرفة: أنا ما أعرف الذي يريد من رفع هذه الأشياء على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، أي: أهذه فتكات لحظك أم كذا أم كذا، وأنا الذي أقوله أغزل وتقديره أأُقاسي فتكات لحظك، أم أقاسي سيوف أبيك، وأرشف كؤوس خمرك، أم مراشف فيك. فأخجل ابن النحاس، وقال: يا مولانا، فلم لا تتصدر وتشغل الناس؟ فقال استخفافاً /١٤٧/ بالنحو واحتقاراً: وايش هو النحو في الدنيا، أو كما قال.

وحكى أيضاً قال: كنت أنا وابن الأكفاني نأخذ عليه في المباحث المشرقية، فأبيت ليلتي أفكر في الدرس الذي نصبح نأخذه عنه، وأجهد قريحتي، وأعمل بعقلي وفهمي إلى أن يظهر لي فيه شيء أجزم بأن المراد به هذا، فإذا تكلم الشيخ ركن الدين كنت أنا في واد، وهو في واد، أو كما قال.

وحكى المراكشي قال: قال لي الشيخ ركن الدين: لما أوقفني ابن سيد الناس على السيرة التي عملتها علّمت فيها على مائة وأربعين موضعاً، أو ستة وعشرين، السهو مني، أو كما قال. ولقد رأيته مرات يواقف ابن سيد الناس في أسماء رجال ويكشف عليها فيظهر معه الصواب.

= والنهاية ١٤/ ١٨٣ وفيه: «قويع» بمثناة، ومثله في: السلوك ج٢ ق ٢/ ٤٥٦، وطبقات النحاة واللغويين ورقة ٥٦ب، ٥٧أ، ٩٤/ ١٨١ـ ١٨٤ رقم ٤٩١، والنجوم الزاهرة ٩/ ٣١٥، وبغية الوعاة ١/ ٢٢٦، وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٩، وطبقات المفسرين ٢/ ٢٣٧ـ ٢٣٩، ونيل الابتهاج ٢٣٢ـ ٢٣٣، ودرة الحجال ٢/ ٣٠٠، وإيضاح المكنون ٤/ ٥٢٧، وهدية العارفين ٢/ ١٤٩، وديوان الإسلام ٤/ ٥٠ـ ٥١ رقم ١٧٢٨، وشجرة النور الزكية ١/ ٢٠٨ـ ٢٠٩، والأعلام ٨/ ٢٦٤، ومعجم المؤلفين ١١/ ٢٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦هـ) ص٣٥٢ رقم ١٠٦١.

قال ابن حجر: القويع: على الألسنة بضم القاف. ونقل ابن رافع عنه أنه قال إنه بفتح القاف، وذكر عن بعض المغاربة أن القويع: طائر. «معجم الأطباء ٤٢٩ـ٤٣٩».

قال أبو الصفاء(١): وكنت يوماً أنا وهو عند ابن سيد الناس فقال: قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: عمل ابن الخطيب أصولاً في الدين، الأصول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(٢) إلى آخرها، فنفر الشيخ ركن الدين وقال: قل له: يا عُرَّة، عمل الناس وصنعوا، وما أفكروا فيك، ونهض قائماً، وولى مغضباً.

قال: وأخبرني الشيخ فتح الدين قال: جاء إليه إنسان يصحح عليه في أمالي القالي، فأخذ الشيخ ركن الدين يسابقه في ألفاظ الكتاب، فبهت ذلك الرجل فقال: لي نحو عشرين سنة ما كررت عليها، وكان إذا أنشده أحد شيئاً في أي معنى أنشد فيه جملة للمتقدمين والمتأخرين كأنه كان يكرر عليه تلك الليلة.

وتولى نيابة الحكم للقاضي المالكي بالقاهرة مدة، ثم تركها تديناً منه، وقال: يتعذر فيها براءة الذمة، وكان سيرته فيها حسنة مرضية، وكان يدرس في المدرسة المنكتمرية بالقاهرة، ويدرس الطب بالبيمارستان المنصوري، وينام أول الليل، ثم يستفيق قد أخذ راحة، وقد أخذ كتاب «الشفاء» لابن سيناء ينظر فيه لا يكاد يخل بذلك.

قال الشيخ فتح الدين: قلت /١٤٨/ له يوماً: يا شيخ ركن الدين إلى متى تنظر في هذا الكتاب؟ فقال: إنما أريد أهتدي. وكان فيه سآمة وملل حتى في لعب الشطرنج، يكون في وسط الدست، وقد نفضه وقطع لذة صاحبه، ويقول: سئمت، سئمت، وكذلك في بعض الأوقات في بحث وقد حرَّر لك المسألة، وكادت تنضج، فيترك الكلام ويمضي. وكان حسن التودد يتودد إلى الناس، ويهنئهم بالشهور والمواسم من غير حاجة إلى أحد؛ لأنه كان معه مال، له صورة ما يقارب الخمسين ألف درهم، وكان يتصدق سراً على أناس مخصوصين، ولثغته بالراء قبيحة يجعلها همزة، وكان إذا رأى أحداً يضرب كلباً أو يؤذيه يخاصمه وينهره، ويقول له: لم تفعل هذا؟ أما هو شريكك في الحيوانية. وكان خطه على وضع المغاربة وليس بحسن. وسمع بدمشق سنة إحدى وتسعين وستمائة على المسند تقي الدين بن الواسطي، واستجزته سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بالقاهرة باستدعاء فيه نثر ونظم فأجاب وأجاز وأجاد نظماً ونثراً.

أنشدني لنفسه إجازة: [من الطويل]

جَوًى يَتلظَّى في الفُؤادِ استعارُهُ ... ودَمْعٌ هَتُونٌ لا يُكَفُّ انهمارُهُ

يحاولُ هذا بَرْدَ ذاكَ بصَوبِهِ ... وليسَ بماءِ العَينِ تُطفأُ نارُهُ

---

(١) الوافي بالوفيات ١/ ٢٣٨ـ ٢٣٩.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ١.

وَلوعاً بِمَنْ حازَ الجَمالَ بأسرِهِ فحارَ الفؤادَ المستهامَ إزارُهُ
كَلِفْتُ بِهِ بَدريَّ ما فوقَ طَوقِهِ ودِعْصِيَّ ما يُثنى عليهِ إزارُهُ
غزالٌ لهُ صَدْري كِناسٌ ومَرْتَعٌ ومِنْ حَبِّ قلبي شِيْحُهُ وعَرارُهُ
جَرَى سابحاً ماءُ الشبابِ برَوضِهِ فأزهرَ فيهِ وَرْدُهُ وبَهارُهُ
يَشِبُّ ضِراماً في حَشايَ نعيمُهُ فيبدو بأنفاسِ الصِّعادِ شَرارُهُ
وينظمُ دَمعي منهُ نظمَ مُؤَشَّرٍ كَنَورِ الأَقاحي حَفَّهُ جُلَّنارُهُ
يُعَلّ بعذبٍ مِنْ بَرُوْدِ رُضابِهِ تَفاوحَ فيهِ مِسكُهُ وُعقارُهُ
/١٤٩/ ويُسهِرُ أجفاني بوسنانَ أدعَجٌ يُحيِّرُ فكري غُنْجُهُ واحورارُهُ
حَكَاني ضعفاً أوَ حَكَى منهُ مَوْثقاً وخَصْراً نَحِيلاً غالَ صَبريْ احتضارُهُ
مُعَنَّى بِرِدْفٍ لا يَنُوءُ بثقْلِهِ فيا شَدَّ ما يَلْقَى مِنَ الجارِ جارُهُ
تألَّفَ في هذا وذا غُصْنَ بانةٍ تَوافَتْ بِهِ أزهارُهُ وثِمارُهُ
زلالٌ ولكنْ أينَ مِنِّي وُرُودُهُ وغُصْنٌ ولكنْ أينَ مِنِّي اهتصارُهُ
وسَلسالُ راحٍ صَدَّ عنِّيَ كأسَهُ وغُودرَ عندي سُكْرُهُ وخُمارُهُ
دَنَا ونأَى فالدارُ غيرُ بعيدةٍ ولكنَّ بُعداً صَدُّهُ ونِفارُهُ
وحينَ دَرَى إن شَدَّ أسَرىَ حبُّهُ أحلَّ بيَ البَلْوَى وساءَ اقتدارُهُ

منها:

حَكَتْ ليلتي مِنْ فَقْديَ النومَ يومَها كما قدْ حَكَى ليلي ظَلاماً نَهارُهُ
كتمتُ الهوى لكنْ بدمعي وزَفرتي وسُقمي تَساوى سِرُّهُ وجِهارُهُ
ثلاثُ سجلاتٍ عليَّ بأنني أمامَ غرامٍ قَلّ فيكَ استتارُهُ
أُورِّي بنظمي في العِذارِ وتارةً بمَنْ إنْ يعيِن القرط اصفى سوارُهُ
وجلَّ الذي أهوى عَنِ الحَلْي رُتبةً ولمّا يُقاربْ أنْ يَدُبَّ عِذارُهُ
أراحةَ قلبي كيفَ منكِ عَذابُها وجنةَ قلبي كيفَ منكِ استعارُهُ

وتوفي الشيخ ركن الدين المذكور بالقاهرة في تاسع ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، واعتل يومين، ومضى إلى رحمة ربه الرحيم، ومولده سنة أربع وستين بتونس، وله من التصانيف التي دونها «تفسير سورة ق» في مجلدة، ولما تولى الإعادة في المدرسة الناصرية عمل درساً في قوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] وعلق ما أملاه في ذلك، وكان رحمه الله قد قرأ النحو على

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

يحيى بن الفرح بن زيتون، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس، / ١٥٠/ وقدم مصر عام تسعين، وسمع بدمشق من ابن الواسطي، وابن القواس، وبحماة من المحدث ابن مزير.

ومنهم:

[٤٩]

محمد بن إبراهيم المتطبب، صلاح الدين المعروف بابن البرهان الجرائحي(١)

عالمٌ لا يحصر بأمد، ولا يجيء البحر عنده غير ثمد، نظر في علوم الأوائل، ووجهه ما تلثم بعذاره، ولا بعد عهده بزمان أعذاره، ففتح أطباق تلك النواويس حتى استل علومها، وسأل عليمها، ونقل إلى حفظه خبايا أسرارها، وخفايا أسفارها، وحيي به ما مات في لحود رِممها، وفات بخمود هممها، واستقلَّ بتلك الأعباء، واستمل منه طرائف تلك الأعباء، فحصل ما كان طالباً، وحَسَّن ما جاء جالباً.

قرأ الطب على ابن النفيس وغيره، وقرأ الحكمة. وآخر ما قرأ كتاب «الشفاء» لابن سينا على شيخنا الأصفهاني، كان يتردد إليه من القاهرة إلى الخانقاة القوصونية بالقرافة التي لا يعنيه إلاَّ القراءة عليه، ولم يزل حتى أكمله قراءة وبحثاً واستشراحاً. وكان طبيباً حكيماً، فاضلاً متفلسفاً، قائلاً بالروحانيات، له ميل إلى النجامة، ومخاطبات الكواكب، وتطلع إلى الكيمياء، يتحدث فيه ويصحح قول المتقدمين في صحتها.

وحكى لي أنه كان يصحب ابن أمير يعرف بابن سنقر الرومي، وأنه كان يعملها وصحت معه طرف منها، وكان يحكى هذا عن ابن سنقر الرومي عجائب وغرائب منها أنه عمل له فسقية معقودة في تربة له بالقرافة لها منافس للهواء، فلما نجزت اتخذ له غذاءً مركباً مما يخف مقداره وتكثر تغذيته، ونزل إلى تلك الفسقية، وأمره بتعهده في كل أسبوع ويجدد له الماء، وأنه بقي يتعهده كذلك، وكلما أتاه بعد أسبوع وجده قد تزايد ضعفه عما فارقه عليه حتى كان رابع أسبوع، قال: أو خامسه ـ الشك مني ـ أتيته

---

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣، وأعيان العصر ٤/ ٢٢٢، الدرر الكامنة ٣/ ٢٨٨، ومعجم الأطباء ٣٥٧.

فوجدته قد غارت عيناه وخفت حسّه حتى ظننت /١٥١/ أنه قد مات، فحملته أنا وآخر كان قد أطلعه على حاله معي، وأخرجناه ونقطنا في فمه نُقطاً من الشراب، وأذكينا عنده الأرابيخ لنغذوه بها ثم لم نزل نتعهده إلى أن نقطنا مرقة فروج في فمه، فأفاق ولم يكلمنا. ودمنا على هذا حتى كلمنا، وقال لي: لا جزاك الله خيراً، حُلت بيني وبين ما حاولته من الانتقال إلى ما كنت أريد الانتقال إليه إلى خير من هذا العالم. ثم قال: أدركني بفاصد، فقلت: والله لا أفعل، فقال: يا أخي لا تفعل أدركني به، ولا تدع ينزل من دمي إلاَّ ما قلَّ لترى العجب، فأتيته بفاصد ففصده، ولم أدعه ينزل من دمه إلاَّ ما قل ثم شددت يده، فقال: أحفظ هذا الدم في زجاجة وسدَّ رأسها لا يفسد بالهواء، ففعلت ثم قال: ائتني بقرعة وانبيق، فأتيته به، فأداره ثم سكب ذلك الماء عليه، فاستحال فضةً بيضاء، فتركه عندي إلى أن عاد إلى معهود صحته، وقويت قواه، ثم خرجنا إلى جهة الخارقانية، وكان له بها تعلق. ثم أمرني أن أذهب إلى بلبيس لأبيع تلك الفضة، وآتيه من عرضها بمآكل، فذهبت بها إلى صايغ هناك فأريته إياها وأنا خائف وجل لا يظهر له منها عيب، فيظن أني أردت التحوير عليه، فأخذها واعتبرها فلما صحت معه سارع إلى مُشتراها مني، فأخذت من الثمن شواء وحلوى وفاكهة وغير ذلك، وفضل معي ثمانمائة وثلاثون درهماً أو كما قال، فأتيته بذلك فأكلنا ثم قال: خذ الدراهم ولا جزاك الله خيراً لكونك تسببت في عودي إلى تعب هذا العالم.

قلت: وكان هذا الطبيب عارفاً بالطب علماً لا عملاً، لا يحسن العلاج، ولا يطول روحه على العليل، كثير النزاقة، عديم التلطف، كارهاً لأطباء زمانه، لا يذكر أحداً منهم، ولا يُذكر له إلاَّ ذمه وأطلق لسانه في معايبه، وكان يقول: هؤلاء اليهود قد ارتفع رأسهم، وامتلأوا فوق وسعهم على جهلهم، وقلة حاصلهم يعني السديد الدمياطي، وفرج الله/ ١٥٢/ بن صغير، ولا يزال يتوقد غيظاً منهما وحسداً لهما لرغبة السلطان والأمراء والكبراء فيهما أكثر منه، وما كان يحصل لهما من الخلع والإطلاقات، ويصل إليهما من دور السلطان والأمراء لإفراط ميل النساء إلى طبهما وملاطفتهما، ثم كان إذا ذمهما يقول لمن يثق به، وهذا إبراهيم بن المغربي هو مادة عز هؤلاء اليهود، وكنز غناهم، وبه طاروا وحلقوا، وهذه ألفاظه بعينها. وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلاَّ أكلةً واحدةً مؤقتة من الظهر إلى الظهر، وكان يحب لبن الضأن، ويكثر أكله صحبناه مرة في بلاد الصعيد، وكان هو قد تقدم مع طقز دمر إلى توتج الجارية في إقطاعه، وأخبرني أنه لم يأتدم في تلك السفرة على طول أيامها بشيء غير اللبن إلاَّ مرات يسيرة. وقال: هو غذاء صالح للجسم به ألفٌ من أول زمان الرضاع، وكان ينشفه

ويلقى فيه طاقات من النعنع والملح ويأكله. وكان واسع النعمة، كثير المال، ومات أخوه وورث منه مالاً كثيراً، فازداد ماله ضعفاً على ضعفه. وكانت له متاجر إلى إخميم وقوص وأسوان وسائر بلاد الصعيد، وكان يرى في نفسه الغضاضة لتقدم ابن المغربي عليه في رياسة الأطباء، ويتشكى هذا إلى أصحابه، وسأل السلطان في الإعفاء من قطعه الخدمة، فقال: لا ما نعفيك أنت عندنا عزيز كريم، ونعرف أنك أفضل من إبراهيم يعني ابن المغربي وأحق، ولكن إبراهيم صاحبنا وله علينا حق خدمة وطيب قلب. فاستمر ورأى أنه لم يبق له إلاّ مصافاة ابن المغربي، فخطب إليه أخته، فتزوج بها لقصد الاستصلاح له لا للزواج.

وكان رجلاً مسيكاً، مفرط البخل، مقتراً على نفسه، مضيقاً عليه مع عظيم القدرة والإمكان، وكان لا يأكل إلاّ من الظهر إلى الظهر كما ذكرناه أسوأ أكل، ويلبس أردأ ملبوس، ويركب حمير الكراء، ومع هذا كان من المعدلين يجلس مع الشهود الموقعين /١٥٣/ تحشماً لا تكسُّباً، وله وجاهة عند الأمراء والوزراء والكبراء والحكام، معظماً في الصدور يشار إليه بالأنامل، ولم يصنف مُصنفاً، ولا طلع له تلميذ، ولا عرف بغرابة في طبه، وعرّف الدولة بماله قبل موته، وخلف أموالاً جمة ورثها السلطان عنه.

قلت: وقد كان رحمه الله لنا صديقاً صدوقاً، وصاحباً ملاطفاً، وكان يحدثني بدقيق أمره وجليله، ويطلعني على ما عنده من تقديم الرئيس جمال الدين إبراهيم بن المغربي عليه، وينسبه إلى أنه يتقصد قتله واغتياله بالسم، والأمر خلاف ما ظنه، وضد ما توهمه، ولم يكن جمال الدين ممن يخافه لمكانة جمال الدين المكينة عند السلطان، ولكرم خلائقه، وبعده من تقلد دم حرام لا سيما دم مثله. وقد كنت أقول له ليرجع عن سوء رأيه فيه وأوهامه، فلا يرجع ولا يفيد القول. ثم تزوج في آخر عمره بأخت جمال الدين على عدم حاجته بالنساء كما يقال، وأظهر الصفاء، وباطنه على كدره، واعتقد أنه لم يزل على هذا إلى انتهاء عمره.

قلت: وحكى لي أنه جلس يوماً على حانوت العطار الذي كان يجلس عنده، وطلب منه شراباً يشربه فناوله شراباً مسموماً، وقال: فلما شربته أحسست بالسم وبدت فيَّ علاماته، فأسرعت القيام إلى داري وأخذت خرزة بادزهر حيواني كانت عندي وسحلتها ثم أدَفْتُ السحالة بماء ورد على مسنٍ، ثم لعقتها فزالت تلك الأعراض لوقتها، ولم يمض بياض ذلك النهار حتى أكلت طعامي. ولم يعين من دَسّ ذلك عليه، وما أراد والله أعلم إلاّ جمال الدين ابن المغربي، وقد تقدم القول في بُعد جمال الدين

من ذلك.

قلت: وقد كان ابن البرهان دخل اليمن واتصل بصاحبها الملك المؤيد داود رحمه الله وخدمه مدة وحصل من جهته مالاً طائلاً كان منه أصل نعمته ورأس ماليته، ثم فارقه وعاد إلى مصر، وكانت كتبه لا تنقطع عنه وصلاته تصل إليه، وكان /١٥٤/ يعرض الكتب التي ترد عليه على السلطان، فيأمره بقضاء حوائجه، وكانت الكتب تتضمن طلب كتب طبية وعقاقير مصرية ومغربية مما يجل السلطان عن طلب ذلك منه، ويجهز إلى ابن البرهان ذهباً لمشتراه، فكان يتولى ذلك ويقوم في هذه الخدمة بنفسه.

قلت: ولقد قرأت كتباً منها كلها بالخط المؤيدي، ومضمونه بعد البسلمة: كتابنا هذا إلى عند بابنا المعمور، ووليِّنا العبد الشكور، الحكيم الجليل، الفاضل المعتمد، الثقة صلاح الدين معتمد الملوك والسلاطين أدام الله توفيقه ومراشده، وأسعد مقاصده، نأمره عنا بتسليم عادة أنعامه من حامله وهو مائتا دينار مصرية مع ما معها برسم مشتري الحوائج المطلوبة من الديار المصرية وهو ثلاثمائة دينار، وقد اشتملت التذكرة المجهزة طيها على ذكره، فيقف عليها وينجز المطلوب ويتخيره، ولا يقطع مطالعاته عن أبوابنا المعمورة إن شاء الله. هذه صورة الكتاب، ولفظه بنصه وعليه اسمه داود بن يوسف، وقد ذكرت ذلك ليعلم، فقد لا يخلو من فائدة.

ومنهم:

[٥٠]

ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، شمس الدين، أبو عبد الله السنجاري المولد والأصل المصري الدار[١]

حكيمٌ تكلم في الجوهر والعرض، وعرض أسباب الصحة والمرض، وبرهن على

---

(١) محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السِّنْجاري، ويعرف بابن الأكفاني، أبو عبد الله: طبيب، باحث، عالم بالحكمة والرياضيات. ولد ونشأ في «سنجار» وسكن القاهرة، فزاول صناعة الطب، وتوفي فيها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. له تصانيف، منها «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد ـ ط» و«الدر النظيم في أحوال العلوم والتعليم ـ خ» و«نخب الذخائر في أحوال الجواهر ـ ط» و«كشف الرين في أحوال العين ـ خ» و«وغنية اللبيب في غيبة الطبيب ـ خ» و«نهاية القصد في صناعة الفصد ـ خ» و«النظر والتحقيق في تقليب الرقيق ـ خ» و«روضة الألبا في أخبار الأطبا» اختصر به عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة؛ و«اللباب في الحساب».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٩، والبدر الطالع ٢/ ٧٩، والوافي بالوفيات ٢/ ٢٥، وأعيان العصر ٤/ ٢٢٥، معجم الأطباء ٣٥٤ـ ٣٥٧، والفهرس التمهيدي ٥٣٣، والكتبخانة ٦/ ٣٠ و٤٨ ثم ٧/ ١٨٤، الأعلام ٥/ ٢٩٩.

الطب وموضوعاته، والعلاج وتبعاته، دقَّق في العلم حتى أوضح معالمه الوضعية، وبين الفرق في القوى الطبيعية، وجال نظراً في التشريح، وقال فيه بالصريح، وذكر ترتيب الشريان على المنازل، ومكان الصاعد والنازل بكلام جلاه، وكمالٍ مكَّن علاه، ولهذا ساد في أهل عصره، وعاذ بالظفر من قام بنصره، وأهل مصر يظنون أنه لو لامس الماء لالتهب، أو لمس التراب / ١٥٥/ لأحاله إلى الذهب، يدعي أن له علماً يقلب الأعيان أسرع من إدراك العيان لعلوم لم يضرب دونها ستراً، وبيان أتقنه وإن من البيان لسحرا.

ذكره الفاضل أبو الصفاء الصفدي وقال[1]: فاضل، جمع أشتات العلوم وبرع في علوم الحكمة خصوصاً الرياضي فإنه إمامٌ في الهيأة والهندسة والحساب له في ذلك تصانيف وأوضاع مفيدة.

وقال: قرأت عليه قطعة جيدة من كتاب أوقليدس، وكان يحل لي فيه ما أقرأه عليه بلا كلفة كأنما هو مُمثَّلٌ بين عينيه، فإذا ابتدأت في الشكل شرع هو فيسرد باقي الكلام سرداً، وأخذ الميل ووضع الشكل في حروفه في الرمل على التخت وعَبَّر عنه بعبارة جزلة، فصيحة، بينة، واضحة كأنه ما يعرف شيئاً غير ذلك الشكل. وقرأت عليه مقدمة في وضع الأوقاف فشرحها لي أحسن شرح، وقرأت عليه أول الإشكالات، وكان يحل شرح النصير الطوسي بأجلِّ عبارة وأحلى إشارة، وما سألته عن شيء في وقت من الأوقات مما يتعلق بالحكمة من المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي إلاَّ وأجاب بأحسن جواب كأنَّ ما كان البارحة يطالع تلك المسألة طول الليل.

وأمَّا الطبَّ فإنه إمام عصره، وغالب طبه بخواص ومفردات يأتي بها وما يعرفها أحدٌ؛ لأنه يغير كيفيتها أو صورتها حتى لا يعلم، وله إصابات غريبة في علاجه.

وأما الأدب، فإنه فريد فيه يفهم نكته، ويذوق غوامضه، ويستحضر من الأخبار والوقائع والوفيات للناس قاطبة جملة كبيرة، ويحفظ من الشعر شيئاً كثيراً إلى الغاية من شعر العرب والمولدين والمحدثين والمتأخرين. وله في الأدب تصانيف، ويعرف العروض والبديع جيداً. وما رأيت مثل ذهنه توقد ذكاء بسرعة ما لها روية، وما رأيت فيمن رأيت أصح ذهناً منه، ولا أذكر.

وأما عبارته الفصيحة الموجزة / ١٥٦/ الخالية من الفضول فما رأيت مثلها. كان ابن سيد الناس يقول: ما رأيت من يعبر عما في ضميره بعبارة موجزة مثله. انتهى.

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٥.

قال أبو الصفاء[1]: لم أرَ أمتع منه، ولا أفكه من محاضرته، ولا أكثر اطلاعاً منه على أحوال الناس وتراجمهم ووقائعهم ممن تقدمه، وممن عاصره. وأما أحوال الشرق ومتجددات التتار في بلادهم في أوقاتها، فكأنما كانت القصاد تجيء إليه والملطفات تُتلى عليه بحيث إنني كنت أسمع منه ما لم أطلع عليه من الديوان، وأما الرقى والعزائم، فيحفظ منها جُملاً كثيرة، وله اليد الطولى في الروحانيات والطلاسم، وما يدخل في هذا الباب.

قال: وقرأت عليه من تصانيفه «إرشاد القاصد إلى أسخى المقاصد» و «اللباب في الحساب» و «نخب الذخائر في معرفة الجواهر» و «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ومما لم أقرأهُ من تصانيفه «كشف الرَّين في أمراض العين».

قال: وأنشدني لنفسه: [من الكامل]

ولقدْ عجبتُ لعاكسٍ للكيميا ... في طبِّهِ قد جاءَ بالشنعاءِ
يُلقِي على العَينِ النُّحاسَ يحلُّها ... في لمحةٍ كالفِضَّةِ البيضاءِ

وله تجمل في بيته وملبسه ومركوبه من الخيلِ المُسوَّمة والبزّة الفاخرة، ثم إنه اقتصر وترك الخيل وآلى على نفسه أن لا يطب أحداً إلاَّ ببيته أو في المارستان أو في الطريق، وهو غاية في معرفة الأصناف من الجواهر والقماش والآلات وأنواع العقاقير والحيوانات، وما يحتاج إليه البيمارستان ولا يشترى بالبيمارستان المنصوري شيء ولا يدخل إليه إلاَّ بعد عرضه عليه، فإن أجازه اشتراه الناظر، وإن لم يجزه لم يشتر البتة، وهذا اطلاعٌ كثير وخبرة تامة؛ لأن البيمارستان يريد كل ما في الوجود مما يدخل في الطب والكحل والجراح وغير ذلك.

وأمَّا معرفة الرقيق من المماليك /١٥٧/ والجواري فإليه المآل في ذلك، ورأيت المولعين بالصنعة يحضرون إليه، ويذكرون له ما وقع لهم من خلل في أثناء أعمالهم، فيرشدهم إلى الصواب، ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد، ولم أر شيئاً يعوز من كمال الأدوات غير أن عربيته ضعيفة، وخطه أضعف من مرضى مارستانه، ومع ذلك فله كلام حسنٌ ومعرفة بأصول الخط المنسوب، والكلام على ذلك. انتهى ما ذكره أبو الصفاء.

قلت: هذا رجل اجتمع بي وتردد إليَّ غير مرة، وجاريته الحديث كرةً على كرة، وهو كما ذكره من الحديث الممتع والكلام المطمع، وقرأت عليه. ولقد كنت ألتقط من أثناء كلامه ثمرات الحكم، وأستدل له بمجاراته على سعة اطلاع ووفور مدد، ورأيت له في هذا ما لم أره لأحد، وكان يستجهل الأطباء، ويستبعد طرق معالجاتهم، ويستبشع كريه وصفاتهم، ويقول: أنا أعالج المرضى بما لا يستكره كهذه الأدوية الكريهة التي

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٦، أعيان العصر ٤/ ٢٢٨.

يصفها الأطباء، وأعطي القدر اليسير مما يستطاب، فيقوم مقام الكثير مما يعطونه مما لا يستطاب ويكون ما أعطيه من نوع الغذاء، وهو يقوم مقام الدواء.

وحكى لنا القاضي ضياء الدين يوسف بن الخطيب أنه احتاج إلى استفراغ فعرض ما به على الأطباء واستوصفهم، فقالوا: هذا يحتاج إلى خمسة أيام تتقدم قبل استعمال دواء، وشرعوا في وصف دواء يشتمل على عقاقير كثيرة كريهة، فلم أجد لي قابلية على ما قالوه، فقلت: لابن الأكفاني، فقال يحصل الفصد، ثم أتاني ببرنية فيها شراب حماض، وقال: كلما أردت قيام مجلس إلعق من هذا الشراب لعقة، قال: فعلقت منه تسع لعقات، فقمت تسعة مجالس، وزال ما كنت أشكوه ثم كنت في حين ألعق من ذلك الشراب، وكلما لعقت لعقة قمت مجلساً لا يخالف /١٥٨/ عدد القيام عدد اللعقات، ولم يخرم معي هذا.

وحكى لي الصدر مجد الدين السلامي نحو ذلك، ومع هذا كله وما لا يجحد فضله لا يقول أطباء مصر إلاَّ أنه طرقي لا طبيب، وأي حسن ماله من يعيب. [من الكامل]

كَضَرائرِ الحَسناءِ قُلنَ لوَجهِها حَسَداً وُبغضاً إنهُ لَدميمُ

* * *

[أوائل الأطباء]

فأما أول من استخرج الطب:
فرجلان، لم يعُد بعد معهما كارع في لجام، ولا بعدهما إلاَّ خالع الألجام، جَليًّا كل مبهم، وتجلياً كغرة الأدهم.
فالأول:

[١]
اسقلنينوس[١] بن زيوس[٢]

متطبب لا يقرب بأهل الجد إلا إذا هزل، ولا يقرب من مطمح النجم إلا إذا نزل، يجله من تعقله، ويجهله من ظن أنه مع البحار الزاخرة قد تملقه، عزت إليه الحكماء طبها، وأعزت خطبها لما أخذ عنه من علم جليل كما أعاذ من مندم، وصان من دم، وبصّر أعمى، وآثرَ نعمى، وأخمد من نار سوء المزاج العائث ما تضرم حتى لم يبق جسم نحيل يتوجع، ولا أم عليل تتفجع، طبٌّ طبّ غير عاجز، وعلاج ولاج على العلل لا يرده حاجز، ترفو به الأعَلاّء ملابس صحتها، وترفل بطبه الأصحاء في مجرور ذيل فُسحتها.

وقد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطببين على أنه أول من ذكر من الأطباء، وأول من تكلم في الطب عن طريق التجربة. وكان يونانياً، ولليونان جزيرة كانت للحكماء من الروم ينزلونها فنسبوا إليها. وقال أبو معشر: بلدة من المغرب كانت تسمى أرغس، وكان أهلها يسمى أرغيزا، ثم سميت أثينا وسمي أهلها اليونان، وكان ملكها أحد ملوك الطوائف. وأول من اجتمع له ملك أنونيا من اليونانيين أنوليوس، وكان لقبه دقاطر، ووضع لهم سنناً كثيرة مستعملة عندهم.

وقال/ ١٥٩/ أبو سليمان السجستاني: هو إمام الطب، وأبو أكثر الفلاسفة. قال:

---

(١) هكذا ورد اسمه في الأصل، وفي طبقات الحكماء وغيره «اسقلابيوس» و«اسقليبيوس».
(٢) ترجمته في: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٨، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٩ـ٣٠، مختصر تاريخ الدول ١٢ـ١٣، دائرة المعارف الإسلامية/ مادة (اسقلابيوس)، طبقات الأطباء ١١ـ١٣.

وينسب إليه إقليدس، وأفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وأكثر اليونانية. قال: وكان أبقراط هو السادس عشر من أولاده، يعني البطن السادس عشر، قال: وسولن أخوه هو أبو واضع النواميس.

ويقال: إن اسقلنينوس انكشف له أمورٌ عجيبة من أحوال العلاج بإلهام إلهي.

ويحكى أنه وجد علم الطب في هيكل كان لهم برومية كان يعرف بهيكل أبلق ثم عرف به، وكان بيتاً يحجون إليه، وحج إليه جالينوس إذ عوفي من دبيلة قتالة عرضت له، وقد حكى صاحب تاريخ الأطباء: أنه كانت فيه صورة تكلمهم عندما يسألونه.

وقال جالينوس: إن طب اسقلنينوس كان طباً إلهياً، وقال: إن قياس الطب الإلهي إلى طبنا قياس طبنا إلى طب الطرقات،

وقال أبقراط: إن اسقلنينوس رفع في عمود من نور، وقيل: إنه كان يستسقى بقبره، وكان يسرج عليه كل يوم وليلة ألف قنديل، وكان الملوك من نسله، تدعى له النبوة. وكان من أولاده عالمين بالطب.

وقال أبو الوفاء بن فاتك: إنَّ اسقلنينوس كان تلميذ هرمس، ويزعم أن هرمس هو إدريس عليه السلام، وقيل: بل كان اسقلنينوس تلميذ أغاثا ديمون المصري ومعنى اسمه السعيد الجدّ، ويزعم أنه أحد أنبياء اليونانيين.

ويقال: إن اسقلنينوس هو البادي بصناعة الطب في اليونان، وعلمها بنيه وحظر عليهم أن يعلموها الغرباء. وقد خالف أبو معشر أهل هذا القول وقال: إنه لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب ولا البدي بها بل أنه من غيره أخذ ولمنهج من قبله سلك، وكان يعلم الطب مشافهة، فلما تضعضع الأمر على أبقراط، وقلَّ أهل بيته لم يأمن أن تنقرض /١٦٠/ الصناعة، فابتدأ في تأليف الكتب على جهة الإيجاز.

ومن كلامه: من عرف الأيام لم يهمل الاستعداد.

وقوله: كم من أمر أبغضت أوله له، وتبكي عند أواخره عليه.

وقوله: المتعبد بغير معرفة كحمار الطاحون يدور ولا يبرح.

وقوله: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها.

وقوله: إني لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضرر، ولا يدع الذنوب مخافة الآخرة.

وقوله: أكثروا من الصمت؛ فإنه سلامة من المقت، واستعملوا الصدق فإنه زين النطق.

وقيل له: صف الدنيا، فقال: أمس أجل، واليوم عمل، وغداً أمل.

وأما الثاني فهو:

[٢]

أيلق ويقال أيلة(١)

وهو تلو صاحبه، وصنو صوائبه، ومدرك وفاته، ومستدرك فواته، كم منّعا جسوماً، وقطعا الأدواء حسوماً، ولأيلق في المجامع بشر يأتلق، وذكر بالمسامع يعتلق، ولم يقصر به دون رجاء يأس، ولا ضاق به مدى فتر في قياس.

قال ابن جلجل(٢): إنه أول حكيم تكلم في الطب ببلد الروم والفرس، واستنبط كتاب الإغريقي لهيامس الملك، وتكلم في الطب وقاسه، وعمل به، وكان بعد موسى عليه السلام في زمان بذاق الحاكم، وله آثار عظيمة شنيعة، وهو بعد في كثرة العجائب مثل اسقلنينوس(٣).

* * *

ومن هنا نذكر ما وقع عليه قسم كل قسم:

* * *

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٣٨، وطبقات الأطباء والحكماء ١٥ وفيه «أبُلُّه» ويقال أيضاً «أبُلُّه وبهامش محققه أنه «أبكن» ويكتب أيضاً «أبلّن» و«أبولو»، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ٧٢ وفيه: «أبلّن الرومي».

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ١٥.

(٣) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٨.

[حكماء الجانب الشرقي]

فأما أهل الجانب الشرقي، فمنهم: حكماء العرب، والسريان، والعراق، وما معه، والعجم، والهند، والشام، ونبدأ بحكماء العرب.

[حكماء العرب]

أطباء العرب ممن كانوا في أول ظهور الإسلام وما بعدهم، فمنهم:

[٣]

الحارث بن كَلَدة الثقفي(١)

طبيب العرب، وكانت له معرفة بما يحتاج إليه من مداواتها، وخبرة في طب أمراضها وأدوائها، أينع من نبعة/ ١٦١/ البادية غصنه الفينان، وجمع إلى فصاحة

---

(١) الحارث بن كَلَدَة الثقفي: طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين. من أهل الطائف. رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها. وتعلم الضرب على العود بفارس واليمن، مولده قبل الإسلام، وبقي أيام رسول الله ﷺ وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية. واختلفوا في إسلامه. وكان النبي ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده. له كلام في الحكمة، وكتاب «محاورة في الطب» بينه وبين كسرى أنو شروان. توفي نحو سنة ٥٠هـ/ نحو٦٧٠م.

ترجمته في: سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٢ و٢/ ١٢٢ و٣٠٦ و٣٤٨ و٣/ ٣١١ و٤/ ١٣٢، والأخبار الطوال ٢١٩، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ١٥١٨ و١٧٧٨ و١٧٨١ و٢٠٥٢ و٢٠٥٣، والمعارف ٢٨٨، وفتوح البلدان ٣٤٣، وطبقات صاعد ٩٩، ومعجم الشعراء للمرزباني ١٧٢، وطبقات الأطباء لابن جلجل ٥٤، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١/ ١٦١ـ ١٦٧، والمؤتلف والمختلف ١٧٢ وله فيه شعر، وأخبار الحكماء للقفطي ١١١، والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٧، والعقد الفريد ٤/ج٢٦٣ و٥/ ٤ و٦/ ١٨٤ و٢٧٦ و٣٠٤ و٣٠٥ و٣٧٣، وتاريخ الطبري ٣/ ٤١٩، والمغازي للواقدي ٩٣١ و٩٣٢ و١١١٦، والاستيعاب (في ترجمة ابنه) ٢٨٩، والجرح والتعديل ٣/ ٨٧ رقم ٤٠١، وأنساب الأشراف ١/ ١٥٧ و٣٦٧ و٤٨٩ و٤٩٠، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٨، وعيون الأخبار ٢/ ٦٥ و٣/ ٢١٨ و٢٧٢ و٤/ ١٣٢، وأسد الغابة ١/ ٣٤٥، والمعارف ٩١ و٢٥٦ و٢٨٨، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٩ و٣٠ و٦/ ٣٤٧ و٣٥٦ و٣٦٢ـ٣٦٤، والكامل في التاريخ ٢/ ٤١٩ و٣/ ٤٤٣، وربيع الأبرار ٤/ ١٠٢ و٢١١، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٤٥ـ٢٤٧، ومعجم البلدان ٢/ ٢٨٩، والإصابة ١/ ٢٨٨ رقم ١٤٧٥، الأعلام ٢/ ١٥٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٤١ـ٦٠هـ) ص١٩٢.

العرب حكمة اليونان، ولخصت به العبارة التي لا تفهم، وخلصت خلاص ابن المهلب من الأدهم، وأخذ يعالج سكان البادية بما لا يبعد من أمزجتها، ولا يعد منه خروج عن محجتها مما تعهده في ديارها، وتتعهد به ملابس غيارها، وعُمِّر مدة في صدر الإسلام وسطر عدة تحفظ له من حُرِّ الكلام، وهو الذي تعده أمَّة العرب سابق أطبائها وسابق أبنائها. وكفاه شُكراً أن رسول الله ﷺ أجرى له ذكراً.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان من الطائف، وسافر البلاد، وتعلم الطب بناحية فارس، وتمرن هناك، وعرف الداء والدواء. وكان يضرب بالعود، تعلمه بفارس واليمن. وبقي أيام رسول الله ﷺ وأدرك سلطان معاوية. وقال له معاوية: ما الطب؟ فقال: الأزم، يعني الجوع. وفي الحديث أن عمر سأله، ما الدواء؟ فقال: الأزم. يعني الحمية.

وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله ﷺ، وقال: ادعوا له الحارث بن كلدة؛ فإنه رجل يطبب. فلما نظر إليه الحارث، قال: ليس عليه بأس اتخذوا له فريقة بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان، فتحسّاها فبرىء.

وفد على كسرى أنوشروان، فلما وقف بين يديه قال له: من أنت؟ قال الحارث بن كلدة الثقفي. قال: ما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعرابيّ أنت؟ قال: نعم، قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟ قال: أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها. فإن العاقل يعرف موضع دائه. ويحترز من الأدواء. قال كسرى: فكيف تعرف ما تورده عليها، ولو عرفت الحكم لم تنسب إلى الجهل، قال الحارث: الطفل يناغى فيداوى، والحية ترقى فتحاوى. ثم قال: أيها الملك، العقل من قسم الله تعالى قسَمه /١٦٢/ ومعدم بين عباده، كقسمة الرزق بينهم. ومنهم مثر ومعدوم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، ذلك تقدير العزيز العليم. فأعجب كسرى من كلامه، ثم قال: فما الذي تحمد من أخلاقها؟ ويعجبك من مذاهبها وسخائها؟ قال الحارث: أيها الملك، لها أنفس سخية، وقلوب جَرية، ولغة فصيحة، وألسن بليغة، وأنساب صحيحة، وأحساب شريفة، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام، أعذب من هواء الربيع، وألين من السلسبيل المعين، مطعمو الطعام في الجدب، وضاربو الهام في الحرب. لا يرام عزهم، ولا يُضام جارهم، ولا تُستباح حريمهم، ولا يذل كريمهم، ولا يقرون بفضل للأنام، إلا للملك الهمام الذي لا يقاس به أحد، ولا يوازيه سوقة ولا ملك.

---

(١) عيون الأنباء ١٦١.

قال: فاستوى كسرى جالساً، وجرى ماء رياضة الحكم في وجهه، وقال لجلسائه: إني وجدته راجحاً، ولقومه مادحاً، وبفضلهم ناطقاً، وفي لفظه صادقاً. كذلك العاقل الذي أحكمته التجارب. ثم أمره بالجلوس، فجلس، ثم قال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك، قال: فما أصل الطب؟ قال: الأزم. قال: فما الأزم؟ قال: ضبط الشفتين، والرفق باليدين قال: أصبت قال: فما الداء الدوي؟ قال: إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في جوف البرية. قال: أصبت، قال: فما العلة التي لا تصطلم منها الأدواء؟ قال: هي التخمة، إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت. قال: فما تقول في الحجامة؟ قال: في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة والعروق ساكنة، لسرور يفاجؤك، وهم يباعدك. قال: فما تقول في دخول الحمام؟ قال: لا تدخله شبعاناً؛ ولا تغش أهلك سكراناً؛ ولا تقم بالليل عرياناً؛ ولا تقعد على الطعام غضباناً؛ وارفق بنفسك، يكن أرخى لبالك؛ وقلل من طعامك، يكن أهنأ لنومك. قال: فما تقول /١٦٣/ في الدواء؟ قال: ما لزمتك الصحة فاجتنبه؛ فإن هاج داء، فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهنأه، وأرقه امرأه، وأعذبه أشهاه. لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً، ويثير عليك من الأدواء أنواعاً. قال: فأي اللحمان أفضل؟ قال: الجداء الرضع الفتي. والقديد المالح مهلك للآكل. واجتنب الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كلها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها. وأفضل الفاكهة: الرمان والأترج؛ وأفضل الرياحين: الورد والبنفسج، وأفضل البقول: الهندباء والخس. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر. أفضله أمراه، وأرقه أصفاه. ومن عظام انهار البارد الزلال لا يختلط بماء الآجام والآكام يدل على صرادع المشطان، ويتسلل عن الرضراض وعظام الحصى في الأبقاع. قال: فما طعمه؟ قال: لا يوصف له طعم إلا أنه مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟ قال: اشتبه على الأبصار لونه؛ لأنه يجلو كل لون يكون فيه. قال: أخبرني عن أصل الإنسان ما هو؟ قال: أصله من حيث شرب الماء، يعني رأسه. قال: فما هذا النور في العينين؟ قال: مركب من ثلاثة أشياء: فالبياض شحم، والسواد ماء، والنظر ريح. قال: فعلى كم جُبل وطُبع هذا البدن؟ قال: على أربع طبائع: المرة السوداء، وهي باردة يابسة؛ والمرة الصفراء، وهي حارة يابسة، والدم، وهو حار رطب؛ والبلغم، وهو بارد رطب. قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال: لو خلق من

طبع واحد، لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك. قال: فمن طبيعتين، لو كان اقتصر عليهما؟ قال: لم يجز؛ لأنهما ضدان يقتتلان. قال: فمن ثلاث؟ قال: لم / ١٦٤/ يصلح، موافقان ومخالف. فالأربع هو الاعتدال والقيام. قال: فأجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعة؟ قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد. قال: فأفضل ما عولج به المرة الصفراء؟ قال: كل بارد لين؛ قال: فالمرة السوداء؟ قال: كل حار لين؛ قال: والبلغم؟ قال: كل حار يابس، قال: والدم؟ قال: إخراجه إذا زاد، وتطفئه إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة؟ قال: فالرياح؟ قال: بالحقن اللينة، والأدهان الحارة اللينة. قال: أفتأمر بالحقنة؟ قال: نعم، قرأت في بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقي الجوف، وتكسح الأدواء عنه، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد. وإن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته، ويؤثر شهوته على نهك بدنه. قال: فما الحمية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها، ويسد مسامها. قال: فما تقول في النساء وإتيانهن؟ قال: كثرة غشيانهن رديء، وإياك وإتيان المرأة المسنة، فإنها كالشن البالي، تجذب قوتك، وتسقم بدنك. ماؤها سم قاتل، ونَفَسُها موت عاجل. تأخذ منك الكل، ولا تعطيك البعض. والشابة ماؤها عذب زلال، وعناقها غنج ودلال، فوها بارد، ريحها طيب، وهنها ضيق. تزيدك قوة إلى قوتك، ونشاطاً إلى نشاطك. قال: فأيهن القلب إليها أميل، والعين برؤيتها أسر؟ قال: إذا أصبتها المديدة القامة العظيمة الهامة؛ واسعة الجبين، اقناة العرنين؛ كحلاء نعساء؛ صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النحر، في خدها رقة، وفي شفتيها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء فرعاء جعدة، غضة بضة. تخالها في الظلمة بدراً زاهراً، تبسم عن أقحوان، وعن مبسم كالأرجوان، كأنها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأذكى ريحاً / ١٦٥/ من الياسمين والورد. تفرح بقربها، وتسرك الخلوة معها. قال: فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه. قال: ففي أي الأوقات إتيانهن أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى، والنفس أهدا، والقلب أشهى، والرحم أدفا. فإن أردت الاستمتاع بها نهاراً تسرح عينُك في جمال وجهها، ويجتني فوك من ثمرات حسنها، ويعي سمعُك من حلاوة لفظها، وتسكن الجوارح كلها إليها. قال كسرى: لله درك من أعرابي. لقد أعطيت علماً، وخصصت فطنة وفهماً. وأحسن صلته، وأمر بتدوين ما نطق به.

وقال الواثق بالله في كتابه المسمى «البستان»: إن الحارث بن كلدة مر بقوم وهم

في الشمس، فقال: عليكم بالظل؛ فإن الشمس تنهج الثوب، وتنقل الريح، وتشحب اللون، وتهيج الداء الدفين.

ومن كلام الحارث: البطنة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعوِّدوا كل جسد بما اعتاد. ـ وقيل هو من كلام عبد الملك بن أبجر. وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ وأوله «المعدة بيت الداء» وهو أبلغ من لفظ البطنة ـ.

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام: قال: «من أراد البقاء ولا بقاء، فليجوِّد الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظَماء، وليقل من شرب الماء؛ ويتمدد بعد الغداء ويتمشى بعد العشاء. ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء. ودخول الحمام على البطنة من شر الداء، ودخلة إلى الحمام في الصيف خير من عشر في الشتاء. وأكل القديد اليابس في الليل معين على الفناء. ومجامعة العجوز تهدم أعمار الأحياء.

وروى حرب بن محمد قال: ثنا أبي، قال: قال لي الحارث بن كلدة: أربعة أشياء تهدم البدن: الغشيان على البِطنة، ودخول الحمام على امتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وروى داود بن رشيد عن عمرو بن معروف قال: لما احتضر الحارث بن كلدة اجتمع إليه الناس فقالوا: مرنا /١٦٦/ بأمر ننتهي إليه من بعدك. فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء. وعليكم بالنورة في كل شهر، فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرة، منبتة للحم. وإذا تغذى أحدكم، فلينم على إثر غذائه، وإذا تعشى، فليخط أربعين خطوة.

ومن كلام الحارث أيضاً، قال: دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً، ولا تشربه إلاَّ من ضرورة؛ فإنها لا تصلح شيئاً إلا أفسد مثله.

وقال سليمان بن جلجل: أخبرنا الحسن بن الحسين الأزدي قال: أخبرنا محمد بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: كان أخوان من ثقيف من بني كنة يتحابان، لم ير قطّ أحسن ألفة منهما. فخرج الأكبر إلى سفر فأوصى الأصغر بامرأته؛ فوقعت عينه عليها يوماً ولم يتعمد رؤيتها، فهويها وضني. وقدم أخوه فجاء بالأطباء، فلم يعرفوا ما به، إلى أن جاءه بالحارث بن كلدة، فقال: أرى عينين تحتجبين، وما أدري ما هذا الوجع، وسأجرب، فاسقوه نبيذاً فلما عمل النبيذ فيه قال: [من الهزج]

ألا رِفْقاً ألا رِفْقا قَليلاً ما أكُونَنَّهْ
ألِمَّا بي إلى الأبيا تِ بالخِيفِ أَزُرْهُنَّهْ
غزالاً ما رأيتُ اليو مَ في دُورِ بَني كَنَّهْ

أَسـيـلُ الـخَـدِّ مَـربـوبٌ وفـي مَـنـطـقِـه غُـنَّـهْ

فقالوا له: أنت أطبُ العرب. ثم قال: رُدّوا النبيذ عليه. فلما عمل فيه قال: [من مجزوء الخفيف]

أيَـهـا الـجِـيـرةُ سـلّـمُـوا وقِـفُـوا كَـي تُـكَـلَّـمـوا

وتُـقَـضُّـوا لُـبـانَـةً وتُـحَـبُّـوا وتَـنْـعَـمُـوا

خَـرَجْـتْ مُـزنَـةٌ مِـنَ الـبـحـرِ رَيَّـا تُـجَـمْـجِـمُ

فـيـهـمـا كَـنّـتـي وَتَـزْ عَـمُ أَنِّـي لـهـا حَـمُـمُ

/١٦٧/ قال: فطلقها أخوه، ثم قال له: تزوج بها يا أخي، فقال له: لا والله لا تزوجتها، فمات وما تزوجها[1].

ومنهم:

[٤]

النضر بن الحارث بن كلدة[2]

وهو ابن خالة النبي ﷺ.

طبيب أثرت به تلك البلاد المقفرة، وأثر بطبّه في أمزجة تلك الحمر المستنفرة. تبع طريق أبيه، وأضاف إلى تالد والده طريف تأتّيه، ودرب العلاج حتى كاد يبرىء

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ١٦١ـ ١٦٧.

(٢) النَّضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، من بني عبد الدار، من قريش: صاحب لواء المشركين ببدر. كان من شجعان قريش ووجوهها؛ ومن شياطينها (كما يقول ابن إسحاق). له اطلاع على كتب الفرس وغيرهم، قرأ تاريخهم في «الحيرة». وقيل: هو أول من غنى على العود بألحان الفرس. وهو ابن خالة النبي ﷺ ولما ظهر الإسلام استمر على عقيدة الجاهلية وآذى رسول الله ﷺ كثيراً. وكان إذا جلس النبي مجلساً للتذكير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله، جلس النضر بعده فحدث قريشاً بأخبار ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ويقول: أنا احسن منه حديثاً! إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين!. وشهد وقعة «بدر» مع مشركي قريش، فأسره المسلمون، وقتلوه بالأثيل (قرب المدينة) بعد انصرافهم من الواقعة، سنة ٢هـ/ ٦٢٤م وهو أبو «قتيلة» صاحبة الأبيات المشهورة التي منها:

«ما كان ضرك لو مننت، وربما مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق»

رثته بها قبل إسلامها. وفي «الإصابة» و«البيان والتبيين» ما مؤداه: عرضت قتيلة (وسماها الجاحظ: ليلى) للنبي ﷺ وهو يطوف بالبيت واستوقفته، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته أبياتها هذه، فرقّ لها حتى دمعت عيناه، وقال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لوهبته لها.

الأكمه، وكان يعرف بضياء الحس، ودرس الحكمة، ولم ينفعه من جهة الأمومة الشريفة النبوية قربه، ولم يمنعه وقد قضى عليه بالبعد ربَّه. قتل بسيف النبوة صبراً، وعجل له مثوى في جهنم يسمى قبراً.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه. واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها، وعاشر الأحبار والكهنة. واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، وأطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه، أيضاً، ما كان يعلمه من الطب وغيره. وكان النضر يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي ﷺ، لكونه كان ثقفياً، كما قال رسول الله ﷺ: قريش والأنصار حليفان، وبنو أمية وثقيف حليفان.

فكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي ﷺ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة، كما يحط من قدره عند أهل مكة، ويبطل ما أتى به. ولم يعلم، لشقاوته، أن النبوة أعظم؛ والسعادة أقدر؛ والعناية الإلهية أجل؛ والأمور المقدرة أثبت. وإنما النضر اعتقد أن بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة، وأين الثريا من الثرى والحضيض من الأوج، والشقي من السعيد؟ وما أحسن ما وجدت حكاية ذكرها أفلاطون في كتاب النواميس في أن النبي وما يأتي به لا يصل إليه الحكيم بحكمته، ولا العالم بعلمه. قال أفلاطون: وقد كان مارينوس، ملك اليونانيين الذي يذكر أوميرس الشاعر بأسه وجبروته، وما تهيأ لليونانيين في سلطانه، رمي بشدائد في زمانه، وخوارج في سلطانه، ففزع إلى فلاسفة عصره. فتأملوا مصادر أموره ومواردها، وقالوا له: قد تأملنا أمرك، فلم نجد فيه من جهتك شيئاً يدعو إلى ما لحقك، وإنما يتعلم الفيلسوف الإفراطات وسوء النظام الواقعين في الجزء. فأما ما خرج عنه، فليس تبحث عنه الفلسفة، وإنما يوقف عليه من جهة النبوة. وأشاروا عليه أن يطلب نبي عصره ليجتمع له مع علمهم ما ينبيء به، وقالوا: «إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في الأقاصي المقفرة بين فقراء ذلك العصر «فسألهم ما يجب

= وفي المؤرخين من يقول إنها أخت النضر. وفي الرواة من يرى أن الشعر مصنوع وأن النضر لم يقتل «صبراً» وإنما أصابته جراحة، فامتنع عن الطعام والشراب ما دام في أيدي المسلمين.
ترجمته في: عيون الأنباء ١٦٧ ـ ١٧١، الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٦، وزهر الآداب، الطبعة الثالثة ١/ ٣٣، ٣٤، ومعجم البلدان ١/ ١١٢، ومطالع البدور ١/ ٢٣٢، وجمهرة الأنساب ١١٧ ونسب قريش ٢٥٥، والبيان والتبيين، تحقيق هارون ٤/ ٤٣ـ٤٤، ونهاية الأرب للنويري ١٦/ ٢١٩ـ ٢٢٠، ٢٧١، والمحبر ١٦٠ ـ ١٦١، والجمحي ٢١٣ـ٢١٤، وانظر ترجمة «قتيلة» في الإصابة: كتاب النساء، رقم ٨٨٩، والأعلام ٨/ ٣٣.

(١) عيون الأنباء ١٦٧.

أن يكون عليه رسله إليه، وما يكون دليلاً عليه؟» فقالوا: اجعل رسلك إليه من لانت سجيته، وظهرت قناعته، وصدقت لهجته، وكان رجوعه إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن بين من استولى عليه هذا الوصف وبينه وصلة تدلهم عليه [عند مسقط رأسه ومنشأه، وسيرته في هذه المواضع، فإنك تجده زاهداً في النعيم، راغباً في الصدق، مؤثراً للخلوة، بعيداً من الحيلة، غير حظي من الملوك. ينسبوه إلى تجاوز حده والخروج عما جري عليه أهل طبقته. تتأمل فيه الخوف، وتخال فيه الغفلة. إذا تكلم في الأمر توهمت أنه عالم بأصوله، وليس يعرف ما يترقى إليه به(١)].

أقول: ولما كان يوم بدر والتقى المسلمون ومشركو قريش، وكانت عدتهم ما بين التسعمائة والألف، والمسلمون يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر. وأيد الله الإسلام ونصر نبيه ﷺ، ووقعت الكسرة على المشركين. وقتل في جملتهم صناديد قريش، وأسر جماعة من المشركين. فبعضهم استفكوا أنفسهم، وبعضهم أمر النبي ﷺ بقتلهم. وكان في جملة المأسورين النضر بن الحارث بن كلدة، فقتله عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر.

ومنهم:

[٥]

عبد الملك بن أبجر(٢)

وهو من أفاضل الأطباء، وأماثل الألباء، وأهل العلم النافع، والتمييز بين المضارِّ والمنافع، لقي حكماء المدن المُمصَّرة، واستضاء بتلك الفطن المبصَّرة، وأقام بين أهل الكتاب الأول، ثم خالط النصارى، وخالل منهم أنصارا، وقدم بينهم في شرائف الرتب، ووظائف الحكمة التي عنها يكتتب، /١٦٩/ ولازم الطلب حتى مهر، وداوم الاكتنان ببيت التدريس حتى ظهر.

قال ابن أبي أصيبعة(٣) وقد ذكره: كان طبيباً عالماً ماهراً. وكان أول أمره مقيماً بالإسكندرية؛ لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى. ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز،

(١) سقط في نسختنا وأتممناه من نسخة أحمد الثالث.
(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧١، طبقات الأطباء ٥٩، طبقات الأمم ٦٣.
(٣) عيون الأنباء ١٧١.

وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران، وتفرق في البلاد، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه في صناعة الطب.

وروي عن ابن أبجر قال: دع الدواء ما احتمل بدنك الداء. وهذا من قول النبي ﷺ «سر بدائك ما حملك».

ومنهم:

[٦]

ابن أثال[١]

كتابي ضيع أمانته، وباع بدنياه ديانته، كان لا يهاب اغتيال النفوس، واختتال مُهج الرؤوس، طريقةً خالف فيها شروط الأطباء، وخال أن يخفيها عن أذان الأبناء حتى قيلت فيه مُلح الأشعار، ووسمت صيته بشنيع العار، وبقيت عليه قبائحها وذهب المعار.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتقدمين في دمشق، نصراني الدين. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الانقياد له والاعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً. وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قواتل. وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً.

ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء بالسم. ومن ذلك ما حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي: أن معاوية لما أراد أن يظهر العقد ليزيد قال لأهل الشام: «إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه، ورق جلده، ودق عظمه، واقترب / ١٧٠/ أجله، ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون»؟ فقالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فسكت وأضمرها. ودس ابن أثال النصراني الطبيب إليه، فسقاه سماً، فمات. وبلغ ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد خبره وهو بمكة، وكان أسوأ الناس رأياً في عمه لأن أباه المهاجر كان مع علي عليه السلام بصفين، وكان عبد الرحمن بن خالد مع معاوية. وكان خالد بن المهاجر على رأي أبيه، هاشمي المذهب. فلما قتل عمه عبد الرحمن مر به عروة بن الزبير، فقال: يا خالد! أتدع ابن أثال نقى أوصال عمك بالشام، وأنت بمكة مسبل إزارك تجره وتخطر فيه

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧١ـ ١٧٥. (٢) عيون الأنباء ١٧١.

متخايلاً؟ فحمي خالد ودعا مولى له يقال له نافع، فأعلمه الخبر، وقال له: «لا بد من قتل ابن أثال». وكان نافع جلداً شهماً، فخرجا حتى قدما دمشق، وكان ابن أثال يتمسى عند معاوية، فجلس له في مسجد دمشق إلى أسطوانة، وجلس غلامه إلى أخرى حتى خرج. فقال خالد لنافع: إياك أن تعرض له أنت، فإني أضربه. ولكن احفظ ظهري واكفني من ورائي. قال: فشأنك فلما حاذاه وثب إليه خالد فقتله. وثار إليه من كان معه فصاح بهم نافع فانفرجوا. ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه، فلما غشوهما حملا عليهم فتفرقوا، حتى دخل خالد ونافع زقاقاً ضيقاً ففاتا الناس. وبلغ معاوية الخبر، فقال: هذا خالد بن المهاجر، انظروا الزقاق الذي دخل فيه». ففتش عليه فأتى به، فقال له: لا جزاك الله من زائر خيراً: قتلت طبيبي؟ «فقال: قتلت المأمور وبقي الآمر». فقال له: «عليك لعنة الله، أما والله لو كان [تشهد] مرة واحدة لقتلتك به. أمعك نافع؟ قال: لا! قال: بلى والله، وما اجترأت إلا به». ثم أمر بطلبه فوجد، فأتى به فضرب مائة سوط، ولم يهج خالداً بشيء أكثر من أن حبسه، والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم؛ أدخل بيت المال منها ستة آلاف وأخذ ستة آلاف، فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذي يأخذه السلطان، وأثبت / ١٧١/ الذي يدخل بيت المال.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي في كتاب «الأمثال»: إن معاوية بن أبي سفيان. كان خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاشتكى عبد الرحمن فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سمّ فأحرقته. فعند ذلك قال معاوية: لا أجد إلاّ ما أفض عنك من تكره.

قال: وقال معاوية أيضاً حين بلغه أن الأشتر سقي شربة عسل فيها سم فمات: «إن لله جنوداً منها العسل».

ونقلت من تاريخ أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال: لما كان في سنة ثمان وثلاثين بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأشتر والياً على مصر، بعد قتل محمد بن أبي بكر، وبلغ معاوية مسيره فدس إلى دهقان بالعريش، فقال: إن قتلت الأشتر فلك خراجك عشرين سنة، فلطف له الدهقان فقال: أي الشراب أحب إليك؟ فقيل: العسل. فقال: عندي عسل من عسل برقة، فسمه وأتى به فشربه فمات. فبلغ ذلك معاوية، فقال: لليدين والفم.

وفي تاريخ الطبري: أن الحسن بن علي رضي الله عنهما مات مسموماً في أيام معاوية، وكان عند معاوية كما قيل دهاء؛ فدس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس،

وكانت زوجة الحسن، شربة وقال لها: إن قتلت الحسن زوجتك يزيد. فلما توفي الحسن، بعثت إلى معاوية تطلب قوله، فقال لها في الجواب: أنا أضن بيزيد.

وقال كثير[١] يرثي الحسن رضي الله عنه: [من السريع]

يا جَعْدَ بكِّيهِ ولا تَسأمي ... بُكاءَ حَقٍّ ليسَ بالباطلِ
لنْ تَستري البيتَ على مثلِهِ ... في الناسِ مِنْ حافٍ ومِنْ ناعلِ[٢]

ومنهم:

[٧]
أبو حكم[٣]

وكان من حذاق الحكماء، وسُبَّاق أهل الطبِّ القدماء، وله في علمه حقائق، وفي فهمه ما ينفد مدد الأعمار، وما ينتهي منه إلى دقائق وله في دمشق بقية ورثوا ما خلَّف من علمه، وخلَّى لبنيه لا يظلم أحدٌ منهم في قسمه.

قال ابن أبي أصيبعة[٤]: كان طبيباً نصرانياً، عالماً بأنواع /١٧٢/ العلاج والأدوية، وله أعمال كثيرة مذكورة وصفات مشهورة. كان يستطبه معاوية بن أبي سفيان، ويعتمد عليه في تركيبات أدويته لأغراض قصدها منه.

وعمر أبو الحكم هذا عمراً طويلاً حتى تجاوز المائة سنة.

قال يوسف بن إبراهيم: وحدثني عيسى بن حكم عن أبيه، أن جده أعلمه أنه كان حُمَّى عبد الملك بن مروان من شرب الماء في علته التي توفي فيها. وأعلمه أنه متى شرب الماء قبل نضج علته توفي. قال: فاحتمى عن الماء يومين وبعض الثالث. قال: فإني عنده لجالس وعنده بناته، إذ دخل عليه الوليد ابنه فسأله عن حاله وهو يتبين في وجه الوليد السرور بموته فأجابه بأن قال: [من الطويل]

ومُستخبرٍ عنَّا يُريدُ بنا الرَّدَى ... ومُستخبراتٍ والدموعُ سَوَاجِمُ

وكان استفتاحه النصف الأول وهو مواجه الوليد، ثم واجه البنات عند قوله النصف الثاني، ثم دعا بالماء فشربه من ساعته[٥].

ومنهم:

---

(١) ديوان كثير ٤٩٣ رقم ١٢٩.
(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧١ـ ١٧٥.
(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٥ـ ١٧٦، أخبار الحكماء ٤٠٤.
(٤) عيون الأنباء ١٧٥.
(٥) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٥ـ ١٧٦.

[٨]
حكم الدمشقي(١)

ممن نمَّى وراثة أبيه، ودمَّى بفضله قلوب حاسديه، وأمسى على من ناواه شديد الشكيم، وأضحى وهو لا يُدعى إلاَّ الحكم الحكيم.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان يلحق بأبيه في معرفته بالمداواة والأعمال الطبية والصفات البديعة. وكان مقيماً بدمشق. وعمر أيضاً عمراً طويلاً.

قال أبو يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسى بن حكم أن والده توفي، وكان عبد الله بن طاهر بدمشق في سنة عشر ومائتين؛ وأن عبد الله سأله عن مبلغ عمر أبيه فأعلمه أنه عمره مائة وخمس سنين، لم يتغير عقله، ولم ينقص علمه. فقال عبد الله: عاش حكم نصف التاريخ.

قال يوسف: وحدثني عيسى أنه ركب مع أبيه حكم بمدينة دمشق، إذ اجتازوا بحانوت حجام وقد وقف عليه بشر كثير، فلما بصر بنا بعض الوقوف قال: أفرجوا هذا /١٧٣/ حكم المتطبب وعيسى ابنه. فأفرج القوم، فإذا رجل قد فصده الحجام في العرق الباسليق، وقد فصده فصداً واسعاً، وكان الباسليق على الشريان، فلم يحسن الحجام تعليق العرق فأصاب الشريان. ولم يكن عند الحجام حيلة في قطع الدم. واستعملنا الحيلة في قطعه بالرفائد، ونسج العنكبوت والوبر، فلم ينقطع بذلك. فسألني والدي عن حيلة، فأعلمته أنه لا حيلة عندي. فدعا بفستقة فشقها وطرح ما فيها، وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد، ثم أخذ حاشية من ثوب كتان غليظ فلف بها موضع الفصد على قشر الفستقة لفاً شديداً، حتى كان يستغيث المفتصد من شدته، ثم شد ذلك بعد اللف شداً شديداً، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى، وأدخل يده في الماء ووطأ له على شاطىء النهر ونومه عليه، وأمر فحسى محات بيض نمرشت، ووكل به تلميذاً من تلامذته، وأمر بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلا عند وقت الصلاة أو يتخوف عليه الموت من شدة البرد. فإن تخوف ذلك أذن له في إخراج يده هنيهة ثم أمره بردها، ففعل ذلك إلى الليل. ثم أمر بحمله إلى منزله ونهاه عن تغطية موضع الفصد، وعن حل الشد قبل استتمام خمسة أيام، ففعل ذلك. إلا أنه صار إليه في

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٦ـ ١٧٧، أخبار الحكماء ١٧٨.

(٢) عيون الأنباء ١٧٦.

اليوم الثالث وقد ورم عضده وذراعه ورماً شديداً، فنفس من الشد شيئاً يسيراً، وقال للرجل: «الورم أسهل من الموت». فلما كان في اليوم الخامس حل الشداد فوجدنا قشر الفستقة ملتصقاً بلحم الرجل. فقال والدي للرجل: «بهذا القشر نجوت من الموت، فإن خلعت هذا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل منك تلفت نفسك». قال عيسى: فسقط القشر في اليوم السابع وبقي في مكانه بدم يابس في حلقة الفستقة. فنهاه والدي عن العبث به، أو حك ما حوله، أو حت شيء من ذلك الدم. فلم يزل الدم يتحات / ١٧٤/ حتى انكشف موضع الفصد في أكثر من أربعين ليلة وبرىء الرجل[١].

ومنهم:

[٩]

عيسى بن حكم الدمشقي، المعروف بالمسيح[٢]

عُرف بهذا لما ظهرت من الآثار المسيحية على يديه العيسوية، ونقلت العجائب إلاَّ أنها غير النبوية، وكان من فضلاء الأطباء، ونبلاء ذوي الأنباء.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: وهو صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به وينسب إليه.

قال يوسف بن إبراهيم: وحدثني عيسى بن حكم أنه عرض لغضيض أم ولد الرشيد قولنج فأحضرته وأحضرت الأبح والطبري الحاسبين، وسألت عيسى مما يرى معالجتها به. قال عيسى: فأعلمتها أن القولنج قد استحكم بها استحكاماً إن لم تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف. فقالت للأبح والطبري: اختارا لي وقتاً أتعالج فيه. فقال لها الأبح: علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج إلى وقت يحمده المنجمون، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعملي عملاً؛ وكذلك يرى عيسى بن حكم. فسألتني، فأعلمتها أن الأبح قد صدقها. فسألت الطبري عن رأيه فقال: القمر اليوم مع زحل، وهو في غد مع المشتري، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج إلى مقارنة القمر المشتري. فقال الأبح: أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري وقد عمل القولنج عملاً لا يحتاج معه إلى علاج. فتطيرت من ذلك غضيض وابنتها أم محمد وأمرتا بإخراجه من الدار وقبلت قول الطبري. فماتت غضيض قبل موافاة القمر المشتري. فلما

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٦ـ ١٧٧.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٧ـ ١٧٨، أخبار الحكماء ٤٠٤.

(٣) عيون الأنباء ١٧٧.

وافى القمر المشتري قال الأبح لأم محمد: هذا وقت اختيار الطبري للعلاج فأين العليل حتى نعالجه؟ فزادتها رسالته غيظاً عليه ولم تزل سيئة الرأي فيه حتى توفيت.

قال يوسف: نزلت على عيسى بن حكم في منزله بدمشق سنة خمس وعشرين ومائتين؛ وبي نزلة صعبة، فكان يغذوني بأغذية طيبة ويسقيني الثلج فكنت أنكر ذلك، وأعلمه أن تلك الأغذية مضرة /١٧٥/ بالنزلة. فيعتل علي بالهواء ويقول: «أنا أعلم بهواء بلدي منك وهذه الأشياء مضرة بالعراق نافعة بدمشق». فكنت أغتذى بما يغذوني به. فلما خرجت عن البلد خرج مشيعاً لي حتى صرنا إلى الموضع المعروف بالراهب، وهو الموضع الذي فارقني فيه، قال: قد أعددت لك طعاماً يُحمل معك يخالف الأطعمة التي كنت تأكلها. وأنا آمرك أن لا تشرب ماء بارداً، ولا تأكل من مثل الأغذية التي كنت تأكلها في منزلي شيئاً. فلمته على ما كان يغذوني به فقال: إنه لا يحسن بالعاقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله. قال يوسف: وتجاريت وعيسى يوماً بدمشق ذكر البصل، فأفرط في ذمه ووصف معايبه. وكان عيسى وسلمويه بن بيان يسلكان طريق الرهبان، ولا يحمدان شيئاً مما يزيد في الباه، ويذكران أن ذلك مما يتلف الأبدان ويذهب بالأنفس. فلم أستجز الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباه. فقلت له: قد رأيت له في سفري هذا، أعني فيما بين سر من رأى ودمشق، منفعة. فسأل عنها، فأعلمته أني كنت أذوق الماء في بعض المناهل فأصيبه مالحاً فآكل البصل النيء ثم أعاود شرب الماء فأجد ملوحته قد نقصت. وكان عيسى قليل الضحك فاستضحك من قولي، ثم رجع إلى إظهار جزع منه، ثم قال: يعز علي أن يغلط مثلك هذا الغلط؛ لأنك صرت إلى أسمج نكتة في البصل وأعيب عيب فيه فجعلتها مدحاً. ثم قال: أليس متى حدث في الدماغ فساد فسدت الحواس، حتى ينقص حس الشم والذوق والسمع والبصر. فأعلمته أن الأمر كذلك. فقال لي: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، فإنما قلل حسك بملوحة الماء ما أحدث البصل في دماغك من الفساد.

قال يوسف: وقال لي عيسى وقد شيعني إلى الراهب، وهو آخر كلام دار بيني وبينه: إن والدي توفي وهو ابن مائة سنة وخمس سنين لم يتشنج له وجه، ولم ينقص من ماء وجهه /١٧٦/ لأشياء كان يفعلها وأنا الآن مزودكها فاعمل بها؛ وهي: أن لا تذوق القديد، ولا تغتسل يديك ورجليك عند خروجك من الحمام أبداً بماء بارد أبرد ما يمكنك، والزم ذلك، فإنه ينفعك. فلزمت ما أمرني به[١].

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٧ ـ ١٧٨.

[١٠]

بياذوق[1]

حكيمٌ ماهرٌ، وعليمٌ علمه ماهر، وحميم لا تبل به عين صديق، ولا يُعل تحلقه السلسل إلاَّ صفو رحيق، ولم يزل يقمع سلطان المرض علاجه، ويمنع وجهه النّدي مناظراً يثور عجاجه.

قال ابن أبي أصيبعة[2]: كان طبيباً فاضلاً، وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب. وعمر، وكان في أول دولة بني أمية ومشهوراً عندهم بالطب. وصحب أيضاً الحجاج بن يوسف الثقفي، المتولي من جهة عبد الملك بن مروان، وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد عليه، ويثق بمداواته، وكان له الجامكية الوافرة والافتقاد الكثير.

ومن كلام بياذوق للحجاج قال: لا تنكح إلا شابة؛ ولا تأكل من اللحم إلا فتياً نضيجاً؛ ولا تشرب الدواء إلا من علة؛ ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها. وأجد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهاراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة. فقال له بعض من حضر: إذا كان الأمر كما تقول فلم هلك بقراط؟ ولم هلك جالينوس وغيرهما، ولم أر واحداً منهم فعل ذلك؟ قال: يا بني قد احتججت فاسمع! إن القوم دبّروا أنفسهم بما يملكون وغلبهم ما لا يملكون ـ يعني الموت ـ وما يرد من خارج كالحر والبرد والوقوع والغرق والجراح والغم وما أشبه ذلك.

وأوصى بياذوق أيضاً الحجاج فقال: لا تأكلن حتى تجوع. ولا تتكارهنَّ على الجماع. ولا تحبس البول. وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك.

وقال أيضاً للحجاج: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة؛ والمجامعة على الامتلاء؛ وأكل القديد الجاف؛ وشرب الماء /١٧٧/ البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن.

ووجد الحجاج في رأسه صداعاً فبعث إلى بياذوق وأحضره فقال: غسل رجليك بماء حار، وادهنهما، وخصي للحجاج قائم على رأسه، فقال: والله ما رأيت طبيباً أقل

---

(١) توفي نحو سنة ٩٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٩ـ ١٨١، أخبار الحكماء ١٠٥، وفيهما اسمه «تياذوق»، البداية والنهاية ٩/ ٨١ وفيه «يتاذوق»، الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٤٩ـ٤٥٠ رقم ٤٩٣٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٨١ ـ ١٠٠هـ) ص٤٧ رقم ١١.

(٢) عيون الأنباء ١٧٩.

معرفة بالطب منك! شكا الأمير الصداع في رأسه، فتصف له دواء برجليه! فقال له: أما إن علامة ما قلت فيك بينة، قال الخصي: وما هي؟ قال: نُزعت خصيتاك، فذهب شعر لحيتك. فضحك الحجاج ومن حضر.

وشكا الحجاج ضعفاً في معدته وقصوراً في الهضم إلى بياذوق فقال: يكون الأمير يحضر بين يديه الفستق الأحمر القشر البراني ويكسر ويأكل من لبه، فإن ذلك يقوي المعدة. فلما أمسى الحجاج بعث إلى حظاياه وقال: إن بياذوق وصف لي الفستق. فبعثت إليه كل واحدة منهم صينية فيها قلوب فستق، فأكل من ذلك حتى امتلأ. وأصابته بعقبه هيضة كادت تأتي على نفسه. فشكا حاله إلى بياذوق، وقال: وصفت لي شيئاً أضر بي، وذكر له ما تناول، فقال له: إنما قلت لك أن تحضر عندك الفستق بقشره البراني، فتكسر الواحدة بعد الواحدة، وتلوك قشرها البراني وفيه العطرية والقبض، فيكون بذلك تقوية المعدة. وأنت فقد عملت غير ما قلت لك. وداواه مما عرض له.

وقيل: ومن أخباره مع الحجاج، أنه دخل عليه يوماً فقال له الحجاج: أي شيء دواء أكل الطين؟ فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير، فرمى الحجاج بالطين من يده ولم يعد إليه أبداً.

وقيل: إن بعض الملوك لما رآى بياذوق وقد شاخ وكبر سنه، وخشي أن يموت ولا يعتاض عنه؛ لأنه كان أعلم الناس، وأحذق الأمة في وقته بالطب. فقال له: صف لي ما أعتمد عليه فأسوس به نفسي، وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن أن يحدث عليك الموت، ولا أجد مثلك؛ فقال بياذوق: أيها الملك بالخيرات، أقول لك عشرة أبواب إن عملت بها، واجتنبتها لم تعتل مدة /١٧٨/ حياتك، وهذه عشر كلمات:

لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام، ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه؛ ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين؛ فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء على الطعام؛ وعليك بدخول الحمام في كل يومين مرة واحدة؛ فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء؛ وأكثر الدم في بدنك تحرس به نفسك؛ وعليك في كل فصل قيئة ومسهلة؛ ولا تحبس البول وإن كنت راكباً؛ واعرض نفسك على الخلاء قبل نومك؛ ولا تكثر الجماع؛ فإنه يقتبس من نار الحياة فلتكثر أو تقل؛ ولا تجامع العجوز فإنه يورث الموت فجأة.

فلما سمع الملك ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر، ويضعه في صندوق من ذهب مرصع، وبقي ينظر إليه في كل يوم ويعمل به، فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت الذي لا بد منه ولا محيص عنه.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب قال: قال الحجاج لابنه: يا بني إن بياذوق الطبيب كان قد أوصاني في تدبير الصحة بوصية كنت أستعملها، فلم أر إلا خيراً. ولما حضرته الوفاة دخلت عليه أعوده، فقال: الزم ما كنت أوصيتك به وما نسيت منها فلا تنس: لا تشربن دواء حتى تحتاج إليه، ولا تأكلن طعاماً وفي جوفك طعام، وإذا أكلت فامش أربعين خطوة. وإذا امتلأت من الطعام فنم على جنبك الأيسر. ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية، ولا تأكلن من اللحم إلا فتياً، ولا تنكحن عجوزاً، وعليك بالسواك. ولا تتبعن اللحم اللحم. فإن إدخال اللحم على اللحم يقتل الأسود في الفلوات.

وقال أيضاً إبراهيم بن القاسم الكاتب من كتاب «أخبار الحجاج»: إن الحجاج لما قتل سعيد بن جبير رحمه الله، وكان من خيار التابعين، جرى بينهما كلام كثير، وأمر به فذبح بين يديه، وخرج منه دم كثير استكثره وهاله. فقال الحجاج لبياذوق طبيبه: ما هذا؟ /١٧٩/ قال: لاجتماع نفسه، وأنه لم يجزع من الموت، ولا هاب ما فعلته به. وغيره تقتله وهو مفترق النفس، يقل دمه لذلك.

ومات بياذوق بعدما أسن وكبر، وكانت وفاته بواسط في نحو سنة تسعين للهجرة.

ومنهم:

[١١]

زينب طبيبة بني أود(١)

وكانت طبَّةً عارفة لا كما زعم ابن أبي أصيبعة، عالمة حليمة لا كما قال ابن سناء الملك في موشحته البديعة. متعت بالعلم فلم تحسّ فوتاً، ونفعت بطبِّها الأحياء، وكادت تنعش الموتى، ما عرفها إلاَّ من شكر، ولا أنصفها من قاسها من الحكماء برجل، ولا الصارم الذكر.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات، مشهورة بين العرب بذلك.

قال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني الكبير» أخبرنا كناسة عن أبيه عن جده قال: أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني، فكحلتني، ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يذوب الدواء في عينيك، فاضطجعت، ثم تمثلت قول الشاعر: [من الطويل]

---

(١) ترجمتها في: عيون الأنباء ١٨١. (٢) عيون الأنباء ١٨١.

أَمُـخْـتَـرِمـي رَيـبُ الـمَـنـونِ ولـمْ أَزُرْ   طـبـيـبَ بـنـي أَودٍ عـلـى الـنـأيِ زَيـنـبـا

فضحكت ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا! قالت: في والله. أنا زينب التي عناها، وأنا طبيبة بني أود. أفتدري من الشاعر؟ قلت: لا! قالت: عمّك أبو سماك الأسدي[1].

* * *

أطباء السُّريان الكائنين في ابتداء الدولة العباسية

منهم:

[١٢]

جرجس بن جبريل[2]

طبيب طالما أصلح بين الصحة والمزاج، وأصبح وعليله لا يحتاج إلى العلاج، رزق من أبي جعفر المنصور إقبالاً على تجهُّمه، وصادف علاجه منه قبولاً على توهمه، وحظي منه بحظوة على قلة من حظي لديه بطائل، وحُبي منه الجزيل على بخله بالنائل، وحُمي من نزغات غضبه، وما/ ١٨٠/ قال هذا عنه سواه قائل.

قال ابن أبي أصيبعة[3]: كانت له خبرة بصناعة الطب، ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج، وخدم المنصور، وكان حظياً عنده، ونال من جهته أموالاً جزيلة، ونقل له كثيراً من كتب اليونان إلى العربي.

قال فينون الترجمان: كان المنصور قد فسدت معدته وانقطعت شهوته، وبقي كلما عولج ازداد مرضاً، فتقدم إلى الربيع بأن يجمع الأطباء لمشاورتهم، فجمعهم، فسألهم عن طبيب ماهر، فقالوا: ليس أحد مثل جرجس رئيس أطباء جنديسابور، فأنفذ لإحضاره فاستمهله، فاعتقله، فأتاه المطران ورؤساء المدينة وأشاروا عليه بالخروج بعد أن أوصى ابنه بختيشوع بأمر البيمارستان وسائر أموره، فلما أتى حضرة المنصور أجلسه وسأله عن أشياء، أجابه عنها بسكون، فقال له: قد ظفرت منك بما كنت أحبه، وخلع عليه وأمر له بمنزل ونفقة، وحدثه بعلته ثم نظر إلى قارورة الماء، وأشار عليه بتخفيف

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ١٨٣-١٨٦، أخبار الحكماء ١٥٩.

(٣) عيون الأنباء ١٨٣.

الغذاء، ولاطفه حتى عوفي ثم لما دانى أجله مرض مرضاً ثقيلاً وأمر به المنصور، فحمل إليه حتى رآه، وعرض عليه الإسلام فأبى، وسأل أن يحمل إلى بلده ليدفن عند آبائه، فأعطاه عشرة آلاف دينار، ورده بعد أن استخلف لديه تلميذه عيسى بن سهل، فأساء السيرة، وبسط يده في المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه حتى أنه كتب إلى مطران نصيبين يلتمس منه من آلات البيعة أشياء جليلة المقدار، وقال في كتابه إلى المطران: ألست تعلم أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته،

فتلطف المطران في الصلة بالربيع، وأقرأه كتاب عيسى بن سهل، فأعلم الربيع المنصور به، فسلبه ما كان حصله ثم أمر بنفيه، وكتب إن كان جرجس حياً يحضر، وإن كان قد مات يحضر ابنه، فصادف جرجس وقد وقع من السطح، وضعف ضعفاً عظيماً، فقيل له، فأبى أن يجهز إلاَّ إبراهيم تلميذه، / ١٨١/ فلما أتى المنصور استخلصه، ولم يزل معه حتى مات المنصور(١).

ومنهم:

[١٣]
بختيشوع بن جرجس(٢)

كان لا يكفِّفُ له ألمعيَّة، ولا تلوذ بعيٍّ لَهُ لوذعية، ولا تزال إليه نهاره مبصرة، وسحائب مدده معصرة، ودنا من الخلفاء بحيث لا ترفع الستور، ولا ترتع اللحظات في غابة الليث الهصور، ورأس على أقرانه، وانبجس نهراً لا يضرب الليل دونه بجرانه،

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٣ـ ١٨٦.

(٢) بَخْتَيشُوع بن جرجس: طبيب، سرياني الأصل مستعرب. اشتهر وتقدم عند الخلفاء العباسيين. وهو جد بختيشوع المتقدم ذكره. وهما من بيت علم وفلسفة. خدم هارون الرشيد وتميز في أيامه. له «كناش» مختصر صنفه لابنه جبرئيل. توفي نحو سنة ١٨٤هـ/ نحو سنة ٨٠٠م.

ترجمته في: عيون الأنباء ١٨٦ـ ١٨٧، طبقات الأمم ٣٦، طبقات الأطباء ٦٣، الفهرست لابن النديم ٢٩٦، وثمار القلوب للثعالبي ٤٠٦ رقم ٦٤٦ ص٦٧٢ رقم ١١٥٤، وتاريخ الحكماء للقفطي ١٠٠ تحقيق جوليوس ليبرت، ليبسيك ١٩٠٣، والعقد الفريد ١/ ٨٥ـ ٨٦، وتاريخ الزمان ١٧ـ ١٨، وتاريخ مختصر الدول ١٣٠ـ ١٣١، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ١٢٥، والوافي بالوفيات ١٠/ ٨٩ رقم ٤٥٣٣، وزهر الآداب للحصري ١/ ٢٣٢ طبعة الأزهرية، المحاسن والمساوىء للبيهقي ٥٨٩، الأعلام ٢/ ٤٤، تاريخ الإسلام (السنوات ١٨١ـ١٩٠هـ) ص٨٢ رقم ٢٧.

وناظر الكبراء ونافر حتى الأمراء، وسار إماماً في الأطباء، ولولاه لما ركبوا وراء.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان يلحق بأبيه في معرفته بالطب، وخدم الرشيد، وتميز في أيامه.

قال فينون الترجمان: لما مرض الرشيد أحضر بختيشوع من جنديسابور، وأحضر الأطباء لمناظرته، فقال أبو قريش، وكان رأس الأطباء ببغداد: يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا؛ لأنه هو وأبوه، وأهل جنسه فلاسفة، فقال الرشيد لبعض الخدم: أحضر له ماء دابة ليختبره، فأتاه به، فقال: ليس هذا بول إنسان، فقال له أبو قريش: كذبت هذا بول حظية الخليفة، فقال له بختيشوع: أيها الشيخ الكريم إنه لم يبل هذا إنسان البتة، وإن كان على ما قلت، فلعلها قد صارت بهيمة، فقال له الرشيد: من أين علمت هذا، قال: لأنه ليس في قوام بول الإنسان ولا لونه ولا ريحه، فقال له: فما ترى أن يطعم صاحب هذا الماء، قال: الشعير، فضحك الرشيد ضحكاً شديداً، وخلع عليه ووهبه مالاً وافراً، وقال: ليكن رئيس الأطباء، ومروهم فليسمعوا له ويطيعوا[2].

ومنهم:

[١٤]

جبريل بن بختيشوع[3]

يُجَلّ أن يقاس بالألفاء، وأن يقال اسمه إلاَّ مع الخلفاء. عظم ثراؤه، وعَمَّ جداهُ أن يماثل به أرسطو ونظراؤه، وخلف ما يتجاوز الحدَّ، ويداني العدَّ، مع نفقاته

=

وبختيشوع ثلاثة أطباء نصارى هم: بختيشوع بن جرجس، وبختيشوع بن جبريل، وبختيشوع بن يوحنا. و«بختيشوع» لفظ سرياني معناه عبد المسيح.

(١) عيون الأنباء ١٨٦.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٦ـ ١٨٧.

(٣) جَبْرَئِيل بن يَخْتيشوع بن جرجس: طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله. يقال إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبرئيل فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، فلما ولي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعاده إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م ودفن في دير «مار جرجس» بالمدائن. من تصانيفه «المدخل إلى صناعة المنطق» و«كناش» جمع فيه خلاصات ومجربات في الطب. وله رسالة في «المطعم والمشرب» وكتاب في «صنعة البخور» ألفهما للمأمون.

=

الموسعة، وصدقاته التي رفلت الأيام في / ١٨٢/ حللها الموشعة حتى شرقت دونه النفوس بحسراتها، واختنقت القلوب بزفراتها حتى كانت الخلفاء تركب إلى منزله، وترغب في إكرام نزله، وهو بشمم لا يخضع عرنينه، ولا يخشع أنينه، ولا يطلع زهر الروض الجنى إلاَّ جنينه.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان مشهوراً بالفضل، جيد التصرف في المداواة، عالي الهمة، سعيد الجد، حظياً عند الخلفاء. وحصل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله أحد من الأطباء.

قال الترجمان: إن أباه أفرده لجعفر بن يحيى، وكان قد اعتل فعالجه فبرىء في ثلاثة أيام، فأحبه جعفر مثل حب نفسه، وكان لا يصبر عنه، ثم تمطّت حظية الرشيد ثم لم تقدر ترد يدها، ولم يفد فيها طب الأطباء، فدل جعفر الرشيد على ابن بختيشوع، فأحضره وقال له: ما تعرف من الطب؟ فقال: أبرد الحار وأسخن البارد، وارطب اليابس، وأيبس الرطب، فضحك وقال: هذا، غاية ما يحتاج إليه فنبأه نبأ الجارية، فقال جبريل: لها عندي حيلة إن لم يسخط علي أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: تأمر بالجارية إلى ههنا بحضرة الجمع؛ لأعمل ما تراه وتمهل علي؛ ولا تعجل بالسخط. فأمر بها فأخرجت. فحين رآها جبريل مشى إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها كأنه يريد حلها سراويلها، فانزعجت الجارية، فاسترسلت أعضاؤها، وبسطت يدها إلى أسفل، وأمسكت ذيلها. فقال جبريل: قد برئت يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد للجارية: ابسطي يدك يمنة ويسرة ففعلت. فعجب الرشيد ومن حضروا. وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وعظمت منزلته عنده، وجعله رئيساً على سائر الأطباء. وسئل عن سبب العلة، فقال: هذه الجارية انصب إلى أعضائها وقت الحركة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة، ولأجل سكون حركة الجماع بغتة جَمُدت الفضلة في بطون الأعصاب، وما كان يحللها إلاَّ حركة مثلها. فأحببت إلى أن انبسطت حرارتها وانحلت الفضلة.

/ ١٨٣/ ولم يزل يزداد مكانة من الرشيد إلى أن مرض الرشيد بطوس مرض موته حبسه واستطب أسقف فارس، فقال له: مرضك كان من خطأ طبيبك كذباً عليه، فأمر

= **ترجمته في**: طبقات الأطباء ١/ ١٢٧ـ ١٣٨، تاريخ الحكماء ١٣٢ـ ١٤٦، عيون الأنباء ١٨٧ـ ٢٠١، موسوعة علماء الطب لنعمة الله ص١٢، علماء النصرانية في الإسلام لشيخو ١٢٧ـ ١٢٨، معجم المؤلفين ٣/ ١١٣، الأعلام ٢/ ١١١.

(١) عيون الأنباء ١٨٧.

الرشيد بقتل جبريل، فلم يقبل منه الفضل بن الربيع، لأنه كان يئس من حياته، وأصاب تلك الأيام الفضل قولنج شديد فكان جبريل يعالجه فأفاق ثم لما صار الأمر إلى الأمين زاد تقريبه وضاعف مواهبه وكان لا يأكل ولا يشرب إلاَّ بإذنه، ثم لما ملك المأمون كتب إلى الحسن بن سهل بأن يقبض عليه لكونه بعد الرشيد أتى الأمين ببغداد، ولم يأته بخراسان، فحبسه ابن سهل، ثم مرض ابن سهل فعالجه الأطباء، فلم ينتفع بذلك، فأخرج جبريل من الحبس، فعالجه في أيام يسيرة، فبرىء فوهب له مالاً وافراً، وتلطف له مع المأمون فصفح عنه، واتخذ ميخائيل صهر جبريل بدلاً منه، وأكرمه كياداً لجبريل، فمرض المأمون مرضاً صعباً أعيا الأطباء علاجه، فقال أبو عيسى بن الرشيد للمأمون: يا أمير المؤمنين أحضر جبريل فإنه يعرف أمزجتنا منذ الصبا، فتغافل عنه، واحضر يوحنا بن ماسويه، فلما ضعفت قوة المأمون ذكر جبريل فأمر بإحضاره، فلما حضر غير تدبيره كله، فانصلح بعد يوم، واستقل بعد ثلاثة أيام، ثم بعد أيام يسيرة صلح صلاحاً تاماً، فسر به المأمون، وأمر له بألف ألف درهم، وألف كر حنطة، ورد عليه ما كان قبض له، وصار إذا خاطبه يكنه، ثم انتهى إلى أن كان لا يخرج عامل إلى عمله إلاَّ بعد أن يلقى جبريل ويكرمه، وعلا محله وانحط من سواه.

وقال إسحاق بن علي الرهاوي إن يوحنا بن ماسويه أخبر أن الرشيد قال لجبريل بن بختيشوع وهو حاج بمكة: يا جبريل أعلمت أني دعوت لك والله في الموقف دعاء كثيراً، ثم التفت إلى بني هاشم فقال: هل أنكرتم قولي؟ فقالوا: ذمي هو، فقال: نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بصلاحي، فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وقال: قال ابن بختيشوع: اشتريت /١٨٤/ ضيعة بسبعمائة ألف درهم، فنقدت بعض الثمن، وتعذر علي بعضه، فدخلت على يحيى بن خالد وعنده ولده، وأنا مفكر. فقال: أراك مفكراً؟ فأخبرته، فدعا بالدواة وكتب: يعطى جبريل سبعمائة ألف درهم. ثم دفع إلى كل واحد من ولده، فوقع ستمائة ألف درهم قال: فقلت؛ جعلت فداك، قد أديت عامة الثمن، وإنما بقي أقله. قال: اصرف ذلك فيما ينوبك، ثم صرت إلى دار الرشيد. فلما رآني قال: ما أبطأ بك؟ فقلت: كنت يا أمير المؤمنين، عند أبيك وإخوتك، ففعلوا بي كذا وكذا، لخدمتي لك. قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يحيى، ثم قال: يا أبه أخبرني جبريل بما كان، فما كان حالي أنا من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مر بما شئت يحمل إليه. فأمر لي بخمسمائة ألف.

وحكى سعيد بن إسحاق النصراني، قال: قال لي جبريل بن بختيشوع: كنت مع

الرشيد بالرقة ومعه ولداه، المأمون ومحمد الأمين، وكان رجلاً كثير الأكل والشراب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، وأخرج فقوي عليه الغشي حتى لم يشك في موته. وأرسل إلي، فحضرت وجسست عرقه فوجدت نبضاً خفياً، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء وحركة الدم، فقلت: لهم: يموت، إن لم يحجم الساعة. فأجاب المأمون إليه وتقدم الحجام، وتقدمت بإقعاده، فلما وضع المحاجم عليه ومصها، رأيت الموضع قد احمر، فطابت نفسي، وعلمت أنه حي. فقلت للحجام: اشرط. فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله. وجعل كلما خرج الدم يحرك رأسه؛ ويسفُر لونه، إلى أن تكلم. وقال: أين أنا؟ فطيبنا نفسه وغدَّيناه بصدر درّاج، وسقيناه شراباً، وما زلنا نشمه الأرابيج الطيبة، ونجعل في أنفه الطيب، حتى تراجعت قوته، وأدخل الناس عليه، ثم وهب الله له عافيته، فلما كان بعد أيام دعا صاحب حرسه، فسأل عن غلته في السنة فقال ثلثمائة ألف درهم فسأل صاحب شرطته فقال خمسمائة ألف درهم. وسأل حاجبه فقال: ألف ألف درهم / ١٨٥/ . فقال لي: ما أنصفناك حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني من الناس على ما ذكروا، وأنت تحرسني من الأمراض، وتكون غلتك دونهم، ثم أمر بإقطاعي غلة ألف ألف درهم. فقلت: يا سيدي، مالي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما اشتري لي به ضياعاً ففعل ذلك، فابتعت بهباته ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ضياعي أملاك لي لا أقطاع.

والذي صار إليه في أيام خدمته للخلفاء وهي نحو ثلاثين سنة جملٌ كثيرة. وجدته مدرجاً بخط كاتبه وفيه إصلاحات بخطه، فأما ما صرفه منه في مدة حياته في نفقاته تقريباً فهو سبعة وعشرون ألف ألف، درهم وستمائة ألف درهم، وفي ثمن دور وبساتين ومنتزهات ورقيق ودواب سبعون ألف ألف درهم، وفي عمائر ثمانية آلاف ألف درهم، وفي ثمن ضياع اثنا عشر ألف ألف درهم، وفي ثمن جواهر وما أعدَّه للذخائر خمسمائة ألف دينار، وخمسون ألف ألف درهم، وفي وجوه القرب وما كفله عن المصادرين ثلاثة آلاف ألف درهم، وما جحده أرباب الودائع له ثلاثة آلاف ألف درهم، ثم الذي خلفه بعد هذا عند وفاته لابنه بختيشوع، وجعل المأمون الوصي فيه فسلمه إليه عن آخره، ولم يتعرض إلى شيء منه، فتسعمائة ألف دينار.

وهذا جبريل هو الذي عناه أبو نواس[1] في قوله: [من مجزوء الرافر]

سـألـتَ أخـي أبـا عـيـسـى وجـبـريـلٌ لـهُ عَـقْـلُ

(١) ديوان أبي نواس ص٦٠.

فقلتُ الراحُ تُعجبني ... فقالَ: كثيرها قَتْلُ
فقلتُ لهُ: فَقَدِّرْ لي ... فقالَ وقولُهُ فَصْلُ:
وجدتُ طبائعَ الإنسا ... ن أربعةً هي الأَصْلُ
فأربعةٌ لأربعةٍ ... لكلِّ طبيعةٍ رَطْلُ

وذكر أبو الفرج الأصفهاني للمأمون شعراً قاله في جبريل وهو: [من الهزج]

/١٨٦/ألا قلْ للذي ليسَ ... على الإسلام والمِلَّه
لجبريلَ أَبي عيسى ... أخي الأنذالِ والسَّفله
أَفي طِبِّكَ يا جبري ... لُ ما يَشْفي مِنَ الغُلَّه
غَزالٌ قدْ سَبَى عَقْلي ... بلا جُرمٍ ولا زَلَّه

قال: والغناء فيه لتيم «خفيف الرمل».

ومن كلام جبريل: أربعة تهدم العمر: إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام. والشرب على الريق. ونكاح العجوز. والتمتع في الحمام[1].

ومنهم:

[١٥]

بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع[2]

عادى الكبار، وعادل البحار، وعادَّ النجوم في الأقطار، وأناف رُتبةً على أبيه، وكانت تُزاحم الأطواد، وتُزاح بها أعذار حساده ابن الزيات وابن أبي دؤاد، فلهذا قُصِد

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٧ـ ٢٠١.

(٢) بَخْتَيْشُوع بن جبرئيل بن بختيشوع ابن جرجس: طبيب سرياني الأصل مستعرب. قربه الخلفاء العباسيون ولا سيما المتوكل العباسي، فعلت مكانته وأثرى حتى كان يضاهي المتوكل في الفرش واللباس. خدم الواثق والمتوكل والمستعين والمهتدي والمعتز. وصنف كتاباً في «الحجامة» على طريقة السؤال والجواب. مات ببغداد سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م.
ترجمته في: تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٧ و٩/ ٢١١ و٢١٨ و٤٣٩، ومروج الذهب ١٣٦٨، ٢٧٨١، ٢٨٥٧، ٣٣١٠، وثمار القلوب ٤٠٦، ٦٧٢، والعقد الفريد ١/ ٨٥ـ ٨٦ و٦/ ٢٤٥، وعيون الأخبار ١/ ٣٠٩ و٢/ ١٠٣ و٤/ ٩٤، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ٧٢ـ ٧٣، وتاريخ الزمان ٣٩ـ ٤٠، ٤٣، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٣١، ١٤٣ـ ١٤٤، والفخري ٢٠٨، ٢١٠، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١/ ٢٠١ـ٢٠٩، والفهرست لابن النديم ١/ ٢٩٦، ومعجم المؤلفين ٢/ ٣٩، وديوان الإسلام للغزي ١/ ٢٠٧ رقم ١٤، وهدية العارفين ١/ ٢٣١، والأعلام ٢/ ٤٤، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١ـ٢٦٠هـ) ص٩١ رقم ١٢٢.

مرات بالغوائل، وأرصد تارات لعلق الحبائل، فلو لم تتذكر له سوابق المساعي، ويتدارك بالدرياق به سَمُّ الأفاعي، لما امتدَّ به طلق نفسه ولا نفس عنه حلق حبسه، ثم صلح حاله، وقوي محالة، ونطق في مجالس الخلفاء لسانه، وصدق إحسانه، واستعاد أيامه الأول أتراباً، وأيامه الحسان وطالما هزته إطراباً.

ذكره ابن أبي أصيبعة[1]، وقال فيه: كان سريانياً نبيل القدر. وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال، ما لم يبلغه أحد من سائر الناس الذين كانوا في عصره، وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش.

وقال الترجمان: وكان ابن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات يعاديانه ويغريان به الواثق. فسخط عليه، وقبض على أمواله وضياعه، ونفاه إلى جندي سابور، فلما اعتل الواثق بالاستسقاء، بعث لإحضاره، ثم عاجل الواثق الموت قبل وصوله. ثم صلحت أيام المتوكل حاله إلى أن بلغ مبلغاً حسده عليه المتوكل، وقبض عليه.

قال: إن بختيشوع /١٨٧/ كان عظيم المنزلة عند المتوكل فأفرط في الإدلال عليه، فنكبه وقبض على أملاكه ونفاه إلى مدينة السلام. ثم عرض للمتوكل قولنج، فاستحضره واعتذر إليه، وعالجه فبرأ، فأنعم عليه ورضي عنه، وأعاد عليه ما كان له.

ثم جرت على بختيشوع مكيدة أخرى، فنكبه ووجه به إلى البصرة، ثم رده المستعين إلى وظيفة الخدمة، وأحسن إليه إحساناً كثيراً، فلما ولي المهتدي جرى مجرى المتوكل في أنسه بالأطباء، وكان بختيشوع لطيف المحل منه، وشكا إليه بختيشوع ما أخذ منه أيام المتوكل، فأمر بأن يدخل الخزائن، فكلما عرفهُ ردَّ إليه، فلم يبق له شيء إلاَّ أخذه وأطلق له كلما فاته وكتب برعاية أسبابه.

وقال بختيشوع للمهتدي في آخر أمره: يا أمير المؤمنين لي أربعون سنة لم افتصد ولا شربت دواء، وقد حكم المنجمون بأني أموت في هذه السنة، ولست أغتم لموتي، وإنما أغتم لمفارقتكم، فكلمه المهتدي بجميل وقال: قلَّ أن يصدق المنجم، فلما انصرف كان آخر العهد به.

قال الحصري: تنازع إبراهيم بن المهدي وبختيشوع بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في عقار بالسواد، فأغلظ عليه إبراهيم، فغضب أحمد بن أبي داؤد وقال: يا إبراهيم، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا أمراً، فليكن قصدك أمماً، وطريقك نهجاً،

---

(١) عيون الأنباء ٢٠١.

وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، ووف مجالس الخلافة حقوقها. فإن هذا أليق بك، وأجمل بحسن مذهبك وشريف محتدك، ولا تعجلن، فرب عجلة تورث ريثاً، والله يعصمك من الزلل، وخطل القول، والعمل، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم حكيم. فقال إبراهيم: أمرت، أصلحك الله بسداد، وحضضت على الرشاد، ولست بعائد إلى ما يثلم قدري عندك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار؛ فها أنا معتذر إليك من هذه البادرة، اعتذار مقر بذنبه لأن الغضب لا يزال يستفزني بمراده، فيردني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله / ١٨٨/ عندك وعندنا فيك. وقد جعلت حظي من هذا العقار لبختيشوع، وليت ذلك يفي بأرش الجناية عليه، ولن يتلف مال أفاد موعظة.

قال أبو محمد بدر بن أبي الأصبغ الكاتب: حدثني جدي، قال: دخلت على بختيشوع في يوم شديد الحر، وهو جالس في مجلس مخيّش بعدة طاقات من الخيش طاقان ريح بينهما طاق أسود وفي وسطها قبة عليها جلال من قصب مُظهَّر بدبيقي قد صبغ بماء الورد والكافور والصندل. وعليه جبة يماني سعيدي مثقلة، ومطرف قد التحف به، فعجبت من زيه. فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد أمر عظيم، فضحك وأمر لي بجبة ومطرف وقال: يا غلام، اكشف جوانب القبة، فكشف فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج، فيخرج منه البرد الذي لحقني. ثم دعا بطعامه فأتي بمائدة في غاية الحسن عليها كل شيء حسن ظريف. ثم أتى بفراريج مشوية في غاية الحمرة، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت وقال: هذه فراريج تعلف اللوز والبزر قطونا، وتسقى ماء الرمان. ولما كان في صلب الشتاء دخلت إليه يوماً والبرد شديد، وعليه جبة محشوة وكساء، وهو جالس في طارمة في الدار على بستان في غاية الحسن، وعليها سمور قد ظهرت به، وفوقه جلال حرير مصبغ، ولبود مغربية وانطاع أدم يمانية. وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق، وخادم يوقد العود الهندي، وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطارمة وجدت من الحر أمراً عظيماً، فضحك وأمر لي بغلالة قصب، وتقدم بكشف جوانب الطارمة، فإذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد، وكوانين فيها فحم الغضا، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما يكون للحدادين. ثم دعا بطعامه فاحضروا ما جرت به العادة في السرو والنظافة، واحضرت فراريج بيض شديدة البياض فبشعتها، وخفت أن تكون غير نضيجة ووافى الطباخ / ١٨٩/ فنفضها فانتفضت، فسألته عنها فقال: هذه تعلف الجوز وتسقى اللبن الحليب، وكان بختيشوع بن جبريل يهدى البخور في درج ومعه درج آخر

فيه فحم بتخذ من قضبان الأترج والصفصاف، وسقس الكرم المرشوش عليه عند إحراقه ماء الورد المخلوط بالمسك والكافور، وماء الخلاف والشراب العتيق. ويقول: أنا أكره أن أهدي بخوراً بغير فحم العامة، ويقال هذا عمل بختيشوع.

قال أبو محمد بدر بن أبي الأصبغ، عن أبيه عن أبي عبد الله محمد بن الجراح، عن أبيه: إن المتوكل قال يوماً لبختيشوع: ادعني، فقال: السمع والطاعة، فقال: أريد أن يكون ذلك غداً. قال: نعم وكرامة، وكان الوقت صائفاً، وحره شديداً، فقال بختيشوع لأنسابه وأصحابه: أمرنا كله مستقيم إلا الخيش؛ فإنه ليس لنا منه ما يكفي. فأحضر وكلاءه، وأمرهم بابتياع كل ما يوجد من الخيش بسر من رأى، ففعلوا ذلك وأحضروا كل من وجدوه من النجادين والصناع، فقطع لداره كلها صحونها وحُجَرها ومجالسها وبيوتها ومستراحاتها خيشاً حتى لا يجتاز الخليفة في موضع غير مخيش. وأنه أفكر في روائحه التي لا تزول إلاَّ بعد استعماله مدة، فأمر بابتياع كل ما يقدر عليه بسر من رأى من البطيخ، وأحضر حشمه وغلمانه وأجلسهم يدلكون الخيش بذلك البطيخ ليلتهم كلها، وأصبح وقد انقطعت روائحه. فتقدم إلى فراشيه فعلقوا جميعه في المواضع المذكورة، وأمر طباخيه بأن يعملوا خمسة آلاف جونة في كل جونة باب خبز سميد، ودست رقاق وزن الجميع عشرون رطلاً؛ وحَمَل مشوي وجدي بارد، وفائقة ودجاجتان مصدرتان، وفرخان ومصوصتان، وثلاثة ألوان، وجام حلواء.

فلما وافاه المتوكل رأى كثرة الخيش وجدته، فقال: أي شيء ذهب برائحته؟ فأعاد عليه حديث البطيخ، فعجب من ذلك، فأكل هو وبنو عمه والفتح بن خاقان على مائدة واحدة. وأجلس الأمراء والحجاب على سماطين عظيمين لم ير مثلهما لأمثاله. وفرق /١٩٠/ الجون على الغلمان والخدم والنقباء والركابية والفراشين والملاحين وغيرهم من الحاشية، لكل واحد جونة، وقال: «قد أمنت ذمهم؛ لأنني ما كنت لو أُطعموا على مائدة آمن أن يرضى هذا ويغضب الآخر، ويقول واحد شبعت ويقول آخر لم أشبع، فإذا أعطى كل إنسان جونة من هذه الجون كفته. واستشرف المتوكل على الطعام فاستعظمه جداً، وأراد النوم، فقال لبختيشوع: أريد أن تنومني في موضع مضيء لا ذباب فيه، وظن أنه يتعنته بذلك، وقد كان بختيشوع تقدم بأن يجعل أجاجين الدبس في سطوح الدار ليجتمع الذباب عليه، فلم يقرب أسافل الدور ذبابة واحدة. ثم أدخل المتوكل إلى مرتفع كبير سقفه كله بكوًى فيها جامات يضيء البيت منها، وهو مخيش مظهّر بعد الخيش بالدبيقي المصبوغ بماء الورد والصندل والكافور.

فلما اضطجع للنوم أقبل يشم روائح في نهاية الطيب لا يدري ما هي؛ لأنه لم ير

في البيت شيئاً من الروائح والفواكهة والأنوار؛ ولا خلف الخيش لا طاقات ولا موضع يجعل فيه شيء من ذلك. فتعجب وأمر الفتح بن خاقان أن يتتبع حال تلك الروائح حتى يعرف صورتها. فخرج يطوف فوجد حول البيت من خارجه ومن سائر نواحيه وجوانبه أبواباً صغاراً لطافاً كالطاقات محشوة بصنوف الرياحين والفواكه واللخالخ، والمشام التي فيها التفاح، والبطيخ المستخرج ما فيها، المحشوة بالنمام والحماحم اليماني المعمول بماء الورد والخلاف والكافور والشراب العتيق والزعفران الشعر. ورأى الفتح غلماناً قد وكلوا بتلك الطاقات مع كل غلام مجمرة فيها ند يسجره ويبخر به البيت من داخله إزار مع اسفيذاج مخرج خروماً صغاراً لا تبين تخرج منها تلك الروائح الطيبة العجيبة إلى البيت.

فلما عاد الفتح وشرح للمتوكل صورة ما شاهده كثر تعجبه، وحسد بختيشوع على ما رآه من نعمته، وكمال مروءته، وانصرف من داره قبل أن يستتم يومه. وادعى شيئاً /١٩١/ وجده من التياث بدنه، وحقد عليه ذلك، فنكبه بعد أيام يسيرة، وأخذ له مالاً كثيراً لايقدر، ووجد له في جملة كسوته أربعة آلاف سراويل دبيقي وسفري في جميعها تكك إبريسم أرميني. وحضر الحسين بن مخلد فختم على خزانته، وحمل إلى دار المتوكل ما صلح منها، وباع شيئاً كثيراً. وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيذ وتوابل، فاشتراه الحسين بن مخلد بستة آلاف دينار. وذكر أنه باع من جملته بمبلغ ثمانية آلاف دينار، ثم حسده حمدون ووشى إلى المتوكل. وبذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار. فأجيب إلى ذلك، وسلم إليه، فباعه بأكثر من الضعف. وكان هذا في سنة أربع وأربعين ومائتين.

قال فينون الترجمان: كان المعتز بالله قد اعتل، في أيام المتوكل، علة من حرارة، وامتنع معها من أخذ شيء من الأغذية والأدوية. فشق ذلك على المتوكل كثيراً، واغتم به. وصار إليه بختيشوع، والأطباء عنده وهو على حاله في الامتناع، فمازحه وحادثه، فأدخل المعتز يده في كم جبة وشي يمان مثقلة كانت على بختيشوع وقال: ما أحسن هذا الثوب! فقال بختيشوع: يا سيدي ما له والله نظير في الحسن وثمنه علي ألف دينار، فكل لي تفاحتين وخذ الجبة. فدعا بتفاح فأكل اثنتين، ثم قال له: تحتاج الجبة إلى ثوب يكون معها، وعندي ثوب هو أخ لها، فاشرب لي شربة سكنجبين، وخذه فشرب شربة سكنجبين، ووافق ذلك اندفاع طبيعته فبريء المعتز وأخذ الجبة والثوب، وصلح من مرضه، فكان المتوكل يشكر هذا الفعل أبداً لبختيشوع.

قال ثابت بن قرة بن سنان بن ثابت: إن المتوكل اشتهى في بعض الأوقات

الحارة أن يأكل مع طعامه خردلاً، فمنعه الأطباء من ذلك لحدة مزاجه، وحرارة كبده وغائلة الخردل. فقال بختيشوع: أنا أطعمك إياه وإن ضرك علي! فقال: افعل. فأمر بإحضار قرعة وجعل عليها طيناً وتركها في تنور واستخرج ماءها وأمر بأن يقشر الخردل /١٩٢/ ويضرب بماء القرع. وقال: إن الخردل في الدرجة الرابعة من الحرارة، والقرع في الدرجة الرابعة من الرطوبة فيعتدلان، فكل شهوتك. وبات تلك الليلة ولم يحس بشيء من الأذى، وأصبح كذلك. فأمر بأن يحمل إليه ثلاثمائة ألف درهم وثلاثون تختاً من أصناف الثياب.

قال إسحاق بن علي الرهاوي، عن عيسى بن ماسة قال: رأيت بختيشوع بن جبريل وقد اعتل، فأمر أمير المؤمنين المتوكل المعتز أن يعوده وهو إذ ذاك ولي عهد. فعاوده ومعه محمد بن عبد الله بن طاهر ووصيف التركي قال: وأخبرني إبراهيم بن محمد المعروف بابن المدبر أن المتوكل أمر الوزير شفاهاً، وقال له: اكتب في ضياع بختيشوع؛ فإنها ضياعي وملكي، ومحله منا محل أرواحنا من أبداننا.

وقال عبيد الله بن جبريل بن عبد الله بن بختيشوع: هذا المذكور مما يدل على منزل بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه. قال: من ذلك، ما حدثنا به بعض شيوخنا، أنه دخل بختيشوع يوماً إلى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط دار الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي، وقد انفتق ذيلها قليلاً، فجعل المتوكل يحادث بختيشوع، ويعبث بذلك الفتق إلى أن بلغ إلى حد النيفق. ودار بينهما كلام اقتضى أن سأل المتوكل بختيشوع: بماذا تعلم أن المشوّش يحتاج إلى الشد والوثاقة؟ قال: إذا بلغ في فتق درّاعة طبيبه إلى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وأمر له في الحال بخلع سنية ومال جزيل.

وقال أبو الريحان البيروني في كتاب «الجماهر في الجواهر»[1]: «إن المتوكل جلس يوماً لهدايا النيروز، فقدم إليه كل عِلْق نفيس؛ وكل طريف فاخر. وإن طبيبه بختيشوع بن جبريل دخل ـ وكان يأنس به ـ فقال له: ما ترى في هذا اليوم؟ فقال: لي مثل خرباشات[2] الشحاذين إذ ليس قدروا قبل على ما معي، ثم أخرج/١٩٣/ من كمه درج أبنوس مطلياً بالفضة وفتحه عن حرير أخضر انكشف عنه ملعقة كبيرة جوهر، لمع منها شهاب، ووضعها بين يديه، فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله، وقال: من أين

---

(١) الجماهر في الجواهر ١٢٨ـ ١٢٩.
(٢) الخربشة: إفساد العمل والكتاب ونحوه.

[لك] هذا؟ قال: من الناس الكرام، ثم حَدَثَ:

أنه صار إلى أبي من أم جعفر زبيدة في ثلاث مرات مائة ألف دينار بثلاث شكايات عالجها منه فيها: أحدها أنها شكت عارضاً في حلقها منذرة بالخناق، فأشار إليها بالفصد والتطفئة والتغذي بحسوٍ وصفه، فأحضر على نسخة في غضارة[1] صينية عجيبة الصفة وفيها هذه الملعقة، فغمزني أبي على رفعها، ففعلت ولففتها في طيلساني وجاذبنيها الخادم. فقالت له: لاطفْهُ وأمره بردّها، وعوضه منها عشرة آلاف دينار، فامتنعت، وقال أبي: يا سِتّي إن ابني لم يسرق قط، فلا تفضحيه في أول كرّاته لئلا ينكسر قلبه. فضحكت ووهبتها له.

وسئل عن الأُخريين، فقال: إنها اشتكت إليه تغير النكهة ـ بإخبار إحدى بطانتها إياها ـ وذكرت أن الموت أسهل عليها من ذلك، فجوَّعها إلى العصر، وأطعمها سمكاً ممقوراً، وسقاها دردي نبيذ دقل[2] بإكراه، فغثت نفسها وقذفت. وكرر ذلك عليها ثلاثة أيام ثم قال لها: تنكهي في وجه من أخبرك بذلك واستخبريه هل زال؟

والثالثة أنها أشرفت على التلف من فواق شديد كان يسمع من خارج الحجرة، فأمر الخدم بإصعاد خوابي إلى سطح الصحن وتصفيفها حوله على الشفير وملأها ماء، وجلس خلف كل حُبٍّ خادم حتى إذا صفق بيده على الأخرى دفعوها دفعة إلى وسط الدار، ففعلوا وارتفع لذلك صوت شديد أرعبها، «فوثبت وزايلها الفواق».

قال أبو علي القباني: حدثني أبي قال: دخلت يوماً إلى بختيشوع، وكان من أيام الصيف، وجلست فإذا هو قد رفع طرفه إلى خادمه، وقال له: هات. فجاء بقدح فيه نحو نصف رطل شراب عتيق، وعلى طرف خلاله ذهب وشي أسود فمضغه، وشرب الشراب عليه، وصبر ساعة، فرأيت وجهه يتقد كالنار. ثم دعا بأطباق / ١٩٤/ فيها خوخ جبلي في نهاية الحسن، فأقبل يقطع ويأكل حتى انتهى وسكن تلهبه، وعاد وجهه إلى حاله. فقلت له: حدثني بخبرك؟ فقال: اشتهيت الخوخ شهوة وخفت ضرره فاستعملت الترياق والشراب حتى نقرت الحجر ليجيد الطحن.

ونقلت من بعض الكتب أن بختيشوع كان يأمر بالحقن، والقمر متصل بالذنب، فيحل القولنج من ساعته. ويأمر بشرب الدواء، والقمر على مناظرة الزهرة فيصلح العليل

---

(١) الغضارة: الطين الحُرّ، وقيل: الطين اللازب الأخضر، والغضار: الصَّحْفة المتخذة منه. «لسان العرب: مادة (غضر)».

(٢) الدَّقَل: أراذأ التمر.

من يومه.

ولما توفي بختيشوع خلف عبيد الله ولده، وخلف معه ثلاث بنات. وكان الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونهم بالأموال. فتفرقوا واختلفوا وكان موته يوم الأحد لثمان بقين من صفر سنة ست وخمسين ومائتين.

ومن كلام بختيشوع بن جبريل قال:

الشرب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ منه.

وقال: أكل القليل مما يضر، أصلح من أكل الكثير مما ينفع.

ولبختيشوع من الكتب: كتاب «الحجامة» على طريق المسألة والجواب[١].

ومنهم:

[١٦]

جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع[٢]

عالمٌ أتقن علم الطبيعة، وأيقن في برء السقام ربيعه، بخاطر يجري عذبه سلسالاً، وتجيء سحبه أرسالاً، لا تلبث العلل معه، ولا تتشبَّث منه ببارقة مطمعه، علماً وهبه، وعملاً أطفأ ضرم المزاج وفرَّق لهبه.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: كان فاضلاً عالماً متقناً لصناعة الطب، جيداً في أعمالها، حسن الدراية، وله تصانيف جليلة في صناعة الطب. وكانت أجداده في هذه الصناعة كل منهم أوحد زمانه وعلامة وقته.

وقال عبيد الله بن جبريل: كان جدي عبيد الله بن بختيشوع متصرفاً، ولما ولي المقتدر استكتبه بحضرته ثم مات، فقبض المقتدر على ماله ثم تقلبت بمخلفيه الأمور

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٠١ـ ٢٠٩.

(٢) جَبْرَئِيل بن عبيد الله بن بختيشوع: طبيب، عالم، من بيت الطب في العصر العباسي، ولد في بغداد سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م وتعلم فيها، ورحل إلى شيراز، فاتصل بعضد الدولة، ثم بالصاحب ابن عباد، فأغدق عليه الصاحب إحسانه. وسافر إلى القدس ودمشق، فاتصل خبره بالعزيز (ملك مصر) فدعاه إليه، فاعتذر وعاد إلى بغداد، فتوفي فيها سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م. من كتبه «الكافي» في الطب، خمس مجلدات، و«الكناش الصغير» في الطب، مئتا ورقة، و«المطابقة بين أقوال الأنبياء والفلاسفة».

ترجمته في: عيون الأنباء ١/ ٢٠٩ـ٢١٤، الأعلام ٢/ ١١١.

(٣) عيون الأنباء ٢٠٩.

إلى أن وصل جبريل بغداد، وما معه إلا النزر اليسير، فقصد طبيباً يعرف بتزمره، وقرأ عليه، وكان من أطباء المقتدر وخواصه، وقرأ على / ١٩٥/ يوسف الواسطي، ولازم المارستان ثم اتصل برسول صاحب فارس فطار ذكره إلى فارس وكرمان، وكان سبب خروجه إلى شيراز، واتصل بعضد الدولة وأهدى إليه رسالة في عصب العين، تكلم فيها بكلام حسن، فحسن موقعه عنده، فقرر له جارياً عليه، ثم تعرض لزوج خالة عضد الدولة مرض، فأنفذ إليه فشفي على يده، فأجزل عطاءه ورده مكرماً ثم صحبه إلى بغداد وأجرى عليه رزقين في البيمارستان غير الجراية ثم عرض لابن عباد مرض صعب في معدته، فجهز له عضد الدولة بما يحتاج إليه، ثم بعث به إليه فلما أتى الري أحسن ابن عباد ملتقاه، وأكرم نزله، ثم امتحنه فظهر له فضله، فخلع عليه خلعاً سنية ثم أمره بعمل كناش يذكر فيه الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم فعمل كناشه الصغير فحسن موقعه عنده، ثم وصله بما قيمته ألف دينار، ورفع أمره إلى عضد الدولة فزاد موضعه عنده فلما عاد من الري دخل بغداد بزي جميل وأمر مطاع وغلمان وحشم وخدم، وصادف من عضد الدولة ما يسره.

واستدعاه حسام الدولة إلى الموصل، وكانت له امرأة عليلة بمرض حاد، فأخذ في علاجها وأشار بحفظ القارورة، فاتفق أن كان عنده وإذا بجارية قد جاءت بالقارورة فنظر إلى الماء وقال لحسام الدولة: هذه المرأة تموت، فانزعج لذلك وصرخت الجارية، فقال لها: جرى في أمر هذه الإمرأة شيء لا أعلمه، فحلفت الجارية أنها لم تجاوز التدبير فقال: لعلكم خضبتموها بالحناء قالت: قد كان ذلك فحرد وقال لحسام الدولة: ابشر بعد ثلاثة أيام تبرأ فكان كما قال[١].

ومنهم:

[١٧]

خصيب النصراني[٢]

خصيبٌ لا يرتعي بكنفه المهزول، وطبيبٌ لا يتوقى طبه إلاَّ من هو عن الحياة معزول، عرف باختيان النفوس، وبيع عوالي المهج برخاص الفلوس، كم اجتثت شجرة لو تركت لطالت سمراتها، وطابت ثمراتها، لا جرم أن جُرمه أوبقه، وجرَّهُ إلى محبسه،

(١) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٢٠٩ـ ٢١٣.
(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٤ـ ٢١٥.

ثم ما فتح إلى غير قرارة القبر/ ١٩٦/ مطبقة.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه(١): من أهل البصرة ومقامه بها، وكان فاضلاً في صناعة الطب جيد المعالجة.

قال محمد بن سلام الجمحي: مرض الحكم بن محمد المازني، فأتوه بخصيب الطبيب يعالجه، فقال فيه: [من مجزوء الرمل]

ولقدْ قلتُ لأهلي إذْ أتوني بخَصِيبِ
ليسَ واللهِ خَصيبٌ للذي بي مِنْ طَبيبِ
إنَّما يعرفُ دائي مَنْ بهِ مثلُ الذي بي

وقال ابن سلام: كان خصيب الطبيب نصرانياً نبيلاً، فسقى محمد بن السفاح شربة دواء، وهو على البصرة، فمرض منها، وحمل إلى بغداد فمات بها، فاتهم خصيب، فحبس حتى مات. فنظر في علته إلى مائه وكان عالماً، فقال قال جالينوس: إن صاحب هذه العلة إذا صار ماؤه هكذا لا يعيش، فقيل له إن جالينوس ربما أخطأ، فقال: ما كنت إلى خطئه قط أحوج إليه مني الآن، ومات من علته(٢).

ومنهم:

[١٨]

عيسى المعروف بأبي قريش(٣)

عارفٌ لا يعادل في طبه، ولا يعادى معه السقم لخطبه، ولا يؤخر في جدول، ولا يؤرخ زمان به عدل، وكان يرجع إليه فيما التبس، ويكاد يستطلق بتطبيبه السحاب إذا احتبس هذا بالدربة في معرفة قوى العقاقير، ولما سبق له به سعد المقادير.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال(٤): قال إسحاق بن علي الرهاوي فيما نقله في أن أبا قريش كان صيدلانياً يجلس على موضع بباب قصر الخليفة، وكان ديناً صالحاً وأن الخيزران وجهت بمائها مع جارية لها إلى الطبيب، فلما خرجت رأت أبا قريش فأرته الماء، فقال لها: هذا ماء امرأة حبلى بغلام، فرجعت بالبشارة فقالت لها الخيزران:

---

(١) عيون الأنباء ٢١٤.
(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢١٤ـ ٢١٥.
(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٥ـ ٢١٩، أخبار الحكماء ٤٣٠.
(٤) عيون الأنباء ٢١٥.

ارجعي إليه واستقصي المسألة. فرجعت فقال لها: ما قلت إلاّ الحق. فلما كان بعد أربعين يوماً أحست الخيزران بالحمل، فوجهت إليه ببدره دراهم، وكتمت الخبر عن المهدي. /١٩٧/ فلما مضت الأيام ولدت موسى الهادي. فأعلمت المهدي وقاله له: إن طبيباً على الباب أخبر بهذا منذ تسعة أشهر. وبعثت إليه بتحف كثيرة، وبلغ هذا جرجس، فأكذبه ثم حبلت بأخيه هرون الرشيد. فقال جرجس للمهدي: جرب أنت هذا الطبيب! فوجه إليه بالماء فلما رآه قال: هذا ماء ابنتي أم موسى، وهي حبلى بغلام آخر. فأثبت المهدي ذلك عنده فلما مضت الأيام، ولدت هارون، فلم يزل يطرح عليه الخلع وبدر الدراهم والدنانير حتى علت رأسه، وصير موسى وهارون في حجره، وكناه أبا قريش لعينهما. وقال لجرجس: هذا شيء أنا بنفسي جربته. ثم صار نظير جرجس في الرتبة، وخلف اثنين وعشرين ألف دينار مع نعمة سنية.

وكثر تخم عيسى بن جعفر المنصور حتى كان يأتي على نفسه، فغم لذلك الرشيد، وقال لأبي قريش، فقال له: يا أمير المؤمنين إنه رزق معدة صحيحة، وبدناً قابلاً، ودهراً مسالماً، والأبدان ما لم تختلط على أصحابها في أحوالهم لا يؤمن عليهم منها التلف، وإن لم تنظر له في موجدة تجدها عليه أو أحد عزيز عليه من حرمه، لم تأمن عليه، فقال: لا حيلة عندي في الموجدة عليه، ولكن احتل أنت، فذهب إليه، ثم جس عرقه وأعلمه أنه يضطر إلى محنته ثلاثة أيام قبل العلاج، فأمره بذلك، فلما فرغ منه في اليوم الثالث، قال له: إن الوصية مباركة، وهي غير مقدمة لأجل ولا مؤخرة له، فإن رأى الأمير أن يعهد، فإن لم يحدث حادث قبل أربعين يوماً عالجته في ذلك بعلاج لا يمضي عليه ثلاثة أيام حتى يبرأ، ونهض وقد امتلأ قلب الرجل فانحط كثير من لحمه، واستتر أبو قريش خوفاً من إفشاء الخبر، فلما كان يوم الأربعين صار إلى الرشيد، وقال: لا شك في نقصان بدن عيسى، فركب إليه الرشيد ودخل عليه ومعه أبو قريش، فوجدوا لحمه قد نقص نقصاً كثيراً، فقال له عيسى بن جعفر: أطلق لي يا أمير المؤمنين قتل هذا الكافر، فقد قتلني بما أدخل عليَّ من الروع، فقال له: يا أخي متعت بك بأبي قريش، /١٩٨/ ردت إليك الحياة بعد الموت فاشكر الله، فنعم الحيلة احتال لك، وقد أمرت له بعشرة آلاف دينار، فأوصل أنت إليه مثلها، ففعل وانصرف أبو قريش إلى منزله بالمال، ولم يرجع إلى عيسى بن جعفر الشحم إلى أن فارق الدنيا[1].

ومنهم:

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢١٥ـ ٢١٨.

[١٩]
ابن اللجلاج[١]

عارفٌ بالأسباب والعلامات، عالم إذا نعى العلى مات كأنما حدس كهانة، وظنه البعيد تمثَّل له عيانه، درب العلاج حتى عُرف بغلبة الظن إلى أن تتناهى الأعمار، وتتمادى مدد البقاء في هذه الدار، وزاد في التقريب، وكان كل شيء من عنده بمقدار.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: قال اسماعيل بن أبي سهل الطبيب عن أبيه قال: ترافقت أنا وابن اللجلاج أيام المنصور في حجته التي حج فيها، فكان إذا نام المنصور تنادمنا، فسألني ابن اللجلاج وقد عمل فيَّ النبيذ عما بقي من عمر المنصور، فأعظم أبي ذلك، وقطع النبيذ وجعل على نفسه ألا ينادمه ثم اصطلحا، فلما جلسا على نبيذهما، قال ابن اللجلاج لأبي سهل: سألتك عن علمك ببعض الأمور فبخلت به وهجرتني، ولست أبخل عليك فاسمعه ثم قال: إن المنصور رجل محرور وتزداد يبوسة بدنه كلما أسن، وقد حلق رأسه، وجعل مكان الشعر غالية وهو في هذا الحجاز يداوم الغالية، وما يقبل قولي في تركها، ولا أحسبه يبلغ إلى فيد حتى يحدث في دماغه اليبس ما لا يكون عندي، ولا عند أحد من المتطببين حيلة في ترطيبه. فليس يبلغ فيد، إن بلغها، إلا مريضاً؛ ولا يبلغ مكة، إن بلغها، وبه حياة. قال اسماعيل بن أبي سهل، قال لي أبي: فوالله ما بلغ المنصور فيد إلا وهو عليل؛ وما وافى مكة إلاَّ وهو ميت، فدفن ببئر ميمون.

ومنهم:

[٢٠]
عبد الله الطيفوري[٣]

هبت له رياح ثم سكنت، وتنبهت له عيون رباح ثم وسنت، وانتعش جده الخامل، ثم غلب عليه الخمول، ورنح غصنه المائل، ثم عاجله الذبول، وظنَّ أن بارقته ممطرة، وقد رأى ركامها، وأمَّل/ ١٩٩/ زهامها فما سقته إلاّ رشاشا، ولا أقامته إلاَّ وسقط يتغاشى.

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٩، أخبار الحكماء ٤٣٩.
(٢) عيون الأنباء ٢١٩.
(٣) كان حياً سنة ١٥٨هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٠ـ ٢٢٤، أخبار العلماء ٢١٨.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان حسن العقل، طيب الحديث على لكنة سوداء به، كانت في لسانه شديدة. وكان مولده في بعض قرى كسكر وكان من أحظى خلق الله عند الهادي.

قيل: كان مولى الخيزران، والأصح أنه كان مطبباً لأخيها طيفور فنسب إليه، لما وجه المنصور المهدي إلى الري لمحاربة من بها، حمل معه الخيزران وهي حامل بموسى، وخرج معها طيفور، والطيفوري معه، ولم تكن الخيزران شعرت بالحمل، فبعثت قارورة لها تريها الأطباء فأتت الجارية بها أبا قريش الصيدلاني، فقال: هذه قارورة حامل بغلام فأدت قوله إلى الخيزران، فسرت وعتقت عدة رقاب، وأعلمت المهدي فأحضره وسأله، فقال ذلك، فسر أكثر من سرورها ووصله كل منهما بمال جزيل، وأمره بلزوم الخدمة وترك خيمته وما كان فيها من متاع الصيادلة.

قال: فأراد طيفور أن ينفعني فبعث بي إلى الخيزران، وقال: هذا طبيبي ماهر بالطب فابعثي إليه بالماء ليراه، ففعلت ذلك، فقال لي: قل لها كما قال أبو قريش، فقلت: ذلك ما لا أقوله لأنني لا أكتسب بالمخرقة، ولكن هذه قارورة حامل، فأمرت لي بألف درهم، فلما وافت الري ولدت الهادي، فضممت إليه ودعيت بطبيبه وهو رضيع وفطيم، ثم ولدت أخاه الرشيد فكان مولده شؤماً على الهادي؛ لأنه فاز بالخطوة دونه فأضرني ذلك في جاهي، فلما أدرك الهادي الخلافة رفع من شأني[2].

ومنهم:

[٢١]

إسرائيل بن زكريا الطيفوري، طبيب الفتح بن خاقان[3]

كان يدل بتقدمه في فنه، ويدل على هذا غضبه على ملكه، وقد احتجم بغير إذنه لاشتداد معرفته بقوى الأمزجة، وقدر فاقة الأبدان المليَّة والمحوجة، وكان حسن الامتزاج يكاد يصلح بين نافر الاعتدال والمزاج.

ذكره ابن أبي أصيبعة[4] وقال فيه: كان مقدماً في صناعة الطب، جليل القدر عند

---

(١) عيون الأنباء ٢٢٠.
(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٢٠.
(٣) توفي سنة ٥٤٧هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٥، أخبار العلماء ١٨٧.
(٤) عيون الأنباء ٢٢٥.

الخلفاء والملوك، / ٢٠٠/ وكان مختصاً بابن خاقان، وله منه الإنعام الوافر، وكان المتوكل يعتمد عليه، وصار عنده إلى منزلة بختيشوع، وكان متى ركب إلى دار المتوكل ركب في مثل مواكب الأمراء الأجلاء القواد، وأمر المتوكل صقلاب وابن الحيري بالركوب معه ثم أقطعه قطيعة بسر من رأى، فاختارها لنفسه خمسين ألف ذراع، وأعطاه ثلاثمائة ألف درهم لينفقها عليه، فحازها وضرب المنار عليها.

وحكى الرهاوي: أن إسرائيل ابن الطيفوري وجد على المتوكل إذ احتجتم بغير إذنه، فاقتدى غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة خمسين ألف درهم وهبها له وسجل له عليها.

وحكى ابن ماسويه قال: رأيت المتوكل وقد عاد إسرائيل وهو مريض قد غشي عليه، فجعل يده تحت رأسه مخدة له، ثم قال للوزير: حياتي معلقة بحياته إن عدمته لا أعيش، ثم كان يبعث سعيد بن صالح صاحبه وموسى بن عبد الملك كاتبه يعودانه عنه.

ومنهم:

[٢٢]

يزيد بن يوحنا بن أبي خالد[١]

وكان لا يخطىء له صواب، ولا يبطىء به جواب، وكان في طبه جد المأمون؛ خدم به المتصاوان ابن المهدي والمأمون، لأنه كان لا يتهم، ولا تسري وتدلج إليه التهم، لعلم يقين منه عقد عليه الأنامل، واقعد لديه كل آمل.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان جيد العلم، حسن المعالج، موصوفاً بالفضل. خدم المأمون، وابن المهدي، وكان له منه العناية الظاهرة، وله عليه الجامكية الوافرة.

قال ابن المهدي: إن أبا عثمان ثمامة العبسي صاحب الحيار اعتل علة تطاولت به، وكان شيخاً كبيراً، قال ابن المهدي فسألني الرشيد عن علته وأين بلغت به، فأعلمته أني لا أعلم له خبراً، فأظهر انكاراً لقولي، ثم قال: رجل غريب من أهل الشرق قد رغب في مصاهرة أهله عبد الملك بن مروان، وقد ولدت أخته خليفتين الوليد وسليمان

---

(١) كان حياً ١٩٨هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٦ـ ٢٢٨ وفيه اسمه: «يزيد بن زيد بن يوحنا...»، أخبار العلماء ٣٩٥، العلوم العملية ـ الطب، كحالة ١٦، أعلام الحضارة ٢/ ٥٣٣.

(٢) عيون الأنباء ٢٢٦.

ابني عبد الملك، /٢٠١/ وقد رغب أبوك في مصاهرته. فتزوج أخته ورغبت أنا وأخوك في مثل ذلك منه فتزوجت ابنته، وهو مع ذلك صحابي لجدك وأبيك، ولأخيك وأخيك، فلا توجب على نفسك عيادته؟ ثم أمرني بالمصير إليه لعيادته، فنهضت وأخذت معي متطببي يزيد وصرت إليه. فدخلت على رجل توهمت أنه في آخر حشاشة بقيت من نفسه، ولم أر فيه للمسألة موضعاً. فأمر يزيد متطببي بإحضار متطببه فحضر، فسأله عن حاله فأخبر أنه يقوم في اليوم والليلة مائة مجلس. وأقبل يزيد يسأل المتطبب عن باب باب من الأدوية التي تشرب والسفوفات والحقن، فلم يذكر لذلك المتطبب شيئاً إلا أعلمه أنه قد عالجه به فلم ينجح فيه. فوجم عند ذلك يزيد مقدار ساعة، وقال: قد بقي شيء واحد أن أعمل به رجوت أن ينتفع به، وإن لم ينجع فلا علاج له.

قال أبو إسحاق: فرأيت ثمامة قد قويت نفسه عندما سمع من يزيد ما سمع ثم قال: وما ذلك الشيء الذي بقي، متعت بك؟ قال له: شربة اصطمخيفون. فقال ثمامة: أحب أرى هذه الشربة حتى أشم رائحتها. فأخرج يزيد من كمه منديلاً فيه أدوية، وفيه شربة اصطمخيفون. فأمر بها ثمامة فحلت، ثم أتى بها فرمى بها في فيه وابتلعها. فوالله ما وصلت إلى جوفه حتى سمعت منه أصواتاً لم أشك في أني لم أبلغ باب داره إلا وقد مات. فنهضت ومتطببي معي، وما أعقل غماً. وأمر خادماً لي يكون يحمل معي الاسطرلاب إذا ركبت بالمقام في داره، وتعرف خبر ما يكون منه. فتخلف، فوافاني كتاب الخادم بعد الزوال يعلمني أنه قام من بعد طلوع الشمس إلى زوالها خمسين مرة فقلت: تلفت والله نفس ثمامة. ثم وافى كتاب الخادم بعد غروب الشمس أنه قام منذ زوال الشمس إلى غروبها عشرين مجلساً. ثم صار إليَّ الغلام مع طلوع الشمس، فذكر أنه لم يكن منه منذ غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلاَّ ثلاثة مجالس، ولم يكن منه إلى /٢٠٢/ وقت طلوع الفجر شيء. فركبت إليه بعد أن صليت الغداة فوجدته نائماً، وكان لا ينام، فانتبه إلي وسألته عن خبره، فأخبرني أنه لم يزل في وجع من جوفه مانع له النوم والقرار منذ أكثر من أربعين ليلة حتى أخذ تلك الشربة. فلما انقطع فعل الشربة انقطع عنه ذلك الوجع، وأنه لم يشته طعاماً منذ ذلك الوقت وأنه ما يصبر في وقته من غلبة الجوع عليه. وسأل الإذن في الأكل، فأذن له يزيد في أكل اسفيذاج قد طبخ في فروج كسكري سمين، ثم اتباعها زيرباجة، ففعل ذلك. وصرت إلى الرشيد فأخبرته بما كان من أمر ثمامة. فأحضر المتطبب وقال له: ويحك كيف أقدمت على إسقائه حب الأصطمخيفون؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل كان في جوفه دواء ولا غذاء إلاَّ أفسده الكيموس. وكان كلما فسد من تلك الأدوية والأغذية صار مادة لذلك الفساد،

فكانت العلة لهذا السبب تزداد. فعلمت أنه لا علاج له إلا بدواء قوي يقوى على فعل ذلك الكيموس. وكان أقوى الأشياء التي يمكن أن يسقاه الأصطمخيفون، فقلت له فيه الذي قلت. ولم أقدم أيضاً على القول أنه يبرئه لا محالة، وإنما قلت بقي شيء وحد فإن هو لم ينفعه، فلا علاج له. وإنما قلت ذلك؛ لأني رأيت الرجل عليلاً قد أضعفته العلة، وأذهبت أكثر قواه. فلم آمن عليه التلف إن شربه، وكنت أرجو له العافية بشربه إياه، وكنت أعلم أنه إن لم يشربه أيضاً تلف. فاستحسن الرشيد ما كان من قوله ووصله بعشرة آلاف درهم. ثم عاد الرشيد ثمامة وقال: لقد أقدمت من شرب ذلك الدواء على أمر عظيم، وخاصة إذا كان المتطبب لم يصرح لك بأن في شربه العافية. فقال ثمامة: يا أمير المؤمنين، كنت قد يئست من نفسي وسمعت المتطبب يقول إن شرب هذا الدواء رجوت أن ينفعه، فاخترت المقام على الرجاء ولو لحظة، على اليأس من الحياة، فشربته وفي /٢٠٣/ ذلك خيرة من الله عظيمة[١].

ومنهم:

[٢٣]

عبدوس بن زيد[٢]

وكان طبيباً حاذقاً، ومصيباً لا يزال برأيه موافقاً، وله فضل من السحاب لو جر ذلاذله، ونبل يتمنى لو كان فيه نقص يشغل عواذله.

قال أبو علي القباني عن أبيه: إن القاسم بن عبيد الله مرض في حياة أبيه مرضاً حاداً في تموز وحصل به القولنج الصعب، فانفرد بعلاجه عبدوس بن زيد وسقاه ماء أصول قد طبخ، وطرح فيه أصول الكرفس، والرازيانج، ودهن الخروع وجعل فيه شيئاً من أيارج فيقرا، فحين شربه سكن وجعه وأجاب طبعه مجلسين، فأفاق، ثم أعطاه من غد ذلك اليوم ماء شعير فاستظرف هذا منه.

قال أبو علي القباني أيضاً: إن أخاه إسحاق بن علي مرض وغلبت الحرارة على مزاجه، والنحول على بدنه، حتى أداه إلى الضعف وردّ ما يأكله. فسقاه عبدوس بن زيد هذه الأصول ودهن الخروع في حزيران أربعة عشر يوماً، فعوفي وصلحت معدته.

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٢٦ـ ٢٢٧.

(٢) توفي نحو سنة ٣٠٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٨، أخبار العلماء ٢٥١، العلوم العملية ـ الطب لكحالة ٢١، الأعلام ٤/ ١٧٩، أعلام الحضارة ٢/ ٦٢ رقم ٣٠٢.

وقال: في مثل هذه الأيام تحم حمى حادة، فإن كنت حياً خلصتك بإذن الله، وإن كنت ميتاً فعلامة عافيتك له دائرة سنة أن تنطلق طبيعتك في اليوم السابع؛ فإن انطلقت عوفيت ومع هذا فقد تقوَّت معدتك بقوّى لو طرحت فيها الحجارة لطحنتها. فلما انقضت السنة مرض عبدوس، وحم أخي كما قال، وكان مرضهما في يوم واحد. فما زال عبدوس يراعي أخي ويسأل عن خبره إلى أن قيل له انطلقت طبيعته، فقال: قد تخلص.

ومات عبدوس في الغد من ذلك اليوم.

ولعبدوس بن زيد من الكتب: كتاب «التذكير في الطب».

ومنهم:

[٢٤]

ماسَرجُوَيه[١]

طبيب البصرة، هو أول من ترجم، وعرب ما أعجم، وكان صلب العود صعب الجلمود، لا ينقل إلا ما حرره، وفصل كلمه على قدر المعنى وقدَّره، لا يتجوز في كلمة يعبر بها عن معنى ما لم تكن دالة عليها / ٢٠٤/ بالمطابقة، مقابلة في اللغة الأخرى لما نظرت به موافقة، وهو على هذا ظريف العبارة، لطيف الحديث إذا سمعت أخباره.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: هو الذي نقل كناش أهرن من السرياني إلى العربي. وكان سريانياً يهودي الدين، وهو الذي يعنيه الرازي بقوله: قال اليهودي.

قال ابن جلجل: كان ماسرجويه أيام بني أمية. وعرب كناش أهرن لهم كان في خزائنهم فلما ولي عمر بن عبد العزيز، أخرجه فوضعه في مصلاه، واستخار الله فيه أربعين يوماً ثم أخرجه إلى المسلمين للانتفاع به.

قال الكسروي: كان أبو نواس يعشق جارية لامرأة من ثقيف تسكن موضعاً يعرف بحكمان من أرض البصرة يقال لها جنان، وكان أبو عثمان، وأبو أمية الثقفيان من أقارب مولاتها. فكان أبو نواس يخرج كل يوم من البصرة يتلقى من يرد من ناحية حكمان فيسائلهم عن أخبار جنان. قال: فخرج يوماً وخرجت معه، فكان أول قادم عليه ماسرجويه، فقال له أبو نواس كيف خلفت أبا عثمان وأبا أمية.. فقال ماسرجويه: جنان

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٢٣٢ـ ٢٣٤، أخبار العلماء ٣٢٤.

(٢) عيون الأنباء ٢٣٢.

صالحة الحال كما تحب. فقال: [من الخفيف]

أَسَأَلُ القادمينَ مِنْ حكمانِ ... كيفَ خلَّفتمُ أبا عُثمانِ
وأَبا أميةَ المُهَذَّبَ والمأْ ... مُول والمُرتَجى لِرَيبِ الزمانِ
فيقولونَ لي: جنانٌ كماسِـ ... ـرِّكَ في حالِها فَسَلْ عَنْ جنانِ

وقال: كنت جالساً عند ماسرجويه، إذ أتاه رجل فقال: إني بليت بداء عظيم، أصبح وبصري علي مظلم، وأنا أجد مثل لحس الكلاب على معدتي، فلا تزال هذه حالتي حتى آكل، فإذا أكلت، سكن عني ما أجد إلى وقت الظهر، ثم يعاودني ما كنت فيه، فإذا عاودت الأكل، سكن ما بي إلى وقت العشاء، ثم يعاودني ما كنت فيه حتى آكل فقال ماسرجويه: على هذا المرض غضب الله، / ٢٠٥/ فإنه أساء لنفسه الاختيار إذ لم يكن إلا لسفلة مثلك. فقال له: ما أفهم ما تقول؟ فقال ماسرجويه: هذه صحة لا تستحقها، أسأل الله تعالى نقلها عنك إلى أحق بها منك.

وقال: شكوت إلى ماسرجويه تعذر الطبيعة، فقال لي: أي الأنبذة تشرب، فقلت الدوشاب البستاني الكثير الداذي. فأمرني أن آكل في كل يوم من أيام الصيف على الريق قثاءة صغيرة فآكل منه الخمس والست والسبع، فكثر علي الإسهال، فشكوت إليه فلم يكلمني حتى حقنني بحقنة كثيرة الشحوم والصموغ والخطمي والأرز الفارسي، ثم قال لي: كدت تقتل نفسك بإكثارك من القثاء على الريق؛ لأنه كان يحدر من الصفراء ما يزيل عن الأمعاء من الرطوبات اللاصقة بها ما يمنع الصفراء من سحجها وإحداث الدوسنطاريا فيها[١].

ومنهم:

[٢٥]
سلمويه بن بيان[٢]

جل في العيان، وحل في الأعيان، وكان له شأن لا تغص به المآقي، ولا يغض الأيام على لياليه البواقي، وسعد به أخوه وصعد رتب النظراء، ولم يؤاخوه.

ذكره ابن أبي أصيبعة[٣] وقال فيه: لما استخلف المعتصم، اختاره لنفسه، وقربه

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٣٢ـ ٢٣٤.
(٢) ورد اسمه في بعض المصادر: «سلمويه بن بنان» توفي سنة ٢٢٥هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٣٤ـ ٢٤٠، أخبار العلماء ٢٠٧، الفهرست ٤٦٦، اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٥٥٥، العلوم العملية ـ الطب لكحالة ١٦، أعلام الحضارة ١/ ٤٦١ رقم ٢٣٨.
(٣) عيون الأنباء ٢٣٤.

حتى كانت التواقيع في السجلات وغيرها تصدر عن المعتصم بخطه، وولى أخاه بيوت الأموال وسلمه خاتمه، وكان سلمويه نصرانياً محمود السيرة وافر العقل.

قال إسحاق بن حنين عن أبيه: أنه كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطب، ولما اعتل، عاده المعتصم، وبكى عنده واستشاره فيمن يكون بعده، وكان المعتصم قد أرصده لعرض حوائج إبراهيم بن المهدي أوقات خلوته.

ومنهم:

[٢٦]

إبراهيم بن فزارون[١]

كان موقراً لا تحل له حبوة، ولا تحط له ربوة، ولا تبارى به الثريا إذا لاحت، ولا الحُميَّا إذا فاحت، وكان مقدماً لتطبيب /٢٠٦/ الأرواح، وتطييب الأوقات بالأفراح. لايزال ينشر ألوية المدام، ويؤثر أندية الندام، ويسيرها كؤوساً تجول أشعتها حول أوانيها، وتجول أقاصي البلاد أدانيها.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان شيخ بني فزارون الكتّاب. قال يوسف بن إبراهيم: كان إبراهيم بن فزراون قد خرج مع غسان بن عباد إلى السند. فحدثني أن غسان بن عباد مكث بأرض السند من يوم النيروز إلى يوم المهرجان يشتهي أن يأكل قطعة لحم باردة، فما قدر على ذلك. فسألته عن السبب فقال: نطبخه فلا يبرد حتى يُروح فيرمي به.

قال يوسف: وأخبرني إبراهيم بن فزارون أنه ما أكل بأرض السند لحماً استطابه إلا لحوم الطواويس وأنه لم يأكل لحماً قط أطيب من لحم الطواويس ببلاد السند.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن فرزان أنه رفع إلي غسان بن عباد أن في النهر المعروف بمهران بأرض السند سمكة تشبه الجدي، وأنها تصاد ثم يطين رأسها وجميع بدنها إلى موضع مخرج الثفل منها، ثم يجعل ما لم يطين منها على الجمر، ويمسكها ممسك بيده حتى يستوي منها ما كان موضوعاً على الجمر، وينضج ثم يؤكل ما نضج أو يرمى به؛ وتلقى السمكة في الماء ما لم ينكسر العظم الذي لصلب السمكة فتعيش السمكة وينبت على عظمها اللحم. وأن غسان أمر بحفر بركة في داره وملأها ماء وأمر

---

(١) كان حياً بحدود سنة ٢١٣هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤٠ـ ٢٤١، أخبار العلماء ٧٤، معجم الأطباء ٥٩، أعلام الحضارة ١/ ٦٣ رقم ٣٨.

(٢) عيون الأنباء ٢٤٠.

بامتحان ما بلغه.

قال ابراهيم: فكنا نؤتى كل يوم بعدة من هذا السمك فنشويه، على الحكاية التي ذكرت لنا، ونكسر من بعضه عظم الصلب ونترك بعضه لا نكسره، فكان ما يكسر عظمه يموت، وما لم يكسر عظمه يسلم وينبت عليه اللحم ويستوي الجلد. إلا أن جلدة تلك السمكة تشبه جلدة الجدي الأسود، وما قشرناه من لحوم السمك التي شويناها ورددناها إلى الماء /٢٠٧/ يكون على غير لون الجلدة الأولى؛ لأنه يضرب إلى البياض.

قال يوسف: وسألت إبراهيم بن فرازون عن قول من يزعم أن مهران وهو يصب في النهر الملح إلا أن علماء الهند والسند أعلموني أن مخرج النيل مخرج نهر مهران من عين واحدة عظيمة، فنهر مهران يشق أرض السند حتى يصب في بحرها المالح، والنهر الآخر يشق أرض الهند وجميع أرض السودان حتى يخرج إلى أرض النوبة، ثم يصب باقيه في أرض مصر فيرويها، ثم يصب باقيه في بحر الروم(١).

ومنهم:

[٢٧]

إبراهيم بن أيوب الأبرش(٢)

كان يعرف كيف تصاد الدراهم، ويعالج جراح الفقر من ضمادات أكياسها المراهم، بصيراً بتعديل المزاج بشربها، خبيراً بهذا العلاج بطبها، وصادف وقتاً قابلاً، وملكاً يهب، وشفيعاً قائلاً، فجمع ما لم يجمع، وحصل من المال ما لا يرى مثله ولا يسمع.

قال عيسى بن ماسة: رأيت الأبرش وقد عالج اسماعيل أخا المعتز، فلما برىء كلمت قبيحة أمه المتوكل ليهبه، فقال لها: مهما أعطيتيه أعطيته مثله، فأمرت له قبيحة ببدرة، فأمر له المتوكل بمثلها، فأمرت ببدرة أخرى فأمر له المتوكل بمثلها فما زالا يحضران البدر حتى أحضر كل منهما ست عشرة بدرة، ثم أومأت إلى جاريتها أن تمسك، فقال الأبرش: لا تقطعي وأنا أرد عليك، فقالت له: خذ ما حضر فإنه لا يملأ عينك شيء، فقال المتوكل: والله لو أعطيته إلى الصباح، لأعطيته مثل ذلك، ثم لما

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٤٠ـ ٢٤١.

(٢) توفي سنة ٢٥٥هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤١، معجم الأطباء ٥٦، أعلام الحضارة ١/ ٥١ رقم ٢٩.

أفضت الخلافة إلى المعتز، كان أخص الأطباء عنده لمكانه من أمه قبيحة، فلما خلع المعتز قبض عليه صالح بن وصيف.

ومنهم:

[٢٨]
ماسُوَيه بن يوحنّا(١)

دخل على الملك من بابه، وتوصل إلى الفلك بأسبابه، وانتقل من خاصة الكحل إلى عامة تدبير الجسد، وتقرير إصلاح ما فسد، ثم لم يزل في مزيد في الصناعة، وتجديد ما ينمي مكاسب البضاعة إلى أن /٢٠٨/ صار لا يمتري في نفاقه، ولا يمتار إلا من فواضل أسواقه، ولا يُطبَّب عليل بألطف من شمائل أخلاقه.

ذكره الترجمان كيف تنقَّل وآخر أمره أنه عالج عين خادم الفضل بن الربيع، فشكا الفضل عينه، فأوصله إليه فلم يزل يكحله إلى ثلث الليل، ثم سقاه دواء مسهلاً فصلح به، فأجرى عليه رزقاً.

فما مضت إلا أيام حتى اشتكت عين الرشيد، فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين طبيبي ماسويه من أحذق الناس بالكحل. فأمر بإحضاره، ثم قال له: هل تحسن شيئاً من الطب سوى الكحل؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وكيف لا أحسن وقد خدمت المرضى بالبيمارستان؟ فأدناه منه فنظر في عينيه، فحجمه في ساقيه، وقطر في عينيه، فبرىء بعد يومين. فأمر بأن يجرى عليه في الشهر ألفا درهم، وعلوفة ومعونة في السنة عشرون ألف درهم.

ثم اعتلت أخت الرشيد، فعالجها جبريل بأنواع العلاج فلم تنتفع، فاغتم بها، فقال الرشيد ذات يوم: قد كان ماسويه ذكر أنه خدم المرضى بالمارستان، وعالج الطبائع فيدخل على عليلتنا لعل عنده فرجاً. فأحضر جبريل وماسويه، فقال له ماسويه: عرفني حالها وجميع ما دبرتها به إلى وقتنا هذا. فقص عليه، فقال ماسويه: التدبير صالح، والعلاج مستقيم، ولكن أحتاج إلى أن أراها. فأمر الرشيد بأن يدخل إليها فلما تأملها، وجس عرقها بحضرة الرشيد، وخرجوا من عندها. قال ماسويه للرشيد: يكون لك طول العمر والبقاء، هذه تقضي بعد غد ما بين ثلاث ساعات إلى نصف الليل. فقال جبريل: كذب يا أمير المؤمنين، إنها تبرأ وتعيش. فأمر الرشيد بحبس ماسويه ليسبر ما

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤٢ـ ٢٤٦ وفيه اسمه: «ماسويه أبو يوحنا».

قاله، وقال: ما رأينا بعلم الشيخ بأساً. فلما كان الوقت الذي وقته ماسويه، ماتت فأمر الرشيد بإخراجه وصيره نظير جبريل في رزقه ونزله وعلوفته ومعونته ومرتَّبه ومرتبته.

ومنهم:

[٢٩]

يوحنا بن ماسويه(١)

طبيب على يديه الشفاء، ولديه الوفاء، ما جال / ٢٠٩/ رأيه المصيب إلا فلَّ أفلاطون، وجال فكر جالينوس لعله مثله يكون، وود ابن آثال لو نحت من أثلته، وتشوق الحارث للمَقيل تحت نخلته، وسُرَّ السريان إذ كان منهم معدوداً، وآن لليونان أن يساءوا إذ لم يكن منهم له ولوداً، ولا منه لهم ودوداً.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان طبيباً، ذكياً، فاضلاً، خبيراً بصناعة الطب، وله كلام حسن، وتصانيف مشهورة، وكان حظياً عند الخلفاء والملوك.

---

(١) يوحنا بن ماسَوَيْه البغدادي، المعروف بالأكبر، أبو زكريا: من علماء الأطباء. سرياني الأصل. عربي المنشأ، كان أبوه صيدلانياً في جنديسابور (بخوزستان) ثم من أطباء العين، في بغداد. وتقدم، وخدم الرشيد. وببغداد نشأ ابنه يوحنا (صاحب الترجمة) ونبغ حتى كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة، في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم؛ وجعله أميناً على الترجمة؛ ورتب له كتاباً حاذقين بين يديه. ولم يقتصر عمله على خدمة العلم بل خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى ايام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهم، حتى كانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات المقوية والهاضمة. وأصاب شهرة واسعة وثروة طائلة. وكان مجلسه ببغداد أعمر مجلس، يجمع الطبيب والمتفلسف والأديب والظريف. له نحو أربعين كتاباً معظمها رسائل، منها «البرهان» يقال: في ثلاثين جزءاً، و«الأزمنة ـ خ» و«النوادر الطبية ـ ط» و«ماء الشعير ـ ط» صفحتان، و«جواهر الطيب المفردة ـ ط» و«المشجر ـ خ» و«خواص الأغذية والبقول ـ خ» و«الفوز الأصغر ـ خ» رسالة، في المجموع ١٩٣٣ بخزانة أسعد أفندي، باستنبول، وصفها الميمني في مذكراته بأنها جليلة و«معرفة العين وطبقاتها ـ خ» و«دغل العين ـ خ»، و«الحميات ـ خ» وقد ترجم هذان إلى العبرية، ومنهما مخطوطتان بها. توفي بسامراء سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م، يسميه الفرنج: Mesue.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤٦ـ ٢٥٥، أخبار العلماء ٣٨٠، طبقات الأطباء ٦٥، اكتفاء القنوع ١٧٧، ٢١٥، أعلام الحضارة ٢/ ٥٦٨ـ٥٧٦ رقم ٥٨٦ وفيه قائمة بمصادر ترجمته، الأعلام ٨/ ٢١١، الفهرست لابن النديم ٢٩٥، آداب اللغة العربية ٢/ ٣٣، الفهرس التمهيدي ٥٣٦، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٧١.

(٢) عيون الأنباء ٢٤٦.

قال إسحاق بن علي الرهاوي في كتاب «أدب الطبيب» عن عيسى بن ماسه الطبيب، قال: أخبرني أبو زكريا يوحنا بن ماسويه أنه اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم، وعاش بعد قوله هذا ثلاث سنين أخر. وكان الواثق مشغوفاً ضنيناً به، فشرب يوماً عنده فسقاه الساقي شراباً غير صاف ولا لذيذ، على ما جرت به العادة، وهذا من عادة السقاة إذا قصر في برهم. فلما شرب القدح الأول قال: يا أمير المؤمنين، أما المذاقات، فقد عرفتها واعتدتها، ومذاقة هذا الشراب فخارجة عن طبع المذاقات كلها، فوجد أمير المؤمنين على السقاة، وقال: تسقون أطبائي، وفي مجلسي، مثل هذا الشراب! وأمر ليوحنا بهذا السبب، وفي ذلك الوقت، بمائة ألف درهم ودعا بسمانة الخادم، وقال له: احمل إليه المال الساعة، فلما كان وقت العصر سأل سمانة الخادم هل حمل مال الطبيب أم لا؟ فقال: لا، بعد، فقال: يحمل إليه مائتا ألف درهم الساعة. فلما وصلوا العشاء، سأل عن حمل المال فقيل له: لم يحمل بعد، فدعا بسمانة وقال: احمل له ثلاثمائة ألف درهم. فقال سمانة لخازن بيت المال: احملوا مال يوحنا وإلاَّ لم يبق في بيت المال شيء. فحمل إليه من ساعته.

قال سليمان بن حسان: كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً. قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة، وخدم هرون والأمين والمأمون، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل. قال: وكانت ملوك بني هاشم/ ٢١٠/ لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته، وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف بالأشربة الباردة والجوارشنات.

وقال ابن النديم البغدادي الكاتب: إن يوحنا بن ماسويه خدم بصناعة الطب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

قال يوسف بن إبراهيم: كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لمتطبب أو متكلم أو متفلسف؛ لأنه كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب، وكان يوحنا ذو دعابة شديدة، يحضر بعض [من] يحضر لأجلها. وكان من ضيق الصدر، وشدة الحدة، على أكثر مما كان عليه جبريل بن يختشيوع. وكانت الحدة تخرج منه ألفاظاً مضحكة، وكان أطيب مجلسه في وقت نظره في قوارير الماء، وكنت وابن حمدون بن عبد الصمد بن علي الملقب بأبي العيرطود، وإسحاق بن إبراهيم بن محمد بن اسماعيل الملقب ببيض البغل، وقد توكلنا به نحفظ نوادره وأظهرت له التلمذة

بقراءتيهما كتب جالينوس عليه في الطب.

قال يوسف: مما حفظت من نوادره في وقت نظره: أن امرأة أتته فقالت له: إن فلانة وفلانة وفلانة يقرأون عليك السلام، فقال لها: أنا بأسماء أهل قسطنطينة وعمورية أعلم مني بأسماء اللواتي أسميتيهم، فاظهري بولك حتى أنظر لك فيه.

قال يوسف: وحُفظت عليه أن رجلاً شكا إليه علة كان شفاؤه منها الفصد، فأشار به عليه، فقال له: لم أعتد الفصد، فقال له: ولا احسب أحداً اعتاده في بطن أمه. وكذلك لم تعتد العلة قبل أن تعتل، وقد حدثت بك فاختر ما شئت من الصبر على ما أحدثت لك الطبيعة من العلة، واعتياد الفصد؛ لتسلم منها.

قال يوسف: وشكا إليه رجل بحضرتي جَرَباً قد أضر به، فأمره بفصد الأكحل من يده اليسرى، فأخبره أنه قد فعل. فأمره بشرب المطبوخ، فقال: قد فعلت فأمره بشرب الاصطمخيفون، فأعلمه أنه / ٢١١/ قد فعل. فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعاً، وشرب مخيض البقر أسبوعين، فأعلمه أنه قد فعل. فقال: إنه لم يبق شيء مما أمر به المتطببون إلا وقد ذكرت أنك قد عملته، وقد بقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس، وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً، فاستعمله فإني أرجو أن ينجح علاجك إن شاء الله. فسأله: ما هو؟ فقال: ابتع زوجي قراطيس، وقطعهما رقاعاً صغاراً، واكتب في كل رقعة: رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية، والق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي، وفرقها في المجالس يوم الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء، إذ لم ينفعك العلاج.

قال يوسف: وصار إليه، وأنا حاضر، قسيس الكنيسة التي يتقرب فيها يوحنا وقال له: قد فسدت علي معدتي. فقال له: استعمل جوارشن الخوزي، فقال: قد فعلت. فقال: فاستعمل الكموني، قال: قد أكلت منه أرطالاً، فأمره باستعمال المقداذيفون، فقال: قد شربت منه جرة. قال له: فاستعمل المروسيا، فقال: قد فعلت وأكثرت. فغضب وقال له: إن أردت أن تبرأ، فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة.

قال يوسف: واشتدت على يوحنا علة كان فيها حتى يئس منه أهله، ومن عادة النصارى إحضار من يئس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين والشمامسة يقرؤون حوله، ففعل مثل ذلك بيوحنا. فأفاق والرهبان حوله يقرؤون، فقال لهم: يا أولاد الفسق ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا له: كنا ندعو ربنا في التفضل عليك بالعافية. فقال لهم يوحنا: قرص ورد أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت إلى يوم القيامة، اخرجوا من منزلي فخرجوا.

قال يوسف: وشكا بحضرتي إلى يوحنا رجل من التجار جرباً به في أيام الشتاء فقال: ليست هذه من أيام علاج ما تجد، وإنما علاج دائك هذا في أيام الربيع؛ فتنكب أكل المعفنات كلها، وطري السمك ومالحه صغار ذلك وكباره، وكل حريف من الأبزار والبقول، وما يخرج من الضرع. فقال له الرجل: هذه أشياء ما أطيق /٢١٢/ عنها صبراً. فقال له يوحنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت، فأدمن أكلها، وحك بدنك، فلو نزل المسيح لك خاصة، لما انتفعت بدعائه، لما تصف به نفسك من الشره.

قال يوسف: وعاتبه النصارى على اتخاذ الجواري، وقالوا له: خالفت ديننا وأنت شماس، فأما إن كنت على سنتنا واقتصرت على امرأة واحدة، وكنت شماساً لنا؛ وإما أخرجت نفسك من الشماسية، وأخذت ما بدا لك من الجواري فقال: إنما أمرنا في موضع واحد أن لا نتخذ امرأتين ولا ثوبين، فمن جعل الجاثليق العاض بظر أمه أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من يوحنا الشقي في اتخاذ أربع جوار، فقولوا لجاثليقكم أن يلزم قانون دينه، حتى نلزمه معه، وإن خالفه خالفناه.

قال يوسف: وكان بختيشوع بن جبريل يداعب يوحنا كثيراً، فقال له يوماً في مجلس أبي إسحاق، ونحن في عسكر المعتصم بالمدائن، في سنة عشرين ومائتين: أنت يا أبا زكريا يا أخي لأبي. فقال يوحنا لأبي إسحاق: أشهد أيها الأمير على إقراره فوالله لأقاسمنه ميراثه من أبيه، فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنى لا يرثون، ولا يورثون وقد حكم دين الإسلام للعاهر بالحجر، فانقطع يوحنا، ولم يحر جواباً.

قال يوسف: وكانت دار الطيفوري في دار الروم من الجانب الشرقي من مدينة السلام لصيقة دار يوحنا بن ماسويه، وكان للطيفوري ابن قد علم الطب علماً يقال له دانيل، ثم ترهب بعد ذلك؛ فكان يدخل مدينة السلام عند تأدي الخبر إليه بعلة والده أو ما أشبه ذلك. وكان ليوحنا طاووس كان يقف على الحائط الذي فيما بين داره ودار الطيفوري، فقدم دانيل مدينة السلام ليلاً في الشهر المعروف بآب، وهو شهر شديد الحر كثير الرمد، فكان الطاووس كلما اشتد عليه الحر صاح فأنبه دانيل، وهو في ثياب صوف من ثياب الرهبان، فطرده مرات فلم ينفع ذلك، ثم رفع مرزبته فضرب بها رأس الطاووس فوقع ميتاً. واستتر الخبر عن يوحنا إلى أن ركب ورجع، /٢١٣/ فصادف عند منصرفه طاووسه ميتاً على باب داره، فأقبل يقذف بالجدود من قتله. فخرج إليه دانيل فقال: لا تشتم من قتله، فإني قتلته، ولك علي مكانه عدة طواويس. فقال له يوحنا بحضرتي: ليس يعجبني راهب له سنام وطول ذكر. إلا أنه قال ذلك بفحش. فقال له دانيل: وكذلك ليس يعجبني شماس له عدة نساء، واسم رئيسة نسائه القراطيس ـ وهو

اسم رومي لا عربي. ومعنى القراطيس عند الروم قرنانة، وليس تكون المرأة قرنانة حتى تنكح بغير بعلها ـ فخجل يوحنا ودخل منزله مفلولاً.

قال يوسف: وحدثني بمصر أحمد بن هارون الشرابي: أن المتوكل على الله حدثه في خلافه الواثق أن يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان كان للواثق في دجلة، وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك، فحرم الصيد، فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه، فقال: قم يا مشؤوم عن يميني. فقال له يوحنا: يا أمير المؤمنين، لا تتكلم بمحال، يوحنا بن ماسويه الخوزي وأمه رسال الصقلبية المبتاعة بثمانمائة درهم أقبلت به السعادة إلى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم، وحتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله. فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشؤوماً. ولكن إن أحب أمير المؤمنين أن أخبره بالمشؤوم من هو، أخبرته. فقال: ومن هو؟ فقال: من ولدته أربع خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة، فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فيغرقه ثم يتشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم، وهم صيادو السمك.

قال لي أحمد بن هارون قال لي المتوكل: فرأيت الكلام قد أنجع فيه إلاَّ أنه أمسك لمكاني.

قال يوسف: وحدثني أحمد بن هارون أن الواثق قال في هذا اليوم ليوحنا وهو على هذه الدكان: يا يوحنا ألا أعجبك من حالة؟ قال: وما هي؟ قال: إن الصياد ليطلب السمك مقدار ساعة، فيصيد السمكة تساوي الدينار أو ما أشبه ذلك. / ٢١٤/ وأنا أقعد منذ غدوة إلى الليل فلا أصيد ما يساوي درهماً. فقال له يوحنا: وضع أمير المؤمنين التعجب في غير موضعه، إن رزق الصياد من صيد السمك، فرزقه يأتيه؛ لأنه قوته وقوت عياله؛ ورزق أمير المؤمنين بالخلافة فهو غني عن أن يرزق بشيء من السمك، ولو كان رزقه في الصيد لوافاه رزقه منه مثل ما يوافي الصياد.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن علي متطبب أحمد بن طولون، أنه كان في دهليز يوحنا بن ماسويه ينتظر رجوع يوحنا من دار السلطان، فانصرف وقد أسلم في ذلك الوقت عيسى بن إبراهيم بن نوح كاتب الفتح بن خاقان. قال إبراهيم: فقمت إليه وجماعة من الرهبان، فقال لنا: اخرجوا يا أولاد الزنى من داري واذهبوا أسلموا فقد أسلم المسيح الساعة على يد المتوكل.

قال يوسف: وقدم جرجة بن زكريان عظيم النوبة، في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين إلى سر من رأى، وأهدى إلى المعتصم هدايا فيها قردة. فإني عند

يوحنا في اليوم الثاني من شوال من هذه السنة، وأنا أعاتبه على تخلفه عن حضور الدار، في ذلك الوقت، لأني رأيت سلمويه وبختيشوع والحريش المتطببين، وقد وصلوا، إذ دخل علينا غلام من الأتراك الخاصة ومعه قرد من القرود التي أهداها ملك النوبة لا أذكر أني رأيت أكبر منه جثة وقال له: يقول لك: أمير المؤمنين زوج هذا القرد من «حماحم» قردتك وكان ليوحنا قردة يسميها حماحم، كان لا يصبر عنها ساعة. فوجم لذلك ثم قال للرسول: قل لأمير المؤمنين اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين، وإنما دبرت تشريحها لأجل وضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح يكون وضعي إياه لأمير المؤمنين، وكان في جسمها ضعف فخفت أن تكون العروق فيها، والأوراد والعصب دقاقاً، فلم أطبق في إيضاح الأمر فيها مثل إيضاحها فيما عظم جسمه، فتركتها لتكبر ويغلظ جسمها، فأما إذ قد وافى هذا / ٢١٥/ القرد فسيعلم أمير المؤمنين أني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله. ثم فعل ذلك بالقرد فظهر له منه كتاب حسن استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

قال يوسف: واعتل محمد بن سليمان بن الهادي المعروف بأبي مشغوف علة تطاولت به، وكان أبو العباس بن الرشيد يلزم يوحنا ويتعاهده، وكان محمد بن سليمان ربما يزيد في الحديث أشياء لا يخيل باطلها على سامعها. فدخل إليه يوماً وأنا عنده، فاستشاره فيما يأخذ. فقال يوحنا: قد كنت أشير عليك بما تأخذ في كل يوم وأنا أحسبك تحب الصحة والعافية، فأما إذا صح عندي أنك تكره العافية وتحب العلة فلست أستحل أن أشير عليك بشيء. فقال له أبو مشغوف: يا جاهل من يكره العافية ويحب العلة؟ فقال له يوحنا: أنت، والبرهان على ذلك أن العافية في العالم تشبه الحق والسقم يشبه الكذب، وأنت تتكلم أكثر دهرك بالكذب، فيكون كذبك مادة لسقمك فمتى تبرأ أنت من عدة متطاولة، وأنت تمدها أكثر دهرك بالكذب فيكون كذبك زائداً فيها، فالزم الصدق ثلاثة أيام ولا تكذب فيها، فيوحنا بريء من المسيح، إن لم تخرج من هذه العلة قبل انقضاء هذه الثلاثة الأيام.

ونقلت من كتاب «الهدايا والتحف» لأبي بكر وأبي عثمان الخالديين قالا: حدثنا أبو يحيى، قال: افتصد المتوكل، فقال لخاصته وندمائه: اهدوا إلي يوم فصدي، فاحتفل كل واحد منهم في هديته. وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالاً، فدخلت إليه ومعها جام ذهب في نهاية الحسن، ودنٌّ بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الوصف، ورقعة فيها مكتوب: [من الوافر]

إذا خَـرجَ الإمـامُ مِـنَ الـدواءِ وأعـقـبَ بـالـسـلامـةِ والـشـفـاءِ

فليس له دواءٌ غير شُربٍ بهذا الجام مِنْ هذا الطِّلاءِ
وفضُّ الخاتِم المُهدىَ إليهِ فهذا صالحٌ بعدَ الدَّواءِ

/٢١٦/ فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه، وكان بحضرته يوحنا بن ماسويه. فقال: يا أمير المؤمنين، الفتح والله، أطب مني فلا تخالف ما أشار به.

قال: ومن نوادر يوحنا بن ماسويه أن المتوكل قال له يوماً: بعث بيتي بقصرين. فقال له: آخر الغداء يا أمير المؤمنين ـ أراد المتوكل تعشيت فضرني؛ لأنه تصحيفها ـ فأجابه ابن ماسويه بما يضمن العلاج.

وعيب ابن حمدون النديم ابن ماسويه بحضرة المتوكل، فقال له ابن ماسويه: لو أن مكان ما فيك من الجهل عقلاً، ثم قسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منها أعقل من أرسطوطاليس.

ووجدت في كتاب جراب الدولة، قال: دخل ابن ماسويه الطبيب إلى المتوكل، فقال المتوكل لخادم له: خذ بول فلان في قارورة وايت به إلى بين يدي ابن ماسويه. فأتى به فلما نظر إليه، قال: هذا بول بغل لا محالة. فقال له المتوكل: كيف علمت أنه بغل؟ قال ابن ماسويه: أحضرني صاحبه حتى أراه، ويتبين كذبي من صدقي. فقال المتوكل: هاتوا الغلام. فلما مثل بين يديه قال له ابن ماسويه: إيش أكلت البارحة؟ قال: خبز شعير، وماء قراح فقال ابن ماسويه: هذا والله طعام حماري اليوم.

ونقلت من خط المختار بين الحسن بن بطلان أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه قال اجتمعا، بغالب ظني، على مائدة اسماعيل بن بلبل الوزير. وكان من جملة ما قدم مضيرة بعد سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما. قال له أبو عثمان: أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر، فهو دواء له، وإن كانا طبعاً واحداً، فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا. فقال يوحنا: والله مالي خبرة بالكلام، ولكن كل يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد. فأكل أبو عثمان نصرة لدعواه، ففلج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة المحال من القياس. والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن. ولو سامحناه في أنهما من طبع واحد، لكان لامتزاجهما /٢١٧/ قوة ليست في أحدهما.

وحدث الصولي في «كتاب الأوراق» قال: كان المأمون نازلاً على البذندون ـ نهر من أعمال طرسوس ـ فجلس يوماً وأخوه المعتصم عليه، وجعلا أرجلهما فيه استبراداً له، وكان أبرد الماء وأرقه وألذه. فقال المأمون للمعتصم: أحببت الساعة من أزاذ العراق أكلة وأشرب عليه من هذا الماء البارد، وسمع صوت حلقة البريد

وأجراسه، فقيل: هذا يزيد بن مقبل يريد العراق، فأحضر طبقاً من فضة فيه رطب أزاذ فعجب من تمنيه وما تم له. فأكلا وشربا من الماء ونهضا وتودع المأمون وأقال، ثم نهض محموماً، وفصد فظهرت في رقبته نفخة كانت تعتاده ويراعيها الطبيب إلى أن تنضج وتفتح وتبرأ. فقال المعتصم للطبيب، وهو ابن ماسويه، ما أظرف ما نحن فيه تكون الطبيب المتفرد المتوحد في صناعتك، وهذه تعتاد أمير المؤمنين، ولا تزيلها عنه، وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع إليه! والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضربن عنقك. فاستطرق ابن ماسويه لقول المعتصم وانصرف، فحدّث به بعض من يثق به ويأنس منه، فقال: تدري ما قصد المعتصم؟ قال: لا. قال: قد أمرك بقتله حتى لا تعود النفخة إليه، وإلا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفع الأمراض عن الأجسام، وإنما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليه. فتعالل ابن ماسويه وأمر تلميذاً له بمشاهدة النفخة والتردد إلى المأمون نيابة عنه، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المأمون، وما تجدد له، فأمره بفتح النفخة، فقال: أعيذك بالله، ما احمرت ولا بلغت إلى حد الجرح، فقال له: امض وافتحها كما أقول لك ولا تراجعني. فمضى وفتحها، ومات المأمون رحمه الله.

أقول: إنما فعل ابن ماسويه ذلك؛ لكونه كان عديم المروءة وعديم الدين والأمانة، وكان على غير ملة الإسلام، ولا له تمسك بدينه أيضاً كما حكى عنه يوسف بن إبراهيم في أخباره /٢١٨/ المتقدمة. ومن ليس له دين يتمسك به ويعتقد فيه فالواجب أن لا يدانيه عاقل ولا يركن إليه حازم.

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه بسر من رأى يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين في خلافة المتوكل.

ومن كلام يوحنا بن ماسويه: سئل عن الخير الذي لا شر معه فقال: القليل من الشراب الصافي.

ثم سئل عن الشر الذي لا خير معه فقال: نكاح العجوز.

وقال: أكل التفاح يرد النفس.

وقال: عليك من الطعام بما حدث، ومن الشراب بما عتق[١].

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٤٦ـ ٢٥٥.

[٣٠]

ميخائيل بن ماسويه(١)

طبيب المأمون، وربيب ذلك الفضل الممنون، نفق على ذلك الفاضل، ودفع كل مناضل، لا يكذب يقينه منية الصدوق، ولا يلز جواده السبوق، فطما مع ذلك البحر المحيط، .وحج إليه الوفد وأول ما نزع المخيط.

قال يوسف بن إبراهيم مولى ابن المهدي: حضر ابن ماسويه دار ابن المهدي مع جماعة من وجوه الأطباء، وكانت أمه شكلة عليلة، فنظروا إلى مائها وجسوا عرقها ثم عادوا في اليوم الثاني، فقالوا كلهم: إنها أصبحت صالحة لا يشكون في إفراقها، فلما نهضوا أتبعتهم فسألت واحداً واحداً عما عنده فيها، فكلهم قال مثل مقالته إلا ابن سلمويه؛ فإنه قال: هي اليوم أصعب حالاً من أمس، وقال لي ميخائيل: إنه قد ظهر بالأمس بالقرب من قلبها مرض ورم ولم نره اليوم، افتراه ساخ في الأرض أو ارتفع إلى السماء. انصرف فأعدَّ لهذه المرأة جهازها، فليست تبيت من الأحياء، فتوفيت وقت صلاة العشاء.

ومنهم:

[٣١]

حُنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد(٢)

والعباد بفتح العين قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة.

---

(١) كان حياً سنة ٢١٨هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٥٥ـ ٢٥٧، أخبار العلماء ٣٢٨، أعلام الحضارة ٢/ ٤٩٧ رقم ٥٣٩.

(٢) حُنين بن إسحاق العِبَادي: أبو زيد: طبيب، مؤرخ، مترجم: كان أبوه صيدلانياً، من أهل الحيرة (في العراق) ولد فيها سنة ١٩٤هـ/ ٨١٠م، وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، فانتهت إليه رياسة العلم بها بين المترجمين؛ مع إحكامه العربية، وكان فصيحاً بها شاعراً. واتصل بالمأمون فجعله رئيساً لديوان الترجمة، وبذل له الأموال والعطايا. وجعل بين يديه كتاباً نحارير عالمين باللغات، كانوا يترجمون، ويتصفح حُنين ما ترجموا فيصلح ما يرى فيه خطأ. ولخص كثيراً من كتب أبقراط وجالينوس وأوضح معانيها. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله إلى العربية من الكتب، فكان يختار لكتبه أغلظ الورق، ويأمر كتابه أن يخطوها بالحروف الكبيرة ويفسحوا بين السطور. ورحل رحلات كثيرة إلى فارس وبلاد الروم. =

كان من أبناء / ٢١٩/ الصيارف، وأبى إلا أبناء المعارف. تعلق بالعلم يطلب تحصيله، وتيقن تأصيله. يغادي إليه أيامه ويبكر، ويهاجر منامه ولا يهجر، وكان لا يرفع له علم قدر، ولا يوسع له أكرم صدر، لمهنة آبائه الوضيعة، واهنة أماناتهم المضيعة، ونفسه تأنف له أن يرى بعين هضيمة، أو يراقب بمعاملة مضيمة، فنهض نهضة ثائر، وقام قومة سائر، ودخل بلاد الروم فتخلق بأخلاقهم، وجاء على وفاقهم، حتى كان كأحد علمائهم وأوحد حكمائهم، ثم خرج متنكراً لا يعرف من الأعياص عيصُه، ولا من أي المصايد قنيصُه، حتى أجلّه من كان لا يجله، وقل لديه من كان يستقله.

ذكره يوسف بن إبراهيم في سبب ظهوره ما مختصره: أن حنين العبادي كان يقرأ

= وعاصر تسعة من الخلفاء. وكان يحفظ إلياذة هوميروس. له كتب ومترجمات كثيرة تزيد على مئة، منها «تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم» إلى زمنه، و«الفصول الأبقراطية ـ ط» في الطب، و«سلامان وأبسال ـ ط» قصة مترجمة عن اليونانية، و«القول في حفظ الأسنان واستصلاحها ـ خ» في الظاهرية بدمشق، و«الضوء وحقيقته ـ ط» رسالة كتبها بالسريانية وترجمها إلى العربية قيم بن هلال الصابىء، وله كتاب «حيلة البرء ـ خ» مما ترجمه عن جالينوس، نسخة منه ناقصة الآخر، في مكتبة لورنزيانا، بفلورانس (الرقم ٢٧٤ شرقي) ومنه نسخة أخرى في خزانة القرويين (الرقم ٢٦٤٨) تحوي جُل المقالة الرابعة والخامسة وأول السادسة. وله «التشريح الكبير ـ خ» عن جالينوس أيضاً، فيه نقص، في القرويين (الرقم ٢٥٠٦) و«المسائل في العين ـ ط» و«المدخل إلى علم الروحانيات ـ خ» صغير، و«المسائل في الطب للمتعلمين ـ خ» في مغنيسا و«قوى الأغذية ـ خ» ترجمه عن جالينوس أيضاً، و«تدبير الأصحاء ـ خ» عن جالينوس أيضاً. ومات في بغداد سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م.

ترجمته في: عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ١٤١، ٢٨٧، ومروج الذهب ٤٩١، ١٣٤٥، ١٣٦٨، ٢٨٥٧، ٢٨٦٢ـ ٢٨٦٦، والفهرست لابن النديم ٢٩٤، وطبقات الأطباء لابن جلجل ٦٨ـ٧٢، والهفوات النادرة ٢٦٨، والمنتظم ٥/ ٢٤ رقم ٥٠، والكامل في التاريخ ٧/ ٤، ٢ وفيه «حسين» بدل «حنين» وهو غلط، وتاريخ الزمان لابن العبري ٤٣، وتاريخ مختصر الدول، له ٨٢، ١٠٣، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ٢٣٨، وأخبار العلماء للقفطي ١١٧ـ١٢٢، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٥٧ـ ٢٧٤، وطبقات الأمم لابن صاعد ٣٦ـ ٣٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٧ـ ٢١٨، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٩ـ ٥٠، ودول الإسلام ١/ ١٥٨، والعبر ٢/ ٢٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٩٢ رقم ١٧٩، البداية والنهاية ١١/ ٣٢، والوافي بالوفيات ١٣/ ٢١٥ـ٢١٧ رقم ٢٥٥، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ١٦، ومرآة الجنان ٢/ ١٧٢، والوفيات لابن قنفذ ١٨٢ رقم ٢٦٠، وكشف الظنون ٢١٧، ١٤٦٨، ١٥١٣، ١٧٨٢، ١٩٧٩، وروضات الجنان ٢٦٤، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٢٠٥، ومعجم المؤلفين ٤/ ٨٧ـ ٨٨، وديوان الإسلام للغزي ٢/ ١٣٥ـ ١٣٦ رقم ٧٤٧، وهدية العارفين ١/ ٣٣٩، الأعلام ٢/ ٢٨٧ـ ٢٨٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١ـ٢٦٠هـ) ص ١٢٨ رقم ١٨٨، أعلام الحضارة ١/ ٤٠٦ـ٤٣١ رقم ١٩٨. وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

على ابن ماسويه ورهط ابن ماسويه من أهل جنديسابور ويكرهون أهل الحيرة فكره ذات يوم من العبادي كثرة سؤاله فطرده، وقال له: شأنك أن تكون صيرفياً، فخرج من عنده وآلى أن يتعلم لغة يونان كأحسن ما يكون، فجمعني به مجلس فإذا بإنسان له شعرة قد جلَّلته، وقد ستر وجهه عني ببعضها، وطفق ينشد شعراً بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم، فعرفته بنغمته، وكان عهدي به بعيداً، فاستكتمني حاله وسألني الستر عليه، فبقيت أكثر من ثلاث سنين أو أربعٍ لم أره، ثم أني دخلت على ابن بختيشوع وقد انحدر من معسكر المأمون، فوجدته عنده وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس، وهو يخاطبه بالإنجيل ويقول له: يا زين حنين يعني أيها المعلم، فأعظمت ما رأيت وتبين ذلك جبريل في وجهي، فقال: لا تستنكرن ما ترى من تبجيلي هذا الفتى، فوالله إن مُدَّ له في العمر ليفضحن الأول ثم خرج حنين وتبعته، فوجدته ينتظرني فسلم عليَّ وقال: كنت سألتك ستر خبري والآن أسألك إظهاره وإظهار ما /٢٢٠/ سمعت جبريل يقوله فيَّ، فقلت: إني أسود وجه ابن ماسويه بما سمعته، فقال: تمام سواد وجهه أن تدفع إليه هذه النسخة ولا تعلمه من نقلها فإذا استدعى بها، أعلمه أنها إخراجي، ففعلت ذلك من يومي. فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول وهي التي يسميها اليونان «الفاعلان» قال: أترى المسيح أوحى في دهرنا هذا إلى أحد، فقلت له: ما أوحى المسيح في هذا الدهر ولا في غيره إلى أحد، ولا كان إلى أحد من يوحي إليه، فقال له: دعني فليس هذا إلاَّ إخراج مؤيدٌ بروح القدس، فقلت له: هذا إخراج حنين بن إسحاق الذي طردته وأمرته أن يعمل صناعة الصيارف، فقال: هذا محال ثم صدق القول، وسألني التلطف في إصلاح ما بينهما ففعلت، وأفضل عليه، ثم لم يزل له مُبجلاً، ثم لازم ابن ماسويه وأخذ عنه صناعة الطب، ونقل له كتباً كثيرة، ثم لما رأى المأمون في منامه كأن شيخاً بهياً جالساً على منبر وهو يخطب ويقول: أنا أرسطاطاليس، احضر حنين بن إسحاق وسأله عنه فأخبره فأمره بنقل كتب الحكماء إلى اللغة العربية، وبذل له أموالاً جمة، وقيل للخليفة إن ملك الروم ربما دَسَّهُ عليك، فكان لا يأخذ بقوله بمفرده، ثم أراد اختباره فخلع عليه وأعطاه خمسين ألف درهم، ثم قال له: إني أريدك تصف لي دواءً أقتل به عدواً لي سِرّاً، فقال: إني لم أتعلم إلاَّ الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أن أمضي وأتعلم، فعلت ذلك، فقال: هذا شيء يطول ورغَّبه ورهَّبه، وهو لا يزيد على قوله فحبسه في بعض القلاع، ووكل من يأتيه بأخباره، فمكث سنةً غير مكترث بما هو فيه دأبه النقل والتفسير والتصنيف، ثم أحضره وأحضر له أموالاً وغيرها وسيفاً ونطعاً يرهبه

به، وهو على قوله، فقال له: إني أقتلك، فقال: إن لي رباً يأخذ بحقي فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه، فليفعل فتبسم له وقال: طب نفساً فإنما أردت أن أمتحنك لننتفع / ٢٢١/ بعلمك فقبل حنين الأرض وشكر له، فقال له الخليفة: ما منعك يا حنين من الإجابة عما رأيت منا في الحالين؟ فقال: شيئان، قال: ما هما؟ قال: الدين والصناعة فخلع عليه، وحمل المال بين يديه، وخرج وهو أحسن عنده حالاً.

قال الصقلي: كان حنين من رفقة سيبويه في الاشتغال في النحو على الخليل بن أحمد وخدم حنين المتوكل، وحظي في أيامه وكان يلبس زناراً.

قال القباني: كان حنين في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام يصب عليه الماء ويخرج فيلف بقطيفة، وقد أعد له هناب من فضة فيه رطل شراب وكعكة مثرودة فيه فيأكلها ويشرب الشراب، ويطرح نفسه حتى يستوفي عرقه وربما نام، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مُسمَّن قد طبخ بزيرباج ورغيف فيه مائتا درهم، فيحسو من المرق، ثم يأكل الفروج والخبز، وينام فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً ولم يذق غير هذا طول عمره، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والرمان والسفرجل.

وعمل عليه أعداؤه حتى مات غمَّاً في ليلة واحدة[1].

ومنهم:

[٣٢]

إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي، أبو يعقوب[2]

رجلٌ ما نهنه في طلب، ولا نبه له جفناً من طرب، ولم يُضع نصيبه من كل

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٥٧ـ ٢٦٣.

(٢) إسحاق بن حُنَيْن بن إسحاق العِبَادي: طبيب مترجم أفاد العربية بما نقله إليها من كتب الحكمة وشروحها. ولد في بغداد سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، خدم بعض الخلفاء من بني العباس، وألف كتباً كثيرة، منها «الأدوية المفردة» و«اختصار كتاب اقليدس» و«آداب الفلاسفة ونوادرهم» و«تاريخ الأطباء» ومما ترجمته «كليات أرسطاطاليس ـ ط» وقد تُرجم إلى اللاتينية و«شرح مقالات أرسطو في علم النفس ـ خ» من تأليف تامسطيوس، في خزانة القرويين بفاس الرقم ٣١٥٤ و«عنصر الموسيقى ـ خ» رسالة ذكرت في مجلة معهد المخطوطات (٤/ ٤١). وكان عارفاً باليونانية والسريانية، فصيحاً بالعربية. وفلج في آخر عمره، ومات فيها سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٧٤ـ ٢٧٥، أخبار العلماء ٨٠، تاريخ حكماء الإسلام ١٨، طبقات الأمم ٥٠، الفهرست ٤٥٢، وفيات الأعيان ١/ ١٥٨ رقم ٨٥، مروج الذهب ١٣٨٩، الوافي =

صالحة، وتصويبه إلى صوت كل صائحة، حتى لا يخل تقييده لشارده، ولا تعد يده لوارده، إلا أنه كان أميل إلى الحكمة المطلقة من مفرد الطب، وهي لديه آثر ما يحب، ولم يَخلُ من أدب راح يسوقه وأرضٍ يسوقه.

قال ابن أبي أصيبعة(١): كان يلحق بأبيه في النقل ومعرفة اللغات إلاَّ أنّ نقله لكتب الطب قليل جداً بالنسبة إلى نقله لكتب أرسطو. وخدم إسحاق من خدمه أبوه من الخلفاء والرؤساء، وكان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وخصيصاً به ومتقدماً عنده يُفضي إليه بأسراره / ٢٢٢/ وله حكايات مستظرفة ونوادر، وتوفي في أيام المقتدر.

ومن كلامه: قليل الراح صديق الروح، وكثيرها عدو الجسم.

وشرب دواءً مسهلاً فكتب إليه القاسم بن عبيد الله الوزير مداعباً: [من الهزج]

أبَـنْ لـي كـيـفَ أمسيتَ وكَـمْ كـانَ مِـنَ الـحـالِ
وكَـمْ سـارتْ بِـكَ الـنـاقـةُ نـحـوَ الـمَـنـزلِ الـخـالـي

فكتب إليه حنين بن إسحاق: [من الهزج]

بـخـيـرٍ كـنـتُ مسروراً رَخِـيَّ الـحـالِ والـبـالِ
فـأمَّـا الـسَّـيـرُ والـنـاقـةُ نـحـوَ الـمـنـزلِ الـخـالـي
فـإجـلالُـك أنـسـانـيـهِ يـا غـايـةَ آمـالـي

ومنهم:

[٣٣]

يوحنا بن بختيشوع(٢)

كان له جاهه شفيعاً، وعلمه يحله محلاً رفيعاً، حتى كان بدراً في منازل الخلافة

= بالوفيات ٨/ ٤١٠ـ٤١١ رقم ٣٨٦٤، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٦٦، البداية والنهاية ١١/ ١١٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١ـ٣٠٠ هـ) سنة ص١٠٧ رقم ١١٨، أعلام الحضارة ١/ ١٦١ـ١٦٦ رقم ٩٣، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ١/ ٢٩٤.

(١) عيون الأنباء ٢٧٤.

(٢) يوحنا بن يَخْتَيشُوع: طبيب. ترجم كثيراً من الكتب، عن اليونانية إلى السريانية، تسهيلاً لنقلها إلى العربية. وكان مختصاً بخدمة الموفق العباسي (طلحة بن جعفر) ويسميه هذا: مفرج كربي! له من الكتب بالعربية «تقويم الأدوية ـ خ» فيما اختاره من الأعشاب والأغذية، و«كتاب فيما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم». توفي نحو سنة ٢٩٠هـ/ نحو ٩٠٣م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٢٧٦ـ ٢٧٧، معجم المؤلفين ١٣/ ٢٥٨، الأعلام ٨/ ٢٠٩، أعلام الحضارة ٢/ ٥٦٦ـ٥٦٧ رقم ٥٨٤ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

طالعاً ونديماً دواعي السلافة طائعاً.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان طبيباً متميزاً خبيراً باليونانية والسريانية ونقل كتباً كثيرة، وخدم الموفق والناصر بن المتوكل، وكان يعتمد عليه ويسميه مفرج كُربي.

قال ابن طومار: كان الموفق إذا جلس للشرب، تقدم بين يديه صينية من ذهب، ومغسل من ذهب، وخرداذي بلور، وكوز بلور، ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه ويقدم إليه مثل ذلك، وكذلك بين يدي أبي غالب الطبيب، ويقدم إلى جمع الجلساء صواني مدهون وقناني زجاج وغير ذلك، وكان ابنه بختيشوع بمكانة من المقتدر وإقطاعات ثم كان عند الراضي كذلك.

ومنهم:

[٣٤]

ثابت بن قرة الحراني، أبو الحسن[٢]

سماء لا تصدأ مرآتها، وورقاء لا تزال تطرب ملهاتها، وكوكب أفق دري كيف

---

(١) عيون الأنباء ٢٧٦.

(٢) ثابت بن قُرَّة بن زهرون الحراني الصابىء، أبو الحسن: طبيب حاسب فيلسوف. ولد بحرَّان (بين دجلة والفرات) سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م وحدثت له مع أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه في المذهب، فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل، فخرج من حران، وقصد بغداد، فاشتغل بالفلسفة والطب فبرع، واتصل بالمعتضد (الخليفة العباسي) فكانت له عنده منزلة رفيعة. وصنف نحو ١٥٠ كتاباً، منها «الذخيرة في علم الطب ـ ط» و«المباني الهندسية ـ خ» رسالة، و«الشكل القطاع ـ خ» رسالة، و«مساحة المخروط الذي يسمى المكافىء ـ خ» رسالة، و«آلات الساعات ـ خ» في المزاول، و«تركيب الأفلاك» و«مسائل في الموسيقى ـ خ» في مغنيسا (الرقم ٧/ ١٧٠٥) و«طبائع الكواكب» و«الهيئة» و«علة الكسوف والخسوف» و«الرصد» و«تصحيح مسائل الجبر» بالبراهين الهندسية، و«مراتب العلوم» و«أصول الأخلاق» و«العمل في الكرة» و«تولد النار بين الحجرين» و«المسائل الطبية» و«كتاب الهندسة» نحو ألف صفحة. وأكثر كتبه في الهندسة والموسيقى. وكان يحسن السريانية وأكثر اللغات الشائعة في عصره، فترجم عنها كثيراً إلى العربية. وتوفي في بغداد سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م.

ترجمته في: مروج الذهب للمسعودي ٨٣٥، ١٣٢٨، ١٣٨٢، والفهرست لابن النديم ٢٧٢، والكامل في التاريخ ٧/ ٥١٠، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٧٣، ٢٨٦، والمنتظم لابن الجوزي ٦/ ٢٩، رقم ٣٧، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٩٥ـ٣٠٠، وتاريخ الزمان لابن العبري ٤٨، ووفيات الأعيان ١/ ٣١٣ـ٣١٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٨٥ـ ٤٨٦ رقم ٢٣٢، والبداية والنهاية ١١/ ٨٥، وشذرات الذهب ٢/ ١٩٦ـ١٩٨، والوفيات لابن قنفذ ١٩٣ رقم ٢٨٨، وتاريخ =

تسير الثواقب، وتصير المناقب، وتسوّر خود الثريا بالهلال ويخسأ رقيب العواء المراقب، ظهر له /٢٢٣/ من قوة الحدس ما كاد يعد كرامه، ويرد به البقاء، وقد كان الهلك رامه.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان من الصابئة المقيمين بحران، وتعلم على محمد بن موسى بن شاكر، فوصله بالمعتضد، فأدخله في جملة المنجمين، وهو أصل من كان ببغداد من الصابئة، ولم يكن في زمانه من يماثله في الطب ولا في غيره من أجزاء الفلسفة، وله تصانيف مشهورة بالجودة، وكذلك جاء جماعة من ذريته، وله أرصاد حسان للشمس تولاها ببغداد.

وكان يدخل إلى المعتضد إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرات يحدثه، ويؤنسه ويسليه، فشغف به فلما خرج من معتقله قال لغلامه بدر: يا بدر أي رجل أفدنا بعدك، فقال: من هو يا سيدي؟ قال: ثابت بن قرَّة. ثم أقطعه إقطاعاً جليلاً، وكان يجلسه بين يديه والوزير وبدر فوق.

وحكى أبو إسحاق الصابي: أن ثابت بن قرة بينما هو ماشٍ مع المعتضد في الفردوس، وقد اتكأ المعتضد على يده إذ نتر يده من يده بشدة، ففزع ثابت لأن المعتضد كان مهيباً ثم لما نترها قال له: يا أبا الحسن ـ وكان يكنيه في الخلوة ـ سهوتُ ووضعتُ يدي على يدك، وما هكذا يجب؛ لأن العلماء يَعلون ولا يُعلون.

وحكي أنه اجتاز يوماً إلى دار الخلافة، فسمع صياحاً وعويلاً، فقال: ما هذا؟ قالوا: مات القصاب الذي كان هنا فجأة، فأتى إليه وأمر النساء بالسكون، وأن يعملوا مزوَّرة، وأمر بعض غلمانه أن يضرب القصاب على كعبه بالعصا، وجعل يده في مجسه، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال: حسبك، ثم استدعى بقدح وأخرج من كمه دواء فدافه في القدح بقليل ماء، وفتح فم القصاب وسقاه إياه، فأساغه ووقعت الصيحة في الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت، فتقدم ثابت بغلق الباب، وفتح القصاب عينه وأطعمه المزوَّرة وأجلسه وقعد عنده ساعة، وإذا برسل الخليفة يدعونه،

= الحكماء للقفطي ١١٥، ١٢٢، وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٧٥، وطبقات الأمم ٣٧، والمِلَل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٠٢ـ٢٥١، ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ١٨٩ـ١٩١، أعلام الحضارة ١/ ١٨٩ـ٢١٤ رقم ١٢٤ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، ونهاية الأرب ٢٢/ ٣٥٩، ومرآة الجنان ٢/ ٢١٥ـ ٢١٦، والوافي بالوفيات ١٠/ ٤٦٦ـ٤٦٧ رقم ٤٩٧٣، ومعجم المؤلفين ٣/ ١٠١، ١٠٢، والأعلام ٢/ ٩٨، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٨١ـ٢٩٠هـ) ص ١٣٧ رقم ١٦٧.

(١) عيون الأنباء ٢٩٥.

فلما مثل بين يديه، قال له: يا ثابت ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك، فقال: يا مولاي /٢٢٤/ كنت أجتاز بهذا القصاب، وأراه يشرح الكبد، ويطرح عليها الملح ويأكلها، وكنت أعلم أنه سيلحقه سكتة، فأعددت له هذا الدواء، فلما قيل لي اليوم أنه مات فجأةً البارحة، علمت أن السكتة قد لحقته، فدخلت إليه فلم أجد له نبضاً فضربته إلى أن حركت نبضه، وسقيته الدواء ففتح عينيه، وأطعمته مزوَّرة، والليلة يأكل رغيفاً بدراجٍ، وفي غدٍ يخرج من بيته.

ومن كلامه قوله: ليس على الشيخ أضرُّ من أن يكون له طباخ حاذق، وجارية حسناء، فيستكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم.

ولما مات ابن قرة رثاه ابن المنجم النديم بقصيدة منها: [من الطويل]

نَعَينا العلومَ الفلسفياتِ كلَّها ... خَبَا نُورُها إذْ قيلَ قدْ ماتَ ثابتُ
ولَمَّا أتاهُ الموتُ لمْ يُغْنِ طبُّهُ ... ولا ناطقٌ مما حَواهُ وصامتُ
فلوْ أنَهُ يُستطاعُ للموتِ مَدفَعٌ ... لدافعَهُ عنهُ حُماةٌ مَصَالِتُ
أُؤَمِّلُ أَنْ تُجلَى عَنِ الحقِّ شُبهةٌ ... وشخصُكَ مقبورٌ وصوتُكَ خافِتُ
وقدْ كانَ يَجلُو حُسْنُ تَبيينِكَ العَمَى ... وكلُّ قَؤُولٍ حينَ تنطقُ ساكتُ
كأنكَ مسؤولاً مِنَ البَحرِ غارفٌ ... ومُستبدئاً نُطقاً مِنَ الصَّخْرِ ناحِتُ
فلمْ يتفقَّدْني مِنَ العِلمِ واحدٌ ... هَرَاقَ إناءَ العِلمِ بعدَكَ كابتُ
عَجِبتُ لأرضٍ غيّبتكَ ولَمْ يكنْ ... ليثبتَ فيها مثلُكَ الدهرَ ثابتُ
وأَحسنتَ حتى لمْ يكن لكَ مُبغِضٌ ... ولايَكُ لمَّا اغتالكَ المَوتُ شامِتُ
مَضَى عَلَمُ العِلمِ الذي كانَ مُقنِعاً ... فلمْ يبقَ إلا مُخطئٌ مُتهافتُ[1]

ومنهم:

[٣٥]

سنان بن ثابت بن قرة، أبو سعيد[2]

مقرب كل بعيد، ومقرّص سبب كل وعيد، ما صحب صعباً إلا دَمَّثَ شيمته، وليَّن شكيمته، ودَلَّه على كرم الأخلاق، ودل عليه وثَوبُ عِرضه لا يمزقه الإخراق.

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٩٥ـ ٢٩٨.

(٢) سِنَان بن ثابت بن قرَّة الحراني، أبو سعيد: طبيب عالم. أصله من حران، ومنشأه ببغداد. كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي وجعله رأساً للأطباء ـ وكان منهم ببغداد ثمانمائة وستون طبيباً، لم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب إلا بعد أن امتحنه سنان ـ وخدم القاهر بالله والراضي =

قال ابن أبي أصيبعة: كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم، وله قوة بالغة في علم الهيأة، /٢٢٥/ وخدم المقتدر، والراضي، وأراده القاهر على الإسلام، فهرب إلى خراسان ثم عاد وتوفي ببغداد مسلماً.

وكان على البيمارستان، وكانت تواقيع الوزير عيسى بن علي تأتيه بقرب فينفذها، منها تفقد المحابيس وأهل السواد بالأطباء والأدوية والأغذية حتى كتب يستأذنه في أهل الذمة، فكتب إليه الوزير: أكرمك الله ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صوابٌ، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل عليه معالجة الناس قبل البهائم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فاعمل على ذلك واكتب إلى أصحابك به، ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية.

واستجد في زمانه مارستان السيدة بسوق يحيى، والمارستان المقتدري، ثم خدم بعد الراضي بحكم فريَّض أخلاقه، وسكن سورة غضبه وكان قد شكا إليه ما يجده من ذلك، فقال له كلاماً زبدته: أنت قادر متى شئت على الانتقام، فإذا أردت إيقاع نقمة بأحد أخرها إلى الغد؛ لوثوقك بقدرتك، فالغضب كالسكر إذا بات زال[١].

ومنهم:

[٣٦]

ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني[٢]

كان يتكلم بالحدس الصحيح، على كل مُغيَّب، ويتقدم عند ملوك قريش على كل أخلافي ومطبِّب، لم يبالغ في وصفه من تعدى، ولا ذكر معجز عجائبه إلا من ظن أنه بها يتحدى.

= (العباسيين) مدة، وتوفي في بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، من تصانيفه رسالة في «النجوم» ورسالة في «شرح مذهب الصابئين» ورسالة في «أخبار آبائه وأجداده» واصلح كتاب أفلاطون في «الأصول الهندسية» وزاد فيه كثيراً. وله رسالة في «تاريخ ملوك السريانيين» وكتاب «التاجي» عدة أجزاء، في مفاخر الديلم وأنسابهم، قيل: صنفه لعضد الدولة، وترجم إلى العربية «نواميس هرمس» و«السور والصلوات» التي يصلي بها الصابئون.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٠٠ـ ٣٠٤، وأخبار العلماء ١٩٠، وطبقات الأمم ٥١، والفهرست للنديم ٤٣٦، وأعلام الحضارة ١/ ٤٦٥ـ ٤٦٨ رقم ٢٤٢ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ٣/ ١٤١.

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٠٠ـ ٣٠٢.

(٢) توفي سنة ٣٦٥هـ.

=

ذكره ابن أبي أصيبعة فقال[1]: كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية، وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعاً على أسرار الطب. وكان مع ذلك ضنيناً بما يحسن.

نقلت من خط ابن بطلان، قال: كان قد اسكت أبو طاهر بن بقية في داره الشاطئة على الجسر ببغداد، وقد حضر الأمير عز الدولة بختيار، والأطباء مجمعون على أنه قد مات. فتقدم أبو الحسن الحراني، وكنت أصحبه يومئذ، فقال: أيها الأمير إذا كان قد مات، فلن يضره الفصاد، فهل تأذن لي في فصده؟ قال له: افعل يا أبا الحسن. ففصده، فرشح منه دم يسير. ثم لم يزل يقوى الرشح إلى أن صار الدم /٢٢٦/ يجري، فأفاق الوزير. فلما خلوت به سألته عن الحال، وكان ضنيناً بما يقول، فقال: إن من عادة الوزير أن يستفرغ في كل فصل ربيع دماً كثيراً من عروق المقعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابت القوة من خناقها.

قال عبيد الله بن جبريل: لما دخل عضد الدولة، رحمه الله، إلى بغداد كان أول من لقيه من الأطباء أبو الحسن الحراني، وكان شيخاً مسناً، وسنان وكان أصغر من أبي الحسن؛ وكانا عالمين فاضلين، وكانا جميعاً يسعدان المرضى، ويمضيان إلى دار السلطان، فحسن ثناؤه عليهما. ولما دخلا إلى عضد الدولة قال: من هؤلاء؟ قالوا: الأطباء. قال: نحن في عافية، وما بنا حاجة إليهم. فانصرفا خجلين. فلما خرجا إلى الدهليز، قال سنان لأبي الحسن: يجمل أن ندخل إلى هذا الأسد؛ ونحن شيخان فيفترسنا؟ قال له أبو الحسن: فما الحيلة؟ قال: نرجع إليه، وأنا أقول ما عندي، وننظر أيش الجواب قال: افعل. فاستأذنا ودخلا. فقال سنان: أطال الله بقاء مولانا، موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض. والملك أحوج الناس إليه. فقال له عضد الدولة: صدقت. وقرر لهما الجاري السني وصارا ينوبان مع أطبائه.

قال عبيد الله بن جبريل: ولهم أحاديث كثيرة حسنة، فيها حديث قلاّء الكبود. وذلك أنه كان بباب الأزج إنسان يقلي الكبود، فكانا إذا اجتازا عليه دعا لهما وشكرهما، وقام لهما حتى ينصرفا عنه. فلما كان في بعض الأيام اجتازا فلم يرياه،

= ترجمته في: عيون الأنباء ٣٠٧ـ ٣١١، أخبار العلماء ١١١، والفهرست ٣٠٣، وتاريخ مختصرالدول لابن العبري ١٧٣ـ١٧٤ وفيه وفاته سنة ٣٦٩، والوافي بالوفيات ١٠/ ٤٦٥ رقم ٤٩٧٠، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ـ٣٨٠هـ) ص٣٥٦، الأعلام ٢/ ٩٧، وأعلام الحضارة ١/ ١٨٦ـ١٨٧ رقم ١٢٢، ومعجم المؤلفين ٣/ ٩٩، وتاريخ تراث العلوم الطبية ١٨٥ـ١٨٦.

(١) عيون الأنباء ٣٠٧.

فظنا أنه قد شغل عنهما. ومن غد سألا عنه، فقيل لهما: إنه الآن قد مات. فعجبا من ذلك، وقال أحدهما للآخر: له علينا حق يوجب علينا قصده ومشاهدته. فمضيا جميعاً وشاهداه، فلما نظراه تشاورا في فصده، وسألا لأهله أن يؤخروه ساعة واحدة؛ ليفكروا في أمره، ففعلوا ذلك، وأحضروا فاصداً ففصده فصدة واسعة، فخرج منها دم غليظ. وكان كلما خرج الدم خف عنه، حتى تكلم. وسقياه ما يصلح، وانصرفا عنه. ولما كان في اليوم الثالث خرج إلى دكانه. فكان هذا من المعجز لهما. فسئلا عن /٢٢٧/ ذلك، فقالا: سببه أنه كان إذا قلى الكبود يأكل منها، وبدنه يمتلىء دماً غليظاً وهو لا يحس، حتى فاض من العروق إلى الأوعية، وغمر الحرارة الغريزية وخنقها، كما يخنق الزيت الكثير الفتيلة التي تكون في السراج. فلما بدروه بالفصد، نقص الدم، وخف عن القوة الحمل الثقيل، وانتشرت الحرارة، وعاد الجسم إلى الصحة.

وهذا الامتلاء قد يكون من البلغم أيضاً، وقد ذكر أسبابه الفاضل جالينوس في كتابه في تحريم الدفن قبل أربع وعشرين ساعة.

قال عبيد الله بن جبريل: ومن أحسن ما سمعت عن أبي الحسن الحراني أنه دخل إلى قرابة الشريف الجليل محمد بن عمر، رحمه الله، وكان إنساناً نبيل القدر قد عارضه ضيق نفس شديد صعب. فأخذ نبضه وأشار بما يستعمله، فشاوره في الفصد، فقال له: لا أراه وإن كان يخفف المرض تخفيفاً بيناً. وانصرف. وجاءه أبو موسى المعروف ببقة الطبيب، وأبصر نبضه وقارورته وأشار بالفصد. فقال له الشريف: قد كان عندي أبو الحسن الحراني الساعة وشاورته في الفصد، فذكر أنه لا يراه صواباً. فقال بقة: أبو الحسن أعرف. وانصرف، فجاءه بعض الأطباء الذين هم دون هذه الطبقة، فقال: يفصد سيدنا الساعة فإنه في الحال يسكن. وقوي عزمه على الفصد ولم يبرح حتى فصده، فعندما فصده خف عنه ما كان يجده خفاً بيناً، ونام وسكن عنه واغتدى وهو في عافية. فعاد إليه أبو الحسن الحراني آخر النهار، فوجده ساكناً قاراً، فلما رآه على تلك الحال، قال له: قد فصدت؟ فقال: كيف كنت أفعل ما لم تأمرني به؟ قال: ما هو هذا السكون إلا للفصد. فقال له الشريف: لما علمت بهذا لم لا فصدتني؟! قال أبو الحسن الحراني: إذ قد فصد سيدنا، فليبشر بحمى ربع سبعين دور، ولو أن بقراط وجالينوس عنده ما تخلص إلا بعد انقضائها. واستدعى دواة ودرجاً، ورتب تدبيره لسبعين نوبة ودفعه إليه. وقال: هذا تدبيرك، فإذا انقضى ذلك جئت إليك. وانصرف. فما مضى /٢٢٨/ أيام حتى جاءت الحمى، وبقيت كما قال، فما خالف تدبيره حتى برىء.

قال عبيد الله بن جبريل: ومن أخباره أنه كان للحاجب الكبير غلام، وكان

مشغوفاً به، واتفق أن الحاجب صنع دعوة كبيرة كان فيها أجلاء الدولة. ولما اشتغل بأمر الدعوة، حُمَّ الغلام حمى حادة، فورد على قلب الحاجب من ذلك مورداً عظيماً، وقلق قلقاً كثيراً. واستدعى أبا الحسن الحراني فقال له: يا أبا الحسن أريد الغلام يخدمني في غداة غد، اعمل كل ما تقدر عليه، وأنا أكافئك بما يضاهي فعلك. فقال له: يا حاجب إن تركت الغلام يستوفي أيام مرضه عاش، وإلا فتمكِّنِّي من ملازمته أن يقوم في غد لخمتك. ولكن إذا كان في العام المقبل في مثل هذا اليوم يحم حمى حادة، ولو كان من كان عنده من الأطباء لم ينجع فيه مداواته، ويموت أما في البُحران الأول أو الثاني، فانظر أيهما أحب إليكِ. فقال له الحاجب: أريد أن يخدمني في غد، وإلى العام المقبل فرج. ظناً من هذا أنه من الأحاديث المدفوعة. فلازمه أبو الحسن، ولما كان في غد أفاق وقام في الخدمة وأعطى الحاجب لأبي الحسن خلعة سنية ومالاً كثيراً، وصار يكرمه غاية الإكرام. فلما كان في العام المقبل في مثل اليوم الذي حم فيه الغلام، عاودته الحمى، فأقام محموماً سبعة أيام ومات. فعظم في نفس الحاجب وجماعة من الناس قوله، وكبر لديهم محله، وكان هذا منه كالمعجز[1].

ومنهم:

[٣٧]

ابن وصيف الصابىء[2]

كان يصبو إليه كل حكيم، ويصيب لديه غرضه كل عليم، لا يرض له صخره، ولا يرضى لغيره فخره، ولا يزال يعده كل عليل لصعب الأدواء ذخره.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[3]: كان طبيباً عالماً بعلاج أمراض العين، ولم يكن في زمانه أعلم منه في ذلك، ولا أكثر مزاولة.

قال سليمان: حدثني أحمد بن يونس الحراني، قال: حضرت بين يدي أحمد بن وصيف الحراني وقد أحضر سبعة أنفس لقدح أعينهم، وفي جملتهم رجل من أهل خراسان أقعده بين / ٢٢٩/ يديه ونظر إلى عينيه، فرأى ماء متهيأً للقدح، فسامه على ذلك، فطلب

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٠٧ـ ٣٠٩.

(٢) أحمد بن وصيف الحراني الصابي.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣١١، أخبار العلماء ٤٣٤، طبقات الأطباء ٨١، أعلام الحضارة ١/ ١٥٠ رقم ٨٥.

(٣) عيون الأنباء ٣١١.

إليه فيه، واتفق معه على ثمانين درهماً، وحلف أنه ما يملك غيرها. فلما حلف الرجل اطمأن فضمه إلى نفسه، ورفع يده على عضده فوجد بها نطاقاً صغيراً فيه دنانير، فقال له ابن وصيف: حلفت بالله حانثاً وأنت ترجو رجوع بصرك إليك؟ والله لا عالجتك إذ خدعتك بك. فطلب إليه فيه، فأبى أن يقدحه وصرف إليه الثمانين درهماً ولم يقدحه.

ومنهم:

[٣٨]

غالب، طبيب المعتضد[١]

ما عاد مريضاً فعاد مهيضاً، ولا زار عليلاً فشكا غليلاً، ولا أتى لقًى بقلبه الضنى إلا نهض من مضجعه، ونهى عن الضراء به توجعه. نفق في مثل سوق المعتضد، ووافق منه ظن المعتقد، وكان منه حيث لا يقر قرار المعتمد.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان يخدم الموفق أيام أبيه المتوكل، وخوّله ونوّله، وكان يغلّفه بيده، وينادمه ثم خدم المعتضد بعد أبيه الموفق، وعالج الموفق من سهم أصابه، فبرىء فأعطاه مالاً كثيراً، وقال لغلمانه: من أراد إكرامي، فليكرمه، فبعث إليهَ مسرور بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب، وبعث إليه سائر الغلمان مالاً لا يحصى، وأقطعه مرةً زيادة على رزقه ضياعاً تغل سبعة آلاف دينار، وأتى المعتضد وهو بآمد خبر موته، فكان هو المبتدىء لابنه سعيد بالعزاء فيه ثم بعث إليه الوزير وسائر أرباب الدولة لتعزيته، وبعث إليه بخون الطعام، ثم خلع عليه وأجرى عليه كل ما كان لأبيه.

ومنهم:

[٣٩]

صاعد بن بشر بن عبدوس، أبو منصور[٣]

فطن لكثير من الغلط، وبين في أمور منها ما اختلط، حتى تلافى تلف الأبدان، ووافى بما لم يكن للحكماء القدماء به يدان، ونقل الأمزجة إلى ما يلائمها، وأجمع

---

(١) كان حياً سنة ٢٧٩هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣١١ـ ٣١٢، أعلام الحضارة ٢/ ١٩٠ رقم ٣٩٥.

(٢) عيون الأنباء ٣١١.

(٣) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٣١٣ـ ٣١٥، معجم المؤلفين ٣١٧/٤، تاريخ العلوم ٢٨٢ـ٢٨٣، عبقرية العرب ٨٦، أعلام الحضارة ٤٧٩/١ رقم ٢٥٢، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

على هذا آراءه وقد كثر لائمها، ثم قفّى من بعده على آثاره الحكماء، وحفظ تدبيره، ونسيت القدماء.

ذكره ابن أبي أصيبعة[(١)] وقال: كان فاصداً بالبيمارستان ثم اشتغل بصناعة الطب /٢٣٠/ حتى صار من أكابر أهلها. قال: وهو أول من فطن لنقل أكثر الأمراض التي كانت تداوى بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج والاسترخاء واللقوة، وخالف مسطور القدماء، أخذ المرضى بالفصد والتبريد، ومنع المرضى من الغذاء، فأنجح تدبيره وتقدم، وانتهت الرياسة إليه، وعوّل الملوك عليه، فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة، ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البزور، فأظهر من المداواة عجائب.

من ذلك ما حكاه لي بميافارقين الرئيس أبو يحيى ولد الوزير أبي القاسم المغربي قال: عرض للوزير بالأنبار قولنج صعب أقام لأجله في الحمام؛ واحتقن عدة حقن، وشرب عدة شربات فلم ير صلاحاً، فأنفذنا رسولاً إلى صاعد، فلما جاء ورآه على تلك الحال ولسانه قد قصر من العطش وشرب الماء الحار والسكر، وجسمه يتوقد من ملازمة الحمام، ومداومة المعاجين الحارة والحقن الحارة، استدعى كوز ماء مثلوج، فأعطاه الوزير، فتوقف عن شربه. ثم إنه جمع بين الشهوة وترك المخالفة وشربه فقويت في الحال نفسه ثم استدعى فاصداً ففصده وأخرج له دماً كثير المقدار. وسقاه ماء البزور ولعاباً وسكنجبيناً، ونقله من حجرة الحمام إلى الخيش، وقال له: إن الوزير أدام الله عافيته سينام بعد الفصد؛ ويعرق وينتبه؛ فيقوم عدة مجالس، وقد تفضل الله بعافيته. ثم تقدم بصرف الخدم لينام. فقام الوزير إلى مرقده، وقد وجد خفة من بعد الفصد، فنام مقدار خمس ساعات، وانتبه يصيح بالفراشين. فقال صاعد للفراش: إذا قام من الصبيحة فقل له يعاود النوم، حتى لا ينقطع العرق. فلما خرج الفراش من عنده قال: وجدت ثيابه كأنه قد صبغت بماء الزعفران، وقد قام مجلساً ونام. ثم لا زال الوزير يتردد دفعات إلى آخر النهار مجالس عدة، ومن بعد هذا غذاه بمزوّرة، وسقاه ثلاثة أيام ماء الشعير، فبرىء برأ تاماً. فكان الوزير أبداً يقول: طوبى /٢٣١/ لمن سكن بغداد داراً شاطئة. وكان طبيبه أبو منصور، وكاتبه أبو علي بن موصلايا. فبلغه الله أمانيه فيما طلب.

ونقلت أيضاً من خطّ ابن بطلان: أن صاعد الطبيب عالج الأجل المرتضى رضي الله عنه من لسع عقرب، بأن ضمد بكافور فسكن عنه الألم في الحال.

---

(١) عيون الأنباء ٣١٣.

ونقلت من خط أبي سعيد الحسن بن أحمد بن علي في كتاب «ورطة الأجلاء من هفوة الأطباء». قال: كان الوزير علي بن بلبل ببغداد، وكان له ابن أخت فلحقته سكتة دموية، وخفي حاله على جميع الأطباء، وكان بينهم صاعد بن بشر حاضراً، فسكت حتى أقر جميع الأطباء بموته، ووقع اليأس من حياته، وتقدم الوزير في تجهيزه، واجتمع الخلق في العزاء، والنساء في اللطم والنياح، ولم يبرح صاعد بن بشر من مجلس الوزير. فعند ذلك قال الوزير لصاعد بن بشر الطبيب: هل لك حاجة؟ فقال له: نعم يا مولانا، إن رسمت وأذنت لي، ذكرت ذلك. فقال له: تقدم وقل ما يلج في صدرك؟ فقال صاعد: هذه سكتة دموية، ولا مضرة في إرسال مبضع واحد وننظر، فإن نجح كان المراد، وإن تكن الأخرى فلا مضرة فيه ففرح الوزير، وتقدم بإبعاد النساء، وأحضر ما وجب من التمريخ والنطول والبخور والنشوق، واستعمل ما يجب من شد عضد المريض، وأقعده في حضن بعض الحاضرين، وأرسل المبضع بعد التعليق على الواجب من حاله، فخرج الدم ووقعت البشائر في الدار. ولم يزل يخرج الدم حتى استتم ثلثمائة درهم من الدم، فانفتحت العين ولم ينطق، فشد اليد الأخرى ونشقه ما وجب تنشيقه. ثم فصده ثانياً وأخرج مثلها من الدم وأكثر. فتكلم، ثم أسقي وأطعم ما وجب، فبرىء من ذلك، وصح جسمه وركب في الرابع إلى الجامع، ومنه إلى ديوان الخليفة، فدعا له ونثر عليه من الدراهم والدنانير الكثيرة. وحصل لصاعد بن بشر الطبيب مال عظيم، وحشّمه الخليفة والوزير / ٢٣٢/ وقدمه وزكاه؛ وتقدم على جميع من كان في زمانه.

ووجدت صاعد بن بشر قد ذكر في مقالته في مرض المراقيا ما عاينه في ذلك الزمان من إهن وجدها، ومخاوف شاهدها، ما هذا نصه. «وانه عرض لنا من تضايق الزمان علينا، والتشاغل بالتماس الأمر الضروري، ولما قد شملنا من الخوف والحذر والفزع، واختلاف السلاطين؛ وما قد بلينا به، مع ذلك، من التنقل في المواضع غربيها وشرقيها؛ ولما قد أظلنا من الأمور المخوفة التي لا نرجو في كشفها إلاّ الله تقدس اسمه».

هذا ما ذكر. وما كان في أيامه إلا اختلاف ملوك الإسلام بعضهم مع بعض، وكان الناس سالمين في أنفسهم، آمنين من القتل والسبي، فكيف لو شاهد ما شاهدنا ونظر ما نظرنا في زماننا من التتر الذين أهلكوا العباد، وخربوا البلاد، وكونهم إذا أتوا إلى مدينة فما لهم إلا قتل جميع من فيها من الرجال، وسبي الأولاد والنساء، ونهب الأموال، وتخريب القلاع والمدن. لكان استصغر ما ذكره، واستقل ما عاينه وحقره. ولكن ما طامة إلا فوقها طامة أعظم منها؛ ولا حادثة إلا وغيرها تكبر عنها؛ ولله الحمد على الإسلام والعافية[1].

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣١٣ـ ٣١٥.

[٤٠]

ديلم[١]

وكان من الأطباء المهرة، والألباء أهل المخبرة، تقدم في جيله، وقدم لتبجيله، وحُبي بحب لم يمح من الضمائر، ولم يلح عليه آمر، ليد لم يقصر به باعها، ولم تمد لجس نبض إلا وأيدي الأطباء أتباعها.

ذكره ابن أبي أصيبعة[٢] وقال: كان من الأطباء المذكورين ببغداد، المتقدمين في صناعة الطب، وكان يتردد إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد ويخدمه.

ووجدت في بعض التواريخ أن المعتمد على الله وهو أحمد بن المتوكل أراد أن يفتصد، فقال للحسن بن مخلد: اكتب لي جميع من في خدمتنا من الأطباء حتى نتقدم بأن نفصل لكل واحد منهم على قدره. فكتب الأسماء وأدخل فيها اسم ديلم المتطبب. وكان ديلم يخدم الحسن /٢٣٣/ بن مخلد، فوقع تحت الأسماء بالصلات. فقال ديلم: إني جالس في منزلي وقد وافى رسول بيت المال ومعه كيس فيه ألف دينار، فسلمه إلي وانصرف، فلم أدر ما السبب فيه، فبادرت بالركوب إلى الحسن بن مخلد، وهو حينئذ الوزير، فعرفته ذلك. فقال لي: افتصد أمير المؤمنين، وأمر أن أكتب أسماء الأطباء ليتقدم بصلاتهم، فأدخلت اسمك معهم، فخرج لك ألف دينار.

ومنهم:

[٤١]

فنون، طبيب بختيار[٣]

لبيب عرف بحسن الاختيار، أتقن الحكمة علماً وعملاً، وعزماً وأملاً، وحاز الفضائل معرفة ما ونتْ، ومعالجة ما دعت صحةً إلا دنتْ.

قال ابن جبريل: ومن أخباره مع بختيار أنه رمدت عين بختيار في بعض الأوقات، فقال له: يا أبا نصر، ليس والله تبرح من عندي أو تبرىء عيني. وأريدها تبرأ

---

(١) كان حياً سنة ٢٥٦هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣١٥، أعلام الحضارة ١/ ٤٤١ رقم ٢١٥.

(٢) عيون الأنباء ٣١٥.

(٣) كان حياً سنة ٣٨١هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢١، أعلام الحضارة ٢/ ١٩٨ رقم ٤٠٦.

إلى يوم واحد وأبرمه. قال: فسمعت أبا نصر يتحدث أنه قال له: إن أنت أردت أن تبرأ، فتقدم إلى الغلمان والفراشين أن يأتمرونني دونك في هذا اليوم، وما منهم من يخالفني في أمري إلاَّ قتلته، ففعل بختيار ذلك. فأمر أبو نصر أن يحضر أجانة مملوءة عسل طبرزد. فلما حضر غمس يدي بختيار فيه، ثم بدأ يداوي عينيه بالاشياف الأبيض، وما يصلح الرمد. وجعل بختيار يصيح بالغلمان، فلا يجيبه أحد. ولم يزل كذلك يكحله إلى آخر النهار فبرىء. وكان هو السفير بين بختيار والخليفة. وإذا خرجت الخلع فعلى يديه تخرج، وله منها النصيب الأوفر.

ومنهم:

[٤٢]

نظيف القس الرومي(١)

كان كريم العلاج إلا أن يتلاءم، مبارك اليد إلا من رآه يتشاءم، لو رأى إبليس طلعة وجهه قال فديت من لا يفلح، أو أرسطاطليس لأفسد كلما كان يصلح، طار عليه طائر هذه السمعة القبيحة، والشنعة التي لبس منها ثوب الفضيحة، وكان فاضلاً لا يعوز، / ٢٣٤/ ويتضاءل لديه البحر الذي يعجز.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان خبيراً باللغات والنقل، فاضلاً في الطب، وكان عضد الدولة يتطير منه، وكان يولعون به إذا دخل إلى مريض حتى حكي في بعض الأوقات أن عضد الدولة أنفذه إلى بعض القواد في مرض كان عرض له، فلما خرج من عند القائد استدعى ثقته، وأنفذه إلى حاجب عضد الدولة يستعلم منه نية الملك فيه؛ ويقول: إن كان ثم تغير نية، فليأخذ له الإذن في الانصراف والبعد، فقد قلق لما جرى، فسأل الحاجب عن ذلك وسببه. فقال الغلام: ما أعرف أكثر من أنه جاءه نظيف الطبيب وقال له: يا مولانا، الملك أنفذني لعيادتك. فمضى الحاجب؛ وأعاد بحضرة الملك عضد الدولة هذا الحديث فضحك، وأمره أن يمضي إليه ويعلمه بحسن نيته فيه؛ وأن ذلك لشغل قلبه به فأنفذه إليه ليعوده. وحملت إليه خلع سنية فسكنت بها نفسه، وزال

---

(١) نظيف بن يمن البغدادي الرومي الملكي القسّ، طبيب، رياضي، ناقل من اليونانية إلى العربية، تولى تدبير البيمارستان العضدي في بغداد. عاصر البيروني المتوفى في ٤٤٠هـ. كان حياً سنة ٣٥٩هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢٢، أخبار العلماء ٣٣٧، أعلام الحضارة ٢/ ٥٠٢ـ٥٠٣ رقم ٥٤٧.

(٢) عيون الأنباء ٣٢٢.

عنه ما كان أضمره من شغل القلب، وكان دائماً يولع به بسببها.

ومنهم:

[٤٣]

ابن بطلان، وهو أبو الحسن، المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان النصراني(١)

طبيب مكمل، وأريب مؤمل، وأديب يدل عليه شعره من يتأمل، رشق الكلام شرق الضياء في الظلام، شرق عدوه بمائه، وصفق وما أفاق إلاَّ بأسمائه، وكان على إصراره على نصرانيته التي انتصر بخذلانها، وهصر غصون الإخاء لخلانها، معروفاً بمروءة طال به جلبابها، واتسع لكل طالب علمٍ وندًى بابها.

قال ابن أبي أصيبعة(٢) فيه: كان قد اشتغل على ابن الطبيب وقرأ عليه كثيراً من كتب الحكمة وغيرها، ولازم ابن زهرون واشتغل عليه، وكان معاصراً لابن رضوان الطبيب، وكانت بينهما مراسلات عجيبة وكتب غريبة، ولم يؤلف واحد منهما كتاباً ولا ابتدع رأياً إلا ردَّ الآخر عليه وسفه رأيه فيه.

وسافر ابن بطلان يريد مصر ليرى ابن رضوان / ٢٣٥/ فمر في طريقه بحلب فأكرمه صاحبها معز الدولة ثمال بن صالح ثم أتى دولة مصر في دولة المستنصر وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة ونوادر ظريفة، قال: وألف كل منهما كتاباً في

---

(١) المختار بن الحسن بن عبدون ابن بُطلان، أبو الحسن: طبيب، باحث، من أهل بغداد. سافر يريد مصر سنة ٤٣٩هـ، ومر بحلب فأكرمه معز الدولة ثمال بن صالح. ودخل مصر سنة ٤٤١ فأقام ثلاث سنوات. ورحل إلى القسطنطينية، ثم إلى أنطاكية فترهب ـ وكان مسيحياً ـ وسمي «بوانيس» ومات فيها سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م. وكان مشوه الخلقة. من كتبه «دعوة الأطباء ـ ط» و«تقويم الصحة ـ خ» ترجم إلى اللاتينية والألمانية وطبع بهما، و«الأمراض العارضة ـ خ» و«كناش الأديرة والرهبان ـ خ» و«المدخل إلى الطب» و«عمدة الطبيب في معرفة النبات ـ خ» و«مقالة إلى علي بن رضوان ـ ط» و«مقالة في الاعتراض على من قال إن الفرخ أحر من الفروج ـ ط» و«شراء الرقيق وتقليب العبيد ـ ط» رسالة، و«مقالة في علة نقل الأطباء تدبير أكثر الأمراض... الخ» كتبها بأنطاكية سنة ٤٥٥ و«مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة».

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢٥ـ ٣٢٨، وآداب اللغة ٣/ ١٠٥، وإعلام النبلاء ٤/ ١٩١، والحلل السندسية ١/ ٣٥٤، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٨، وأخبار الحكماء ١٩٢ـ٢٠٧ وفيه: «توفي سنة ٤٤٤»، ومثله في مختصر الدول لابن العبري ٣٣١، نوادر المخطوطات ١/ ٣٤٢ـ٣٤٧، والأعلام ٧/ ١٩١، ومعجم الأدباء ٧/ ٥٢ـ ٦٨، وأعلام الحضارة ٢/ ٤٧٨ـ ٤٧٩.

(٢) عيون الأنباء ٣٢٥.

الرد على الآخر وكلام ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز بالأدب ومما يدل على ذلك تسميته له بتمساح الجن، وكان ابن رضوان أسود قبيح الصورة، وفيه يقول: [من الطويل]

ولـمَّـا تـبـدَّى لـلـقـوابـلِ وجـهُـهُ نـكـصـنَ عـلـى أَعـقـابِـهـنَّ مِـنَ الـنَّـدَمْ
وقُـلـنَ وأَخـفـيـنَ الـكـلامَ تـسـتُّـراً أَلا لـيـتـنـا كـنـا تَـركـنـاهُ فـي الـرَّحِـمْ

ثم سافر ابن بطلان من مصر إلى القسطنطينية، وعرضت في زمانه أوباء كثيرة، وله في هذا رسالة معروفة، وله أشعار كثيرة جداً.

ومنهم:

[٤٤]

أحمد بن أبي الأشعث(١)

طبيب يلم الشعث، ويضم السقام من تفاريق الأعضاء إذا انبعث، لا يغالب طبه النافع، ولا يغالط دواؤه بمدافع، تخال هيأة اسقلنينوس صفته، وتخطىء معالجة جالينوس ولا تخطىء وصفته.

ذكره ابن أبي أصيبعة(٢)، وقال: كان وافر العقل، كثير السكينة والوقار، متفقهاً في الدين، وعُمر عمراً طويلاً، وكان لا يفعل إلاَّ جميلاً، وكان فاضلاً في الأمور الحكمية، وله تصانيف كثيرة مفضلة تدل على العلم وعلو المنزلة، ومصنفاً في الطب لا نظير له في

---

(١) أحمد بن محمد بن محمد بن أبي الأشْعَث، أبو جعفر: طبيب مصنف بحاث، شرح كثيراً من كتب جالينوس، أصله من فارس وانتقل إلى الموصل فأقام إلى أن توفي فيها نحو سنة ٣٦٥هـ/ نحو ٩٧٥م. من تصانيفه «الغادي والمغتدي ـ خ» في الطب، أوله الباب الأول في الفم... الخ، في الأزهرية، و«الأدوية المفردة ـ خ» الجزء الثاني منه. في مخطوطات الرباط (٢٩١ أوقاف) قديم، عليه تملك بخط محيي الدين بن العربي و«الحيوان» و«العلم الإلهي» و«الجدري والحصبة والحميقاء» و«السرسام والبرسام ومداواتهما» و«القولنج وأصنافه ومداواته» و«البرص والبهق» و«الصرع» و«الاستسقاء» و«ظهور الدم» و«الماليخوليا» و«تركيب الأدوية» و«أمراض المعدة ومداواتها».

ورد اسمه في بعض المصادر: «أحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الأشعث...» كما ورد في بعض المصادر أنه توفي سنة ٣٦٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٣١ـ ٣٣٢، كشف الظنون ٥١، ٤٠٠، ١٣٨٩، ١٤٠٢، وتاريخ النبات ٥٠ـ٥١، العلوم البحتة لكحالة ٣٤١، العلوم العملية ـ طب ٢٧، معجم المؤلفين ٢/ ١٤٨، الأعلام ١/ ٢٠٩، وأعلام الحضارة ١/ ١٣٦ـ١٤٠ رقم ٨٠.

(٢) عيون الأنباء ٣٣١.

الجودة، وكان أصله من فارس، وكان متصرفاً، ثم صودر فخرج من بلده هارباً، ودخل الموصل بحال سيئة ووافق أن كان لصاحبها ناصر الدولة ولدٌ عليل بقيام الدم لا يزداد بمعالجة الأطباء إلاَّ مرضاً، فقال لأمه: أنا أعالجه، وأراها غلط الأطباء في التدبير، فسكنت إليه، فعالجه فبرىء، فأُجزل عطاؤه وأُحسن إليه وأقام بالموصل إلى آخر عمره.

ومنهم:

[٤٥]

أبو سهل النيلي، وهو سعيد بن عبد العزيز[١]

طبيب حاذق /٢٣٦/ في العلاج، صادق الحدس في معرفة المزاج، لم يزر مريضاً إلا أخذ بيده من الفراش، واستوقف السقم وقد جرى في المشاش، وطرد عنه وسواس حمى تتهافت به في النهار تهافت الفراش.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[٢]: مشهور بالفضل، عالم بالطب، جيد التصنيف، مفنن في الأدب، بارعٌ في الشعر، ومنه قوله: [من الخفيف]

سَقِّني الراحَ تشفِ لوعةَ قلبٍ ... باتَ مُذْ بتُّ للهموم سَمَيرا
هي في الكأسِ خمرةٌ فإذا ما ... أُفرغتْ في الحَشَا استحالَتْ سُرُورا

ومنهم:

[٤٦]

ابن الواسطي[٣]

طبيب المستظهر، كان مقبول الكلمة، مأمول الشفاعة عند الظلمة، مع نفس متسعة، وفضل ينفق منه من سعة، وكرم يكر على امواله ليشتتها، وعلى آماله ليثبتها،

---

(١) سعيد بن عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد المؤمن بن طيفور النيلي النيسابوري. توفي سنة ٤٢٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤١ـ ٣٤٢، معجم الأدباء ١١/٢١٨، المنتخب من السياق ٢٣٣ رقم ٧٣٠، حكماء الإسلام ١٠٨، بغية الوعاة ٢٥٥ـ٢٥٦، يتيمة الدهر ٤/٣٠٨، معجم المؤلفين ٤/ ٢٢٥، معجم الأطباء ٢٠٤، العلوم العملية ـ الطب ٣٠، الأعلام ٣/٩٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٠١ـ٤٢٠هـ) ص ٤٧٩ رقم ٣٩٨.

(٢) عيون الأنباء ٣٤١.

(٣) توفي سنة ٥١٢هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٤ـ ٣٤٥، العلوم العملية ـ الطب ٥٦، أعلام الحضارة ٢/٥٠٧ رقم ٥٥٥.

وكانت له من المستظهر كرامة لا يهان قدرها، ولا يهاب إلا إذا ضاق في مرماها الفسيح قفرها.

وقال ابن أبي أصيبعة[١]: كان رفيع المنزلة، وكان ابن المعوج صاحب الديوان قد استقرت عليه قرية بثلاث آلاف دينار قام منها بألفين، وسأل إنظاره بالألف المتأخرة إلى أوان الغلة، فلم يتحصل، فأشار عليه حاجبه ابن الدواتي أن يأتي ابن الواسطي ليستمهل له المستظهر، فأتاه فأكبر مجيئه، وأخلى له المجلس فعرفه الصورة، وأنه قد رهن كتب داره على خمسمائة دينار، فلما كان من الغد بعث حاجبه يتقاضاه فأعطاه خط الخليفة بالخمسمائة دينار، وكتب ملكه، واستقبل له من ماله، وألبس الحاجب خلعة، وبعث معه إلى ابن المعوج دست ثياب فاخر وخمسين ديناراً للنفقة، فقبل ذلك منه وشكره.

ومنهم:

[٤٧]

أبو طاهر البرخشي، وهو أحمد بن محمد بن العباس[٢]

من /٢٣٧/ أهل واسط، وطبيبٌ فيما أهل له من العلم قاسط، قاس على ما صح من قديم التجريب، وعميم النظر الذي يحقق رأي الأديب، بملاطفة كأنما يعاني بها مقبولةً ما برحت، أو يعاين مفتولة بين المجانس سنحت.

ذكره ابن أبي أصيبعة[٣] وقال: فاضل في الطب، كامل في الأدب، كان في أيام المسترشد. قال: وكان يعالج بواسط مريضاً به أحد أنواع الاستسقاء، ولم ينجع فيه علاج، وتجاوز حدّ الحمية، فسهل له في أكل ما أراد، فاجتاز به رجل يبيع الجراد مصلوقاً فاشترى منه وأكل، فعرض له منه إسهال مفرط، ثم انقطع الإسهال، وأخذ مزاجه في الصلاح إلى أن عوفي، فلما علم أبو طاهر بعافيته وكان قد يئس منه، أتاه وسأله بم وجد الراحة، فقص عليه خبر الجراد فأفكر وقال: ليس هذا من فعل الجراد ولا خاصيته، فتقصى عن بائعه حتى عرفه، فقال له: أتعرف الموضع الذي صدت منه الجراد الذي أكله هذا، قال: نعم، قال: فامض بنا إليه، فلما أتاه رأى حشيشة هناك يرعاها الجراد، فكان يداوي بها من الاستسقاء وأبرأ بها جماعة من هذا المرض.

---

(١) عيون الأنباء ٣٤٤.

(٢) ورد لقبه في الأصل «الرجسي» وما صوبناه من عيون الأنباء.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٥ـ ٣٤٧.

(٣) عيون الأنباء ٣٤٥.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: وهذه حكاية قديمة، وقد جرى ذكرها، وإن تلك الحشيشة هي المازريون، وقد ذكرها التنوخي في كتاب «الفرج بعد الشدة».

وأنشد له قوله في غلام ناول خلالاً: [من الطويل]

وناولني مِنْ كفِّهِ مثلَ خَصْرِهِ ومثلَ مُحبٍ ذابَ مِنْ طُولِ هَجرِهِ
وقال خِلالي؟ قلتُ كلُّ حميدةٍ سِوى قتلِ صَبٍّ حار فيكَ بأسرِهِ[٢]

ومنهم:

[٤٨]

أبو غالب ابن صفية النصراني[٣]

أسقطته ديانته، وأرهقته خيانته، وأترع بيده كأس الموت لنفسه، وهيأ لمصرعه وحفرة رمسه، وأتى عليه من حيث ظن أنه ينتفع، وسقط من يديه من حيث توهم أنه يرتفع. ومن حاول قتل الأسد الضرغامة، وختل الصل الهامة، ودرأ بكفه منن /٢٣٨/ الهندواني، وفل بإصبعه باب اليماني، لا يعجب له من إسراع التلف، ولا من إسراف ما ينفق من عمره الذاهب بلا خلف.

حكي أنه كان يشي بأسرار المستنجد إلى قايماز مقدم الأمراء إذ ذاك، وكان المستنجد يريد قبض قايماز، فاعتل المستنجد فدسوه عليه حتى وصف له الحمام، وكان لا يصلح له، وعرف المستنجد أن قوته لا تقوى على الحمام، فدخل عليه قايماز والأمراء حوله وألزموه بدخوله، وكانوا قد سجروه ثلاثة أيام بلياليهن فلما دخل إليه ردوا عليه بابه ساعةً فمات وبايعوا ابنه المستضيء بعد أيمان حلفوه عليها، فأقام مدةً وفي نفسه من فعلتهم بأبيه، فشرع في العمل عليهم، وابن صفية على ما هو عليه من نقل خبره، فطلبة المستضيء ليلاً وطلب منه ترتيب دواء قتال ليقتل به عدواً فعمله واجتهد فيه فلما أحضره قال له: استف منه حتى نجرب فعله فتلوى من ذلك، وقال: الله، الله فيَّ، فقال له: الطبيب متى تجاوز حده، فليس له إلاَّ هذا أو السيف، فاستف ذلك الدواء، ففر من الهلاك إلى الهلاك ثم خرج من الدار وكتب إلى قايماز بما كان وقال له: والانتقال مني إليكم، ثم هلك وعزم قايماز على الإيقاع بالخليفة، فرده الله وهرب

---

(١) عيون الأنباء ٣٤٥ـ ٣٤٦.
(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٤٥ـ ٣٤٦.
(٣) كان حياً سنة ٥٦٦هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٧ـ ٣٤٩، أعلام الحضارة ٢/ ١٩١ رقم ٣٩٦.

من بغداد فاراً إلى الملك الناصر صلاح الدين، فلم يقبله فعاد على البرية إلى الموصل، فمرض في الطريق، ثم دخل الموصل فمات بها(١).

ومنهم:

[٤٩]

أمين الدولة ابن التِّلميذ(٢)

كان فرد قرانه، وندَّ أقرانه، وبلغ بعلمه مبالغ الأشراف، ووصل في فهمه إلى حد الأشراف، وكان يتكلم في مجالس الخلفاء متبسطاً، ويتقدم في مجال السؤال للضعفاء متوسطاً، لسابقة خدمه، وباسقة صنعه، في بيت الإمامة دون باقي خدمه، ولما تحلت

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٤٧ـ٣٤٨.

(٢) هبة الله بن صاعد بن (هبة الله بن) إبراهيم، أبو الحسن، أمين الدولة، موفق الملك، المعروف بابن التلميذ: حكيم، عالم بالطب والأدب. له شعر، كله ملح ولطائف وابتكارات، في بيتين أو ثلاثة، وترسُّل جيد. مولده ببغداد سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م ووفاته فيها سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م. عمر طويلاً. وخدم الخلفاء من بني العباس. وانتهت إليه رياسة الأطباء في العراق. وكان عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية، وتولى البيمارستان العضدي إلى أن توفي. وكان رئيس النصارى ببغداد وقسيسهم. وهو صاحب الأبيات المشهورة، التي أولها:

«بزجاجتين قطعت عمري وعليهما عولت دهرى»

من كتبه: «حاشية على القانون لابن سينا» و«حاشية على المنهاج لابن جزلة» و«شرح مسائل حنين» و«شرح أحاديث نبوية تشتمل على مسائل طبية» و«الكناش في الطب» و«الموجز البيمارستاني» ثلاثة عشر باباً، و«المقالة الأمينية في الأدوية البيمارستانية ـ خ» و«مقالة في الفصد ـ خ» و«مقالة في أصول التشريع عند المسيحيين ـ خ» و«اختيار كتاب الحاوي لحنين» و«اختصار شرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط» و«ديوان رسائل» في مجلد ضخم، اطلع عليه ابن أبي أصيبعة، و«ديوان شعر» صغير. وأشهر كتبه «الأقرباذين ـ خ». قال ابن العبري: «سأله ابنه قبل أن يموت بساعة: ما تشتهي؟ فقال: أن اشتهي!».

ترجمته في: معجم الأدباء ١٩/ ٢٧٦ـ٢٨٢، وخريدة القصر (قسم العراق) ١/ ١٥٥ و٢/ ٢٨١، وتاريخ الحكماء ١٤٤، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٩ـ ٢١٠، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٢٢ـ ٢٢٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٤٩ـ ٣٧١، ووفيات الأعيان ٦/ ٦٩ـ ٧٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٥، والعبر ٤/ ١٧٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٥٤ رقم ٢٤٣، وصفحة ٤٢٣ في آخر الترجمة رقم ٢٨٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣١، ونزهة الأرواح (مخطوط) بالمجمع العلمي العراقي، ورقة ٢٣٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٦، ١٠٧، ومرآة الجنان ٣/ ٣٤٤، والوافي بالوفيات ٢٧/ ٢٧٨ـ ٢٨٤ رقم ٢٣٠، العارفين ٢/ ٥٠٥، وديوان الإسلام لابن الغزي ٢/ ٤٥ـ ٤٦ رقم ٦٢٦، ومعجم المؤلفين ١٣/ ١٣٨، والأعلام ٨/ ٧٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ٥٦٠هـ) ص٣٢١ رقم ٣٦٧، فهرست المخطوطات المصورة (الطب) ٢٣.

به شيمه من مآثر، وحلت باديه مما لا يقدر عليه مكاثر، حتى كان يناظر جُلّة / ٢٣٩/ الفقهاء وجملة أهل العلم سوى السفهاء، ويفترس الأدباء، ويفترش لمواطيه الأطباء، ويضرب بقلمه عصا ابن البواب، ويطرف طرف طِرسه مقلة ابن مقلة بفاضل الجلباب، وهو على دينه المخالف، وقعود ملته في الخوالف تكره الصدور وتحبره حبرة البدور.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أوحد زمانه في صناعة الطب، ومباشرة أعمالها. وكان في أول أمره قد سافر إلى بلاد العجم، وبقي بها سنين كثيرة في الخدم وكان جيد الخط يكتب المنسوب في نهاية الحسن والصحة. وكان عارفاً بالسرياني والفارسي متبحراً في العربية. وله شعر مستظرف، وهو من بيت كتابة، وكان هو وأوحد الزمان يخدمان المستضيء، وكان أوحد الزمان أبصر بالحكمة وابن التلميذ أبصر بالطبِّ، وكان بينهما شنآن إلاَّ أن ابن التلميذ كان أعقلهما وخيرهما فعلاً، وسعى أوحد الزمان عليه حتى كاد يرديه ثم ردَّ عليه كيده فوهب ماله ودمه لابن التلميذ فعفا عنه، وإنما قال فيه [الطويل].

لنا صديقٌ يهوديٌّ حَماقتُهُ إذا تكلَّمَ تبدو فيهِ مِنْ فيهِ
يتيهُ والكلبُ أعلى منهُ منزلةً كأنهُ بَعْدُ لمْ يخرجْ مِنَ التِّيْهِ

وقد قيل فيهما: [الوافر]

أبو الحسن الطبيبُ ومُقتفيهِ أبو البركاتِ في طَرفٍ نقيضِ
فهذا بالتواضعِ في الثُّرَيَّا وهذا بالتكبُّرِ في الحَضيضِ

قال عبد اللطيف البغدادي: كان أمين الدولة حسن العشرة، كريم الأخلاق، وعنده سخاء ومروءة، وأعمال في الطب مشهورة، وحدوس صائبة. منها أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة / ٢٤٠/ هي أم في الممات، وكان الزمان شتاء، فأمر بتجريدها وصب الماء المبرد عليها صباً متتابعاً كثيراً، ثم بنقلها إلى مجلس دفي قد بُخر بالعود والند، ودثرت بأصناف الفراء ساعة، فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها.

قال: ودخل إليه رجل مترف يعرق دماً في زمن الصيف، فسأل تلاميذه وكانوا خمسين نفساً، فلم يعرفوا المرض، فأمره أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي، ففعل ذلك ثلاثة أيام فبرىء. فسأله أصحابه عن العلة، فقال: إن دمه قد رق ومسامه قد

---

(١) عيون الأنباء ٣٤٩.

تفتحت، وهذا الدواء من شأنه تغليظ الدم، وتكثيف المسام.

قال: ومن مروءته أن ظهر داره كان يلي النظامية، فإذا مرض فقيه نقله إليه، وقام في مرضه عليه، فإذا برىء وهب له دينارين وصرفه.

ومما حكاه أيضاً عن أمين الدولة وكأنه قد تجاوز في هذه الحكاية قال: وكان أمين الدولة لا يقبل عطية إلا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك النائية داره مرض مزمن فقيل له: ليس لك إلا ابن التلميذ، وهو لا يقصد أحداً فقال: أنا أتوجه إليه. فلما وصل أفرد له ولغلمانه دوراً وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدّة فبرىء الملك وتوجه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تخوت عتابي، وأربعة مماليك، وأربعة أفراس، فامتنع من قبولها وقال: إن علي يميناً، لا أقبل من أحد شيئاً، فقال التاجر: هذا مقدار كثير، قال: لما حلفت ما استثنيت. وأقام شهراً يراوده ولا يزداد إلا إباء. فقال له عند الوداع: ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأتمتع بالمال فتتقلد منته، وتفوتك منفعته، ولا يعلم أحد بأنك رددته. فقال: ألست أعلم في نفسي إني لم أقبله، فنفسي تشرف بذلك، عَلم الناس أو جهلوا.

وحدثنا الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، قال: /٢٤١/ حدثني الشيخ موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران، قال: حدثني توما وأبو الفرج المسيحي، قالا: كان الأجل أمين الدولة ابن التلميذ جالساً ونحن بين يديه اسأذنت عليه امرأة ومعها صبي صغير، فأدخلت عليه، فحين رآها بدرها، فقال: إن صبيك هذا به حرقة البول، وهو يبول الرمل، فقالت: نعم. قال: فيستعمل كذا وكذا وانصرفت. قالا: فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقاً. فقال: حين دخل رأيته يولع بإحليله ويحكه، ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة، فعلمت أن الحكة من الرمل، وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحرقة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتشقق، فحكمت بذلك وكان موافقاً.

ومن نوادر أمين الدولة وحسن إشارته: أنه كان يوماً عند المستضيء بالله، وقد أسن أمين الدولة. فلما نهض للقيام توكأ على ركبتيه، فقال له الخليفة: كبرت يا أمين الدولة. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وتكسرت قواريري، ففكر الخليفة في قول أمين الدولة وعلم أنه لم يقله إلا لمعنى قد قصده، وسأل عن ذلك، فقيل له: إن الإمام المستنجد بالله كان وقد وهبه ضيعة تسمى قوارير، وبقيت في يده زماناً، ثم من مدة ثلاث سنين حط الوزير يده عليها. فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة، وأنه لم ينه أمرها إليه، ولا عرض بطلبها. ثم أمر الخليفة بإعادة الضيعة إلى أمين الدولة، وأن لا

يعارض في شيء من ملكه.

ومن شعره قوله في ولده وكان غايةً في الدين: [من المنسرح]

أشكو إلى اللهِ صاحباً شَكِساً تسعفُهُ النفسُ وهوَ يَعْسِفُها
فنحنُ كالشمسِ والهلالِ معاً تكْسِبُهُ النُّوروهوَ يَكِسفُها

وقوله: [من المتقارب]

/٢٤٢/ إذا وجدَ الشيخُ في نَفْسِهِ نشاطاً فذلكَ موتٌ خَفي
ألستَ ترَى [أنَّ] ضوءَ السِّراجِ لهُ لَهَبُ قَبْلَ أنْ يَنطفي

وقوله: [المتقارب]

قالَ الأنامُ وقدْ رأَوهُ مَعَ الحَداثةِ قدْ تصَدَّرْ
مَنْ ذا المُجاوزُ قَدْرَهُ؟ قلتُ: المُقَدَّمُ بالمُؤخَّرْ

وقوله: [المتقارب]

قدْ قلتُ للشيخِ الجليـ ـلِ الأريحيِّ أبي المُظفَّرْ
ذكِّرْ فُلانَ الدينِ بي قالَ: المُؤنَّثُ لا يُذَكَّرْ

وقوله: [الوافر]

العِلْمُ للرجُلِ اللبيبِ زيادةٌ ونقيضُهُ للأحمقِ الطيَّاشِ
مثلُ النهارِ يَزيدُ أبصارَ الوَرَى نُوراً، ويُعشِي أعيُنَ الخُفَّاشِ

وقوله: [من الوافر]

أَجدّكَ إنَّ مِنْ شِيمِ الليالي العنيفةِ أنْ تَجُورَ على اللَّهيفِ
كمثلِ اللحظِ أغلَبَ ما تَراهُ يصبُّ أذاهُ في العُضوِ الضعيفِ

وقوله: [من البسيط]

لا تحسبَنَّ سوادَ الخال عَنْ خَلَلٍ مِنَ الطبيعةِ أوْ احداثَهُ غلطا
وإنَّما قلمُ التصويرِ حينَ جرَى بنونِ حاجبِهِ في خَدِّهِ نَقَطا

وقوله: [من الطويل]

براني الهَوى بَريَ المُدَى فأذابني صُدُودُكَ، حتى صِرْتُ أنحلَ مِنْ أمسِ
ولستُ أُرى حتى أراكَ، وإنَّما يَبينُ هَباءُ الذرِّ في أَلَقِ الشمسِ

وقوله مما يكتب على حصير: [من الكامل]

/٢٤٣/ أفرشتُ خدِّي للضُّيوفِ ولمْ يَزَلْ خُلُقي التواضعَ للَّبيبِ الأكْيسِ
فتَواضُعي أعلَى مَكاني عندَهُم طَوراً فصرتُ أَحِلُّ صَدْرَ المَجلِسِ

وقوله: [من مجزوء الكامل]

أكثرتَ حَسْوَ البَيْضِ كيما ... يَستقيمَ قِيامُ أيرِكْ
ما لا يقومُ ببيضتيكَ ... فلا يقومُ ببيضِ غيرِكْ

وقوله: [من المتقارب]

وحقِّكَ إنيَ مُذْ بِنْتُ عنكَ ... قلبي حزينٌ ودمعي هَتُونُ
فللهِ أيّامُنا الخالياتُ ... لوَ رَدَّ سالفَ دَهْرٍ حَنينُ
وإني لأرعى عُهودَ الصفاءِ ... ويكلؤُها لَكَ وُدٌّ دَفينُ
ولِمْ لا يكونُ ونحنُ اليدا ... نِ وأنْتَ بفضلِكَ منها اليَمِينُ[1]

ومنهم:

[٥٠]

معتمد الملك بن صاعد، وهو أبو الفرج، يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ[2]

بحر حكمة تطفو لآليه، وتغفو مقل النجوم في كرى لياليه، مع ملاطفة في العلاج ملأ طيفها الجفون، وشأي في المزاج ما عدا السكون، إلى دأب بلل الطلُّ طررها، وأثل الفضل سررها.

قال ابن أبي أصيبعة[3]: كان متعيناً في العلوم الحكمية، متفنناً في صناعة الطب، متحلياً بالأدب، بالغاً فيه أعلى الرتب، وله شعر منه ملغزاً في الإبرة قوله: [من الوافر]

وفاغِرَةٍ فَماً بالرّجْلِ منها ... ولكنْ لا تَسيغُ بهِ طَعَاما
ومُخطفةِ الحَشَا في الرأسِ منها ... لسانٌ لا تُطيقُ بِهِ الكَلاما
تصولُ بشَوكَةٍ تبدُو وسُمٌّ ... وما مَنْ ذاقَهُ يَرِدُ الحِمَاما
تَجُرُّ وراءَها رَسَناً طَويلاً ... كما قادتْ يدُ الحادي الزِّماما
مَنِيعاً ذا قُوًى لكنْ تَرَاهُ ... بقَبضتِها ذليلاً مُستضاما

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل ملخصاً من عيون الأنباء ٣٤٩ـ ٣٧٠.

(٢) توفي سنة ٥٦٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٧١ـ ٣٧٤، معجم الأدباء ٢٠/ ٢٠ رقم ٧، وأخبار العلماء ٢٢٨ـ ٢٢٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ٥٦٠هـ) ص٣٢٧ رقم ٣٦٨.

(٣) عيون الأنباء ٣٧١.

/ ٢٤٤/ فَتُلقيهِ بمحبَسِها مُقيماً ... طَوَالَ الدهرِ لا يأبَى المُقاما
أيا عَجَباً لها سَوداءَ خَلْقٍ ... تُريكَ خلائقاً بِيْضاً وِساما
غَدَتْ عُريانَةً مِنْ كلِّ لُبْسٍ ... وفاضلُ ذَيلِها يكسُوا الأنَاما

وقوله في دار جديدة وقعت فيها نارٌ يوم فراغها: [من الكامل]

يا بانياً دارَ العُلا ملّينها ... لتَزيدَها شَرَفاً على كَيْوَانِ
علمتْ بأنكَ إنما شيَّدتَها ... للمَجدِ والإفضالِ والإحسانِ
فَقَفَتْ عَوائدكَ الكِرَامُ وسابقَتْ ... تَستقبلُ الأضيافَ بالنيرانِ

وقوله: [من الكامل]

عَلِقَ الفُؤَادُ على خلوٍّ حبها ... علقَ الذُّبالةِ في حشى المِصباحِ
لا يُستطاع الدهرَ فُرقةُ بينِهِمْ ... إلاَّ لحينِ تَفَرُّقِ الأشباحِ

وقوله: [من المتقارب]

فراقُكَ عندي فراقُ الحياةِ ... فلا تَجْهَزَنَّ على مُذْنَفِ
عَلِقْتُكَ كالنارِ في شَمعِها ... فما إن تُفارِقُ أَوْ تَنطفي

وقوله: [من السريع]

بَدَا إلينا أَرَجُ القادِمِ ... فأبْرَأَ الغُلَّةَ للحائِمِ
روَّحَ مِنَ قلبي على نَأْيِهِ ... وقدْ يَلَذُّ الطَّيْفُ للحالِمِ(١)

ومنهم:

[٥١]

أوحد الزمان، وهو أبو البركات، هبة الله بن علي بن ملكا البلدي ثم البغدادي(٢)

طبيب لو رام إطلاق الصخر الجلمد لتفجر، أو إمساك الماء السائل لتحجر، بمداومة نظر لو صابرت الزمان لتضجر، أو فرعت حصى الدهناء لتشجر، بعلم أوسع

---

(١) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٣٧١ـ ٣٧٣.

(٢) هبة الله بن علي بن ملكا البلدي، أبو البركات، المعروف بأَوْحَد الزَّمان: طبيب، من سكان بغداد، عرَّفه الظهير البيهقي بفيلسوف العراقين، وقال: ادعى أنه نال رتبة أرسطو، ولد نحو ٥٦٠هـ/ نحو ١٠٨٧م، كان يهودياً وأسلم في آخر عمره. وكان في خدمة المستنجد بالله العباسي، وحظي عنده، واتهمه السلطان محمد بن ملكشاه بأنه أساء علاجه فحبسه مدة. قال ابن خلكان: وأصابه الجذام، فعالج نفسه بتسليط الأفاعي على جسده بعد أن جوعها، فبالغت في نهشه، =

امتداداً من المشرقين، وأجمع مدًى مما بين الخافقين، كان يصون وديعة العلم ويحفظها، ويغيظ بكتمانها صدور رجال ويحفظها، /٢٤٥/ ونسيمه تهب خافقته، وشميمه تفتت عنبر الغمام بارقته.

قال ابن أصيبعة[١]: كان يهودياً وأسلم، وخدم المستنجد وتصانيفه في النهاية، وكان له اهتمام بالغ في العلوم، ونظره فائق، بدأ بالطب على أبي الحسين سعيد بن هبة الله، وكان لا يقرىء يهودياً، ولا نصرانياً، فثقّل عليه أبو البركات بالناس ليقريه في الدهليز، فيسمع جميع ما يقرأ عليه، وما يجري معه من البحث، وهو كلما فهم شيئاً وتعقّله علقهُ، فلما مضت سنة أو نحوها، جرت مسألة عند الشيخ بحثوا فيها فلم يتجه لهم عنها جواب، فدخل أبو البركات وخدم، وقال للشيخ: عن أمر مولانا أتكلم في هذه المسألة، فقال: قل، فأجاب عنها بشيء من كلام جالينوس ثم قال: وهذا كان بحثكم في اليوم الفلاني في ميعاد فلان، فعجب الشيخ منه ومن حرصه، فقال: من

= فبرىء من الجذام وعمي. ويظهر أنه عاد إليه بصره بعد زمن. وتوفي نحو سنة ٥٦٠هـ/ نحو سنة ١١٦٥م، بهمذان عن نحو ثمانين سنة، وحمل تابوته إلى بغداد. من كتبه «المعتبر ـ ط» في الهند، ثلاثة مجلدات، في الحكمة، منه قطعة مخطوطة، و«اختصار التشريح من كلام جالينوس» و«مقالة في سبب ظهور الكواكب ليلاً واختفائها نهاراً» و«الأقرباذين» ثلاث مقالات، ورسالة «في العقل وماهيته ـ خ» ورسالة في «صفة برشعتا ـ خ» وهو دواء هندي، وأخرى في «صفة دواء ترياقي يقال أمين الأرواح ـ خ» ورد ذكرهما في مجلة معهد المخطوطات (٤/ ٥٣) .يقول الزركلي: وثقات المؤرخين مختلفون في اسم جده «ملكا» أو «ملكان» فهو عند ابن أبي أصيبعة والصفدي، بغير نون؛ وعند ابن خلكان وابن قاضي شهبة، بنون. ووجدت خطاً (سنة ٦١٧) لطبيب آخر اسمه «هبة الله بن ملكا» من أهل تكريت، لا أعلم صلته بصاحب الترجمة، و«ملكا» فيه بغير نون، فترجح عندي حذفها. أما وفاة المترجم له، فجعلها ابن قاضي شهبة بين سنتي ٥٥٠ و٥٦٠ وقال الصفدي: في حدود ٥٦٩ عن ثمانين عاماً، وانفرد الظهير البيهقي بالخبر الآتي: في سنة ٥٤٧ أصاب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه قولنج بعدما افترسه أسد، فحمل أبو البركات (هبة الله) من بغداد إلى همذان، فلما يئس الناس من حياة السلطان خاف أبو البركات على نفسه، ومات ضحوة، ومات السلطان بعد العصر، وحمل تابوت أبي البركات إلى بغداد.

ترجمته في: تاريخ حكماء الإسلام ٣٤٣ـ ٣٤٦، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٢٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٧٤ـ ٣٧٦، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢١٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٩ رقم ٢٧٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٠٧، ونكت الهميان ٣٠٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٤، ومطالع البدور ٢/ ١٠٥، وكشف الظنون ١٧٣١، وشذرات الذهب ٤/ ١٨٥، وهدية العارفين ٢/ ٥٠٥ـ ٥٠٦، ومعجم المؤلفين ١٣/ ١٤٢، ١٤٣، والأعلام ٨/ ٧٤ـ٧٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١ـ٥٦٠هـ) ص٣٤١ رقم ٣٨٠.

(١) عيون الأنباء ٣٧٤.

يكون هكذا ما يستحل أن نمنعه فصار من أجل تلامذته.

ومن نوادره أن مريضاً عرض له المالنخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دناً وأنه لا يفارقه أبداً، وكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق، ولا يترك أحداً يدنو منه حتى لا يميل الدن أو يقع على رأسه وبقي هذا المرض مدة طويلة وهو في شدة منه، وعالجته جماعة من الأطباء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثيرٌ ينتفع به، وأنهى أمره إلى أوحد الزمان ففكر أنه ما بقي شيء يمكنه أن يبرأ منه إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنت في الدار فأتوني به، ثم إن أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليه وشرع في الكلام، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنه يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر وكان قد أعد معه دناً في أعلى السطح أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس /٢٤٦/ صاحب المالنخوليا أن يرمي الدن الذي معه بسرعة إلى الأرض. ولما كان أوحد الزمان في داره، وأتاه من غير علم المريض فأقبل عليه وقال: لا بد أن أكسر هذا الدن وأريحك منه، ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام الدن من أعلى السطح، فكانت له وجبة عظيمة وكسر قطعاً كبيرة، فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدنَّ المتكسر تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه هو الذي كان على رأسه بزعمه وأثر فيه الوهم أثراً برىء به من علته تلك. وهذا باب عظيم في المداواة وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من المتقدمين مثل جالينوس وغيرهم في مداواتهم بالأمور الوهمية.

وحكى أبو الفضل تلميذ أبي البركات المعروف بأوحد الزمان قال: كنّا في خدمة أوحد الزمان في عسكر السلطان ففي بعض الأيام جاءه رجل ذا داحس إلا أن الورم كان ناقصاً وكان يسيل منه صديد قال: فحين رأى ذلك أوحد الزمان بادر إلى سلامية إصبعه فقطعها، قال: فقلنا له: يا سيدي لقد أجحفت في المداواة، وكان يغنيك أن تداويه بما يداوى به غيرك، وتبقي عليه أصبعه ولمناه، وهو لا ينطق بحرف، قال: ومضى ذلك اليوم وجاءه في اليوم الثاني رجلٌ آخر مثل ذلك سواء، فأومأ إلينا بمداواته وقال: افعلوا في هذا ما ترونه صواباً، قال: فداويناه بما يداوى به الداحس فاتسع المكان وذهب الظفر، وتعدى الأمر إلى ذهاب السلامية الأولى من سلاميات الأصابع وما تركنا دواء إلا داويناه به ولا علاجاً إلا عالجناه ولا لطوخاً إلا لطخناه به ولا مسهلاً إلا وسقيناه، وهو مع ذلك يزيد ويأكل الأصبع أسرع أكل، وآل أمره إلى القطع فعلمنا أن فوق كل ذي علم عليم.

قال: فشاع هذا المرض في تلك السنة، وغفل جماعة منهم عن القطع فتأدى أمر بعضهم إلى هلاك اليد وبعضهم إلى هلاك /٢٤٧/ أنفسهم.

ونقلت من خط الشيخ موفق الدين بن عبد اللطيف البغدادي فيما ذكره عن ابن الدهان المنجم قال: كان الشيخ أبو البركات قد عمي في آخر عمره وكان يُملي على جمال الدين بن فضلان وعلى ابن الدهان المنجم وعلى يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف وعلى المهذب ابن النقاش كتاب المعتبري.

وقيل: إن أوحد الزمان كان سبب إسلامه أنه دخل يوماً إلى الخليفة فقام جميع من حضره إلا القاضي؛ فإنه كان حاضراً ولم يرَ أنه يقوم مع الجماعة لذمي فقال أوحد الزمان: يا أمير المؤمنين كأنّ قاضي القضاة لم يقم مع الجماعة لكونه يرى أني على غير ملته، فأنا أسلم بين يدي مولانا، ولا أتركه ينقصني بهذا، وأسلم.

قال: وكان لأوحد الزمان ثلاث بنات ولم يخلف ولداً ذكراً، وعاش نحو ثمانين سنة.

قال: وكان بين أوحد الزمان وأمين الدولة بن التلميذ معاداة، وكان أوحد الزمان لما أسلم يتنصل كثيراً من اليهود، ويلعنهم ويسبهم، فلما كان في بعض الأيام في مجلس بعض الأعيان وعنده جماعة وفيهم أمين الدولة ابن التلميذ وجرى ذكر اليهود فقال أوحد الزمان: لعن الله اليهود، فقال أمين الدولة: نعم وأبناء اليهود. فوجم لها أوحد الزمان وعرف أنه أشارة إليه، وعبارة عنه، ولم يتكلم[1].

ومنهم:

[٥٢]

أبو القاسم، هبة الله بن الفضل البغدادي[2]

عَلم طب وبيان، وإمام فضل ملء سماع وعيان، فأتى بما غلا، وفات مديحاً وغزلاً، وجاء بضريب الضرب، وغريب الحكمة التي لأدمغة اليونان وألسنة العرب،

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٧٤ـ ٣٧٦.

(٢) هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز، أبو القاسم بن القَطَّان: شاعر هجاء خليع ماجن. من أهل بغداد ولد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م، كان مغرًى بهجاء المتعجرفين. له «ديوان شعر» قال العماد الأصبهاني: لم يسلم منه أحد، لا الخليفة ولا غيره، وكان مجمعاً على ظرفه ولطفه. وأورد ابن خلكان طائفة حسنة من أخباره. وقال طاش كبري زاده: له مختصر في «العروض» وقال ابن قاضي شهبة: كان =

وكان الطب عليه أغلب، والسبب إليه أجلب، فكان به ارتفاقه، ومنه إنفاقه، وكان له هجو يُجرع المهجو سم الأساود، وسقماً كلما برأ منه يعاود، هذا إلى ملح أظرف من غرائب البحار وألطف من النسيم إذا عبث بأعطاف /٢٤٨/ الأشجار.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان يعاني صناعة الطب ويباشر أعمالها، ويعد من الموصوفين فيها إلا أن الشعر غلب عليه، وكان كثير النوادر، وبينه وبين الحيص بيص شنآن وتهاتر، وكانا قد يصطلحان وقتاً، ثم يعودان إلى ما كانا عليه وهو الذي ألصق بالحيص بيص هذا اللقب، وذلك لأن السلطان السلجوقي لما قصد بغداد في أيام المقتفي وهمَّ عسكرها بالخروج إليه، وكان الناس من ذلك في حديث كثير وحركة زائدة، فقال: مالي أرى الناس في حيص وبيص، فكلفت كلمة أبا القسم هذا، فألصق به هذا اللقب.

قلت: كان الحيص بيص على ما هو منه معروف، فخرج يتمشى ليلاً حيث لا يقدم إلاَّ الأبطال، ولا يمشي إلاَّ من قصر عنده باع الخوف وطال، فمر بكلبة مجرِّية رآها فما خافها، وهي تسطو بأنياب وأظفار، وتهول مثل الليل بلا إسفار، فنبحت عليه نباحاً ظنَّ به أن الجبال عليه قد أطبقت، أو الجيوش به قد أحدقت، فامتشق سيفه وخطا إليها، وقدم قدمه، وأقدم عليها ثم دهش للخوف من بأسها، فأضلَّها وإنما أصاب بالسيف جرواً لها، فقال أبو القاسم: [البسيط]

يا معشر الناس، إن الحيصَ بيصَ أتَى ... بفعلةٍ أورثتْهُ الخِزْيَ في البَلَدِ
هوَ الجبانُ الذي أبدى شَجاعتَهُ ... على جُرَيٍّ ضعيفِ البطشِ والجَلَدِ
فأنشدتْ أمهُ، مِنْ بعدِما احتسبتْ ... دمَ الأُبَيلِقِ عند الواحدِ الصَّمَدِ
أقولُ للنفسِ: تأساءً وتَعزيةً ... إحدى يديَّ أَصابتْني ولمْ تُرِدِ

= يعرف الطب والحكالة، وديوانه مشهور، وقد هجا «الحيص بيص» وهو الذي شهره بهذا اللقب. توفي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م.

ترجمته في: خريدة القصر (قسم العراق) ٢/ ٢٧٠، والمنتظم ١٠/ ٢٠٧ رقم ٣٠٠ (١٨/ ١٥٧-١٥٨ رقم ٤٢٥١)، وأخبار الدولة السلجوقية ١٢٠، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٨٠-٣٨٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٥٣- ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٣٩- ٣٤٠ رقم ٢٣١، وصفحة ٣٧٧، ومرآة الجنان ٣/ ٣١٥، ولسان الميزان ٦/ ١٨٩، وفوات الوفيات ٢/ ٣١٤، ومفتاح السعادة ١/ ٧١٤، ومرآة الزمان ٨/ ١٨٧، والأعلام ٨/ ٧٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١-٥٦٠هـ) ص٢٧٥ رقم ٢٩٦.

(١) عيون الأنباء ٣٨٠.

كلاهُما خَلَفٌ من فَقْدِ صاحِبِهِ هذا أَخي حينَ أدعوهُ وذا وَلَدِي

وكان المقتفي حين بويع شيخاً قد علت سنّه واحدودب غُضْبُهُ ووزيره ابن هبيرة مَنْ عُلِمَ زهادةً، ومداومة درس وعبادة، وكان أبو القاسم يستطيل مدتهما ويكره بأسهما الذي لا يلين وشدتهما، فجلس يوماً المقتفي، وابن هبيرة /٢٤٩/ واقف أمامه، ومصرف زمانه هذا، وقد استثقل أبو القاسم طول أيامهما، وامتداد دوامهما، فقال: [من السريع]

يا معشرَ الناسِ النفيرَ النفير قدْ جلسَ الهودبُ فوقَ الثويرْ
وصارَ فينا آمراً ناهياً وكنتُ أَرجو أَنَّهُ لا يَصِيرْ
فتحتُ عيني فإذا الدولةُ الـ ـدولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرْ

وقال يهجو البديع الأسطرلابي، وكان قد حجَّ: [من مجزوء الكامل]

لا غروَ أنْ دُهِيَ الحَجِيـ ـج وَأنْ رُمُوا منهُ بنكبْه
حَجَّ البديعُ وعِرْسُهُ وفتاهُ فانظرْ أيَّ عُصْبَه
فثلاثةٌ مِنْ منزلٍ عِلْقٌ وقَوَّادٌ وقَحْبَه

وقال: [من السريع]

يا خائفَ الهَجْوِ على نفسِهِ كُنْ في أَمانِ اللهِ مِنْ مَسِّهِ
أَنتَ بهذا العِرْضِ بينَ الوَرَى مِثْلُ الخِرَا يَمْنَعُ مِنْ نفسِهِ

وقال: [من السريع]

أَمدحُهُ طَوراً وأَهجُو ولا أَطمعُ طُولَ العُمرِ في رِفْدِهِ
مثلَ إمامٍ بينَ أَهلِ القُرَى صلَّى بهمْ والزيتُ مِنْ عندِهِ[1]

وأورد له ابن سعيد، ومن ذا الذي يسمع الحسن ولا يستعيد، وذلك قوله: [من الكامل]

خَطَرَتْ فكادَ الوُرقُ يسجعُ فوقَها إنَّ الحَمامَ لَمُغرَمٌ بالبانِ
مِنْ معشرٍ نَشَروا على هامِ الرُّبَى للطارقينَ ذوائبَ النيرانِ

ومنهم:

---

(١) إلى هنا ينتهي المنقول من عيون الأنباء ٣٨٠ـ ٣٨٩.

[٥٣]

فخر الدين المارديني، الإمام أبو عبد الله، محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري(١)

رجلٌ من أسرة الأنصار، ومن سرة أهل المدينة إذا عدت بيوت الأمصار، في مزايا ذوي الهبات في المنن، /٢٥٠/ وبقايا ذوي الهيئات من يمن، وكان من علماء الحكماء، ونبلاء الفضلاء وأحبار الأيام وأخيار من لا يرى مثله إلا في المنام.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان علاَّمة وقته في الحكمة، قوي الذكاء، فاضل النفس، محباً للخير، متقناً للغة والنحو، وأجداده من أهل القدس، قرأ الطب على ابن التلميذ، وقرأ ابن التلميذ عليه المنطق، وقدم دمشق، وأقرأ بها الطب. وكان له مجلس عام للتدريس، وممن قرأ عليه المهذب عبد الرحيم بن علي، وطلب منه الملك الظاهر أن يقيم عنده بحلب، وأنعم عليه بمال طائل، فأقام عنده سنتين، ثم عاد إلى ماردين، ووقف كتبه في المدرسة بها، وآخر ما قاله عند موته: اللهم إني آمنت بك وبرسولك الصادق محمد ﷺ، [القائل:] إن الله يستحي من عذاب الشيخ.

ومنهم:

[٥٤]

أبو نصر المسيحي، وهو سعيد بن أبي الحسن بن عيسى(٣)

طبيب عرَّف به علمه، وفرَّع كل علاج لم يحظ فيه حكمه، طالما أبرأت العلل هذه المسيحية بمسحها، وأبدلت بياض ثوب العافية سواد مسحها، واحتاج إليه كل

---

(١) محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر، فخر الدين الأنصاري المارديني: عالم بالحكمة والطب. أصل أجداده من القدس. ولد في ماردين سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ونشأ بها، وانتقل إلى دمشق وأقرأ بها الطب، وسافر إلى حلب فحظي عند الظاهر، واستقر في ماردين ووقف بها كتبه. وتوفي بآمد سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م.
له «شرح قصيدة ابن سينا» التي أولها: «هبطت إليك من المحل الأرفع».
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٢-٤٠٣، أخبار العلماء ١٨٩، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٥٥-٢٥٦، رقم ١٢٨٠، والأعلام ٦/ ٢٠٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١-٦٠٠هـ) ص١٦٧ رقم ٢٠٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٠٢-٤٠٣.

(٣) ورد اسمه في بعض المصادر: «سعيد بن الحسن بن عيسى...».
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٣-٤٠٥، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢١٠-٢١١ رقم ٢٩٢.

متطبب، وكان طبه الباعث للصحة أو المسبب.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: من المتميزين في صناعة الطب، والأفاضل من أهلها، والأعيان من أربابها. ومرض الناصر لدين الله بالرمل، وعرضت له في المثانة حصاة كبيرة مفرطة في الكبر واشتد به الألم وطال المرض وضجر من العلاج. فأشير عليه بأن يشق المثانة لإخراج الحصاة، فسأل عن جرائحي حاذق، فقيل له ابن عكاشة، فأحضر وشاهد العضو العليل وأمر ببطه. فقال: أحتاج أن أشاور مشايخ الأطباء في هذا. فقال له: فمن تعرف من صالحيهم؟ فقال: أبو نصر المسيحي فإنه ليس في البلاد بأسرها من يماثله. فطلبه فلما حضر قال له: اجلس، فجلس ساعة ولم يكلم ثم قال له الناصر: يا أبا نصر، مثل نفسك أنك قد دخلت إلى البيمارستان / ٢٥١/ وأنت تباشر به مريضاً قد ورد من بعض الضياع، وأريد أن تباشر مداواتي وتعالجني من هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته. فقال: السمع والطاعة ولكني أريد أن أعرف من هذا الطبيب المتقدم مبادىء المرض وأحواله وتغيراته، وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن.

فأحضر الشيخ أبو الخير وأخذ يذكر له ابتداءات المرض وتغير أحواله وما عالج به من أول المرض وإلى آخر وقت. فقال: التدبير صالح، والعلاج مستقيم. فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ ولا بد لي من صلبه. فقام أبو نصر المسيحي وقبل الأرض، وقال: يا مولانا، بحق الله عليك وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسن على الأطباء هذه السنة؛ وأما الرجل فلم يخطىء في التدبير، ولكن لسوء حظه لم ينته المرض. فقال: قد عفوت عنه، ولكن لا يعود يدخل علي. فانصرف، ثم أخذ أبو نصر في مداواته، فسقاه ودهن العضو بالأدهان الملينات، وقال له: إن أمكن أنّا نلاطف الأمر بحيث نخرج هذه الحصاة من غير بط فهو المراد، وإن لم تخرج فذلك لا يفوتنا. فلم يزل كذلك يومين، وفي ليلة اليوم الثالث رمى الحصاة، فقيل: إنه كان وزنها سبعة مثاقيل، وقيل خمسة، وقيل إنها كانت على مقدار أكبر نواة من نوى الزيتون. وتتابع الشفاء، ودخل الحمام، فأمر أن يدخل أبو نصر إلى دار الضرب، ويحمل من الذهب ما يقدر عليه، ففعل به ذلك. ثم أتته الخلع والدنانير من أم الخليفة ومن ولديه الأميرين محمد وعلي، والوزير نصير الدين بن مهدي العلوي الرازي، ومن سائر كبار الأمراء بالدولة. فأما أم الخليفة وأولاده والوزير والشرابي نجاح، وكان واحد من الدنانير ألف دينار، وكذلك من أكابر الأمراء، والباقين على قدر أحوالهم. فأخبرت أنه حصل من

---

(١) عيون الأنباء ٤٠٣.

العين عشرين ألف دينار، ومن الثياب والخلع جملة وافرة، وألزم الخدمة، وأفرطوا له الجامكية السنية، والراتب والإقامة. ولم يزل مستمراً في الخدمة إلى أن مات الناصر لدين الله.

قال: /٢٥٢/ وحدثني بعض الأطباء أن ابن عكاشة الجرائحي كان قد نذر عليه أنه يتصدق في بيعة سوق الثلاثاء بالربع مما يحصل له، وأنه حمل إلى البيعة مائتين وخمسين ديناراً، وأصرف أبو الخير المسيحي من الخدمة، وقد كانت منزلته قبل هذا جليلة عنده، ومحله مرتفعاً، ووصله هبات وصلات عظيمة. فمن جملتها أنه أعطاه خزانة كتب الأجل أمين الدولة بن التلميذ. وكان مرض الناصر مراراً وبريء على يديه، فحصل له فيها جملة وافرة. ثم توفي الشيخ أبو الخير في أيام الناصر، فقيل له: إنه قد توفي، وترك ولداً متخلفاً وعنده جملة عظيمة من المال. فقال: لا يعترض ولده فيما ورثه من أبيه، فما خرج عنا لا يعود إلينا[١].

ومنهم:

[٥٥]

أبو الفرج ابن توما، وهو صاعد بن هبة الله بن توما النصراني البغدادي[٢]

توصل بنجاح فنجح، ومتَّ بصلاح عمله فبجح، وعُدل بالاباء فرجح، وملك رياسة الأطباء فتبجح، وورث ببلاد العراق بختيشوعها، وحاز ما جرَّ جرجس إليه من مدد ينبوعها، وأبقى له يعقوب بن إسحاق أخو كندة ما كان أبقاه ليوسفه، وخلَّى له أحمد بن الطيب ما خصَّ نصيبه من طيب مخلفه.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: كان من أكابر الأطباء، وخدم نجاح الشرابي، ثم صار وزيره وكاتبه، ثم دخل إلى الناصر، وكان يشارك أطباءه في معالجته، ثم حظي عنده

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٠٣ـ ٤٠٥.

(٢) صاعد بن هبة الله بن توما، أبو الفرج: طبيب مسيحي، من أهل بغداد، تقدّم في أيام الناصر إلى أن كان بمنزلة الوزراء، واستوثقه على حفظ أموال خواصه، فكان يودعها عنده، ويرسله في الأمور الخفية إلى وزراءه، قتله جنديان غيلة ببغداد سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٥ـ٤٠٦، أخبار العلماء ٢١٢، طبقات الأطباء ١/ ٣٠٢، فوات الوفيات ١/ ١٩١، الأعلام ٣/ ١٨٧ وفيه: «صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما...» وفي خبر مقتله خلاف.

(٣) عيون الأنباء ٤٠٥ـ ٤٠٦.

الحظوة التامة، وسلم إليه عدة جهات يخدم بها، وكان فيها عدة دواوين وكتاب، وقتله بعض الجند المرتزقين تحت يده، وقيل الخليفة، فنكبه وأبقى أملاكه وعروضه لولده، وحمل ما خلفه من المال العين إلى الخزانة، وكان ثمانمائة ألف وثلاثة عشر ألف دينار.

قال ابن القفطي، وقد ذكره وأثنى عليه: إنه كان قد تقدم أيام الناصر إلى أن كان بمنزلة الوزراء والأمراء، واستوثقه على حفظ أمواله وأموال خواصه، وكان /٢٥٣/ يودعها عنده، وكان يظهر له في كل وقت، ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه، وكان جميل المحضر، حسن التوسّط، قضيت على يده حوائج، وكفيت شرور، ولم يُرَ له غير شاكرٍ ناشرٍ.

* * *

مشاهير الأطباء ببلاد العجم

ومنهم:

[٥٦]

قياذوس[(١)]

إمام الحكماء في دولة الفرس، والماضي فيهم زمانه المضيء كانه ليلة العرس. وكان على كونه ذمةً فيهم، ومواليًا أمةً تنافيهم. تكرمه ملوك آل ساسان، وتطعمه من جني جنايتهم ثمر الإحسان، وكان يتقرب إليهم بما يلاءم، ويقرب لديهم كل مُنًى كان لا يطمع بها منهم نائم.

قال ابن أبي أصيبعة[(٢)]: كان نصرانيًا، وله معرفة جيدة بصناعة الطب، وبنى له سابور ذو الأكتاف البيع في [بلده، ويقال إن الذي بنى له البيع بهرام][(٣)] جور.

وكان عالمًا بالصناعة موسومًا بها، متميزًا في زمانه، فاضلًا في علوم الفرس والهند وهو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة من الهند إلى أنوشروان وترجمه له.

ومنهم:

[٥٧]

ربن الطبري[(٤)]

لائم الفرس طِبَّه، وقاوم حبُّ أنفسهم حُبَّه، وكانوا يرونه زين مجالسهم، وعين مجانسهم، هذا وما هو من أهل معتقدهم، ولا ممن يحلّ مثله في معهدهم، ولم يحاول عملًا إلاَّ كان به بصيرًا، ولا علمًا إلاَّ وانقلب الطرف إليه لا خاسئًا ولا حسيرًا.

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤١٣ وفيه اسمه: «تيادورس».

(٢) عيون الأنباء ٤١٣.

(٣) ما بين المعقوفتين من عيون الأنباء وقد سقط هذا السطر كما يبدو عند المؤلف أثناء النقل منه.

(٤) ومعنى كلمة ربن: المعلم العظيم. «حكماء الإسلام».

ترجمته في: عيون الأنباء ٤١٤، أخبار العلماء ١٨٧، تاريخ العلوم ١٢٨، أعلام الحضارة ١/ ٤٤٢-٤٤٣ رقم ٢١٨.

قال ابن أبي أصيبعة[(١)] : كان يهودياً طبيباً منجماً من أهل طبرستان، وكان متميزاً في الطب، عالماً بالهندسة وأنواع الرياضة؛ وحل كتباً حكمية من لغة إلى لغة أخرى. وكان له تقدم في علم اليهود ـ واربن والراب أسماء لمقدمي اليهود.

ومنهم:

[٥٨]

علي بن سهل بن ربن الطبري، أبو الحسين[(٢)]

قوي المشاركة، قويم الجدد في الطرق السَّالكة، يجلي نوره الظلم، ويطفيء تدبيره الضرم، ويقوم / ٢٥٤/ الأبدان، ويقوم طبه مقام الشمس في بُرء البلدان، ولم يعدم ومضة أدب بدت له تضيء لمعانها، ويجيء بمسود اللمم ريعانها، ويدنو مداها، ويبعد مكانها.

قال ابن النديم: علي بن ربل باللام، كان يكتب للمازيار بن قارن، فلما أسلم على يد المعتصم قربه، وظهر فضله، وأدخله المتوكل في ندمائه، وكان بموضع من الأدب، وهو الذي علم العين زربى صناعة الطب، وكان مولده ومنشؤه بطبرستان.

ومن كلامه: الطبيب الجاهل مستحث الموت.

ومنهم:

[٥٨]

أحمد بن محمد الطبري، أبو الحسن[(٣)]

تقدَّم بتقدم المعرفة، وتقدَّم إلى الداء فصرفه مع إتقان لتشريح الأعضاء، وإتقان

---

(١) عيون الأنباء ٤١٤.

(٢) ورد اسمه في بعض المصادر «علي بن ربن» و«علي بن سهل بن ربان...».
علي بن ربن الطبري، أبو الحسن: طبيب حكيم. مولده ومنشأه بطبرستان، كان يخدم ولاتها ويقرأ علم الحكمة، وانفرد بالطبيعيات، وقامت فتنة فيها فأخرجه أهلها، فنزل بالريّ، ثم رحل إلى سامراء، وصنف فيها كتابه «فردوس الحكمة ـ ط» وفي فهرست ابن النديم أنه أسلم على يد المعتصم، وظهر في الحضرة فضله وفأدخله المتوكل في جملة ندمائه. ومن كتبه «الدين والدولة ـ ط» و«تحفة الملوك» و«كناش الحضرة» و«منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير». توفي سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤١٤، وأخبار العلماء ٢٣١، والفهرست ٤٦٦، وتاريخ حكماء الإسلام ٢٢، وطبقات الأمم ٩٦، وهدية العارفين ١/ ٦٦٩، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٠٦، وكنوز الأجداد ٧١ـ٧٢، موسوعة المستشرقين لبدوي ٢٧٦ـ ٣٩٨، والأعلام ٤/ ٢٨٨، وأعلام الحضارة ٢/ ١١٤ـ ١١٧ رقم ٣٤٢ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) أحمد بن محمد أبو الحسن الطبري: طبيب، من العلماء. من أهل طبرستان، كان طبيب الأمير =

لغير صريح الارتضاء، بفهم يحسن الاستنباط، وعلم يحسب في معرفة ما بين القصب والرباط، هذا إلى استقصاء الأعراض والدلائل والأمراض بسبب من خارج أو داخل لم يعد الصواب حدسه، ولا عُدَّ في ذوي الخطأ حسّهُ حتى قيل: إنه لو أراد لأطال شعر الأجفان، وأقام الأموات من الأكفان بتلطفٍ بكاد يمسك به رمق النهار، ويرم في الصباح صبغة الليل الشائب.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: فاضل، عالم بصناعة الطب، وكان طبيب الأمير ركن الدولة وله الكناش المعروف بالمعالجات البقراطية، وهو من أجل الكتب وأنفعها، يحتوي على مقالات كثيرة، وقد استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون.

ومنهم:

[٥٩]

أبو منصور، الحسن بن نوح القُمْرِي[2]

قمر سماء، ورقم عذار ظل في وجنة ماء، ونوء حكمة ما تقشع سحابها، ولا توشع بغير مطرف الفضائل سحابها. أتى مجلس الرئيس ابن سيناء وحضره، وشاهد سيما سمته ونظره، وكان يعده فيمن أدركه، ويعد من العلم له ما تركه، ويطوي في حفظه من / ٢٥٥/ علمه البارع ما نشره، ويأخذ منه إلاَّ أنه أخذ شره، ولم يكن مثله في تعديل قوى ممتزجة، وملاطفة بعلاج موافق لا تنفر منه الأمزجة.

قال ابن أبي أصيبعة[3]: كان سيد وقته وأوحد زمانه، مشهوراً بالجودة في صناعة

= ركن الدولة، له كناش سماه «المعالجة البقراطية ـ خ» في شستربتي (٣٩٩٤)، قال ابن أبي أصيبعة: من أجل الكتب وأنفعها.
توفي نحو سنة ٣٦٠هـ/ نحو سنة ٩٧٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٢٧، وأعلام الحضارة / ١١٠ـ١١٣ رقم ٦٩، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ١/ ٢٠٩.

(١) عيون الأنباء ٤٢٧.

(٢) توفي سنة ٣٩٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٣٥ـ ٤٣٦، الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٨٣، الكامل في التاريخ ٨/ ٥٣٥، ٦٧٣، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٠٣، كشف الظنون ٢/ ١٢١٠، ١٧٥٠، إيضاح المكنون ٢/ ٥٦ـ٥٧، أعلام الحضارة ١/ ٣١٩ـ٣٢٣ رقم ١٨٠ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) عيون الأنباء ٤٣٥.

الطب، محمود الطريقة في أعمالها، فاضلاً فيها حسن المعالجة، جيد المداواة؛ متميزاً عند الملوك.

وحكى عن الخسروشاهي: أن ابن سيناء لحق أبا منصور وهو شيخ كبير، وكان يحضر مجلسه، ويلازم دروسه، وانتفع به في علم الطب.

ومنهم:

[٦٠]

أبو سهل، عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني(١)

مسيحي له في الطب يد بيضاء كليمية، وفي إطفاء نار الحمى آية غراء إبراهيمية، مسحت بطبه الأدواء، وصلحت اللأواء، وصحت الأجسام وصحت الأسقام، وسَحَّت السحب بمطر الإنعاش، وتهللت وجوه البرق الوسام. وحسبه أن ابن سيناء من حملة علمه إذا زخر، ومن حمدة عزمه إذا فخر، وكان بعض فضلاء المتأخرين المتبحرين يفضله على ابن سيناء، ويجعل له عليه السناء ويثني عليهما، وإنما يوفر له الثناء.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): هو طبيب فاضل بارع في صناعة الطب علّمها وعملها، فصيح العبارة جيد التصنيف. وكان صحيح الكتابة متقناً للعربية. قال: وقد رأيت بخطه كتابه في إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان وهو في نهاية الصحة والإتقان، والإعراب والضبط. وهو يدل على فضل باهر، وعلم غزير.

---

(١) عيسى بن يحيى بن إبراهيم المَسِيحي الجرجاني، أبو سهل: حكيم، غلب عليه الطب علماً وعملاً، فصيح العبارة، جيد التصنيف، حسن الخط، متقن للعربية. ولد في جرجان، ونشأ وتعلم ببغداد، وسكن خراسان فتقدم عند سلطانها، ومات سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م عن أربعين عاماً. وعنه أخذ ابن سينا صناعة الطب، وتفوق ابن سينا بعد ذلك فصنف له كتباً وجعلها باسمه. اطلع ابن أبي أصيبعة على نسخة من كتاب للمسيحي بخطه، في «إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان ـ خ» وقال: إنه في نهاية الصحة والإتقان. ومن كتبه «الطب الكلي ـ خ» و«كتاب المئة في الصناعة الطبية ـ خ» وهو من أجود كتبه وأشهرها، ولأمين الدولة ابن التلميذ حاشية عليه، و«العلم الطبيعي» و«مقالة في الجدري» و«أصول الطب ـ خ» و«المسائل ـ خ» و«اختصار المجسطي» وكتاب في «الوباء» وآخر في «تعبير الرؤيا» ألفهما للملك العادل خوارزمشاه أبي العباس مأمون بن محمد.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٣٦ـ ٤٣٧، أخبار العلماء ٤٠٨ـ ٤٠٩، تاريخ حكماء الإسلام ٩٥ـ٩٧، تاريخ ابن العبري ١٧٩ـ ١٨٠، كشف الظنون ١٤١٦، ١٤٩٨، ١٥٧٦، معجم المؤلفين ٨/ ٣٥، الأعلام ٥/ ١١٠، أعلام الحضارة ٢/ ١٨٥ـ١٨٨ رقم ٣٩٣ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٣٦.

قال: وقيل: إن المسيحي هو معلم ابن سيناء صناعة الطب.

وقال عبيد الله بن جبريل: إن المسيحي كان بخراسان، وكان متقدماً عند سلطانها، وإنه مات عن أربعين سنة.

ومن كلامه:

نومة بالنهار بعد أكلة خير من شربة دواء نافع.

ومنهم:

[٦١]

السيد أبو عبد الله، محمد بن الإيلاقي[(١)]

رجع بنسبه إلى والدٍ /٢٥٦/ شريف، وبحسبه إلى تالد وطريف، فقيل في ظل علم متكاثف الشحر، متراكم السُّحب، هطال المطر؛ سرت النوافح بأعطافه، وسُرَّت بألطافه، وصيرت ثمره في أوان قطافه.

قال ابن أبي أصيبعة[(٢)]: هو شريف النسب، فاضل في نفسه، خبير بصناعة الطب والعلوم الحكمية. وهو ممن أخذ عن الرئيس ابن سيناء، واختصر القانون، وأجاد في تأليفه، وله كتاب الأسباب والعلامات.

ومنهم:

[٦٢]

أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني[(٣)]

ذكي يفوح عبق ريحانه، ويكرم أرج عنبره بامتحانه، تكلم على الكواكب

---

(١) محمد بن يوسف، أبو عبد الله الإيلاقي: شرف الزمان، طبيب من تلاميذ ابن سينا. نسبته إلى إيلاق، في جهات فرغانة. له كتب منها «شرح كليات القانون لابن سينا ـ خ» في طوبقبو، و«الأسباب والعلامات» في الطب. توفي سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩، تاريخ الحكماء ٣٢٨، كشف الظنون ١٢٦٦، معجم المؤلفين ١٢/ ١٢٣، ومعجم الأطباء ٣٧٠، والأعلام ٧/ ١٤٨، أعلام الحضارة ٢/ ٤٦٨ـ٤٧١ رقم ٥١٥ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٣) محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي: فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم، ولد سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. وصنف كتباً كثيرة جداً، متقنة، رأى =

ورسومها وحدودها، والنجوم ونحوسها وسعودها، وناظر الفحول، وناضل النصول، وله حكمة تلمع مشارق أنوارها، وتصدع حصباء الفجر سابق نوارها.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: هو منسوب إلى بيرون، من مدن السند، وكان مشتغلاً بالعلوم الحكمية فاضلاً في الهيأة والنجوم. وكان معاصراً للرئيس ابن سيناء وبينهما بحوث ومراسلات. وقد ذكر الرئيس أجوبة مسائل سأله البيروني عنها مفيدة في الحكمة.

ومنهم:

[٦٣]

أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصبهاني، أبو علي[2]

من دار ملك لا يقعد به بلده، وابن أب لا يستحي به ولده، تحلل بالمناقب التي

= ياقوت فهرسها بمرو، في ستين ورقة بخط مكتنف؛ وياقوت مكثر من النقل عن كتبه. منها «الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ ط» ترجم إلى الإنجليزية، و«الاستيعاب في صنعة الأسطرلاب ـ خ» و«الجماهر في معرفة الجواهر ـ ط» و«تاريخ الأمم الشرقية ـ ط» و«القانون المسعودي ـ ط» في الهيئة والنجوم والجغرافية، و«تاريخ الهند ـ ط» ترجم إلى الإنجليزية في مجلدين، و«الإرشاد ـ ط» في أحكام النجوم، و«تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ـ ط» في مجلة معهد المخطوطات العربية: الجزأين الأول والثاني من المجلد الثامن، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ـ ط» و«التفهيم لصناعة التنجيم ـ ط» في الفلك، رسالة كتبها بالعربية والفارسية، و«استخراج الأوتار في الدائرة ـ ط» هندسة.

توفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م. وفي سنة وفاته خلاف كبير.

للدكتور محمد جمال أفندي «البيروني» سلسلة أعلام العرب، وللدكتور جلال شوقي «أبو الريحان البيروني دراسة حول نسبه وشخيصة، ومثله لعلي أحمد الشحَّات. وغيرهم.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٣٣، وتاريخ الحكماء ٣٤٨، الذريعة ١٦/ ٤٠٩، تاريخ حكماء الإسلام ٤٤ـ ٤٥، ٧٢ـ ٧٤، بغية الوعاة ٢٠ـ ٢١، روضات الجنات ١٧٩ـ ١٨٠، أعيان الشيعة ٤٣/ ٢٣٢ـ ٢٤٤، اللباب ١/ ١٦٠ـ ١٦١، معجم الأدباء ١٧/ ١٨٠ـ ١٩٠، مختصر تاريخ الدول ٣٢٤ـ ٣٢٥، كنوز الأجداد ٢٣٨ـ ٢٤٠، العلوم عند العرب ١٧٣ـ ١٧٩، وأعلام الحضارة ٢/ ٢٣٦ـ٢٥٧ رقم ٤٣٣ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(١) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٢) توفي سنة ٤١٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩ـ ٤٦١، أخبار العلماء ٤٣٨، وكشف الظنون ٥٧٣، ٨٤٩، ٨٥٣، ٨٦١، وغيرها، إيضاح المكنون ٢/ ٢٥٩، ومعجم المؤلفين ١/ ٢٦٩، والأعلام ٥/ ٣١٤، أعلام الحضارة ١/ ٨٠ـ٨٣ رقم ٥٤، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

ما ضاقت به ملابسها، ولا دنت لغيره ملامسها، وفاضت به ينابيع الحكم، وسهلت له صعابها التي كم رامها غيره وكم.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: هو من الأطباء المذكورين في بلاد العجم، وخدم جماعة من ملوكها ورؤسائها. وكانت له أعمال مشهورة في صناعة الطب، وكان من ذوي البيوتات الأجلاء بأصفهان. وكان أبوه فاضلاً في علم الأدب، وافر الدين. وله أشعار منها: [من الوافر]

/٢٥٧/ ويُمسي المَرءُ ذا أَجَلٍ قَريبٍ وفي الدُّنيا لَهُ أَملٌ طَويلُ
ويَعْجَلُ بالرَّحيلِ وليسَ يَدْري إلى ماذا يَقَرِّبِهِ الرَّحِيلُ

ولأبي علي ولده هذا كتب كثيرة ذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه «بغية الألباء في تاريخ الأطباء».

ومنهم:

[٦٤]

ابن أبي صادق، وهو أبو القاسم، عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن أبي صادق النيسابوري[٢]

وكان صادق الطَّلب، صادع الليل، سرى بحسن المتطلب، منقباً عن الحكمة يستثيرها من أماكنها، ويستديرها سُرجاً من مساكنها، ويستميرها أقواتاً، ويستميلها قصياً تميل إليه انعطافاً، وظباء تحسن إليه التفاتاً.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: هو طبيب فاضل بارع في العلوم الحكمية، كثير الدراية في الصناعة الطبية، له حرص بالغ في التطلع إلى كتب جالينوس، وما أودعه فيه من غوامض الطب وأسرار العلم، شديد الفحص عنها، وكان فصيحاً بليغ الكلام. وما فسره من كتب جالينوس في نهاية الجودة والإتقان، كما فعل في كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، فإنه أجهد نفسه فيه، وأجاد في تلخيص معانيه، وقد قال في أوله: وأما نحن فقد حررنا معاني هذا الكتاب شرحاً للعويص، وحذفاً للزائد، ونظماً للشتيت

---

(١) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٢) توفي سنة ٤٦٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٦١، حكماء الإسلام ١١٤ـ١١٦، كشف الظنون ٨٨٣٤، إيضاح المكنون ٢/ ٢٧٩، والأعلام ٣/ ٣١٦، وفيه وفاته نحو ٤٧٠هـ، معجم المؤلفين ٥/ ١٥٤، ومعجم الأطباء ٢٤٧ـ٢٤٨، وأعلام الحضارة ٢/ ١١ـ١٤ رقم ٢٦٧ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) عيون الأنباء ٤٦١.

وإضافة إليه.

قال صاحب بغية الألباء[١]: وحدثني بعض الأطباء أن ابن أبي صادق اجتمع بابن سيناء، وقرأ عليه وكان ممن يتتلمذ له قال: وهذا لا أستبعده بل هو أقرب إلى الصحة؛ لأن [ابن] أبي صادق لحق زمانه وكان ببلاد العجم. ولاشك أنه سمع بسمعة ابن سينا وكانت عظيمة، وكان أكبر من ابن أبي صادق قدراً. ثم ذكر تأليفاته.

ومنهم:

[٦٥]

السَّموأل بن يحيى بن عباس، المغربي الأصل، البغدادي الدار[٢]

العادي حيث السحاب الهطال دار، الماد يد البدار، الماد يد الاقتدار، /٢٥٨/ ذو الذكاء الذي يضيء للمقتدح، ويضع في مهامه مهام الطلب منه المقترح. طلاع كل نية، وطلاب كل حنية. خرق العادة في ذكائه الفرط، ووفائه بالعلم الذي لا يقبل الغلط، على أنه لم يحل بإبداع فن، ولا أبدعه حفظه علم يعرف بحقيقة أو ظن.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: كان فاضلاً في العلوم الرياضية، عالماً بصناعة الطب، وأصله من بلاد المغرب، وسكن بغداد مدة، ثم انتقل إلى بلاد العجم، ولم يزل بها إلى آخر عمره. قال عبد اللطيف البغدادي: هذا السموأل شاب بغدادي كان يهودياً وأسلم، ومات شاباً بمراغة، وبلغ في العدديات مبلغاً لم يصله أحدٌ في زمانه. وكان حاد الذهن جداًن بلغ في الصناعة الجبرية الغاية القصوى. وأقام بديار بكر وأذربيجان، وله رسائل في الجبر والمقابلة رد فيها على ابن الخشاب النحوي، وكان معاصره، وكانت له في هذا العلم يدٌ.

---

(١) يقصد به عيون الأنباء ٤٦١.

(٢) السَّمَوأل بن يحيى بن عباس المغربي: مهندس رياضي، عالم بالطب والحكمة. أصله من المغرب. سكن بغداد مدة، وانتقل إلى فارس، وكان يهودياً، فأسلم ومات في المراغة (بأذربيجان) نحو سنة ٥٧٠هـ/ نحو سنة ١١٧٥م.

له «المفيد الأوسط» في الطب، و«رسالة إلى ابن خدود» في مسائل حسابية، و«إعجاز المهندسين» فرغ من تصنيفه في صفر سنة ٥٧٠هـ، و«القوامي» في الحساب الهندي و«المثلث القائم الزاوية» و«المنبر» في مساحة أجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها، و«نزهة الأحباب في معاشرة الأصحاب ـ خ» في شستربتي (٤١٥١) و«بذل المجهود في إفحام اليهود ـ ط» و«الباهر ـ خ» في الرياضيات، بمكتبة أيا صوفيا.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧١ـ ٤٧٢، أخبار العلماء ٣٠٩، والأعلام ٣/ ١٤٠، المخطوطات المصورة في الرياضيات ١٩..

(٣) عيون الأنباء ٤٧١.

ومنهم:

[٦٦]

الشريف شرف الدين اسماعيل[١]

كمل شرف قديمه بحديثه، ووصل وأبى سراه بخبيثه، وعرف بأكمل أدوات العلوم، ومداواة العموم، وتحلى بمفاخر الطلب لعلم يبقيه، وجسم بصالح الطب يقيه، وصل من الدولة الخوارزمية العظيمة الشأن ما عُدَّ مثله لها من عظمتها، وامتدَّ ثري ماله من نعمتها، وجرى في طلق آماله إلى غاية همتها.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان طبيباً عالي القدر، وافر العلم، وجيهاً في الدولة. وكان في خدمة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه. وله منه الإنعام الوافر والمرتبة المكينة. وكان له مقرر على السلطان مبلغه ألف دينار في كل شهر، وكانت له معالجات بديعة وآثار حسنة في صناعة الطب.

وتوفي في أيام خوارزمشاه بعد أن عمّر. وله عدة مصنفات كلها بالفارسيّ.

* * *

/ ٢٥٩/ أطباء الهند

منهم:

[٦٧]

شاناق الهندي[٣]

هو ذو الحكم اللوامع، والكلم الجوامع، والتنبيهات الموقظة، والتمويهات المخفضة، والتشبيهات التي أخذت بأطراف الموعظة، نطق بها عن خاطر صفا فلم يكدر، ووفى فلم يغدر، فجاءت سوانح، وجادت موانح، وحلّت من القلوب محلاً منذ دخلته سكنت به وأخلته.

قال ابن أبي أصيبعة[٤]: كانت له معالجات وتجارب كثيرة في الطب، وتفنن في العلوم الحكمية. ومما قاله في كتابه الذي سماه «منتحل الجواهر»:

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٢.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٤.

(٤) عيون الأنباء ٤٧٤.

أيها الوالي اتق عثرات الزمان، واخش تسلط الأيام ولوعة الدهر. واعلم أن للأعمال جزاءً، فاتق العواقب؛ فإن لها غدرات، فكن منها على حذر؛ والأقدار مغيبات فاستعد لها، والزمان منقلب فاحذر دولته، لئيم الكرَّة فخف سطوته، سريع الغرة فلا تأمن دولته. واعلم أن من لم يداو نفسه من سقام الآثام في أيام حياته فما أبعده من الشفاء في دار لا دوام لها، ومن أذل حواسه واستعبدها فيما تقدم من خير، بان فضله وظهر نبله، ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة، لم يضبط حواسه وهي خمس. فإذا لم يضبط حواسه مع قتلها ونفسه مع ذلتها، صعب عليه ضبط الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم، وكان عامة الرعية في أقاصي البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط.

ومنهم:

[٦٨]

منكة الهندي[١]

طبيب توقى به الأجسام، وتوفى بسببه خير الأقسام، لو عاد الهرم، لأعاد عليه ثوب شبابه، وبَدَّل كفن المشيب بجلبابه، فأقرَّ الأرواح في أجسادها، وعاد بالصلاح على فسادها، فقرت استقراراً، وأزالت ضراراً، وصالحت الأبدان فلم تعد إلى منافرتها، ولم تبعد من مُضافرتها فأماطت عقابيل السَّقَم، وجذبت بأعقاب الداء / ٢٦٠/ العياء وقد التقم، فوجدت به الصحة وقد عزَّ لقياها، وطالت المدة وقد يئس من بقياها.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان عالماً بصناعة الطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوفاً، من المشار إليهم في العلم، متقناً للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذي نقل كتاب «شاناق» في السموم إلى الفارسية، وكان في زمان الرشيد، وأتى العراق في أيامه، ثم عرف العربية، فكان ينقل إليها.

ومن أخبار الخلفاء:

ان الرشيد قد اعتل علة صعبة، فلم يُجدِ فيها طب الأطباء. فقال له أبو عمر الأعجمي: يا أمير المؤمنين بالهند طبيب يقال له منكة، وهو أوحد عبادهم وفلاسفتهم، فلو بعثت إليه لعل الله يهبك الشفاء على يده. فجهز من وصله بصلة تعينه على سفره وحمله، فعالجه فبرىء. فأجرى عليه رزقاً واسعاً وأموالاً كافية. ثم بينما منكه هو مار في الخلد إذا هو برجل قد بسط كساءه وألقى عليه عقاقير كثيرة، وقام يصف دواءً معجوناً،

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤٧٥. (٢) عيون الأنباء ٤٧٥.

فقال: هذا دواء لكذا وكذا، وعدَّد أسقاماً كثيرة، وأدواء مختلفة حتى لم يدع عارضاً إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاؤها. فتبسم منكه وقال: على كل حال ملك العرب جاهل؛ لأنه إن كان الأمر على ما يقول هذا، فما الذي حمله على أن حملني من بلادي إليه وأبعدني عن أهلي وتكلف الكثير من مؤونتي، وهو يجد هذا نصب عينه وإزاء ناظره؟ وإن كان على غير ما يقول هذا فلم لا يقتله؟ لأن الشريعة قد أباحت دم هذا ومن أشبهه؛ لأنه إن قتل إنما هي نفس يحيا بموتها أنفس، وإن تُرك ـ وهذا الجهل ـ قتَل كل يومٍ أنفساً. وهذا فساد في الدين، ووهن في الملك.

ومنهم:

[٦٩]

صالح بن بَهلة الهندي[١]

طبيبٌ بين الانحراف والاعتدال، والصحة والاعتلال. حدس ما حدث، وبرَّ وما حنث. اطلع على كل سبب من الأسباب، وجمع بين طرفي الإيجاز والإسهاب، ورتب لكل ذي سنٍ ما يليق به من المداواة، / ٢٦١/ وما لا يطيق معرفته سواه، وشفع هذا بفضائل أخرى اجتال بها فخراً، فحوى محاسن لا تعد كثرة، ولا يزول لها أثره، وطالما حكيت عن طبه العجائب ومحاسن ما فيها قول لعائب.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان من علماء الهند، خبيراً بالمعالجات التي لهم، وله قوة وإنذارات في تقدم المعرفة. وكان بالعراق على عهد الرشيد. قال يوسف الحاسب المعروف بابن الداية: عن مولى سلام الأبرش، إن مولاه حدثه، أن الموائد قدمت بين يدي الرشيد في بعض الأيام وابن بختيشوع غائب، فطلبه في كل مكان فلم يجده، فطفق يلعنه، وإذا به قد دخل والرشيد يلعنه، فقال: لو اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه إبراهيم بن صالح كان أشبه به من تناولي، فقال له: وما خبره؟ فأعلمه أنه خلفه ومعه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة، فاشتد جزع الرشيد عليه، وأمر برفع الموائد فقال جعفر بن يحيى: إن طب ابن بختيشوع رومي وطب ابن بهلة هندي فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ليعرف ما عنده. فأمر بمصيره إليه، فجس عرقه ثم قال: لا

---

(١) كان حياً سنة ١٧٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٥ـ ٤٧٧، أخبار العلماء ٢١٥، أعلام الحضارة ١/ ٤٨٢ـ٤٨٣ رقم ٢٥٥ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٥.

أخبر الخبر إلاَّ أمير المؤمنين فأخبر الرشيد، فأدخل عليه ابن بهلة، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين أنت الإمام وعاقد ألوية القضاء للحكام، ومهما حكمت به لم يجز لحاكم فسخه، ولا لمعقب بعدك نسخه، وأنا أشهدك علي وأشهد من حضر أن إبراهيم بن صالح إن مات في هذه الليلة بل في هذه العلة يكون كل مملوك لصالح بن بهلة حراً لوجه الله، وكل دابة له تكون حبساً في سبيل الله، ويكون كل مال يملكه صدقة على الفقراء، وتكون كل امرأة له طالقاً ثلاثاً بتاتاً، فقال له الرشيد: حلفت ويلك يا صالح على غيب، فقال صالح: كلا يا أمير المؤمنين إنما الغيب ما لا علم لأحد به ولا دليل عليه، ولم أقل ما قلت إلاَّ بدليل واضح وعلامات بينة. قال: فسر الرشيد بقوله وأحضر الطعام فأكل وشرب، فلما كان وقت صلاة العتمة، / ٢٦٢/ أتى الخبر بوفاة إبراهيم بن صالح، فاستقبل الرشيد ورجع بلعن ابن بهلة وطب الهند، ثم بكر إلى دار إبراهيم فأتى ابن بهلة فوقف بين يديه فلم يناطقه إلى أن سطعت روائح المجامر وقد غسل إبراهيم وكفن، فصاح ابن بهلة عند ذلك: يا أمير المؤمنين، الله الله أن تحكم علي بطلاق زوجتي، وخروجي من نعمتي، وتدفن ابن عمك حياً، فوالله ما مات. فأطلق له الدخول عليه والنظر إليه ثم خرج وهو يكبر، ثم قال: قم يا أمير المؤمنين حتى أريك عجباً، فقام معه، ثم أخرج ابن بهلة إبرة كانت معه، فأدخلها بين ظفر إبهام يد إبراهيم اليسرى ولحمه، فجذب إبراهيم يده، فقال ابن بهلة: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع؟ فقال له: لا، فقال ابن بهلة: لو شئت أن أدعه يكلم أمير المؤمنين الساعة، لفعلت ولكن أخاف إن عالجته وأفاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط أن ينصدع قلبه، فيموت موتاً حقيقياً، ولكن يأمر أمير المؤمنين بتجريده من الكفن ورده إلى المغتسل وإعادة الغسل عليه حتى تزول رائحة الحنوط عنه، ثم يلبس مثل ثيابه التي كانت عليه، ويحول إلى فراش من فرشه التي كان يجلس عليها حتى أعالجه، فيكلمه من ساعته. ففعل فأمر بذلك، ثم دعا صالح بن بهلة بكندس ومنفخة، ونفخ الكندس في أنفه فمكث مقدار سدس ساعة، ثم اضطرب جسده وعطس وجلس قدام الرشيد، وقبل يده فسأله الرشيد عن حاله، فذكر أنه كان نائماً نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيباً إلا أنه رأى في منامه كلباً عض إبهام يده اليسرى عضة يجد وجعها، وأراه إبهامه الذي أدخل فيه الإبرة. وعاش بعد ذلك دهراً طويلاً، ثم تزوج بالعباسة بنت المهدي، وولي مصر وفلسطين. وتوفي بمصر وقبره بها[1].

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٧٥ـ ٤٧٧.

أطباء الشام

منهم:

[٧٠]

اليبرودي، وهو أبو الفرج، جرجس بن توما بن سهل بن إبراهيم /٢٦٣/ من النصارى اليعاقبة(١).

رجل اهتم لسعادته، وتكلم فأصاب، وما خرج عن عادته، شُكر بين الأطباء، وذكر ذكر الألباء. انتقل إلى الحاضرة، واشتغل بالمعالجة الحاضرة، وكان إذا دعي لتطبيب العلل طببها بما يقل لبثها، ويقلل بثها، ويعجل للأجسام بإعادتها صحتها، ويرخص لها ما يُسام من عادة منحتها، فينهض من جدِّها العاثر، ويؤثر فيها ما يشاء الآثر، ولم يتعود طول العبادة، ولا غرابة الدواء خلاف العادة.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان فاضلاً في صناعة الطب عالماً بأصولها وفروعها معدوداً من جملة الأكابر من أهلها والمتميزين في أربابها، دائم الاشتغال، محباً للعلم، مؤثراً للفضيلة.

حدثني شرف الدين بن عنين رحمه الله. أن اليبرودي كان لا يمل من الاشتغال ولا يسأم منه. قال: وكان أبداً في سائر أوقاته لا يوجد إلا معه كتاب ينظر فيه.

وحدثني بعض النصارى بدمشق، وهو السني البعلبكي الطبيب قال: كان مولد اليبرودي ومنشؤه بيبرود، وهي ضيعة كبيرة قريبة من صيدنايا وبها نصارى كثيرون وكان اليبرودي بها كسائر أهلها النصارى من معاناتهم الفلاحة وما يصنعه الفلاحون. وكان أيضاً يجمع الشيح من نواحي دمشق القريبة من جهته، ويحمله على دابة ويأتي به إلى داخل دمشق يبيعه للذين يقدونه بالأفران وغيرها. وأنه لما كان في بعض المرات، وقد عبر من باب توما ومعه حمل شيح، رأى شيخاً من المتطببين، وهو يفصد إنساناً وقد حصل له رعاف شديد من الناحية المسامتة للموضع الذي ينبعث منه الدم فوقف ينظر إليه، وقال له: لم تفصد هذا ودمه يجري بأكثر مما يحتاج إليه فعرفه أنه إنما يفعله لينقطع عنه الدم الذي ينبعث من أنفه، لكونه يجذبه إلى مسامتة الجهة التي ينبعث منها. فقال له:

---

(١) ورد في بعض المصادر: «جرجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم...» توفي سنة ٤٢٦هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٠ـ ٦١٣، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى ٥، معجم المؤلفين ٣/ ١٢٣، أعلام الحضارة ١/ ٢٧٤ـ٢٧٥ رقم ١٣٤.

(٢) عيون الأنباء ٦١٣.

إذا كان الأمر هكذا فإننا، في مواضعنا قد اعتدنا أنه متى كان / ٢٦٤/ نهر جارٍ وأردنا أن نقطع الماء عنه فأنا نجعل له مسيلاً إلى ناحية أخرى غير مسامتة، فينقطع من ذلك الموضع ويعود إلى الموضع الآخر، فأنت لم لا تفعل هكذا أيضاً وتفصده من الناحية الأخرى؟ ففعل ذلك وانقطع الرعاف عن الرجل. وقال ذلك الطبيب لليبرودي: لو أنك تشتغل بصناعة الطب جاء منك طبيب حاذق. فما اليبرودي إلى قوله، وتاقت نفسه إلى العلم، وبقي متردداً إلى الشيخ في أوقات، وهو يعرفه ويريه أشياء من المداواة. ثم إنه ترك يبرود وما كان يعانيه، وأقام بدمشق يتعلم أشياء من المداواة وصناعة الطب. فلما تبصر من أشياء منها، وصارت له معرفة بالقوانين العلمية، وحاول مداواة المرضى، ورأى اختلاف الأمراض وأسبابها وعلاماتها، وتيقن علاجاتها، سأل عمن هو إمام في وقته بمعرفة صناعة الطب جيداً. فذكروا له أن ببغداد أبا الفرج بن الطيب كاتب الجاثليق، وأنه فيلسوف متفنن، وله خبرة وفضل في صناعة الطب وفي غيرها من الصنائه الحكمية، فتأهب للسفر وأخذ سواراً كان لامه لينفقه، وتوجه إلى بغداد، وصار ينفق عليه ما يقوم بأوده، ويشتغل على ابن الطيب إلى أن مهر في صناعته وصارت له مباحثات جيدة، ودربة فاضلة في هذه الصناعة. واشتغل أيضاً بشيء من المتطق والعلوم الحكمية. ثم عاد إلى دمشق وأقام بها.

ونقلت هذه الحكاية المتقدمة أو قريباً منها، وإن كانت الرواية بينهما مختلفة، عن شيخنا الحكيم مهذب الدين [حدثني] أسعد بن إلياس بن المطران قال: حدثني أبي قال: حدثني أبو الفرج بن الحديد قال: كان بدمشق فاصد يقال له أبو الخير، ولم يكن من المهرة، وكان من أمره أن فصد شاباً، فوقعت الفصدة في الشريان فتحير وتبلد، وطلب قطع الدم، فلم يقدر على ذلك، فاجتمع الناس عليه. ففي أثناء ذلك اطلع صبي عليه وقال: يا عماه افصده / ٢٦٥/ في اليد الأخرى، فقال: شد الفصد الأول. فشده ووضع عليه لازوقاً كان عنده وشده فوقف جري الدم. ثم مسك الفصدة الأخرى فوقف الدم وانقطع الجميع. ووجد الصبي بالسوق معه دابة عليها حمل شيح فتشبث به وقال: من أين لك ما أعلمتني به؟ قال: إن أبي في وقت سقي الكرم، إذا انفتح شق من النهر، وخرج الماء منه بحدة لا يقدر على إمساكه دون أن يفتح فتحاً آخر، ينقص منه الماء الأول الواصل إلى ذلك الشق، ثم يسده بعد ذلك. قال: فمنعه الجرائحي من بيع الشيح واقتطاعه، وعلمه الطب، وكان منه اليبرودي وهو من مشاهير الأطباء الفضلاء.

وكان لليبرودي مراسلات إلى ابن رضوان بمصر وإلى غيره من الأطباء المصريين، وله إليهم مسائل عدة طبية ومباحث دقيقة. وكتب بخطه شيئاً كثيراً من الطب، ولا سيما من كتب جالينوس، وشروحها وجوامعها.

وحدثني السني البعلبكي: أن اليبرودي عبر يوماً في سوق جيرون بدمشق، فرأى إنساناً وقد بايع على أن يأكل أرطالاً من لحم الفرس مصلوقة مما يباع في الأسواق، فلما رآه وقد أمعن في أكله بأكثر مما تحمله قوته، ثم شرب بعده فقاعاً كثيراً أو ماء بثلج، واضطربت أحواله فتفرس فيه أنه لا بد أن يغمى عليه، وأن يكون في حالة أقرب إلى الموت إن لم يتلاحق، فتبعه إلى المنزل الذي له، واستشرف إلى ماذا يؤول أمره. فلم يكن إلا أيسر وقت، وأهله يصيحون ويضجون بالبكاء ويزعمون أنه قد مات فأتى إليهم وقال: أنا أبرئه وما عليه بأس. ثم إنه أخذه إلى حمام قريب من ذلك الموضع وفتح فكيه كرهاً، ثم سكب في حلقه ماءً حاراً وقد أضاف إليه أدوية مقوية للقيء وقيأه برفق. ثم عالجه وتلطف في مداواته حتى أفاق / ٢٦٦/ وعاد إلى صحته. فتعجب الناس منه في ذلك الفعل وحسن تأتيه إلى مداواة ذلك الرجل، واشتهرت عنه هذه القضية، وتميز بعدها.

وهذه الحكاية التي قصد اليبرودي على تتبع أحوال الرجل فيها ويشاهد ما يكون من أمره أن يكون عنده معرفة بالأعراض التي تحدث له، وأن ينقذه أيضاً مما وقع فيه إن أمكنه معالجته.

ومثل ذلك أيضاً ما حكاه أبو جعفر أحمد بن محمد بن الأشعث في كتاب «الغاذي والمغتذي»، وذلك أنه قال: إن إنساناً رأيته يوماً وقد بايع أن يأكل جزراً قدره بحد ما، فحضرت أكله لأرى ما يكون من حاله، لا رغبة مني لمجالسة من هذه حالته، ولا لي بذلك عادة ولله الحمد؛ بل لأرى إيراد الغذاء على المعدة قسراً إلى ماذا يكون هذا الفعل، فرأيته يأكل من حائط ليرى من حوله ويضاحكهم، حتى إذا مر على الكثير مما كان بين يديه فرأيت الجزر ممضوغاً قد خرج من حلقه ملتفاً مستحيلاً متعجناً بريقه؛ وقد جحظت عيناه، وانقطع نفسه، واحمر لونه، ودرت أوداجه، وعروق رأسه، وأزبد وكمد وجهه، وعرض له من التهوّع أكثر مما عرض له من القذف حتى رمى من ذلك الذي أكله شيئاً كثيراً. فزكنت أن انقطاع نفسه لدفع المعدة حجابه إلى نحو الفم، ومنعها إياه من الرجوع إلى الانبساط إلى النفس. وأما ما عرض إلى لونه من الاحمرار ودرور وداجيه وعروقه فزكنت أنه لإقبال الطبيعة نحو رأسه، كما يعرض لمن شدّت يده للفصد أن تقبل الطبيعة نحو الجهة التي استنهضت نحوها. فأما ما عرض لوجهه من الاربداد والكهوبة فرأيت أيضاً أنه لسوء مزاج قلبه، وأنه لو لم يخرج ما خرج، ودافعت المعدة حجابه هذه المدافعة التي قد عاقته آلته عن التنفس، عرض له الموت بالاختناق، كما قد رأينا ذلك في عدد كثير ماتوا بعقب القذف. فزكنت من ذلك أن التهوع / ٢٦٧/ لشدة اضطراب في ذلك الفصل وحسن تأتيه ونقي المعدة.

قال ابن أبي الأشعث بعد ذلك: إن الغذاء إذا حصل في المعدة وهو كثير الكمية، تمددت تمدداً ينبسط سائر غضونها، كما رأيت ذلك في سَبُع شرحته حياً بحضرة الأمير

الغضنفر، وقد استصغر بعض الحاضرين معدته، فتقدمت بصب الماء في فيه، فما زلنا نصب في حلقه دورقاً بعد أخرى حتى عددنا من الدواريق عدداً كان مقدار ما حوت معدته نحو أربعين رطلاً ماء، فنظرت إذ ذاك إلى الطبقة الداخلية، وقد امتدت حتى صار له سطحاً مستوياً ليس بدون استواء الخارج، ثم شققتها فعندما اجتمعت عند خروج الماء منها عاد غضون الداخلة وألتوت يشهد الله في جميع ذلك الا ترسل نفسه.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي قال: حدثني موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران قال: حدثني أبي، عن خالي أبي الفرج بن حيان قال: حدثني أبو الكرم الطبيب قال: كنت يوماً أساير الشيخ أبا الفرج اليبرودي إذ اعترضه رجل، فقال: يا سيدي كنت في صناعتي هذه في الحمام، وحلقت رأسي وأوجد الآن في وجهي كله انتفاخاً وحرارة عظيمة. قال: فنظرنا إلى وجهه يربو وينتفخ وتزيد حمرته بغير توقف ولا تدريج. قال: فأمره أن يكشف رأسه ويتلقى من الجارية من قناة كانت بين يديه، وكان الزمان إذ ذاك صميم الشتاء وغاية البرد، ثم لم يزل واقفاً حتى بلغ ما أراد مما أمر به. ثم أمر الرجل بالانصراف وأشار إليه بالأوفق له، وهو تلطيف التدبير واستعمال النقوع الحامض مبرداً، وقطع الزفر. قال: فامتنع أن يحدث.

وقال الطرطوشي في كتاب «سراج الملوك»: حدثني بعض الشاميين أن رجلاً خبازاً بينما هو يخبز في تنوره بمدينة دمشق إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش فاشترى منه، وجعل يأكله بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشياً عليه. فنظروا /٢٦٨/ فإذا هو ميت، فجعلوا يتربصون به ويحملون له الأطباء فيلتمسون دلائله، ومواضع الحياة منه. فلم يجدوا، فقضوا بموته. فغسل وكفن وصلي عليه، وخرجوا به إلى الجبانة. فبينما هم في الطريق على باب البلد إذ استقبلهم رجل طبيب يقال له اليبرودي، وكان طبيباً ماهراً حاذقاً فاضلاً عارفاً بالطب، فسمع الناس يلهجون بقضيته، فقال: حطوه حتى أراه. فوضعوه، فجعل يقلبه، وينظر في إمارات الحياة التي يعرفها. ثم فتح فمه وسقاه شيئاً، أو قال حقنه فاندفع هناك، فإذا الرجل قد فتح عينيه وتكلم وعاد إلى حانوته كما كان.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي عن موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران قال: حدثني أبي، قال: حدثني عبد الله بن رجاء بن يعقوب. قال: بلغني أن أبا الفرج جرجس بن يوحنا اليبرودي لما توفي ظهر في تركته ثلثمائة مقطع رومي وخمسمائة قطعة فضة ألطفها ثلثمائة درهم. قال موفق الدين بن المطران: وليس ذلك يكثر لأن الشخص متى تحققت أعماله وصفت نيته، وطلب الحق، وعامل الصحيح واجتهد في معرفة صناعته، كان حقاً على الله أن يرزقه. ومتى كان بالضد، عاش فقيراً، ومات يائساً[1].

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٦١٠ـ ٦١٣.

ومنهم:

[٧١]

ظافر بن جابر السكري، أبو حكيم(١)

حظيٌّ كان معانده يتلظى، وحاسده يتشظَّى، نهض للطلب أول ما قام على ساق، وتمَّ لهلاله اتساق، ولم يمل سعياً، ولا أخلَّ وعياً، ولا خلى زمانه سقياً له ورعياً، حتى شدا من كل علم يتعلمه منه طرفا، وخلف من كان يتقدمه وراء القفا، فصفت مناهله، وصَمَتَ مُباهله، ولم يستتم غصنه الورق، ولا اشتد مجلسه بالطلبة، وانتطق حتى عدَّ من العلامات، وتأكدت الأسباب له بالعلامات.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان مسلماً فاضلاً في الصناعة الطبية، متقناً للعلوم الحكمية، متحلياً /٢٦٩/ بالفضائل وعلم الأدب، محباً في الاشتغال والتضلع في العلوم. وكان قد لقي أبا الفرج ابن الطيب ببغداد، واجتمع به، واشتغل عليه ومعه. وكان ظافر بن جابر موجوداً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وهو موصلي، وإنما انتقل من الموصل إلى مدينة حلب، وأقام بها إلى آخر عمره.

ومن شعره: [من الكامل]

مــا زلــتُ أَعــلِــمُ أولاً فــي أَولِ … حتى علـمـتُ بـأَنـنِي لا عـلـم لـي

ومِـنَ الـعَـجـائـبِ أن كـونـي جـاهـلاً … مِـنْ حـيـثُ كَـونـي أَنـنـي لـمْ أَجْـهَـلِ

ومنهم:

[٧٢]

أبو الحكم، عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي(٣)

أبو الحكم وأخو الحكم، علم الفضلاء، وعصم أهل الولاء، إلاَّ أنه كان للأعداء سماماً، وللإعداء هماماً، وكان كثيراً ما يهيج للمباهلة، ويهاجي ولا يخاف، ونسبه من باهله. أتى دمشق فرتع في جنانها، وغاص في غياض أفنانها، وبات قِرى

(١) كان حياً سنة ٤٨٢هـ، ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٤، معجم المؤلفين ٥/ ٤٧)، والعلوم العملية ـ الطب ٥٠، والعلوم البحتة ـ الحيوان ٣٥٧، أعلام الحضارة ١/ ٤٨٤ رقم ٢٥٨.

(٢) عيون الأنباء ٦١٤.

(٣) ورد في الأصل: «عبيد الله بن المظفر بن عبد الله...» وما أثبتنا من عيون الأنباء.
ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٤ـ ٦٢٧، أخبار العلماء ٤٠٤.

جفونها المراض وجفانها، دأب إلى أندية آبق وسيادتها، فأناخ في ذلك الذرى، واستطاب المناخ والقرى.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان فاضلاً في الحكمة والطب، معتنياً بالأدب، كثير المجون، محباً للشراب، فإذا طرب خرج في بابه الخيال. وكان يضرب بالعود، وله مدائح في آبق وبني الصوفي، وكان يهاجي الشعراء.

وفي هجائه يقول عرقلة[٢]: [من السريع]

لنا طبيبٌ شاعرٌ أشتُّر أراحنا مِنْ شخصهِ اللهُ

ما عادَ في صُبْحَةِ يوم فتًى إلا وفي باقيهِ رَثّاهُ

ومن شعره قوله: [من الوافر]

أَلا يا مَنْ لِصَبٍ مُستهام معنًّى لا يُفيقُ مِنَ الغَرَام

وكيفَ يُفيقُ مَحزونٌ كئيبٌ أَضَرَّ بجسمِهِ طُولُ السَّقامِ

وقوله: [من المنسرح]

/٢٧٠/ ويحَ المُحبينَ ليتَ لا خُلِقُوا ما بَرِحُوا في العَذابِ مُذْ عَشِقُوا

ولا رَجَوا راحةً ولا فَرَحاً إلا وسُدَّتْ عليهمُ الطُّرُقُ

ومنهم:

[٧٣]

ابنه أبو المجد بن أبي الحكم، أفضل الدولة[٣]

متقن لكل رياضي، وممعنٌ في كل سماء وأرضي، رمى كل أفق بنظره، وغلب كل شارق بنيِّره، وخلَّف وراءه الأقران، وألقى في ذروة السؤدد الجران، والتفت إليه السلطان بوجه الإقبال، وحباه حتى أمن الإقلال، فتأخر نظراؤه وتقدم إماماً، وردَّ نوءهم وسح غماماً، وجَدَّل ذوي الجدال إذ جدَّ اهتماماً.

قال ابن أبي أصيبعة[٤]: من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين، والأفاضل في الطب والهندسة والنجوم والموسيقى، ويجيد الغناء والإيقاع والزمر وسائر الآلات، وعمل الأرغل وبالغ في إتقانه. وكان العادل نور الدين محمود بن زنكي يرى له ويحترمه، وجعل له الأمر في مارستانه بدمشق، وكان يقرأ عليه الطب في إيوان المارستان، وتقدم في زمانه.

---

(١) عيون الأنباء ٦١٤.
(٢) ديوان عرقلة الكلبي ١٠٦.
(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٢٨.
(٤) عيون الأنباء ٦٢٨.

ومنهم:

[٧٤]

ابن البذُوخ، وهو أبو جعفر بن موسى بن علي القلعي[١]

كان من أعلام أهل الفضائل، وأواخر من لحقه السلف من الأوائل، جنى بيده الأدوية وركَّبها، وعرف مقادير رُتبها ورتَّبها، إلى سوى هذا مما قضى فيه أيام عمره، وذهب وقد أبقى للناس من ثمره، وكان كأنه ما مات، ولا أكلت أنواره الظلمات، ومضى وهذا أثره، وبقي ذباب السيف وهو أكثره.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان عارفاً بالأدوية المفردة والمركبة، وله حواش على كتاب القانون، وله اعتناء بعلم الحديث والشعر، وعمّر طويلاً، وضعف عن الحركة، ثم عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه.

ومنهم:

[٧٥]

حكيم الزمان، أبو الفضل، عبد المنعم بن عمر بن عبد الله /٢٧١/ بن حَسّان الغسّاني الجِلْيَاني[٣]

حسنة من إحسان، وبقية آل غسان، طلع من المغرب، وسمع منه المطرب، ولا

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٦٢٨ـ ٦٢٩، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٦ـ٤٧٧ رقم ٢٤٠، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٨٩، فوات الوفيات ٢/ ٣٥ـ٣٧، نفح الطيب ٢/ ٦٥٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٠١ـ٦١٠هـ) ص ١٢٠ رقم ١٣٥.

(٢) عيون الأنباء ٦٢٨.

(٣) عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الجِلْيَاني الغساني الأندلسي، أبو الفضل: طبيب، شاعر، أديب، متصوف، كان يقال له «حكيم الزمان». من أهل «جليانة» وهي حصن من أعمال وادي آش (Guadix) بالأندلس، ولد سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكانت معيشته من الطب، يجلس على دكان بعض العطارين. وهناك لقيه ياقوت الحموي. وزار بغداد سنة ٦٠١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م كان السلطان صلاح الدين يحترمه ويجله، ولعبد المنعم فيه مدائح كثيرة، أشهرها قصائده «المدبجات ـ خ» العجيبة في أسلوبها وجداولها وترتيبها، أتمها سنة ٥٦٨هـ، وتسمى «منادح الممادح» و«روضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر» و«مشارع الأشواق ـ خ» عند الزركلي نسخة نفيسة كتبت سنة ٧٣١. وله عشرة «دواوين» نظماً ونثراً، منها «ديوان أدب السلوك ـ خ» وهو الثالث، نثر، و«ديوان الغزل والتشبيت والموشحات» وهو الثامن، نظم، و«ديوان الترسل والمخاطبات» وهو العاشر، نثر. وقد أتى ابن أبي أصيبعة على بيان موضوعات الدواوين =

عجب أن سمي حكيم الزمان، ولقط منه نظيم، وتلقته الملوك واصطفته، وناصفته في مجالسها وأنصفته، ومذ أنس بفطنه لم يستوحش لوطنه، ولا ظهر عليه قشف البين، ولا عرف له في بشرٍ إلاَّ حسن أثر وعين.

قال ابن أبي أصيبعة(١): كان علامة زمانه في الطب والكحل بارعاً في الأدب والشعر أتى من الأندلس إلى الشام. وأقام بدمشق، وعمر عمراً طويلاً. وله في السلطان صلاح الدين مدائح كثيرة، وصنف له كتباً وكان له من الإحسان الجزيل، والأنعام الكثير.

ثم خدم بالكحل الأشرف شاه أرمن، وتوفي بالرها سنة نيف وعشرين وستمائة.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

علـى فَرْطِ شَـوقـي تَـستـقـلُّ الـركـائـبُ ... وعَنْ صَونِ دَمعي تَستهلُّ السحائبُ
ومـا الـبـرقُ إلا مِـنْ حَـنـيـنـيَ نـابـضٍ ... ومـا الـرعـدُ إلا مِـنْ أنـيـنـي نـادُب
نـأيـتـمْ فـلا صَبْرٌ مِنَ الـقـلـبِ حـاضـرٌ ... لـديَّ ولا قـلـبٌ عَـنِ الـذكـرِ غـائـبُ
فـيـا لـيـتَ شِـعْـرِي بـعـدنـا مَنْ صَحِبتُمُ ... فـمـا بـعـدكـمْ غيرُ الهَوَى ليَ صاحبُ

وقوله: [من البسيط]

قـالـوا نَـرَى نَـفَـراً عـنـدَ الـمُـلـوكِ سَـمَـوا ... ومـا لـهـمْ هِـمَّـةٌ تـسَـمُـو ولا وَرَعُ
قَـدْ يُـكـرمُ الـقِـرْدُ إعـجـابـاً لـخِـسَّـتِـهِ ... وقَـدْ يُـهـانُ لـفَـرطِ الـنّـخْـوةِ الـسَّـبُـعُ

ومنهم:

[٧٦]

المهذب بن النقاش، أبو الحسن، علي بن عيسى بن هبة الله(٢)

طبيب لو أخذ عن جالينوس، لأتاه العلم بمنصوصه، أو لزم ابن سيناء لأقبل عليه

= العشرة، وذكر له «تعاليق في الطب» و«صفات أدوية مركبة» وشعره حسن السبك، فيه جودة.
ترجمته في: عيون الأنباء ٦٣٠-٦٣٥، فوات الوفيات ٢/ ١٦، وهو فيه «الجياني» ولعل سقوط اللام من خطأ النسخ أو الطبع، ونفح الطيب ٢/ ٦٥٤ وهو فيه «محمد بن عبد المنعم بن عمر، أو عبد المنعم بن عمر» ومعجم البلدان مادة جليانة، وفيه: وفاته سنة ٦٠٣، فوات الوفيات ٢/ ١٦، تكملة الصلة لابن بشكوال ٢/ ٦٥٢-٦٥٣، نفح الطيب ٢/ ٥، ١٥-١٦، ومجلة المجمع العلمي ٩/ ٢٣٦ و١٠/ ٣١٧ ثم ٢٠/ ٥٢٩، وتحفة القادم لابن الأبار، والفهرس التمهيدي ١٢٠، الذيل والتكملة - خ - وفيه أنه نزل القاهرة، وتجول في بلاد المشرق، وتوفي سنة ٦٠٣، والأعلام ٤/ ١٦٧.

(١) عيون الأنباء ٦٣٠.

(٢) المهذّب ابن النَّقَّاش: علي بن عيسى بن هبة الله، أبو الحسن، مهذب الدين ابن النقاش: عالم بالطب، أديب، له مشاركة في الحديث. مولده ومنشأه ببغداد. أقام في دمشق، ثم في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي بها سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م، كان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب، =

على خصوصه، أو سبق ابن عربي لاستبقى بقيةً من نقشه لفصوصه، وكان لا يُقصر في طلب، ولا يقص النسر له جناحاً إذا طلع وإذا غرب، فلم يلمَّ به ملل، ولا كان له في غير العلم أمل.

قال ابن أبي أصيبعة(١): / ٢٧٢/ كان مولده ومنشؤه ببغداد، وكان عالماً بالعربية والأدب، وقرأ الطب على أمين الدولة بن التلميذ، ولازمه مدة واشتغل بعلم الحديث على ابن الحصين، وحدث معه، وسمع منه القاضي عمر بن القرشي.

قال الأصفهاني في الخريدة(٢): أنشدني مهذب الدين بن النقاش لوالده: [من المتقارب]

إذا وجدَ الشيخُ في نفسِهِ ... نَشاطاً فذلكَ موتٌ خَفِيْ
ألست تَرَى أَنَّ ضَوءَ السِّراجِ ... لهُ لَهَبٌ عندما يَنطفِيْ

قال ابن أبي أصيبعة(٣): لما وصل المهذب بن النقاش إلى دمشق طبَّ بها، وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى مصر، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق، وخدم نور الدين بالطب، وكان له منه إحسان، وتوفي يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة أربع وسبعين وخمسمائة، ودفن بجبل قاسيون.

ومنهم:

[٧٧]

سكرة اليهودي الحلبي(٤)

حكيمٌ فضائله غير منكرة، وطبيب حلا وصفه فقيل سكرة، وكانت له هممٌ تواتيه، وله شممٌ ما خرج به من التيه، انقاد له الحظ، وأتاهُ بأدنى فكرٍ ولفظ، وأنجبت له ذُرِّيَّة أسلموا بعده، وسُلِّموا ولايات عدة، وذلك بعد أن رُفِعَ عليهم علم الإسلام، ودان لهم قلم الكتابة بسلام.

قال ابن أبي أصيبعة(٥): كان له دربة بالعلاج، وتصرف في المداواة. حكي أنه كان

= وخدم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وبقي سنين في بيمارستانه الكبير، وكتب له كثيراً من الرسائل إلى النواحي. وبعد وفاة نور الدين خدم السلطان صلاح الدين. وله أخبار.
ترجمته في: عيون الأنباء ٦٣٥ـ ٦٣٧، منامات الوهراني ١٤٢، الوافي بالوفيات ٢١/ ٣٧٧ـ ٣٧٨ رقم ٢٤٨، خريدة القصر (قسم العراق) مج٣/ج١/ ٤٩ـ٥٠ ضمن ترجمة والده. الأعلام ٤/ ٣١٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٧١ـ٥٨٠هـ) ص١٥١ رقم ١٢٢.

(١) عيون الأنباء ٦٣٥.
(٢) خريدة القصر (قسم العراق)مج٣/ج١/ ٥٠.
(٣) عيون الأنباء ٦٣٦.
(٤) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٦٣٧ـ ٦٣٨.
(٥) عيون الأنباء ٦٣٧.

لنور الدين بقلعة حلب حظية يميل إليها فمرضت مرضةً أعيت على الأطباء، فأحضر إليها سكرة الحكيم، فوجدها قليلة الأكل، متغيرة المزاج، فسألها عن جنسها فأخبرته بأنها علاّنية، ثم سألها عما كانت تأكل في بلادهم، فقالت: لحم البقر، فسألها عما كانت تشرب، فقالت: الخمر، فقال لها: ابشري بالعافية، ثم ذهب فاشترى عجلاً وصلق من لحمه، ثم عمل معه شيئاً من لبن وثوم، وأخذ معه خمراً، وأتى به فأطعمها، وأكلت منه بنهمة كبيرة، ثم سقاها، فطلبت /٢٧٣/ النوم، فنامت وغطيت بدثار، فعرقت عرقاً كثيراً، وأصبحت في عافية، ولازمها بمثل ما عالجها به حتى برئت، فبعثت إليه بصينية مملوءة من الحلي، ثم كتبت إلى نور الدين تعلمه بعجز الأطباء عنها، وأن عافيتها كانت على يده، فلما قرأ الكتاب طلبه وعرفه بما قالت ثم منَّاه فسأله عشرة أفدنة في قريتي صمع وعيدان، فكتبها له ملكاً ثم عاد إلى حلب وكثرت أمواله، ولم يزل في نعمة طائلة هو وبنوه.

ومنهم:

[٧٨]

أسعد بن المطران، الموفق[١]

طبيبٌ على نصرانيته وتدينه بدنيِّته، قد تحلَّى بمحاسن الشيم، وحلَّ الغاية لولا الشمم، ودنا من الملوك مجلساً، وترك حاسده المضنوك مُبلساً، وأطالت النعمة رياشه، ونفضت على فائض النوء رشاشه، وأثرى بالحضرة الصلاحية حتى ابتل عوده في الثرى، وشمخ هرم ماله إلى الذرى، وكان على هذا الوفر والحظ الذي ما ذُهِّبَ بمثله سفر، يتجنى على السلطان والذنب ذنبه، ويتناوم عليه ولا يهدأ جنبه.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان للسلطان صلاح الدين فيه اعتقاد وأسلم في أيامه، وكان يغلب على ابن المطران الكبرياء حتى على الملوك وكان يعلم صلاح الدين ذلك منه.

وحكى عنه من كان معه في بعض غزواته أن صلاح الدين كان ينصب له في أوقات حروبه خيمة حمراء بدهليز أحمر وميضاة حمراء، فبينا هو راكب وإذا به قد نظر إلى خيمة حمراء ظنها خيمته، فسأل لمن هي؟ فقيل له: لابن المطران الطبيب فضحك، وقال: والله قد عرفت هذا من حماقته، ثم قال: ما بنا إلاَّ أن يعبر أحدٌ من الرسل فيعتقد أنها خيمة أحد الملوك، وإذا كان لا بد فيغير ميضاتها، فيصعب هذا على ابن المطران، وبقي يومين لا يأتي الخدمة حتى ترضاه صلاح الدين وأعطاه مالاً.

وشكا أبو الفرج البطروي الطبيب إلى صلاح الدين ضرره ببنات له يريد تجهيزهن، فأمر أن يكتب ورقة بما يحتاج إليه، فكتب شيئاً بنحو ثلاثين ألف درهم،

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٦٥١ـ ٦٥٩. (٢) عيون الأنباء ٦٥٢.

فأمر له بما تضمنه ورقته، فبلغ / ٢٧٤/ ذلك ابن المطران، فقصر في الخدمة، وتبين لصلاح الدين هذا من تغير وجهه، فأمر بأن يحسب جملة ثمن ما اشترى به جهاز بنات أبي الفرج ويعطي ابن المطران نظيره.

وحكى المهذب عبد الرحيم بن علي: أن أسد الدين شيركوه صاحب حمص طلب ابن المطران فتوجه وأنا معه. فبينما نحن في بعض الطريق، وإذا رجل مجذوم قد استقبله، وكان المرض قد قوي به، حتى تغيرت خلقته، وتشوهت صورته. فاستوصف منه ما يتناوله، وما يتداوى به، فبقي كالمتبرم به من رؤيته، ثم قال له: كل لحوم الأفاعي. فعاوده في المسألة فقال: كل لحوم الأفاعي؛ فإنك تبرأ. يكررها عليه، ثم مضينا إلى حمص، وأقمنا بها نعالج المريض الذي طلب لأجله إلى أن صلح ثم رجعنا فلما كنا في الطريق، وإذا بشاب حسن الصورة، كامل الصحة قد سلم عليه وقبل يده. فقال له: من أنت؟ فقال له: أنا صاحب ذلك المرض الذي كنت شكوت إليك، وإنني استعملت ما وصفته لي فصلحت من غير أن أحتاج معه إلى دواء آخر.

وتوفي ابن المطران في ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة بدمشق[1].

ومنهم:

[٧٩]

ابن اللَّبُّودي، يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد، الصاحب نجم الدين، أبو زكرياء[2]

مُشيّد بيت، ومحيي فضل غير مَيْت، وإلى الآن بقيته، وكان وما هانت بليَّته، وترقَّى

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٥١ـ ٦٥٦.

(٢) يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد، أبو زكريا، نجم الدين، الصاحب ابن اللَّبُّودي: حكيم أديب، من علماء الأطباء. ولد في حلب سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، ونشأ بدمشق، واتصل بالملك المنصور (صاحب حمص) فاستوزره وفوض إليه أمور دولته. ثم انتقل إلى مصر (سنة ٦٤٣هـ) بعد وفاة المنصور، فجعله الملك الصالح أيوب ناظراً على الديوان بالإسكندرية، فأقام حيناً. وعاد إلى دمشق، فكان ناظراً على الديوان في جميع الأعمال الشامية. وصنف كتباً جليلة، منها: «اللمعات» في الحكمة، و«غاية الغايات في المحتاج إليه من أقليدس والمتوسطات» و«تحقيق المباحث الطبية ـ خ» و«الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة» و«كافية الحساب» في علم الحساب، و«آفاق الإشراق» في الحكمة، و«المناهج القدسية» حكمة. واختصر كثيراً من كتب ابن سينا وحنين بن إسحاق. وشرح بعضها. وله نظم، منه قصيدة في رثاء «الخسروشاهي» وأبيات يتشوق بها إلى بلد الخليل، نظمها سنة ٦٦٠ وفي تاريخ ابن كثير أنه هو واقف «اللبودية» المدرسة =

إلى أن وزر، واتشح برداء الكبرياء واتزر، إلاَّ أنه لدى ملك لم يفخر لديه خديم، ولا أثرى بندي يديه عديم، فضيق نطاقه، وعدم رواج الفضل عنده ونفاقه، لصغر بلده، وقلة ذات يده.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: أوحد في الطب، قدوة في الحكم، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم، متفنن في الآداب. فما يدانيه في شعره لبيد، ولا في ترسله عبد الحميد [من الطويل].

ولـمَّـا رأيـتُ الـنـاسَ دونَ مـحـلِّـهِ ... تـيـقـنـتُ أَنَّ الـدهـرَ لـلـنـاسِ نـاقـدُ

مولده بحلب سنة سبع وستمائة. وأتى دمشق. وقرأ على المهذب عبد الرحيم. وخدم / ٢٧٥/ المنصور إبراهيم صاحب حمص. وكان يعتمد عليه وأحواله تزداد لديه حتى استوزره، واعتمد عليه بكليته. فلما توفي الملك المنصور بعد كسرة الخوارزمية، توجه إلى الخدمة الصالحية النجمية بمصر، فأكرمه وجعل له كل شهر ثلاثة آلاف درهم، وبقي على ذلك مدة. ثم وجه إلى الشام ناظراً على الديوان بجمع الممالك الشامية.

وله نثر منه قوله: «وقف الخادم على المشرفة الكريمة أدام الله نعمة المنعم بما أودعها من النعم الجسام، واقتضبه من الأريحية التي أربى فيها على كل من تقدمه من الكرام، وأبان فيها عما يقضي على الخادم بالاسترقاق، وللدولة خلدها الله بمزايا الاستحقاق. وكلما أشار المولى إليه فهو كما نص عليه، لكنه يعلم بسعادته أن الفرص تمر مر السحاب، وقد ضاق الوقت بحيث لا يحتمل التأخير والمولى يعلم أن المصلحة تقديم النظر في هذا المهم على جميع أنواع التدبير، وما الخادم مع المولى في هذا إلا كسهم، والمولى مدده والسيف والمولى مجرده، فالله الله في العجلة والبدار. فقد ظهرت مخايل السعادة والانتصار. والحذر الحذر من التأخير والإهمال فيفوت والعياذ بالله الأوقات التي نرجو فيها بلوغ الآمال، والمسؤول من كرم الله أن ينهض المملوك في خدمة السلطان بما يبيض وجه أمله، ويكون ذلك على يد المولى بقوله وعمله.

ومن شعره قوله يمدح سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام: [من الكامل]

هـذي الـمـهـابـةُ والـجـلالُ الـهـائـلُ ... بَـهَـرا فـمـاذا أنْ يـقـولَ الـقـائـلُ

= التي عند حمام الفلك (بدمشق) ولما مات سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م دفن عندها. وفي هامش على كتاب «الدارس» للنعيمي، أن اللبودية اندرست وبقي هناك بستان يعرف ببستان اللبودي.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٦٣-٦٦٨، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٧٠ رقم ٢٨١، تاريخ الملك الظاهر ٤٩-٥٠، عيون التواريخ ٢٠/ ٤٢٩، البداية والنهاية ٩٣/ ٢٦٢، عقد الجمان (٢) ٩٨، الدارس ٢/ ١٣٥، والأعلام ٨/ ١٦٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١-٦٧٠هـ) ص٣٢١ رقم ٣٦٨.

(١) عيون الأنباء ٦٦٣.

وبكَ اقتدَى جُلُّ النبيين الأُلى ... ولديكَ أَضحت حُجَّةٌ ودلائلُ
أظهرتَ إبراهيمُ أعلامَ الهُدَى ... والخَير والمعروف جُودُكَ عاملُ
شيَّدتَ أركانَ الشريعةِ مُعلِناً ... وُمقرِّراً أنَّ الإلهَ الفاعلُ
ما زلتَ تنقلُ للنبوةِ سِرَّها ... حتى غدا لمحمدٍ هو واصلُ
وقد التجأتُ إلى جنابِكَ خاضِعاً ... مُتوسِّلاً وأنا الفقيرُ السائلُ[(١)]

/٢٧٦/ ومنهم:

[٨٠]

الرضّي الرَّحْبي، يوسف بن حيدرة بن الحسن، أبو الحجاج[(٢)]

حكيم لو استجارت به الأرواح لكلأها، أو أملى المسامع لملأها، كم شُكيت إليه الأسقام فأبرأها، وتواثبت الأيام فرد أجرأها، مذ وكلت به رعاية الأبدان خُرست، ومُذ أترست به الأعضاء رأست، شد البناء، وشدَّد الأبناء، فقامت به الأجسام، وكانت تئنُّ سقماً، وتدافع ضعفاً. فتح لها فمه مُلتقماً، فتمت به محاسن الوجوه الوسام، وترضى الأرواح للأجسام، فخصَّ بالحباء، وزيادة الاحتباء، فأقبل المال يتدفق عليه تدفق السيل، ويفيض عنده على الميزان والكيل.

قال ابن أبي أصيبعة[(٣)] فيه: من الأكابر في صناعة الطب، والمتقدمين من أهلها، وله الذكر الشائع، ولم يزل مبجلاً عند الملوك. وكان عالي الهمة، كبير النفس، كثير التحقيق، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، ما عرف منه أنه آذى أحداً، ولا تكلم فيه بسوء. وكان لابنه نظر في الطب، إلا أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه وبها عرف.

وولد ابنه الرضي بالجزيرة في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونشأ بها وأقام بنصيبين، ثم الرحبة، ثم سافر إلى بغداد وغيرها، واشتغل في علم الطب وتميز فيه، ثم أتى مصر واجتمع بالموفق بن جميع المصري وانتفع به، وكان قدومه دمشق في الأيام النورية، فرأى ابن النقاش وأخذ عنه ولزمه، فنوه بذكره، وقدر له بالمثول بالحضرة الصلاحية، فحسن موقعه إليها، ورتب في المارستان النوري، وأطلق له إدرار سلطاني، ودام إلى أيام المعظم، وأشغل خلقاً كثيراً صاروا شيوخ إقراء حتى كان لو اعتبر أطباء

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٦٣ـ ٦٦٤.

(٢) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٦٧٢ـ ٦٧٥، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧١ـ٣٧٢ رقم ٢٣٧، شذرات الذهب ٥/ ١٤٧، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ٦٤٠هـ) ص٧٩ رقم ٧٥.

(٣) عيون الأنباء ٦٧٢.

الشام، لم يوجد منهم إلاَّ من قرأ عليه، أو على من قرأ عليه. وممن قرأ عليه المهذب عبد الرحيم بن علي، وكان لا يقرىء ذمياً ولا عادم أهلية، وكان يلازم في طبه قوانين حفظ الصحة الموجودة، وكان يتوقى صعود السلالم، ويقول: السلم منشار العمر.

ومن نوادره في طبّه: أن ابن مرزوق / ٢٧٧/ ذكر أن الصاحب ابن شكر كان يلازم أكل الدجاج، فلحقه شحوب، فشكاه إلى الأطباء، فوضعوا له أنواعاً من الأشربة وغيرها، فلما شكا إلى الرحبي، قال: يحضر الجواب، ثم نهض، فأحضر له قطعة من صدر دجاجة، وقطعة حمراء من لحم ضأن، ثم قال له: أنت تلازم أكل لحم الدجاج فلا يأتي الدم المتولد منه إلاَّ شبهه، ولو أكلت من لحم الضأن، لأتى الدم المتولد منه يشبهه، فاترك لحم الدجاج، ولازم لحم الضأن، وما تحتاج إلى علاج. ففعل ذلك، فزال شحوبه، وصلح لونه.

وتوفي يوم عاشوراء سنة إحدى وثلاثين ستمائة، ودفن بقاسيون[(١)].

ومنهم ابنه:

[٨١]

الشرف علي، شرف الدين، أبو الحسن[(٢)]

حكيم أينع في جرثومة الطبِّ عذقه، وصحَّ في نظر المستطب حذقه، لم تُخط تجاربه، ولم تخف مآربه، أحسن طبه علاج الأمراض، وقوَّم مزاج الأعراض، وعُرف منه ما لم يخف على أحد، ولا عرف أن أحداً له جحد، وكان طبُّه شافياً للأسقام، وكافياً في الدَّاء العقام، ولم تمس يده مريضاً إلاَّ مسح بيده سقمه، وسَلَّهُ من فم دائه الذي التقمه، فكان لهذا يُرغب في تطبيبه، ويرى من استطبَّ غيره سقامه من طبيبه.

قال ابن أبي أصيبعة[(٣)] فيه: سلك حذو أبيه، واتبع ما كان يقتفيه، وأشبهه خلقاً

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٧٢ـ ٦٧٥.

(٢) علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي، شرف الدين، طبيب، من العلماء الشعراء، ولد في دمشق سنة ٥٨٣هـ وتوفي فيها سنة ٦٦٧هـ، خدم في البيمارستان الكبير، وتولى تدريس الطب مدة، وصنف كتباً منها: «خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها».

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٧٥ـ ٦٨٢، والوافي بالوفيات ٢٢/ ٣٥١ رقم ٢٤٥، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٥٥، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٨٣، وطبقات الأطباء ٢/ ١٩٥ـ٢٠١، والدارس ١/ ١٣٠، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٧ وفيه وفاته ٦٦٨، عقد الجمان ٢/ ٥٢ـ٥٣، عيون التواريخ ٢٠/ ٣٨٩ـ٣٩١، كشف الظنون ٧٢٣، إيضاح المكنون ١/ ٤٣٩، هدية العارفين ١/ ٧١١، ومعجم المؤلفين ٧/ ٢٦٥، الأعلام ٥/ ٣٤، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١ـ٦٧٠هـ) ص٢٤٤ رقم ٢٤٢.

(٣) عيون الأنباء ٦٧٥.

وخُلقاً، وطريقة وحذقاً، ولم يزل منذ نشأ موفراً على قراءة الكتب وتحصيلها، ونفسه تشرئب إلى طلب جمل الفضائل وتفصيلها. قرأ على أبيه، وعلى الموفق عبد اللطيف البغدادي، وأخذ عن السخاوي وغيره، وأجاد إتقان الأدب، وكان يحب التخلي للقراءة والدرس والاطلاع على آثار القدماء، والانتفاع بتصانيف الحكماء.

ولد بدمشق سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وحكي أنه قبل مرض موته بمدة كان يخبر أنه بعد قليل يموت ويقول: وذلك عند قران الكوكبين، ثم يقول: قولوا هذا للناس حتى يعرفوا مقدار علمي في حياتي وفي / ٢٧٨/ وقت موتي فكان كما قال.

وتوفي بذات الجنب حادي عشر المحرم سنة سبع وستين وستمائة، ودفن بقاسيون.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

سهامُ المنايا في الوَرى ليسَ تُمنعُ ... فكلٌّ لهُ يوماً وإنْ عاشَ مَصْرَعُ
فقلْ للذي قدْ عاشَ بعدَ قرينِهِ ... إلى مثلِها عَمَّا قليلٍ ستُدفعُ
أَفقْ وانظرِ الدنيا بعينٍ بصيرةٍ ... تجدْ كلَّ ما فيها ودائعَ رُجَّعِ

وقوله: [من الطويل]

تُساق بنو الدنيا إلى الحَتْفِ سُرْعَةً ... ولا يشعرُ الباقي بحالةِ مَنْ يَمضيْ
كأنهمُ الأنعامُ في جَهْلِ بعضِها ... بما تَمَّ مِنْ سفكِ الدماءِ على بعضِ[1]

ومنهم:

[٨٢]

عمران الإسرائيلي، واسم أبيه صدقة، ويلقب بالأوحد[2]

حكيم حُكمَ على نظرائه، وحُتم بصواب آرائه، لنظر كان له أثقب من نظر الغراب، وأحدَّ من السيف عند الضِّراب حتى ظهر ظهور الشمس، واشتهر اشتهار ما كان في أمس، فاستدعته الملوك إلى مجالسها، وأدنته إدناء مُجَالسها، فأخذ منها بحظ أزلف له الغرف، وأشرف به على أبعد مُشترف، وقدَّمه لديهم لفضل طار به محلقاً، وأطال باعه محققاً، وعرف بحسن التدريب وصحة التجريب، فأجزلت له الجوائز حتى كان يأخذها آلافاً، ويعجل لها إتلافاً وإخلافاً، وهلك بعد السرف، وكثرة ما صرف، وأمواله قد زادت على القياس، وأفنت الحبال شدّاً على الأكياس.

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٧٥ ـ ٦٧٨.

(٢) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٦٩٦ ـ ٦٩٧.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: كان أبوه أيضاً طبيباً مشهوراً. واشتغل هو على الشيخ رضي الدين الرحبي، وتميز في الطب، وحظي عند الملوك، واعتمدوا عليه في المداواة والمعالجة، ونال من جهتهم الأموال الجسيمة والنعم ما يفوق الوصف. وحصل من الكتب الطبية/ ٢٧٩/ وغيرها ما لا يكاد يوجد عند غيره، ولم يخدم أحداً من الملوك في الصحبة، ولا تقيد معهم في سفر، وإنما كل منهم إذا عرض له مرض أو لمن يعز عليه طلبه، ولم يزل يعالجه ويطببه بألطف علاج وأحسن تدبير، إلى أن يفرغ من مداواته. ولقد حرص به الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأن يستخدمه في الصحبة فأبى، وكذلك غيره من الملوك.

وحدثني الأمير صارم الدين التبنيني رحمه الله أنه لما كان بالكرك، وصاحبه الملك الناصر داود بن الملك المعظم. وكان الملك الناصر قد توعك مزاجه، واستدعى الحكيم عمران إليه من دمشق فأقام عنده مديدة وعالجه حتى صلح فخلع عليه، ووهب له مالاً كثيراً، ورتب له جامكية في كل شهر ألف وخمسمائة درهم ناصرية، ويكون في خدمته، وأن يسلف منها عن سنة ونصف سبعة وعشرين ألف درهم.

أقول: وكان السلطان الملك العادل لا يزل يصله بالأنعام الكثير، وله منه الجامكية الوافرة والجراية، وهو مقيم بدمشق، ويتردد إلى خدمة الدور السلطانية بالقلعة. وكذلك في أيام الملك المعظم، وكان قد أطلق له أيضاً جامكية وجراية تصل إليه، ويتردد إلى البيمارستان الكبير، ويعالج المرضى به، وكان به أيضاً في ذلك الوقت شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي رحمه الله، وكان يظهر في اجتماعَهما كل فضيلة، ويتهيأ للمرضى من المداواة كل خير، وكنت في الوقت أتدرب معهما في أعمال الطب. ولقد رأيت من حسن تأتي الحكيم عمران في المعالجة، وتحقيقه للأمراض ما يتعجب منه. ومن ذلك أنه كان يوماً قد أتى إلى البيمارستان وبه مفلوج والأطباء قد ألحوا عليه باستعمال المغالي وغيرها من صفاتهم، فلما رآه وصف له في ذلك اليوم تدبيراً يستعمله، ثم بعد ذلك أمر بفصده، ولما فصد وعالجه، صلح وبرىء بُرأ تاماً، وكذلك رأيت له أشياء كثيرة من صفات مزاويره وألوان كان يصفها للمرضى على / ٢٨٠/ سبيل شهواتهم، ولا يخرج عن مقتضى المداواة فينتفعون بها. وهذا باب عظيم في العلاج. ورأيته أيضاً وقد عالج أمراضاً كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة، ويئس الأطباء من برئهم، فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها، ومعالجات بديعة قد عرفها. وقد ذكرت من ذلك جملاً في كتاب التجارب والفوائد.

وتوفي الحكيم المذكور في مدينة حمص في جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وستمائة، وقد استدعاه صاحبها لمداواته.

ومنهم:

---

(١) عيون الأنباء ٦٩٦.

[٨٣]

يعقوب بن صقلاب النصراني[(١)]

حكيمٌ أطاح طبهُ رداء السقم، وأطار عن الأعضاء لوثة السَّأم، فقامت به الأجسام كأنما نُشطت من عقال، أو حدثت بعد صدأ الأسقام بصقال، فحظي عند الملوك حظوةً زادت في أنسه، وقضى بها يعقوبه حاجة كانت في نفسه، هذا إلى علم بصناعة الطب حفظت له في دروس، ونشأت له به غروس، وكان كأنما خلق من طينة أفلاطون، وجالس جالينوس حتى اخترمته المنون.

قال ابن أبي أصيبعة[(٢)]: كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها، دائم الاستحضار لها كأنها مصورة بين عينيه لا ينقل إلاَّ عنه، وكان يشرح كتب أبقراط، ويورد نص ما قاله جالينوس في شرحه، وكان يجتمع هو والمهذب عبد الرحيم بدمشق بدار السلطان، ويجري بينهما مباحث، وكان المهذب أفصح عبارة وأقوى براعة، وأحسن بحثاً، وابن صقلاب أكثر سكينة وأبين قولاً، وأوسع نقلاً، وكان في معالجاته غاية في الجودة والنجح؛ لأنه كان لا يداوي حتى يجيد تحقيق المرض، وكان المعظم يشكر هذا من فعله ويصفه به ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلاَّ استقصاء الأمراض ليعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه شيء من أمرها لكفاه، وكان متقناً للسان الرومي، ونقل كتاب «حيلة البُرءِ» وغير ذلك من / ٢٨١/ كتب جالينوس منها إلى العربية.

قال: كان مولده بالقدس، وأخذ الطبيعي والهندسة والحساب والنجوم عن فيلسوف كان قد ترهب بها في دير السيق.

قال: وكانت له في النجامة أحكام صحيحة وإنذارات عجيبة، وعلت مكانته عند المعظمَ حتى أراد أن يوليه بعض تدبير دولته فامتنع، وكان قد عرض له نقرس في رجليه، فكان المعظم إذا سافر أخذه معه في محفة. وقال له يوماً: يا حكيم لم لا تداوي هذا المرض الذي في رجليك، فقال له: الخشب إذا سوس ما يبقى في إصلاحه حيلة.

وأدرك الناصر داود بعد أبيه، وولد بدمشق سنة إحدى وستين وخمسمائة، وتوفي بها يوم فصح النصارى سنة خمس وعشرين وستمائة.

ومنهم:

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٩٧ـ ٦٩٩ وفيه: «يعقوب بن سقلاب..»، أخبار العلماء ٣٧٨.

(٢) عيون الأنباء ٦٩٧.

[٨٤]

الرشيد الصُّوري، أبو منصور بن أبي الفضل بن علي[١]

رجلٌ تهادته الملوك، وهادنته الأيام لحسن السلوك، وكان الحظُّ معه حيثما خيَّم، والسَّعد قرينه أينما يمَّم، وهو من بيت تعد معه رجال، وتمتع الدهر بهم إلى آجال، وطالما زهت بهم الأيام الخوالي، وحسنت بهم الليالي الحوالي، وكان هو آخرهم الذي كان لمسكهم ختاماً، وضرب لهم حول قباب الجوزاء خياماً.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: اشتمل على جملة من الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجلية والخفية، وكان فريداً في الأدوية المفردة وماهيتها، واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها. اشتغل على عبد اللطيف البغدادي بالقدس سنتين، وصحب الجياني، وكان عارفاً بالأدوية المفردة فانتفع به واشتغل بها، مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصبية التي لم يسبق إليها، والمعرفة المذكورة، والشجاعة المشهورة، وخدم بالطب العادل، ثم صار إلى المعظم، وحضر معه دمياط، ثم صار إلى الناصر داود، فلما توجه إلى الكرك أقام الرشيد بدمشق، وكان يشتغل بها.

ولأبي نصر المهذب الحلبي فيه مديح منه: [من الطويل]

/٢٨٢/ سرى طيفُها والكاشحونَ هُجودُ ... فبـاتَ قـريبـاً والـمـزارُ بـعيـدُ
وتـاللهِ مـا عـادَ الـخَيـالُ وإنـمـا ... تُـخـيِّـلُـهُ الأفـكـارُ لـي فـيـعـودُ

---

(١) رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري: عالم بالنبات والطب. مولده في صور (بساحل لبنان) سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م وإليها نسبته. وانتقل إلى القدس فأقام سنتين، فمر بها الملك العادل فاستصحبه معه (سنة ٦١٢هـ) إلى مصر، فبقي في خدمته. ثم خدم ابنه الملك المعظم، فالناصر ابن المعظم. وجعله هذا رئيساً للأطباء، فبقي معه إلى أن توجه الناصر إلى الكرك، فأقام رشيد الدين بدمشق فتوفي فيها سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م. كان مولعاً بالتنقيب عن غريب النباتات والحشائش، يستصحب مصوراً، معه الأصباغ والليق على اختلافها ويتوجه إلى المواضع التي فيها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها، وكان يُري المصور النبات في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إيّاه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه في وقت ذواه ويبسه فيصوره. وقد أتى على ذكر كثير من هذه الأعشاب في كتابيه «الأدوية المفردة» و«التاج».
ترجمته في: عيون الأنباء ٦٩٩- ٧٠٣، الوافي بالوفيات ١٤/ ١٢٥ رقم ١٦٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص٣٩٩ رقم ٥٨٧، هدية العارفين ١/ ٣٦٨.

(٢) عيون الأنباء ٦٩٩- ٧٠٠.

فيا لائمي كُفَّ الملامَ ولا تَزِدْ فما فوقَ وجْدي والغرام مَزيدُ
ألا في سبيل الحُبِّ مَنْ ماتَ صَبْوَةً ومَنْ قتلتْهُ الغِيدُ فهوَ شَهيدُ
ولمْ تَرَ عيني مثلَ أسماءَ خُلَّةً تَضَنُّ بوصلي والخيالُ يَجُودُ
وبتُّ وجنحُ الليلِ مُرخٍ سُدُولَهُ أضمُّ غُصونَ البانِ وهيَ قُدُودُ
إلى أنْ تَبَدَّى الصبحُ غيرَ مُذمَّم وزالَ ظلامُ الليلِ وهوَ حميدُ
وكيفَ أذمُّ الصبحَ أو لا أَوُدُّهُ وإنْ رِيعَ مَودودٌ بهِ ووَدُودُ
وكلَّ صباحٍ فيهِ للعينِ حظوةٌ بوجهِ رشيدِ الدينِ وهوَ سعيدُ
فقلْ لبني الصوريِّ قدْ سُدتمُ الوَرَى وما الناسُ إلا سيدٌ ومَسودُ
وما حُزْتمُ إرثَ العُلا عَنْ كَلالَةٍ كذلكَ آباءٌ لكمْ وجُدودُ
ومَنْ بأَبى المنصورِ أصبحَ لائذاً فقدْ قاربتْهُ بالنجاحِ سُعُودُ
فيا كعبةَ الآمالِ يا ديمةَ الندَى ويا مَنْ بهِ رَوضُ الرجاءِ مَجُودُ
ومَنْ عندَهُ يوم السماحةِ حاتِمٌ كما عندَ مَدحي في عُلاهُ عَبيْدُ
أَياديكَ عندي لا أقومُ بشكرِها فما فوقَ ما أَولتْ يداكَ مَزيدُ[1]

ولد سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بصور ونشأبها.

وتوفي بدمشق يوم الأحد غرَّة رجب ستة تسع وثلاثين وخمسمائة.

ومنهم:

[٨٥]

السديد ابن رُقَيْقَة، أبو الثَّناء، محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن شجاع الحانوتي[2]

طبيب كان كالنسيم في لطف العلاج، والصباح الوسيم عند الانبلاج، وكان لا يبارى في خفة يد، ولعب أنامل في جد، مع ما تقدم له مما تقدم به في ذوي الحظوظ، وعرف أنه بعين الحظ ملحوظ، فما قاوى جدولٌ تياره، /٢٨٣/ ولا طاولت الحباحب ناره، وكان يستحق هذا من أيامه الذاهبة، وفي زمانه وعطايا أنعامه الواهبة.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه[3]: النفس الفاضلة والمروءة الكاملة. جمع من

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٩٩ـ ٧٠٣.

(٢) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٧٠٣ـ ٧١٧ وفيه: «الحانوي»، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ٦٤٠هـ) ص٢٦٤ رقم ٣٧٣، وفيه: «ابن زُقَيْقة، الحانَوِي...».

(٣) عيون الأنباء ٧٠٣.

الطب ما فاق به أقوال المتقدمين، وتميز على جميع نظرائه من الحكماء والمتطببين. هذا مع الفطرة الفائقة، والألفاظ الرائقة، والنظم البليغ، والترسل البديع ولازم ابن عبد السلام المارديني وأخذ عنه الطب والحكمة. وكانت لابن رقيقة يد طولى في الكحل. والجراح وعمل الحديد، وداوى أمراض العين، وقدح الماء النازل، وأنجب عمله، وكان المقدح الذي له مجوفاً وله عطفة ليتمكن وقت القدح من امتصاص الماء، ويكون العلاج به أبلغ. واشتغل بعلم النجوم. ونظر في حيل بني موسى، وعمل منها أشياء مستظرفة.

قال: ولد الحانوتي[١] سنة أربع وستين وخمسمائة، وعالج صاحبها الأرتقي من مرض في عينيه فرأى سريعاً، وكان إذ ذاك دون العشرين، فاستخدمه عنده ثم خدم المنصور صاحب حماة مُدةً، ثم سافر إلى أخلاط وكان صاحبها الأوحد أيوب بن العادل فخدمه وخدم صهره صلاح الدين ابنا غيسان، وكان زوج ابنة الأوحد. وكانت بنت الأوحد محسنة إليه ثم خدم بعده الأشرف شاه أرمن، ثم أتى إليه إلى دمشق فأكرمه، واستخدمه للحرم وفي البيمارستان، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وله شعر منه: [من الكامل]

يا مُلبسي بالنُّطق ثَوبَ كَرامةٍ ... ومُكّملي جُوداً بهِ ومُقوِّمي
خُذني إذا أَجلي تَناهى وانقضى ... عُمْري على خَطٍّ إليكَ مُقُوَّم
وقدِ اجتويتُ ثواي فيهِ ومَنْ تكنْ ... دارُ الغُرور لهُ مَحَلاً يسأمِ
دارٌ يُغادِرُ بؤسَها وشقاءَها ... مَنْ حَلَّها وكأنهُ لَمْ ينعَمِ
/ ٢٨٤/ لا ترتضي الدنيا الدنيةَ مَوطناً ... تُعلى على رُتبِ السَّواري الأنجُمَ
فتشاهدي ما ليس يُدْرَكُ كُنهُهُ ... بالفكرِ أوْ بتوهُّم المُتوهِّمَ
وتُجاوري الأبرارَ في مُستوطَنٍ ... لا داثرِ البُقيا ولا مُتهدَّمَ
يا أيها المغرورُ شِبْتَ ولَمْ تَعُدَّ ... عمَّا لهجتَ بهِ ولمْ تتندَّمَ
لا تَحسبنَّ الشيبَ فيكَ لِعلَّةٍ ... عَرَضَتْ ولا لتلزُّجٍ في البلغَمَ
لكنْ شبابَك كانَ شَيطاناً ومَنْ ... يَكُ مارداً بالشُّهبِ حقاً يُرجَمَ
والشيبُ إشراقُ الحِجا وضياؤُهُ ... فأَهِنْ هَوَاكَ أوانَ شيبكَ تُكرَمَ
يا جابرَ العظمِ الكسيرِ وغافرَ الـ ... ـجُرْم الكبيرِ لكلِّ عبدٍ مُجرِمِ

(١) في الأصل: «الحياني» وصوّبناه مما ذكره المؤلف في عنوان الترجمة.

مـالـي إلـيـك وسـيـلـةٌ وذريـعـةٌ أنـجـو بـهـا إلا اعـتـقـادُ الـمُـسـلـمِ

وقوله: [من الخفيف]

لا تـكـنْ نـاظـراً إلـى قـائـلِ الـقَـو لِ بـلِ انـظـرْ إلـيـهِ مـاذا يـقـولُ
وخـذِ الـقـولَ حـيـنَ تُـلـقـيـهِ مـعـقـو لاً ولـوْ قـالَـهُ غَـبِـيٌّ جَـهُـولُ
فـنـبُـاحُ الـكـلابِ مَـعْ خِـسَّـةٍ فـيـ ـهـا عـلـى مَـنـزلِ الـكَـريـمِ دَلـيـلُ
وكـذاكَ الـنُّـضـارُ مَـعْـدِنُـه الأر ضُ ولـكـنـهُ الـخَـطـيـرُ الـجَـلـيـلُ[١]

ومنهم:

[٨٦]

صدقة السامري، وهو صدقة بن منجا بن صدقة[٢]

رأس حكمة وأدب، وحلف همة لم يقصر في دأب لم يُلف مثله سامرياً، ولا مضطلعاً سام ريًّا، ورد على الغمائم حياضها، وراد في جنبات المجرة رياضها، طالما سهر الليالي الطوال، وأكثر في طلب العلم السؤال إلى أن جمع على الفضائل ردنه، واتخذ كرم الفعائل خدنه، إلاَّ أنه لم ينزع حب دينه، ولا جفا ما جفَّ في طينه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[٣]: من الأكابر في صناعة الطب، والمتميزين من أهلها، والأماثل من أربابها. وافر العلم، جيد الفهم، قوياً في الفلسفة، /٢٨٥/ وكان يدرس في الطب، وله فيه وفي الحكمة تصانيف. وخدم الملك الأشرف شاه أرمن. وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه كل الإكرام، ويعتمد عليه. وتوفي بحران فيما ينيف على سنة عشرين وستمائة، وخلف مالاً جزيلاً، ولم يخلف ولداً.

ومن كلامه قوله:

«الصوم منع البدن، أو كف الحواس عن الخطأ، والجوارح عن الآثام، وللصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وهو كف البطن والفرج؛ وصوم الخصوص، وهو كف

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٠٣ـ ٧٠٩.

(٢) صَدَقَة بن مُنَجَّى بن صدقة السامري: طبيب، كان يُعرف بابن الشاعر. خدم الملك الأشرف موسى الأيوبي، وتوفي في الخدمة. وكان الأشرف يحترمه ويكرمه ويعتمد عليه. له تصانيف، منها «النفس» و«شرح التوراة». وله نظم أكثره دوبيت. توفي في حران نحو سنة ٦٢٥هـ/ نحو ١٢٢٨م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٧١٧ـ ٧٢١، ومطالع البدور ٢/ ١٠٧، التاج ١٠/ ٣٥٩، تكتب القاموس / مادة: (نجا)، الأعلام ٣/ ٢٠٣.

(٣) عيون الأنباء ٧١٧ـ ٧١٨.

السمع والبصر واللسان؛ وصوم خصوص الخصوص فصوم القلب والأفكار».

وقوله:

«ما كان من الرطوبات الخارجة من الباطن ليس مستحيلاً، ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط. وأما ما له مقر وهو مستحيل فهو نجس، كالبول والروث».

ومن شعره قوله: [من مخلع البسيط]

وضامن ردّ كلِّ رُوح هَمَّت عَنِ الجِسم بالبِعادِ
أُقسمُ لوْ كانَ طَبَّ دَهْراً لعادَ كَوناً بلا فَسادِ

وقوله: [من السريع]

مُهندسٌ في طُولِ أيَّامِهِ مَعْ قصرِهِ يبتلعُ السارِيَه
مُثلَّثٌ يَدعمُهُ قائمٌ لأنهُ مُنفرجُ الزاويه

ومنهم:

[٨٧]

المهذب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري[١]

سامري لم يخفر ذمته، ولم تُقصر في طلب العلياء همته، حتى داني الغاية على قلة ناصريه، وكثرة حُسَّاده في معاصريه، ولم تزل العداوة تشب اللهب، وتجلل الرماد الذهب، فألصقت به العيوب، وخرَّمت إليه أستار الغيوب، ولم تزل تزعزعه العواصف إلى أن زحزح وتكشف غماره حتى صُحصح.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: أتقن الطب والحكمة، واشتغل بعلم الأدب، وبلغ في الفضائل أعلى الرتب، وكان كثير الإحسان، غزير الامتنان، فاضل /٢٨٦/ النفس، صائب الحدس قرأ في الخدمة الصلاحية على شمس الحكماء إبراهيم السامري، وعلى اسماعيل بن أبي الوقار الطبيب، وعلى أبي اليمن الكندي، والمهذب بن النقاش، وتميز في الطب، واشتهر بحسن العلاج، وعالج ست الشام بنت أيوب من دوسنطاريا كبدية بالكافور القنصوري بحليب بزر بقلة محمصة، وشراب رمان وصندل، فسارعها الدم، ثم لاطفها حتى برئت، وخدم فرخشاه بن أيوب، ثم خدم ابنه الملك الأمجد، وأقام عنده ببعلبك، وحظي عنده، وكان يستثيره ويعتمد عليه، ثم استوزره وحصل بسببه

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٧٢١ـ ٧٢٣.

(٢) عيون الأنباء ٧٢١.

الأموال وتوَّر النعم.

وقال فيه فتيان: [من المنسرح]

الـمـلـكُ الأمـجـدُ الـذي شـهـدتْ لـهُ جـمـيـعُ الـمـلـوكِ بـالـفَـضْـل
أصـبـحَ فـي الـسـامـريِّ مُـعـتـقـداً مـا اعـتـقـدَ الـسـامـريُّ فـي الـعِـجـلِ

قال ابن أبي أصيبعة[١]: ولم يزل المهذب على علو منزلته حتى كثرت الشكاوى من أقاربه السامرة، وما كثر منهم من العسف والظلم، وأكل الأموال، وإفساد الحريم، ولامت الملوك الملك الأمجد عليه، فقبضه وقبض على أقاربه، واستصفى منهم أموالاً كثيرة، واعتقله، ثم أطلقه، فأتى دمشق، وأقام بها في داره.

ومن شعره قوله: [من المجتث]

إنْ سـاءَنـي الـدهـرُ يـومـاً فـإنَّـهُ سَـرَّ دَهْـرا
وإنْ دَهـانِـيْ بـمـالٍ فـقـدْ تَـعَـوَّضْـتُ أَجْـرا
اللهُ أَغـنـى وأَقـنـى والـحـمـدُ لـلـهِ شُـكْـرا

ومنهم:

[٨٨]

أمين الدولة، أبو الحسن ابن غزال بن أبي سعيد السامري، وزير الصالح اسماعيل[٢]

كان سامرياً وأسلم، ولقب كمال الدين، وكان المهذب السامري عمه.

وكان لا يُطمع في معاضلته، ولا يقدر على مناضلته إلاَّ أنه قتل نفسه بحمقه، وابترد بالنار من حرقه، ولم يزل منذ أخذ في الطلب يترقى /٢٨٧/ ويبرز بين المعامل ولا يتوقى حتى تسنَّم ذُرى الوزارة، وغلط طيفها في غفلة الحلم وزاره، فتصدى للأموال حتى صادها، وأقام على الأعيان أرصادها، إلاَّ أنها فرت من شباكه، وانفت أن تستقر في أملاكه ثم كان آخر ما حمله عليه الهوج، وطلب به استقامة حاله من العوج أنه أقيم من الدست الذي لم يقدمه أحد إلى صدره، ولا جُزي به بعد طول الحبس على عاقبة صبره، ثم أخذ وشنق، وكان قد أبرم بيده حبل سعادته فخنق.

قال ابن أبي أصيبعة[٣]: كان له الذكاء الذي لا مزيد عليه، والعلم الذي لا يصل

---

(١) عيون الأنباء ٧٢٢.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٢٣ـ٧٢٨.

(٣) عيون الأنباء ٧٢٣.

سواه إليه، والإنعام العام، والإحسان التام، والهمم العالية، والآلاء المتوالية، قد بلغ من صناعة الطب إلى غاياتها، وانتهى إلى نهايتها، وفاز بمحصولها، وأتقن علم فروعها وأصولها. حتى قلل له المماثل، وقصر عن معانيه كل فاضل. كان أولاً عند الأمجد صاحب بعلبك طبيباً فلما توفي بدمشق، استقل أمين الدولة بالوزارة العمادية، فساس أحسن سياسة، وبلغ في التدبير نهاية الرياسة، وثبت قواعد الملك وأيّدها، ورفع مباني الفضل وأيدها، وجدد معالم العلم والعلماء، وأوجد من الفضائل ما لم يكن لأحد من القدماء. ولم يزل عالي القدر نافذ الأمر، مطاع الكلمة، كثير العظمة إلى أن ملك دمشق الملك الصالح أيوب، وجعل نائبه بها ابن شيخ الشيوخ، وأعطى الصالح اسماعيل بعلبك، فانتقل إليها وبقي وزيره بدمشق، وقد جمع له ولصاحبه أموالاً عظيمة جداً أخذها من أهل دمشق بموافقة القاضي الرفيع الجيلي، فاتفق ابن شيخ الشيوخ والصاحب ابن مطروح على مكيدة عملت، وهي أنهما طلبا أمين الدولة فلما أتى قاما له وقالا: إن أردت الإقامة بدمشق فابق على حالك، وإن أردت أن تلحق صباحك فتقيم عنده فافعل. فقال: لا والله بل ألحق مخدومي وأكون عنده. ثم أنه خرج بجميع أمواله وذخائره وخواصه وجميع ما يملكه /٢٨٨/ حتى أثاث بيته وحُصر دوره.

فلما صار ظاهر دمشق بما معه قبض عليه، وأخذ جميع ما كان معه قد جمعه واحتيط على أملاكه واعتقل. ثم حمل إلى القاهرة فأودع السجن بقلعة الجبل مع جماعة أخر من الحاشية العمادية، فلما أتى الملك الناصر يوسف بن العزيز من حلب إلى دمشق وملكها، صار معه الصالح اسماعيل وسائر ملوك مولاه الصالح أيوب فلما التقوه كانت الكسرة أولاً على العسكر المصري ثم دارت الدائرة على العسكر الشامي، وقبض الصالح اسماعيل وجماعة من الملوك والأمراء وحبسوا بمصر، ثم أطلق بعضهم، وأما الصالح اسماعيل فكان آخر العهد به.

وحكي أن أمين الدولة لما سمع بما كان من ظهور العسكر الشامي على المصريين على ما كان أولاً، وعد المتحدث في القلعة عند طلوع الملوك بمواعيد أطمعته، فأخرج من كان عنده، وكانوا ثلاثة: أمين الدولة، وناصر الدين بن يغمور، وأمير كردي، فقال الكردي: يا قوم لا تستعجلوا واقعدوا مكانكم، فإن كان الأمر صحيحاً فأستاذنا يخرجنا ويحسن إلينا، وإن كان غير صحيح، فقعودنا أصلح لنا، فلم يلتفت أمين الدولة وابن يغمور إليه، وخرجوا وتأخر هو وقعد الوزير أمين الدولة وابن يغمور في القلعة، وأمروا ونهوا فلما جاءت الأخبار المؤكدة بعكس ما طار إليهم به أول الخبر أمر العز بقتل ابن يغمور، وشنق أمين الدولة، واطلاق الكردي، فاطلق

الكردي، وقتل ابن يغمور وشنق امين الدولة.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: وحكى لي من رآه لما شنق وعليه قندورة عتابي خضراء وفي رجله سرموزة. قال: ومن العجائب أن أمين الدولة لما حبس أرسل إلى منجم بمصر كانت له إصابات لا تخرم، وسأله عما كان وما يكون من حاله، فأخذ طالع الوقت ورسمه ثم قال: يخلص هذا من الحبس، ويخرج منه فرحاً مسروراً، ويبقى له أمر مطاع يمتثل فيه أمره ونهيه، ففرح./ ٢٨٩/ فلما جاءه ذلك الخبر ظن أن يبقى وزيراً بمصر، فتم له ماذكره المنجم في يوم خروجه، ثم لم يعلم ما يجري له بعده. وكان ذلك في الكتاب مسطوراً[٢].

ومنهم:

[٨٩]

المُهَذَّب الدَّخْوار، أبو محمد، عبد الرحيم بن علي بن حامد[٣]

طبيب نهض به طيب العناصر، ونهى عمله أن تعقد على غيره الخناصر، كان في

(١) عيون الأنباء ٧٢٤ـ ٧٢٨.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٢٣ـ ٧٢٥.

(٣) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدَّخْوار: طبيب، انتهت إليه رياسة صنعته في عصره، ولد سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م في دمشق ونشأ بها، واتصل بالملك العادل (أبي بكر ابن أيوب) سنة ٦٠٤هـ، فارتفعت منزلته عنده حتى جعله في جلسائه وأصحاب مشورته، وأغدق عليه إنعامه. ولما توفي العادل (سنة ٦١٥هـ) وولي الملك المعظم بالشام، ولاه النظر في البيمارستان (المستشفى) الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي، فأقام يصنف كتبه ويعلم الناس الطب إلى أن ملك دمشق الملك الأشرف (سنة ٦٢٦هـ) فولاه رياسة الطب، فظل على ذلك إلى ان توفي بدمشق سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ووقف داره «مدرسة الأطباء» وهي بنواحي الصاغة العتيقة، من كتبه «الجنينة» في الطب، و«شرح تقدمة المعرفة ـ خ» في الطب، و«مختصر الأغاني، للأصفهاني» في الأدب، و«مختصر الحاوي، للرازي» في الطب. وله رسائل وتعليقات كثيرة.

ترجمته في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦٧٢، وذيل الروضتين ١٥٩ـ ١٦٠، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٧٢٨ـ ٧٣٦، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٦٨، والعبر ٥/ ١١١ـ ١١٢، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ رقم ١٩٣، وفوات الوفيات ٢/ ٣١٥، ٣١٨، والوافي بالوفيات ١٨/ ٣٨٣ـ ٣٨٦ رقم ٣٩٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٣٠، ومرآة الجنان ٤/ ٦٥ـ ٦٦، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٧، وكشف الظنون ١٤١٠، وشذرات الذهب ٥/ ١٢٧ـ ١٢٨، وهدية العارفين ١/ ٥٦٠، والقلائد الجوهرية لابن طولون ٢٣١، وديوان الإسلام ٢/ ٢٦٤ـ ٢٦٥ رقم ٩١٤، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٠٩، والأعلام ٣/ ٣٤٧، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٢١ـ ٦٣٠هـ) ص٣١٧ رقم ٤٦٦.

الحكماء علماً، وفي إثبات الحكم قلماً عزَّ وجوده، وقلما فاض إناؤه، وآض اجتناؤه، وكان لفروع الطب شجرةً يكاد زيتها يُضيء، ويقال في ظلِّها ويفيء، كأنما جالس رسطاطاليس، وجال مع تلك الجماعة في تقرير تلك النواميس، ولهذا اشتهر، وملأ العيون وبهر، وكان ممن يستصح برأيه، ويستصبح بذكائه، هذا إلى خطٍ أوتيه، وحظٍّ كان يواتيه.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: إليه انتهت رياسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي، ولم يكن في اجتهاده من يجاريه، ولا في علمه من يماثله، أتعب نفسه في الاشتغال، وكدَّ خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه وحظي عند الملوك، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء. وكان في مبدأ أمره كحالاً وكذلك كان أخوه حامد بن علي، وكان الدخوار يكتب خطاً منسوباً ونسخ الكثير، وقرأ النحو على الكندي، والطب على الرضي الرحبي ثم لازم الموفق بن المطران، ثم أخذ عن الفخر المارديني لما قدم دمشق، وخدم الملك العادل بن أيوب، ثم لم تزل تسمو منزلته عنده حتى صار جليسه وصاحب مشورته، وظهرت له منه نوادر في تقدم المعرفة منها: أن العادل عرض له مرض وأشار الدخوار عليه بالفصد، فلم يوافقه بقية الأطباء على ذلك، فقال لهم: والله إن لم يخرج دماً، وإلا خرج الدم من غير اختياره. فما مضى أيسر وقته حتى طفر الدم من أنفه ورعف رعافاً كثيراً وصلح، فعلم أنه ليس في الكل مثله.

ومنه أنه كان يوماً على باب دار السلطان ومعه جماعة من الأطباء إذ خرج خادم ومعه قارورة جارية يستوصف لها لشيء شكت منه، فلما رأوها وصفوا لها ما حضرهم، /٢٩٠/ فقال الدخوار: إن هذا الذي شكت منه ما يوجب صبغ الماء هكذا. يوشك أنه من حناء اختضبت به، فقال له الخادم: نعم تخضبت بحناء، فأخبر العادل بذلك، فتزايد حسن اعتقاده فيه.

ومن أحسن ما يؤثر عنه أن الملك العادل كان قد غضب على قاضي القضاة محيي الدين ابن الزكي لأمر نقمه عليه، وأمر باعتقاله بقلعة دمشق إلى أن يزن عشرة آلاف دينار مصرية وشدد عليه، فأقام في السجن والمطالبة، ووزن البعض وعجز عن البقية. وقال السلطان: إن لم يزن بقية المال وإلا عذبته. فتحير القاضي وباع جميع موجوده وأثاث بيته حتى الكتب التي له، وتوسل إلى السلطان بكثير من الأمراء والخواص في المسامحة، أو التقسيط عليه فلم يقبل، فأتى الدخوار إليه ليتفقده لمودة

---

(١) عيون الأنباء ٧٢٨.

قديمة بينهما فشكا إليه حاله وما قد تم عليه، فوعده بالمساعدة بحسب الطاقة، ثم قام فدخل على أم الصالح اسماعيل بن العادل، وكانت ممرضة، فلما دخل عليها عرفها بحديث القاضي، وأنه مظلوم وسألها في أمره، فقالت: كيف أحدث السلطان في أمر من لا أعرفه، ولو كان طبيباً يدخل علينا أو تاجراً نعامله، لأمكن الكلام فيه، فقال لها: فثم طريق آخر يحصل به القصد، قالت: وما هو، قال: في وقت يكون السلطان نائماً عندك تظهرين أنك رأيت مناماً يقتضي أن القاضي مظلوم، وعرفها ما تقول، فقالت: هذا يمكن، فلما عوفيت أتاها الملك العادل، فنام عندها وهي إلى جانبه، فلما كان آخر الليل انتبهت، وأظهرت أنها مرعوبة، وأمسكت فؤادها، وبقيت ترتعد وتتباكى فانتبه السلطان وقال لها: ما لك، وكان يحبها حباً كثيراً، ثم جعل يرش عليها من ماء الورد وقال لها: ما الذي بك؟ فقالت: رأيت مناماً عظيماً هالني وكدت أموت منه وهو أنني رأيت كأن القيامة قد قامت في بهو عظيم وبه خلق عظيم ونيران كثيرة تشعل وناس يقولون هذه للملك العادل؛ لكونه ظلم القاضي، ثم قالت قد فعلت بقاض شيئاً فما شك في قولها وانزعج / ٢٩١/ ثم قام لوقته وطلب الخدام، وقال: امضوا إلى القاضي وطيبوا قلبه وسلموا عليه عني وقولوا له يجعلني في حل مما تم له، وأن جميع ما وزنه يعود إليه، وما أطالبه بشيء، ثم لما أصبح أمر له بخلعة كاملة وبغلة، وإعاده إلى رتبته، وأعاد إليه جميع ما وزنه، واسترد له ما باعه.

وقال: مرض العادل بالشرق مرضاً صعباً، وولي علاجه الدخوار إلى أن برىء فلما عوفي حصل له نحو سبعة آلاف دينار، وبعث له أولاد العادل وسائر ملوك الشرق وأكابر الأمراء الخلع والبغال بأطواق الذهب وغير ذلك.

ومرض الكامل، فعالجه فلما برىء حصل له نحو اثني عشر ألف دينار واربع عشرة بغلة بأطواق الذهب، وخلع كثيرة من الأطلس وغيره، وولي ذلك الوقت رياسة الأطباء. وخدم مرة الأشرف، وأعطاه إقطاعاً جليلاً، ووقف داره بدمشق بالمناخليين مدرسة على الطب، ووقف عليها عقارات له(١).

ومنهم:

[٩٠]

الرشيد، علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة الأنصاري الخزرجي، من ولد سعد بن عبادة رضي الله عنه(٢)

طبيب لو شكا إليه البرق اختلاف نبضه لأبراه، أو حاول منه الرعد ما في صحف

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٢٨ـ ٧٣١.

(٢) علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري أبو الحسن، رشيد الدين، من آل أبي أصيبعة: =

النهر لأقراه، من أسرة سارت بهم الأمثال، وسُرَاة أسفاً على عقدهم كيف انثال، أراق الكرى عن كؤوس أجفانه، وجعل طوارق السُّهاد من ضيفانه. همُّه يقظ، وعزمه محتفظ. حَلَّ بها أجلَّ الرتب، وجلا بها عن الجسوم الرِّيب، وكان لا يفقد السبات، ولا يخرج إلى حدِّ الأعنات لعلاجه بالملائم، واحتجاجه بما يكفي الملاوم. هذا إلى تفنن في علومٍ أخر، وفضائل كأنها البحر إذا زخر، ومحاسن لو أراد بها لفخر.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: إنه عمه، وإنه ولد بحلب سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وقال: إن جده المعروف بابن أبي أصيبعة كان قد توجه إلى مصر إذا استقلت بها الدولة الصلاحية وإن الشهاب يوسف الكحال، وابن أبي الحوافر كانا / ٢٩٢/ أصدقائه فلما أتيا مصر أشارا عليه بأشغال ولديه في الطب يعني المؤرخ عمه هذا وأباه، فأمرهما بملازمة ذينك الرجلين، وإن أباه أكثر الأخذ عن الشهاب يوسف، ثم قرأ على الرئيس موسى وأهل طبقته، وإن همه كان أول اشتغاله على أبي التقي صالح بن أحمد المقدسي، ثم لازم ابن أبي الحوافر، وكان إذ ذاك رئيس الأطباء في أيام العزيز، ثم باشر المرضى بالمارستان، ثم أخذ صناعة الكحل عن النفيس بن الزبير، وقرأ على عبد اللطيف البغدادي وكان يشتغل بالسديد المنطيقي، واشتغل بعلم النجوم، وأخذ الموسيقى عن ابن الدعو المصري، وعلى ابن التبان، ثم اجتمع بأعيان المصنفين فيه، ثم لما عاد أبوه إلى الشام، انتقل معه، واجتمع بمن به من المتعينين، وباشر المارستان النوري، ثم خدم الأمجد صاحب بعلبك، ثم خدم العادل، ثم المعظم ثم الناصر ابنه، وتوفي في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة باب الفراديس.

ومن كلامه قوله: ما أحسن الصبر لولا أن النفقة عليه من العمر.

= طبيب، موسيقي عارف بالأدب. وهو عم ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ولد بحلب سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وانتقل إلى القاهرة، ثم سكن دمشق. واستدعاه الملك الأمجد (صاحب بعلبك) فأطلق له جراية وراتباً. وتوفي بدمشق سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. من كتبه «الموجز المفيد» في علم الحساب، و«كتاب المساحة» و«طب السوق» ورسالة في «النبض وموازنته للحركات الموسيقية».

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٣٦ـ ٧٥٠، الوافي بالوفيات ٢١/ ٨١ـ٨٢ رقم ٤٥، كشف الظنون ٢/ ١٨٩٩، إيضاح المكنون ٢/ ٢٦٧، ٣١١، ٣٣١، روضات الجنات ٤٨٧، الجامع لبامطرف ٣/ ٧٤، الأعلام ٤/ ٢٨٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦١١ـ٦٢٠هـ) ص٣٠٦ رقم ٣٩٠.

(١) عيون الأنباء ٧٣٦.

وقوله: الأصدقاء كنفس واحدة في أجساد متفرقة.

وقوله: المال مغناطيس أنفس الجهلاء، والعلم مغناطيس أنفس العقلاء.

وقوله: القانع مساعد على بلوغ مآربه.

ومن شعره قوله(١): [من الكامل]

يا صاحبيَّ سَلا الهَوى وذَارني ... كُفّا الملامَ عَنِ المُحِبِّ العاني

لا تَسألاهُ عَنِ الفِراقِ وطَعْمِهِ ... إنَّ الفِرَاقَ هوَ المَماتُ الثاني

نادى الحُداةُ دنا الرحيلُ فودِّعوا ... ففُجعتُ في قلبي وفي خلاَّني

وبكَيتُ وَجْداً بعدَ ذاكَ فلَمْ يُفِدْ ... أنِّي وقدْ صارَ اللقاءُ أَماني

وقوله(٢): [من الكامل]

أرأيتُما يا صاحبيَّ فتًى لهُ ... ذَلُّ الأُسودِ تُذِلُّهُ الغِزلانُ

ما كنتُ ممَّنْ يَسترقُ فؤادَهُ ... عِشْقٌ ولكنَّ الهَوَى سُلطانُ

/ ٣٩٣/ ومنهم:

[٩١]

ابن قاضي بَعْلَبَكْ، المظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم(٣)

الحكيم الفاضل، الملاطف بدر الدين أبو التأييد، فاق في علم وقراءة، وفهم

(١) عيون الأنباء ٧٤٦. (٢) عيون الأنباء ٧٤٨.

(٣) ابن قاضي بعلبك، مظفر بن عبد الرحمن (مجد الدين) ابن إبراهيم البعلبكي، بدر الدين: طبيب. كان أبوه قاضياً ببعلبك، فنسب إليها، نشأ وتعلم بدمشق، وخدم في بيمارستان الرقة، ثم عاد إلى دمشق، فولاه الملك الجواد (يونس بن ممدود) رياسة جميع الأطباء والكحالين والجراحين سنة ٦٣٧هـ، وتجدد التقليد له برياسة جميع الأطباء سنة ٦٤٥ وتوفي بدمشق سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م له كتب، منها «مفرح النفس» اطلع عليه الغزولي صاحب مطالع البدور ونقل عنه بضعة أدوية مركبة من المفرحات والمقويات، و«الملح في الطب» ذكر فيه فوائد من كتب جاليوس وغيره، و«مزاج الرقة» رسالة و«شرح تذكرة المعرفة لأبقراط ـ خ» في مكتبة قاسم الرجب، ببغداد، لعله «شرح مقدمة المعرفة» لأبقراط، في مكتبة الرياض (الرقم ١٩٤٩).

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٥١ـ ٧٥٥، ومطالع البدور ١/ ١٧٣، ووقعت وفاته فيه سنة ٩٧٥ خطأ من النسخ أو الطبع، لأن مؤلفه توفي سنة ٨١٥ وقال صاحب كشف الظنون في آخر كلامه على مفرح النفس، توفي البعلبكي بعد سنة ٦٥٠، يقول الزركلي: ولم يذكر ابن ابي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨) وفاته، وهو معاصر له، فرجحت أن يكون صاحب المطالع أرخ وفاته سنة ٦٧٥ وجامعة الرياض ٦/ ٤٢، الأعلام ٧/ ٢٥٦.

تقدم به والناس وراءه، قدمه فضله واستحقاقه، ونبله الذي ضرب على رُبى المجرة رواقه ولحق في أوانه بجلة الرؤساء، وحلَّ من أئمة زمانه محلَّة الجلساء، وسبق أهل جيله حيث لا يلحقه إحضار، وخلق مع أبناء جنسه إلاَّ أن طينته جبلت من معدن النضار، ولم يعالج عليلاً، ثم أصبح ببقائه ليس ينتفع ولا دافع مطل إلاَّ ثم أضحى بملاطفته لا ينتفع.

وكان لا يطبب إلاَّ بالأهون على العليل، والأحب إليه وإن كان النفع به من القليل على أنه البحر الذي لا يشق له عُباب، والوقوف عليه إذا لم يوجد باب، وألقيت عليه من الله محبة لم يره إلاّ من شغف بحبه، وشغل بطبِّه، وفضله على كل نكرة ومعروف، وكل ذي طب يُسرِّح نظراً باحسان، ويمسك يداً بمعروف، ولم ألحق أحداً من الكبراء وأهل العلم إلاَّ من كان يحسن عليه الثناء، ويجلو بأوصافه الحسناء.

قال لي عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله: هو آخر الأطباء الذين رأتهم عيني.

وسألت عنه شيخنا شهاب الدين أبا الثناء الحلبي، فقال: كان يقال هو جالينوس وقته. ثم أخذ في وصفه وذكر ما كان عليه من حسن الملاطفة وإحسان العلاج.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: كان أبوه مجد الدين قاضياً ببعلبك، ونشأ هو بدمشق، واشتغل بها في الطب على المهذب عبد الرحيم بن علي، وجمع له العلم الغزير والذكاء المفرط والمروءة التامة، وكانت له همة عالية الأشغال، ونفس جامعة لمحاسن الخلال، وكان لا يخلو له وقت من التزيد في العلم والعناية بالمطالعة والفهم. وكان قد توجه صحبة المهذب لما طلبه الملك الأشرف، وخدم بالمارستان بالرقة، وصنف مقالة حسنة في الرقة واشتغل بها في المحكمة على الزين الأعمى، وكان إماماً في العلوم الحكمية، ثم عاد ابن قاضي بعلبك إلى دمشق فلما طلبها الجاد يونس حظي / ٢٩٤/ عنده، وتمكن في دولته، واعتمد عليه في صناعته، وولاه الرياسة على الأطباء والكحالين والجرائحية، وكتب له توقيعاً بذلك فجدد من محاسن الطب ما درس وأعاد من الفضائل ما دثر، ولم يزل مجتهداً حتى اشترى أدراً كثيرة جوار المارستان النوري وهدمها وبناها وأضافها إليه، ثم خدم الصالح أيوب وأرصده لمعالجه الحُرَمَ وجدد له توقيعاً بالرياسة على أطباء الشام، ثم خدم من بعده من الملوك، ولم يغير عليه عادة مستمرة له، ثم تجرد لعلم الفقه، وسكن بيتاً بمدرسة ابن قليج، وكانت جوار داره،

(١) عيون الأنباء ٧٥١.

وتصدى لحفظ القرآن الكريم ومعرفة القراءات والتفسير وقراءة الفقه وفنون الأدب، ولازم أبا شامة، ودأب في العبادة والدين.

قلت: قال لي والدي رحمه الله: كان ابن قاضي بعلبك مختصاً بصحبتنا وكان يعود من مرض منا، ويتولى معالجته، وكان لا يرى التعمق في الوصف، ولا المداواة بالكريه، ويقول: ما ينتفع المريض بالكريه بقدر ما ينفر به لكراهيته له، ويقول: ما لم يكن من المريض إقبال على الدواء لا تقبله أعضاؤه، ويقول: ربما صار الدرياق سُمّاً والدواء داءً بإفراط كراهية المريض.

قال والدي رحمه الله، وقد ذكره يوماً: رحم الله ابن قاضي بعلبكَ لم يكن في زمانه مثله في حسن شكله وسمته، وحسن حديثه، وصحة صحبته، ولطف علاجه، وتبرك الأعلاّء بمقدمه لرفقه بهم، وعدم إكراهه لهم على الكريه.

وقال: دخل علينا يوماً ونحن نأكل طعاماً فيه باذنجان قد قلي بدهن الألية، فقعد فأكل، وكان أكثر أكله منه، فقلت له: يا حكيم الباذنجان مُولد للأخلاط السوداوية كما يقال، فقال: ذلك الباذنجان الأسود، الشديد الحرافة، فأما هذا الأبيض باذنجان دمشق المقلو بدهن الألية، فلو رآه جالينوس لجعله دواء للسوداء.

ومنهم:

[٩٢]

العماد الدُنَيْسَري، محمد بن العباس بن أحمد بن عُبَيد الربعي /٢٩٥/، أبو عبد الله(١)

رجل يرجع إلى كرم خِيْم، وينفع فيه كثرة تفخيم، تفنن في فصائل، وتيقن أن كل

---

(١) محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد الربعي الدنيسري، عماد الدين: طبيب أديب. من أهل دنيسر (في الجزيرة قرب ماردين) ولد بها سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م، وتنقل بين الشام ومصر ثم سكن دمشق، وخدم في البيمارستان الكبير. وتوفي بها سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. من كتبه «المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة» و«نظم مقدمة المعرفة» لبقراط، و«نظم الترياق الفاروقي» وكتاب في «المثروديطوس» Mithridatum وهو ترياق منسوب إلى الملك Mithridate كان معمولاً به قبل اختراع الترياق الفاروقي. وكان له علم بالأدب وشعر جيد في «ديوان».

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦١ـ ٧٦٧، فوات الوفيات ٣/ ٣٩٢، ذيل مرآة الزمان ٤/ ٣٢٨ـ ٣٢٩، والمقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٣٢ب ـ ١٣٣أ، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٣٣٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٧٦، والمستدرك على العبر ٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٣١٠، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ١١١، وتذكرة النبيه ١/ ١١٢، والوافي بالوفيات ٣/ ٢٠٠ رقم ١١٧٨، وعيون التواريخ =

عظيم عنده متضاءل، بعزم أطلَّ على النجوم في آفاقها، وعلم استخدام السعود بأوقاتها، ولطف ذات، وظرف أدوات، وكمال محاسن بجدِّه بلغها، وأَخَذَ مع توسع حظه بُلَغَها، وقد كان للزمان روحاً، وإلى الغايات طموحاً، وكانت به الأيام سوافر ومنه حظٌّ للناس وافر، إلى أن عششتْ المنايا في هامته، وصرعته من قامته، ووسدته التراب وأفسدته على الأتراب، وخرس منه لسان كان يجادل، وسكن منه متحرك تحت حصًى وجنادل.

ذكره ابن أبي أصيبعة[1] ولقب أباه بالقاضي الخطيب تقي الدين. وقال في عماد الدين: هو ذو الأريحية التامة، والعوارف العامة، مولده دنيسر سنة خمس وستمائة. ونشأ بها واشتغل بالطب إشغالاً برع به. قال: واجتمعت به، فوجدت له نفساً حاتمية، وشنشنة أخزمية، وخلقاً ألطف من النسيم، ولفظاً أحلى من مزاج التسنيم. وأسمعني من شعره البديع معناه، البعيد مرماه، وهو في علم الطب قد تميز على الأوائل والأواخر، وفي الأدب قد عجّز كل ناظم وناثر.

وكان قد سافر من دنيسر إلى مصر ثم رجع إلى الشام وأقام بدمشق، وخدم الأدر الناصرية اليوسفية بقلعة دمشق. والمارستان النوري.

ومن شعره قوله[2]: [من الطويل]

نَعَمْ فليقُلْ مَنْ شاءَ عَنِّي فإنني ... كَلِفْتُ بذاكَ الخالِ والمُقلةِ الكَحْلا
فَلا تَعذلوني في هَوَاهُ فإنني ... حَلَفتُ بذاكَ الوجهِ لا أسمُعِ العَذْلا

وقوله[3]: [من السريع]

عِذَارُكَ المُخْضَرُّ يا مُنيتي ... لمَّا بَدَا في الخَدِّ ثُمَّ استدارْ
فكانَ في ذاكَ لنا آيةٌ ... إذْ جُمِعَ الليلُ معاً والنهارْ

وقوله[4]: [من الطويل]

/٢٩٦/ حَلَفْتُ لهُ لا حُلْتُ عَنْ وَلَهِي بِهِ ... وقلبي على ما قدْ حَلَفْتُ لهُ حَلَفْ

=

٢١/ ٣٩٧ـ ٤٠١، وفوات الوفيات ٣/ ٢٩٢، وعقد الجمان (٢) ٣٦٥، والسلوك ج١ ق٣/ ٧٣٩، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٣، وشذرات الذهب ٥/ ٣٩٧، وكشف الظنون ١٧٨٤، وإيضاح المكنون ٢/ ٣٢٨، والدارس ٢/ ١٣٣ـ ١٣٤، وهدية العارفين ٢/ ١٣٦، والأعلام ٦/ ١٨٣، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١١٩، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١ـ٦٩٠هـ) ص٢٨٠ رقم ٤١١.
دُنَيْسِر: بضم أوله. بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين. (معجم البلدان ٢/ ٤٧٨).

(١) عيون الأنباء ٧٦١.
(٢) عيون الأنباء ٧٦١.
(٣) عيون الأنباء ٧٦١ـ ٧٦٢.
(٤) عيون الأنباء ٧٦٣.

إذا باعني منهُ الوِصالُ بمهُجَتي ... شَرَيْتُ وها قلبي أُقدِّمُهُ سَلَفْ

وقوله[1]: [من الكامل]

وحياةِ ناظرِهِ وعاملِ قَدِّهِ ... رُوحي بعارضِ خَدِّهِ مُتَمَلْمِلَهْ

هَبْ أنني مُتَجَنِّنٌ في حُبِّهِ ... فعِذارُهُ في خَدِّهِ مِنْ سِلسِلَهْ

وقوله[2]: [من المتقارب]

إذا رَفَعَ العُودُ تكبيرَهُ ... ونادى على الراح نادي الفَرَحْ

رأيتُ سُجُودي لها واجباً ... ولكنْ عَقِيبَ رُكُوعِ القَدَحْ

ومنهم:

[٩٣]

العزّ السُّوَيْدِي، إبراهيم بن محمد الأنصاري الأوسي[3] من ولد سعد بن معاذ رضي الله عنه، عز الدين، أبو اسحاق

طبيب تؤخذ عنه الصناعة، وإمامٌ يقدم على الجماعة، بزَّ النظراء وشآها، وأبعد القرناء وأنآها، وتقدم في عصره تقدم استحقاق، وعرف علم الطب والطبيعة وما ناسبه معهما، ولم يكن مثله في علا، ولا شبهه فيمن خلا، فشفيت به الأجساد، وأمنت مما

---

(١) عيون الأنباء ٧٦٣. (٢) عيون الأنباء ٧٦٤.

(٣) العزّ السويدي، إبراهيم بن محمد بن علي بن طَرْخان الأنصاري الدمشقي، أبو إسحاق، عز الدين، من ولد سعد بن معاذ، من الأوس: طبيب دمشق، اشتغل بالعقليات. له «التذكرة الهادية - خ» طب، في شستربتي (٤١٩٣) و«قلائد المرجان في طب الأبدان - خ» في استمبول، و«الباهر في خواص الجواهر» لعله «خواص الأحجار من اليواقيت والجواهر - خ» في دار الكتب المصرية، أو هو كتاب آخر له. نصب طبيباً في البيمارستان النوري وبيمارستان باب البريد (وكلاهما في دمشق) ونسبته إلى السويداء (في حوران) وكان أبوه من تجارها.

كانت ولادته سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، ووفاته سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٥٩ـ ٧٦١، المقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٧٧ب، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٤٤ رقم ٦٦، وتاريخ حوادث الزمان ١/ ٦٣ـ ٦٤ رقم ٢٧، والعبر ٥/ ٣٦٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٨٨، ومرآة الجنان ٤/ ٢١٦، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٢٥، وتذكرة النبيه ١/ ١٤٦، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ١٠٩، وعيون التواريخ ٢٣/ ٨٨ـ ٩٠، وفوات الوفيات ١/ ٤٨ رقم ١٧، والوافي بالوفيات ٦/ ١٢٣ـ ١٢٥ رقم ٢٥٥٨، وتاريخ ابن الفرات ٨/ ١٣١ـ ١٣٢، والمقفى الكبير ١/ ٣٠١ـ٣٠٣ رقم ٣٥٨، والسلوك ج١ ق٣/ ٧٧٧ وفيه: «إبراهيم بن نجم بن طرخان»، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٢٥، وعقد الجمان ٣/ ٩٣ـ ٩٤، والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٨، والمنهل الصافي ١/ ١٢٤ـ١٢٧ رقم ٦٦، وشذرات الذهب ٥/ ٤١١، والدارس ٤/ ١٣٠، وديوان الإسلام ٣/ ٢٤٨ رقم =

يعرض للكون من الفساد، ورأيت من خطه ما كأنه ريش الطاووس، أو عذار الغلام وسالفة العروس، ولا يقاس به خطُّ قابوس، ولا على صحائف النهر أشعة الشموس.

قال ابن أبي أصيبعة[١]: مولده سنة ستمائة بدمشق ونشأ بها، وهو علامة أوانه وأوحد زمانه، مجموع الفضائل، كريم الأبوة، غزير الفتوة، وافر السخاء، حافظ الإخاء. اشتغل بالطب حتى أتقنه، ولم يصل أحد من أربابه إلى ما وصل إليه، أخذ عن أكابر الحكماء كالمهذب عبد الرحيم وغيره، وقرأ في علم الأدب، وهو أسرع الناس بديهة. وكان أبوه تاجراً من السويداء بحوران، حسن الأخلاق، طيب الأعراق.

قال الحكيم عز الدين: هو أجل الأطباء قدراً، وأفضلهم ذكراً، وأعرف /٢٩٧/ مداواة، وأفضل مداراة، وأنجح علاجاً، وأوضح منهاجاً، ودرَّس بالدخوارية، وخدم السلطان والمارستان، وكتب خطاً منسوباً طريقة ابن البواب، وخطاً يشبه مولد الكوفي، وكل خط أحسن من الرياض المؤنقة، وأنور من الشمس المشرقة.

ومن شعر قوله: [من السريع]

وناسكٍ باطنُهُ فاتِكٌ ... يا ويحَ مَنْ يُصغي إلى مَيْنِهِ

مَنْزِلُهُ أَحْرَجُ من صدرِهِ ... وخُلْقُهُ أَضيقُ مِنْ عَينِهِ

وتوفي بدمشق.. ودفن جوار الشبلية بالسهم الأعلى بتربة أعدها لنفسه.

ومنهم:

[٩٤]

الموفق السامري، وهو يوسف بن يعقوب بن غنايم[٢]

بحر طبٍّ لم يبق إلاً من ملأ من قليبه، ولم يبعد يداً من قريبه. وأتته الطلبة حتى ملأ كلٌ سقاءهُ، وأمَّلَ بقاءه، وكان لا يعدم مُنتاباً، ولا يدعُ مرتاباً، ولا يسمح أن يكون أحدٌ عنده مغتاباً، فسعد بمحضره جلساؤه، ووضح الصباح وجلاؤه، وكان في مثل هذا موفقاً، وفي ثقل الطب موثقاً.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[٣]: رئيس زمانه وعلامة أوانه، مولده ومنشؤه بدمشق.

= ١٣٨٥، وكشف الظنون ٢١٩ و٣٨٦ وغيرها، وهدية العارفين ١/ ١٢، ومعجم المؤلفين ١/ ٩٧، والأعلام ١/ ٦٣، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١ـ٦٩٠هـ) ص٣٩٧ رقم ٦٠٩.

(١) عيون الأنباء ٧٥٩.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦٧.

(٣) عيون الأنباء ٧٦٧.

بارع في الصناعة الطبية، جامع لعلوم الحكمة. قد أتقن صناعة الطب علماً وعملاً، واحتوى معرفتها تفصيلاً وجملاً، وكان محمود المداواة، مشكور المداراة، متعيناً عند الأعيان، متميزاً في كل مكان، مريداً في اجتلاب الصحة وحفظها على الأبدان، واشتغل عليه جماعة من المتطببينن، وانتفعوا بفضله المبين، وله التصانيف الصحيحة العبارة، الفصيحة الإشارة، قوية المباني، بليغة المعاني، وعدَّدها.

ومنهم:

[٩٥]

أبو الفرج، يعقوب بن إسحاق بن القف النصراني[١]

بيعة قوم توقَّد نبراسها، ودوحة علم مثمرة غفل حراسها، فاق بطب له بالأبدان /٢٩٨/ امتزاج، ويدان في تعديل كل مزاج، فطبب كل داء، ولاطف لطف الأدواء، وكان ذا فهم كأنما كشفت له السجف، وعلم هو البئر الذي لا ينزح، وأبوه القف ولم يزل على وثبات تقدمه، وثبات قدمه، حتى قيدت الحتوف خطاه، وأثقلت المنون مطاه فما استقلَّت له قدم، ولا شبع للموت به قرم.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال[٢]: مولده بالكرك لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاثين

---

(١) يعقوب بن إسحاق، أبو الفرج، أمين الدولة الكركي ابن القُفّ: عالم بالطب والجراحة. من نصارى «الكرك» مالكي المذهب، ولد سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م استقر في دمشق، فقرأ على ابن أبي أصيبعة (صاحب الطبقات) الكتب المتداولة في صناعة الطب والعلاج، كمسائل حنين، والفصول لأبقراط، وكتب أبي بكر الرازي. وقرأ الفلسفة والحكمة على عبد الحميد الخسروشاهي وغيره. وخدم بصناعة الطب في عجلون، فأقام بها عدة سنين. وعاد إلى دمشق يعالج المرضى، في قلعتها. وتوفي بها سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م. له تصانيف، منها «عمدة الإصلاح في صناعة الجراح - ط» ثلاثة أجزاء في مجلد ضخم، يقال له «العمدة في الجراحة» وله «الأصول في شرح الفصول لأبقراط - خ» جزآن، في يكي جامع (٩١٩ - ف ٨٢٧) اختصره بشارة زلزل في رسالة سماها «ملخص شرح ابن القف على فصول أبقراط - ط» وله «الشافي في الطب - خ» في الفاتيكان، و«شرح الكليات من قانون ابن سينا» ست مجلدات، و«مقالة في حفظ الصحة» و«جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض - خ» في الرباط (٧٨٣د).

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦٧- ٧٦٨، وذيل مرآة الزمان ٤/ ٣١٤، وطوبقبو ٣/ ٨٤٣، وفهرس المخطوطات المصورة (الطب ١٦) والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية ١٣، ٢٣١، وتذكرة النوادر ١٨٨، ومعجم المطبوعات ٢١٧، ومن كتاب «الأصول» عدة مخطوطات، إحداها في مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت (رقم ٣٨) ناقصة الآخر، وأخرى لدى سامي الخانجي الكتبي بالقاهرة نسخة تامة في مجلد ضخم جداً كتبت سنة ٧٩٦، الأعلام ٨/ ١٩٦.

(٢) عيون الأنباء ٧٦٧- ٧٦٨.

وستمائة، وكان أبوه الموفق يعقوب صديقاً لي مستمراً على أكيد مودته حافظاً لها طول أيامه ودهره، تستحلى نفائس مجالسته وتستجلى عرائس مؤانسته. ألمعي أوانه، وأصمعي زمانه، مجيداً في حفظ الأشعار، علاَّمة في نقل التواريخ والأخبار، متقدماً في علم العربية، فاضلاً في الفنون الأدبية، استمل في الكتابة على أصولها وفروعها، وبلغ الغاية من بعيدها وبديعها، وله الخط المنسوب الذي هو نزهة الأبصار، والعناية التي لا تلحق في جميع الأقطار والأمصار. وكان في أيام ابن العزيز كاتباً بصرخد والنجابة تلوح على ولده أبي الفرج من صغره كما تحقق منه في كبره. وافر الذكاء، محباً للعلماء، فسألني أبوه في تعليمه، فقرأ علي ما عرف به أقسام الأسقام وحسم العلل، ثم انتقل أبوه إلى دمشق، وخدم بها، وسافر معه ولده ولقي العلماء ولازم الفضلاء، وقرأ الحكمة على الخسروشاهي والغنوي الضرير، وقرأ الطب على ابن المنفاخ، والموفق السامري، وقرأ اوقليدس على المؤيدي العرضي وفهمه فهماً فتح به مقفل أقفاله، وحل به مشكل أشكاله، ثم خدم بقلعة عجلون ثم عاد إلى دمشق، وخدم السلطان بها.

وذكر الجزري في تاريخه قال: سألت أبا الفرج ابن القف عن مرض قاضي القضاة عز الدين بن الصايغ فقال: يموت بعد مدة عينها، وعن نفسه أنه يموت بعده بمدة عينها، فقلت له: ايش سبب ذلك؟ فقال: القاضي كُذب عليه، فحصل له مراقيا سوداوية / ٢٩٩/ غارت إلى قلبه، فتقتله سريعاً غير أني أشرب الخمر، فأظهره الشراب إلى ظاهري، فأورثني الصفرة في جميع البدن، فأنا أبقى مدة عينها. فاعتبرت قوله فكان كما قال. وقلت له: أنت من كبار الفضلاء ولك تصانيف في الطب، ما تدفع عنك، فقال: علّة الموت ما لها دواء. وكان يتحسر على نفسه.

قلت: وأنشدني القاسم بن المظفر محمود بن عساكر لنفسه أجازة في مرض الحكيم ابن القف المذكور: [من الخفيف]

قيل إن ابنَ القفِّ أَشفَى على المَوتِ ... ولَمْ يبقَ منهُ غيرُ رَسِيسِ
ما نَرَى طِبَّهُ أَفادَ ولا ر ... دَّ الرَّدى عنهُ قَوْلُ جالينوسِ
قلتُ كفُّوا أَمَا سمعتُمْ بما قيـ ... ـلَ وسارتْ بهِ حُداةُ العِيسِ
لوْ نجا الطِّبُّ فاضلاً كانَ بُقرا ... طَ ولمْ يعبثِ الرَّدى بالرئيسِ
إنما غايةُ الطَّبيبَ مَعَ العِلَّـ ... ـة تخفيفُ ضُرِّها المَحْسوسِ
والليالي لها سُعُودٌ يُعفِّي ... بعدَ خُبْرٍ أَو عاجلاً بالنُّحُوسِ

قال ابن الجزري: توفي أبو الفرج ابن القف في سنة خمس وثمانين وستمائة[1].

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٦٧ـ ٧٦٨.

ومنهم:

[٩٦]

المهذب، يوسف كاتب الزَرْدَكاش[(١)]

والناس فيه وفي النفيس على خلاف، وكل واحد منهما فريقٌ يتعصب له، ويقطع بتفضيله، والإنصاف أن النفيس كان أقعد بالعمليات، والمهذب كان أقعد بالعلميات؛ لكونه يشغله خدمة الأمراء عن المباشرة، وكان رأس أهل زمانه في التعليم، والتقريب إلى الإفهام، وكان جامعاً للطب، بارعاً في فنونه، مفترعاً لأبكاره وعُونه، وكان يربأ بنفسه عن التمحض للاسترزاق بالطب، وكانت له بلالة من الرزق تعله، وقليل من متاع الدنيا يغنيه قله، ونشأت له عدة /٣٠٠/ وافرة من التلاميذ وتقدموا واشتهروا باسمه وبانتسابهم إليه، وإلى اشتغالهم عليه. وهو والد الحكيم الفاضل غنايم الآتي ذكره، والوافي كما يجب شكره.

ومنهم:

[٩٧]

النفيس، أبو الفرج ابن إسحاق بن أبي الخير السامري[(٢)]

طبيب جرى على مجال جالينوس، وتقدم وإن جاء بعد اسقلنينوس لو رآه الدخوار لخار، أو الرئيس صاحب الدلالة لحار، أو ابن التلميذ لتتلمذ لطبه، أو الرحبي لرحب به، وفقد حاسة بصره لا بصيرته، وحناه الكبر وهو على وثيرته، ولم يبق في وقته من أكابر الأطباء إلا من كان يحسده على فضله، ولا يسعه إلا الاعتراف، فإذا أراد التنقص به لا يجد سبيلاً أكثر من أنه يقول: إنه فقد حاسة البصر وبها كان يرى السحنة التي يستدل بها ويرى بها العاملات، وكان جل زمانه للإقراء والإشغال في علم الطب وفروعه والتوقيف على دقائقه، والإجازة في حسن التعليم والتوقيف والتثقيف فأنشأ أهل ذلك الجيل، وتخرجوا عليه حتى تأهلوا، وبرعوا في الطب وزكوا، وأذن لهم في الطب والتصرف، وكلهم من عذبه الزلال استقوا، ومن شعبه ذي الأطلال ارتقوا.

وكان النفيس ريض الأخلاق، طويل الروح، كثير الاحتمال. كان للأمين سليمان

---

(١) ترجمته في: معجم الأطباء ٥٢٢-٥٢٣ عن المسالك.

(٢) ترجمته في: معجم الأطباء ٥٠٣-٥٠٤ عن المسالك.

رئيس الأطباء بمصر لفتاتٌ عليه، ويتنقص به ويسمعه القبيح، ويفاجئه بالصريح، وهو لا يتأثر ولا يتقلل بكلامه، ولا يتكثر، وعلماء الدهر وفضلاء العصر كلهم على خلاف قول الأمين سليمان فيه، ويصفه بالفضل كل طبيب فاضل وفقيه. ولما كبر انحنى ظهره، وتأطر رمحه، فلما احدودب كان يقال له صندوق العلم يسميه بهذا عامة الناس، ويعتقد فيه الفضل، ويشهد له جمهور الخلق من عرفه منهم ومن لم يعرفه بالتقدم في الطب، والتبريز على كل معاصر، وكان له تفقه في الطب، وآراء في المداواة، /٣٠١/ وتفنن في العلاج، ولم يزل مشاراً إليه إلى أن هلك، ومتبوعاً في الطب أيَّة سلك.

ومنهم:

[٩٨]

الأمين سليمان الحكيم، وهو سليمان بن داود(١)، أمين الدولة، أبو الربيع

رئيس الأطباء بالشام، لحق بالأوائل، وعرف العلم بالدلائل، لو عالج المعتذر لأزاح علله، أو شاء إصلاح ما بين الأفقين لسد خلله. لم يتقدمه جالينوس إلا بالزمان، ولا ابن سيناء إلا بكثرة الإدمان، نسي به كل من تقدم، ونسب إليه من الفضل ما قدم.

قرأ على العماد الدنيسري، والعز السويدي، والموفق السامري، وأخذ عن تلك الطبقة إلا أنه كان إلى الدنيسري أشد انقطاعاً، وإليه صارت كتبه، وعليه وقف أملاكه، وكان وارث علمه وماله، وخلفه في كل أحواله، وكان منه أصل ثروته وما حصله. وآثره، وأثله. وكان من أبناء النصارى.

وحكى لي من رآه في حالة صباه وغصنه رطيب، ومفرقه كله مسك وطيب، وخده مصقول السوالف، وطرفه إما ساحر أو سائف، ولأهل بلده به فتون، وفي كمده فنون والدنيسري قد اعتقله، وخيل إليه دوام الحياة بقربه فاعتنقه. قال: وكان على هذا لا يخلو منه للحكماء ملعب، ولا للعلماء ندى فضلٍ به يستوعب، فلما صارت إليه

---

(١) توفي سنة ٧٣٢هـ.

ترجمته في: المختصر في أخبار البشر ٤/ ١٠٦، وتاريخ حوادث الزمان ٢/ ٥٦٦ رقم ٦٨٢، ودول الإسلام ٢/ ٢٣٩، وذيل العبر ١٧٤، وأعيان العصر ٢/ ٤٤٢ـ ٤٤٣ رقم ٧١٦، والوافي بالوفيات ١٥/ ٣٨٠، والبداية والنهاية ١٤/ ١٦٠، وتذكرة النبيه ٢/ ٢٢٨، ودرة الأسلاك ٢/ ورقة ٢٧٨، والدرر الكامنة ٢/ ١٥١ رقم ١٨٤١، والدارس ٢/ ١٢٣، وشذرات الذهب ٣/ ٧١٧، ومعجم الأطباء لأحمد عيسى ٢٠٧، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١ـ ٧٤٦هـ) ص٢٧٨ رقم ٨٥٧.

الرئاسة، وسارت به النفاسة.

قال بعض حُسَّدِه: [من الكامل]

يا معشرَ الحُكماءِ لا تتسخَّطُوا لِعظيم ما قدْ تَمَّ في ذا العالَم
هذا سليمانُ بنُ داودَ الذي نالَ الرِّياسةَ دونكُمْ بالخَاتَم

قلت: وإنما نتج القمر وعارض أدنى البحر، وهيهات أن تغطى السماء بالسحاء أو يضار في رؤيته ذو نظر، فلقد كان فرداً في /٣٠٢/ الزمان، منقطع القرين، معدوم النظير، شارك في الحكمة، وبرز في علم الطب، وصار علماً فيه، وتقدم باستحقاق، وألقى عليه القبول، ومال إليه الحقير والجليل. واقتصرت على طبه الأكابر، ومالت إليه العلماء، وأثنى عليه شيخنا ابن الزملكاني، وحصلت بينه وبين ابن الوكيل منافرة، ثم اتفق لابن الوكيل أن ركّب للأفرم نائب الشام سفوفاً يعينه على الهضم ويسهله فلما أخذ منه الأفرم، أفرط به الإسهال، ووثب مماليك الأفرم بابن الوكيل ليقتلوه، فأتى الأمين سليمان وكفهم عنه، ثم دخل على الأفرم واعتبر أعراضه، ثم أعطاه امراق الفراريج، وشرع في إعطاء المسهلات له، واستفرغه حتى كمل إخراج تلك المادة التي اندفعت ثم أعطاه المقبضات والممسكات، فبرىء وأفاق.

قلت: وإنما أعطاه أولاً المسهلات مع وجود الإسهال؛ لأنه رأى السفوف قد هيج مادة ردية، ولم يتم اندفاعها، وأن انحباس بقيتها مفسد للبدن، فاستكمل استفراغ تلك المادة الردية، ثم أمسك ما سواها، وهذا من محاسن العلاج.

وله غير هذا من الغرائب والعجائب في صناعة الطب منها:

أن بعض بني صصرى كان يشكو نزلة متقدمة به لا تزال تعاوده، ويلتاث جسمه ببقاياها، فشكا إليه ما يجده منها، فأمره بالحمية، وتعهد الحمام حتى لطَّف أخلاطه، ثم أخرجه من الحمام، وكشف رأسه عقيب خروجه منه حتى نزلت به نزلة أخرى، ثم استمر به على الحمية، وشرع في معالجته، وأعطاه المسهلات حتى استفرغ مواد تلك النزلة، واندفعت معها مواد النزلة القديمة، وبرىء الرجل وأفاق.

ومنها ما حكاه لي الشيخ أحمد بن براق، قال: كنت عند الأمين سليمان فأتى رجل قد حصل له ورمٌ في وجهه، وقد تلون بالحمرة والزرقة، فلما رأى عمامته [نزعها] عن رأسه، وكانت /٣٠٣/ عمامة كبيرة، وبقي الرجل يخاف من البرد، وسليمان يقول له: ارمها بلا فشار، ثم أمر بسطل من الماء البارد، فصبه على رأسه، وكان الفصل شتاء، ثم نقله إلى المارستان، وشرع في معالجته، وسئل عن هذا، فقال: كانت قد تحركت مادة في دماغه أردت أن أجمدها قبل أن تنصب جملة واحدة.

قلت: وقد تقدم مثل هذا عمن تقدم، وله كل معالجة طائلة، وحدس صحيح، وتجربة محققة.

ولما مرض أسندمر الكرجي، وهو في نيابة طرابلس، حارت فيه الأطباء، فاستدعاه واستطبه فبرىء بقدرة الله على يده، فغمره بالإحسان وحصل له منه ومن حاشيته نحو أربعين ألف درهم ما هو دراهم وقماش وغير ذلك، ثم عاوده المرض فاستدعاه فطببه فبرىء، فحصل له منه نحو عشرين ألف درهم.

وحكى لي أنه كان أقلَّ ما يدخر في كل يوم دينارٌ من الذهب بعد كلفه وسائر نفقته وأنه على هذا منذ بلغ عشرين سنة من العمر وإلى آخر وقت.

وكان صحيح الإسلام، حسن المعتقد، جميل اليقين، وحج مرات إلى البيت الحرام، وزار النبي ﷺ وكان إذا أتى المدينة الشريفة لزم المسجد وأكثر الصلاة، ولم يزل على رتبته ومكانته حتى سُعي عليه عند تنكز نائب الشام، وغير عليه خاطره. هذا إلى ما كرهه منه من قوة النفس، وكثرة الجرأة والإقدام، فعزله عن الرئاسة وحطه عن رتبته ومكانته، وأغرى بذمه والتنقص به، وقام عبد المولى اليهودي لعناده، ورماه سليمان بالبرص وكشف فلم يصح قوله فيه، وولي عوضه جمال الدين محمد بن الشهاب الكحال، فجرت بينهم عواصف وتمت بينهم مع تعمد الظلم مناصف. ونامت على بغضاء تنكز له الأيام والليالي، ثم عطفته عليه عاطفة الرضا، فأقبل عليه ولا كل الإقبال، واستصحبه في سفرة كنت فيها إلى جهة غزة. ولما /٣٠٤/ أتينا قافون أُتينا بأنواع من الطعام فيها من السمك واللبن، فقلنا له: من أيهما نأكل؟ فقال: أنا طبيبكم وكلوا مما آكل، ثم أكل من السمك وأكلنا معه، حتى كاد يشبع، ثم ثرد خبزاً في اللبن، وأكل منه بالملاعق، وأكلنا معه، ثم قال: علينا بالمصلح، فقلنا: ما هو؟ قال: العسل، فأتينا به، فلعق منه لعقاً كثيراً ولعقنا معه، ثم مكث ساعات، ثم أمر فعملنا شراباً من السكر والليمون فشرب وشربنا معه، ثم قال: عملنا اليوم بطب الهند، قالوا: إما أن يكون أحدهما أبرد من الآخر، أو هما سواء في الدرجة، فإن كان أحدهما أبرد من الأخر فالآخر مصلح له فإن كانا سواء في الدرجة كنا كمن أكل من شيء واحد واستكثر منه، ثم طلب الأمين سليمان إلى باب السلطان، ولحق به لتطبيب القاضي علاء الدين ابن الأثير كاتب السر رحمه الله من فالج أصابه وطببه، فلم ينجع وسعى لأمر فما أنجح، ولم يقع من السلطان بموقع، ولا لقي أطباء الحضرة بما يجب، فتقهقر وذم وأعيد إلى دمشق مبرقع الوجه بالخجل، خائب الظنة والأمل.

ثم عقد له مجلس بحضرة تنكز لدواء وصفه لابنه، وكان قد جمد اللبن في

معدته، فوصل له انفحة الجدي، فأنكرت الأطباء ذلك، فادعى الصواب، وحضر المجلس المعقود له أعيان الفقهاء والحكماء، وطولب بالنقل فأحضره، فلم ينهض بصدق دعواه، وعلى هذا فلم ينقم عليه تنكز على كراهيته له.

وتوفي في...

ومنهم:

[٩٩]

أحمد بن شهاب الدين، أبو محمد الكحال الجرائحي[١]

ذو يد في صناعته ولسان، وأساً لأعمال يديه وإحسان، جرى ممتد الأرسان، واتخذ يداً عند كل يد، وصنيعة عند كل إنسان، وكان رب علم يدرس وينسخ، وعمل يقطع لأجل ميل منه مائة فرسخ، فطالما بصّر /٣٠٥/ من عمًى وحقن دماً إذا أراق دماً، بعلاج، كم جبر من كسر، وأطلق من أسر، وظهر بأشتات من المحاسن جمع منها عديداً، وجعل سيف النظر بالجلاء مجوهراً، وكان حديداً. هذا إلى خبرة بمفردات الأكحال وترتيبها، ومجمعات أجزائها وتركيبها، فكم سوى منها ما خلق، وداوى رمد العين، وقد خلق الإنسان من علق.

ومنهم:

[١٠٠]

الفتح السامري، هو ابن يوسف بن إسحاق بن مسلم[٢]، من سبط يوسف عليه السلام

هو آخر من بقي في الإقليمين وصلح للتعليمين، برع في الحكمة على إطلاقها، وأعرف عن بدائع أخلاقها، وأتقن فروع الطب حتى أصبحت به فروعها مثمرة، وأغصانها على أصول الحكمة نضرة، وقرأ جانباً من النحو أقام به أود اللسان، وقام به في جدد الإحسان، وكتب خطاً كما حشى عنبر الأصداغ، وسلك طرفاً من العبارة لها من نطف القلوب مساغ.

قرأ الطب على النفيس السامري وغيره، وتخرج مع سلف الأطباء، وزاحم بقايا

---

(١) **ترجمته في**: معجم الأطباء ذيل عيون الأنباء ١٠٧ـ ١٠٨، أعيان العصر ١/ ٤٤٢.

(٢) **ترجمته في**: معجم الأطباء ٣٣٥ـ ٣٣٦ عن المسالك.

تلك القنن، وطبب وعالج وظهر حسن أثره، وعرف يُمن علاجه، وأثنى عليه الأفاضل، وشهدت له الأطباء بالإجادة.

وكان شيخنا ابن الزملكاني يقول: ما رأيت في المسلمين أصح من ذهن البرهان الزرعي وفي غير المسلمين من أبي الفتح السامري، قلت له مرة: فأيهما أصح ذهناً؟ قال: أبو الفتح، وكان رحمه الله يدعو مشاهير الأطباء في زمانه، ومنهم الأمين سليمان، وهو أصدق صديق له، وأصحب صاحب يعتمد عليه، ويطلب الحكيم أبا الفتح ويستطبه، إذا حضر هو وغيره من الأطباء وهم كهول وهو شاب ترك أقوالهم واتبع قوله، وجعل عمدة طبه عليه.

وحكى لي ولده تقي الدين عبد الرحمن، قال: مرض /٣٠٦/ أبي مرضةً استشعر في مبادئها أنها ستطول به مدتها وتثقل عليه فطلبني وقال: يا بني أنا ما أعتمد في الطب إلاّ على الفتح السامري فإن ثقل بي المرض وغاب ذهني عني بالحمى أو غير ذلك لا تعدل بي عن طبه ومعالجته، وإياك أن تغتر وتميل إلى قول سواه، فإن أبا الفتح صحيح الحدس في معرفة المرض، وعليه رتب المداواة.

قال: وكان كثير الثناء عليه ولما كنا بحلب كان يقول إذا ذكر دمشق وحسنها يقول: كيف لا أتأسف على دمشق وفيها ربيت ونشأت، وفيها مثل أبي الفتح؟ وكان لا يزال يشتاق إليه ويتأسف عليه.

قلت: والحكيم أبو الفتح هو اليوم واحد زمانه منقطع القرين ما له نظير في معرفة علم الطب وحسن العلاج ولطف المداواة إلى حسن الوجه والشكل والعبارة والخط، وما عليه من القبول، مع إذعان كل حكماء زمانه وأطباء دهره له بالتقدم والتفرد وحده في الرتبة والمكان. وما خلا الوقت ومثله موجود في الزمان.

ومنهم:

[١٠١]

غنايم السامري، وهو ابن المهذب يوسف كاتب الزردكاش(١)

ملاطفٌ ملأ طيف كل جفن من كرى، وعدل مزاج الزمان فلم يدع منكرا، أبطل ذكر ابن بطلان، وأسخط على علي بن رضوان، وأتى بما لو رآه ابن ماسويه لمسه الإعجاب، أو حنين بن إسحاق لما وسعه إلا أن يتستر بما طال من الثياب.

---

(١) **ترجمته في**: معجم الأطباء ٣٣٢-٣٣٣ عن المسالك.

قرأ على أبيه المهذب وأخذ عن النفيس وأذن له في الطب، وتصرف وطبَّب، واشتهر بالعلم والاستحضار للنقل والمفردات والعلاج الحسن والملاطفة التامة وغرائب المداواة، وهو ممن تزهى به دمشق وتستطيل في الفخار، مع ما طبع عليه من أناة ورفق وتودد وحسن تبصر ومعرفة لا تقصر، ورأيت من يرجحه على أبيه، ويصفه ويبالغ فيه. والناس فيه وفي الحكيم أبي الفتح على قولين وعلى الجملة، فأين مثلهما أين.

* * *

[أطباء الغرب في مصر والاسكندرية]

/٣٠٧/ فأما أطباء الغرب بما وقع في جانبه من مصر والإسكندرية: فمنهم:

[١٠٢]

إسحاق بن عمران[١]

حلق تحليق العقاب، وحل حيث لا يعاب، وافى ديار مصر فكان زلالاً، وأتى بلاد المغرب فكان هلالاً، فطاب به الواديان، وكان كقاب قوسين منه الواليان، واستوطن أفق المغرب وشمسه ما أذنت بأفول، وشبهه ما آن لقلائصها قفول، ثم كان يتشوق العراق وبرد نسيمه، وورد تسنيمه، ولكن لم تدن له الأماني، ولم تدن لسعيه المتواني ولم يتمناها إلا حين لا أوان، وحيث دنت وقد حيل بين العير والنزوان.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان طبيباً مشهوراً، وعالماً مذكوراً، ويعرف باسم ساعة.

قال ابن جلجل: كان مسلم الدين، بغدادي الأصل، بعث إليه ابن الأغلب ألف دينار وراحلة، وكتاب أمان بخطِّ يده أنه متى أحبَّ الانصراف إلى وطنه انصرف

---

(١) إسحاق بن عمران: طبيب ولد في السماوة (العراق)، سافر إلى تونس بدعوة من زيادة الله الثالث بن الأغلب التميمي لمعالجته من مرض المالنخوليا، فاستقر بالقيروان (وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة).
تأثر به ابن الجزار القيرواني، واستشهد ابن البيطار والغافقي ببعض ما ورد في كتبه عن النباتات وعلاقتها بالأدوية. توفي سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٧م. له: «كتاب الأدوية المفردة» و«مقالة في المالنخوليا» أو مرض السوداء والإكتئاب، و«كتاب الثمار» وغيرها.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٨ـ ٤٧٩، طبقات الأطباء ٨٤ـ ٨٧، ورقات في الحضارة العربية ١/ ٢٣٣ـ ٢٣٦، وأخبار العلماء ٦٠، والبيان المغرب ١/ ١٦٣، وطبقات الأمم ٩٤ـ٩٥، والأعلام ١/ ٢٩٥، العقد الفريد ٦/ ٢٣٢ـ٢٣٤، ورقات في الحضارة العربية بأفريقية التونسية لعبد الوهاب، أعلام الحضارة ١/ ١٦٩، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٨.

واستجلبه حتى دخل افريقية على شروط ثلاثة لم يفِ له بواحدٍ منها.

قال: وبه ظهر الطب في الغرب، وعرفت الفلسفة، وكان خبيراً بتأليف الأدوية المركبة، بصيراً بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته، استوطن القيروان حيناً، وألف سكنه، وألَّف فيه كتباً منها كتابه في داء المالنخوليا لم يسبق إليه ثم توحش له ابن الأغلب فصلبه.

وكان السبب أن ابن الأغلب كان نهماً، وكان إسحاق يمنعه من كثير من المآكل، فقدم عليه حدث يهودي من الأندلس، فكان يخالف إسحاق فيما يشير به على ابن الأغلب، فقدم إليه يوماً لبن، وكان يشكو ضيق نفس فنهاه إسحاق عن أكله وخوَّنه اليهودي عليه فأكله فعرض له في الليل ما أشرف منه على الهلاك، فأرسل يقول لإسحاق: هل عندك فرج؟ فقال: لا، فقيل له: هذه خمسمائة دينار وعالجه فأبى، فلم يزل حتى أوصل إلى ألف دينار، فأخذها وأطعمه الثلج حتى امتلأ ثم قيأه فخرج جميع اللبن، وقد تجبن /٣٠٨/ ببرد الثلج، فقال له إسحاق: أيها الأمير لو دخل هذا اللبن أنابيب رئتك ولجَّج فيها أهلكك ضيق النفس لكنني أجهدته وأخرجته قبل وصوله، فقال ابن الأغلب: باع والله إسحاق روحي في النداء. اقطعوا رزقه، فخرج إسحاق إلى مكان في رحاب القيروان، وصار يكتب الصفات كل يوم بدنانير كثيرة، فقيل لابن الأغلب: طردت إسحاق أو دللته على الغنى، فسجنه فتبعه الناس إلى السجن يستوصفونه، فأخرجه ليلاً، ثم كانت له معه حكايات ومعاتبات أحنقته عليه، ففصده في ذراعيه حتى مات، ثم صلبه، ومكث حتى عشش في جوفه الطائر.

ومنهم:

[١٠٣]

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي(١)، أبو يعقوب

المعروف المشهور، والمألوف طبه المشكور، طالما وهب الكواكب إيقاظ نومه، ومنح الغياهب أنقاض يومه، ودانى العلياء لو حفظ لسانه ولفظ إلا إحسانه، لم يسلم من عثرات لا تقال، وتحفظ ولا تقال، لعجلة كانت له خلقا، وكالت بالمكاييل عليه الشقاء فلم يخل من ملام، وكلام مثل كلام.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان طبيباً فاضلاً بليغاً عالماً مشهوراً بالحذق والمعرفة،

---

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤٧٩ـ ٤٨١، طبقات الأطباء ٨٧، أخبار العلماء ٨٨.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٩.

جيد التصنيف، عالي الهمة، وهو الذي شاع ذكره، وانتشرت معرفته بالإسرائيلي. وهو من أهل مصر، وكان يكحل في أوليته. ثم سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عمران وتتلمذ له. وخدم المهدي عبيد الله بالطب. وعمر إلى أن نيف على مائة سنة. ولم يتزوج امرأة ولا أولد ولداً. وقيل له: أيسرّك أن تخلف ولداً؟ فقال: أما إذا بقي بعدي كتاب الحميات فلا. يعني أن بقاء ذكره بهذا الكتاب الذي صنفه أكثر من بقاء ذكره بالولد.

ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد.

وحكى قال: لما قدمت من مصر على ابن الأغلب، بعث إليَّ بخمسمائة دينار قويت بها على السفر، فلما وصلت أدخلت عليه ساعة وصولي، فسلمت عليه بالأمرة، /٣٠٩/ وفعلت ما يجب أن يفعل للملوك من التعبد، فرأيت مجلسه قليل الوقار والغالب عليه حب اللهو، فابتدأني بالكلام ابن خنيس المعروف باليوناني تقول إن الملوحة تجلو؟ قلت: نعم. قال: وتقول إن الحلاوة تجلو؟ قلت: نعم. قال لي: فالحلاوة إذاً هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة، فقلت: إن الحلاوة تجلو بلطف وملاءمة، والملوحة تجلو بعنف. وتمادى على المكابرة، وأحب المغالطة. فلما رأيت ذلك منهم قلت له: أنت حي؟ قال: نعم. قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب والكلب أنت. فضحك ضحكاً شديداً، فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من الجد. قال: فلما وصل داعي المهدي إلى رقاده، أدناني وقربني، وكانت به حصاة في الكلى، فعالجته بدواء فيه العقارب المحرقة. فجلست ذات يوم مع قوم من كتامة فسألوني عن صنوف من العلل، وبقيت كلما أجبتهم لا يفقهون قولي. فقلت لهم: إنما أنتم بقر. فبلغ الخبر إلى داعي المهدي، فقال لي: تقابل إخواننا المؤمنين بما لا يجب، وتالله الكريم لولا أني أعذرك بأنك جاهل بحقهم، بما صار إليهم من معرفة الحق وأهله، لأضربن عنقك.

ومنهم:

[١٠٤]

أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار القيرواني[1]، أبو جعفر

طبيبٌ كان في فعله محموداً، وعلى فضله محسوداً، يكاد طبه يدافع الآجال،

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، أبو جعفر القيرواني، ابن الجزار: طبيب مؤرخ، من أهل القيروان. توفي سنة ٣٦٩هـ/ ٩٨٠م. له «زاد المسافر وقوت الحاضر ـ خ» في الطب، مجلدان، منه نسخ في مكتبة الشعب بباريس ودرسدن بألمانيا ورنبور بالهند وهافانا بهولندة وشستربتي =

ويضيق على جالينوس المجال، إلى دقائق أخرى، وحقائق أبقت له إلى الأخرى، مع رتبة لو أنها للنجوم، لتقرطت بأشنافها، أو بالعلوم، لما كانت إلا لأشرافها. وكان لا يشمخ الكبر بعرنينه، ولا يطمع البَبْر في دخول عرينه، وإنما كان يتحلى بالاتضاع، ولا يروع بفصال له من رضاع، ثم سكن الترب مضجعاً، وساء شامتاً ومتوجعاً، وأمسى رهين عمله، وضمين اليأس لانقطاع أمله.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: طبيب ابن طبيب، ممن أخذ / ٣١٠/ عن إسحاق بن سليمان، وكان من أهل الحفظ والتطلع، والدراسة في الطب، وسائر العلوم، حسن الفهم لها.

قال ابن جلجل: كان قد أخذ لنفسه مأخذاً في سمته وهديه وقُعدُده، ولم تحفظ له زلة، ولا أخلد إلى لذة، وكان يشهد الجنائز والأعراس، ولا يركب إلاَّ إلى المهدي عبيد الله، وإلى عمه أبي طالب، فإنه كان صديقاً حميماً، وأليفاً قديماً، وكان يأتيه في كل يوم جمعة، وكان ينهض في كل عام إلى رباط البحر، فيكون طول مدة القيظ، وعالج ولد النعمان القاضي، فبعث إليه بمنديل مملوء كسوة وثلاثمائة دينار، فلم يأخذ شيئاً، فقيل له: رزق ساقه الله إليك، فقال: والله لا كان لرجال معدٍ قبلي نعمة.

وعاش نيفاً وثمانين سنة، وترك أربعة وعشرين ألف دينار، وخمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها.

ومنهم:

= (٥٢٢٣/٦) وخزانة الرباط (١٧١٨ د) وترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، ومن هذه الترجمات مخطوطات أقدمها في الفاتيكان. و«الاعتماد ـ خ» في الأدوية المفردة، في الجزائر وأياصوفيا (١٤٠ ورقة) والمتحف البريطاني، ألفه لأحد ملوك الفاطميين بافريقية. ومنه مختصر في الرباط (١١٢١١ د) و«البغية» في الأدوية المركبة، و«التعريف بصحيح التاريخ» كبير، و«ذم إخراج الدم» و«رسالة في النفس» و«أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه» و«سياسة الصبيان وتدبيرهم ـ ط» بتونس، رسالة، و«طب الفقراء ـ خ» رسالة مخطوطة في المتحف العراقي، وأُخرى في مجموع عند حماد بو عياد، في الرباط، و«دولة المهدي ـ العبيدي ـ وظهوره بالمغرب» تاريخ، وغير ذلك.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨١ـ ٤٨٢، معجم الأدباء ١٣٦/٢، والوافي بالوفيات ٢٠٨/٦ رقم ٢٦٧١، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ ـ ٣٨٠هـ) ص٢٤١، طبقات الأطباء ٨٨، أخبار العلماء ٦١، البيان المغرب ٣٣٨/١، الأعلام ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

(١) عيون الأنباء ٤٨١.

[١٠٥]

حمدون اثا[١]

شفى المرض بطبه، وهو عن المريض همَّ خطبه، وأحسن علاجاً، وأحب في ليل المساءة انبلاجاً، وسلك من طرق القدماء أحصنها، وأحل من رمق الذماء أحصنها، وكان لا يكره على مر الدواء، ولا يضيق في علاج الداء؛ لمعرفته بالإبدال وقدرته إذا جدَّ الجدال، فلم يزل محظياً، ولم يبرح في قومه رضياً.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان في أيام محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان حاذقاً مجرباً، وكان صهر بني خالد، وله بقرطبة أصول ومكاسب، وكان لا يركب الدواب إلاَّ من نتاجه، ولا يأكل إلاَّ من زرعه، ولا يلبس إلاَّ من كتان ضيعته، ولا يستخدم ببلاده إلاَّ من أبناء عبيده.

ومنهم:

[١٠٦]

يحيى بن إسحاق[٣]

حكيم لم يكذب صدق حدسه، ولا خفي غامض على حسه. كان بصره منوراً، ونظره لخفايا البواطن متصوراً، ولهذا قرطس سهمه وقُرِّط بالثريا اسمه، وسبق ذكره النجوم وقطعها، وسار في جميع الأرض كأنه أقطعها، وكان أهل زمانه يتهادونه تهادي الرياحين، ويظنون أنهم يحيون / ٣١١/ به إلى حين، وهيهات فيمَ يفخرون، وهيهات ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٤].

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٥ وفيه اسمه «حمدين بن أبان» ٤، طبقات الأطباء ٩٣، أخبار العلماء ٧٨.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٥.

(٣) يحيى بن إسحاق: طبيب ابن طبيب، أندلسي، من أهل قرطبة. مسيحي النحلة. اعتنق الإسلام، وتأدب، وبرع في الطب. وتقدم في دولة عبد الرحمن الناصر الأموي. ووثق به الناصر فاستوزره وولاه الولايات والعمالات. وكان قائد «بطليوس» مدة. وصنف في الطب كناشاً سماه «الإبريسم» خمسة مجلدات كبار. توفي نحو سنة ٣٢٥هـ/ نحو ٩٣٧م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٨ـ ٤٨٩، طبقات الحكماء ١٠٠، أخبار العلماء ٣٥٩، طبقات الأمم ١٠٠، بغية الملتمس ٤٨٣، الأعلام ٨/ ١٣٧.

(٤) سورة يونس: الآية ٤٩.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال[1]: كان طبيباً، بصيراً بالعلاج صانعاً بيده، وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر بمكان الثقة، وكان يطلعه على الكرائم والخدم، وكان قد أسلم.

قال ابن جلجل: عن رجل كان بباب داره إذ أتى بدوي على حمار وهو يصيح فخرج إليه: وقال له: ما بالك يا هذا؟ فقال له: أيها الوزير، ورم في إحليلي منعني من النوم منذ أيام كثيرة. فقال له: اكشف عنه، فكشف عنه فإذا هو وارم. فقال لرجل كان أقبل مع العليل: اطلب له حجراً أملس فأتاه به. فقال: ضعه على كفك وضع عليه الإحليل ففعل، فلما تمكن إحليل الرجل من الحجر، جمع الوزير يده وضرب على الإحليل ضربة غشي على الرجل منها. وجرى من الإحليل صديد الدم إلى أن نزف ثم فتح عينيه وبال البول. فقال له: اذهب قد برئت، وأنت رجل قد عبثت فأتيت بهيمة في دبرها، فصادفت شعيرة من علفها فلحجت في عين الإحليل، فورم لها وقد خرجت الآن في الصديد. فقال الرجل: قد كان ذلك مني. وأقر بفعلته.

ومنهم:

[١٠٧]

أبو داود ابن جُلْجُل: وهو سليمان بن حسان المعروف بابن جُلْجُل[2]

حكيم فاض بحره التيار، وفات سُرى الكواكب ذكره السيار، وحام على المجرة وردها، وجفا بطبه بنات نعش ووأدها، ولح على عارض الحرارة وأطفأ موقدها، وحل مجالس الملوك، وحل عقدها، وخزي به المرض واكتئب، وحصل بصناعته الأموال واكتسب، ولم يكن ممن يتهور في إقدام، ولا يتصور أن ينقل إلى ذي سفالة أقدام، فكان مدة حياته موقراً، ولا يطأ أخمصه إلا حريراً وعبقراً.

قال ابن أبي أصيبعة[3]: كان خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب.

---

(١) عيون الأنباء ٤٨٨.

(٢) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤٩٣ـ ٤٩٥، طبقات الأمم ١٠٣، أخبار العلماء ١٩٠، دائرة معارف البستاني ١/ ٤٣٤، الطب العربي ١٨٩، طبقات الأطباء (لصاحب الترجمة) مقدمته بقلم محققه فؤاد سيد، الأعلام ٣/ ١٢٣.

(٣) عيون الأنباء ٤٩٣.

وكان في أيام هشام المؤيد بالله وخدمه، وله اعتناء بقوى الأدوية، وفسر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس العين زربي، وأفصح عن مكنونها، /٣١٢/ وأوضح مستغلق مضمونها، وهذا الكتاب ترجمه أطفان أيام المتوكل، وفسَّر من مفرداته ما عرف له اسم في اللغة العربية، وأبقى اسم ما لم يعرف له اسم.

قال: وأهدى أرمانوس صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر هدايا جليلة عظيمة المقدار منها كتاب ديسقوريدس مكتوباً بالإغريقي وهو اليوناني مصوراً بالتصوير الرومي العجيب، وكتب إلى الناصر يقول له: إن هذا الكتاب لا تجنى فائدته إلاَّ برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن هذا، فزت بفائدة هذا الكتاب. فبقي في خزانة الناصر، ثم بعث أرمانوس إلى الناصر راهباً اسمه نقولا، ففسر من أسماء عقاقيره ما كان مجهولاً، وهو أول من عمل بقرطبة درياق الفاروق.

قال ابن جلجل: واجتمع أطباء قرطبة مع نقولا على معرفة أشخاص الأدوية المذكورة في كتاب ديسقوريدس. قال: أدركت نقولا الراهب، ومن اجتمع معه في أيام المستنصر الحكم في صدر دولته، وصحبتهم فصحَّ ببحث هؤلاء الوقوف على أشخاص هذه العقاقير بمدينة قرطبة، وتصحيح أسمائها إلاَّ القليل الذي لا بال به ولا خطر له وذلك يكون في مثل عشرة أدوية.

ومنهم:

[١٠٨]

أبو جعفر، يوسف بن محمد بن حسداي[١]

حكيم قل قدره، وجلا الظلماء بدره، تصدى طبه للأدواء فحسمها، وشد بناء الأعضاء وقد حطمها، وسرى علاجه في العلل الجسام سُرى الأرواح في الأجسام، وبهذا ثبت زلزالها وردها إلى مصاحبة الجسوم، وقد نوت اعتزالها، وفعل في هذا الغاية بلطف مداراته وكف ما لم يقدر الثوب على مواراته، ثم لم يغن عنه طبه إذ حان حينه وقرب مدى ما بينه وبين الموت بينه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[٢]: من الفضلاء في صناعة الطب، وله اعتناء بالغ

(١) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

(٢) عيون الأنباء ٤٩٩.

بالاطلاع على كتب أبقراط وجالينوس وفهمها، /٣١٣/ وكان قد سافر من الأندلس إلى مصر، واشتهر بها ذكره في أيام الآمر، وكان خصيصاً بالمأمون الآمري الوزير، وكان هذا أمره المأمون بشرح كتاب الإيمان لأبقراط، فشرحه، وكان مدمناً للشراب، وعنده دعابة ونوادر.

وحكي أنه كان قد رافق بعض الصوفية في سفرة سافرها من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الصوفي: أين تنزل في القاهرة حتى أكون أراك؟ فقال: ما في نيتي أنزل إلاَّ في الخمارة وأشرب، فغضب الصوفي عليه، فلما أتيا القاهرة تفرقا فلما كان في بعض الأيام مرَّ ابن حسداي في السوق، وإذا بأفواج الناس مزدحمة، وبينهم صوفي يُعزَّر، فنظر إليه فإذا هو صاحبه قد أمسك وهو سكران، فقال له ابن حسداي: والله ما قتلك إلاَّ الناموس.

ومنهم:

[١٠٩]

الغافقي، وهو أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سند[(١)]

رسا في العلم ورسخ، وأنسى ما في كتب القدماء ونسخ، وطلع في هالات الأهلة، وأراع علالات العلة، وناسب ما يلاءم النفوس وصفا، وورد مثل رزق النطاق وأصفى، ولم يعد مريضاً إلا كشف غماء المرض، وكف إيماء المرض، وكان يتبرك بعيادته، ويتيمن تيمناً كان سبباً لسيادته، إلا أنه بمعرفة قوى الأدوية أدرب، وحدسه فيها أغرب، وكلامه فيها كلام من رأى وجرب.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[(٢)]: إمام فاضل، وحكيم عالم، ويعد من الأكابر. وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة.

[ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها. وكتابه في الأدوية المفردة] لا نظير له في الجودة ولا شبيه له. وقد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى، ثم ذكر [بعد قوليهما] ما تجدد للمتأخرين فيها ودستوراً يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها.

ومنهم:

(١) وفيه اسمه «أحمد بن محمد بن أحمد بن السيد الغافقي» ترجمته في: عيون الأنباء ٥٠٠ـ ٥٠١.
(٢) عيون الأنباء ٥٠٠.

[١١٠]

أبو بكر، عتيق بن تمام بن أبي النوق الأزدي[(١)]

طبيب أبرأ الأسقام، وأربت له من الفضل أوفر الأقسام، جرى في طلق الوفاء، وجرب منه مطلق الشفاء، / ٣١٤/ هذا وهو شاعر لا يذعر له جنان، ولا يشعر إلا وفي فيه سنان، يبعث سمام الأرقم، ويجرع الحمام في كأس العلقم.

قال ابن رشيق: غلب عليه اسمُ الطّب فعُرِفَ به لحذقه فيه ومكان أبيه منه.

وهو شاعرٌ حاذقٌ، مفتوقُ اللّسان، حاضرُ الخاطر، [متضحُ البديهة سديدُ الطبع]، لم أرَ قط أسهل من الشِّعر عليه، يكاد لا يتكلم إلاَّ به. وأكثر تأدّبه بالأندلس، ولقي بها ناساً وملوكاً، وأخذ الجوائز، وقارَع فحول الشعراء. ومما أنشد له قوله. [من الطويل]

فلمْ أنسَهَا كالشمسِ أسْبلَ فوقَها ... مِنَ الشَّعَرِ الوَحْفِ الأثيثِ عُذُوقُ

فلو ذابَ ذا أوْ سالَ جريالُ خَدّها ... جرى سَبَجٌ منها وسالَ عقيقُ

قال: فأنت ترى الطبع كيف حمل هذا المعنى كما تحمل الأرواح الأجسام ولو وضع بين فسطاط المحررين، وحُملَ على مذاهب المتعصبين، لرأيته أثقلَ من العذل، وأقتلَ من الجهل؛ لأنَّ التصنّع تكلّف، والتكلّف مغصوب مكره غير أن القسم الآخر منه منقولٌ بذاته من شعر ابن هانىء في وصف فرس.

ومن أبيات ابن أبي النوق: [من الطويل]

فَمُتْ تسترحْ يا قلبُ إنْ كنتَ صادقاً ... فإنّكَ فيها بالمماتِ خليقُ

ومنْ لمْ يَمُتْ في إثرِ إلفٍ مودّعٍ ... فليسَ لهُ بالعاشقينَ لُحُوقُ

ومما أنشد له أيضاً قوله: [من البسيط]

يُحَمِّلُ المُرهفينَ الطائعينَ لهُ ... في مُنتهى الحَطِّ أو في مُنتهى القُنَنِ

حتَّى إذا انكشفتْ عَنْ عارضٍ خَشِنْ ... سُحْبٌ تصدَّى لها بالمُنْصُلِ الخَشِنِ

أراهُ ضَرْباً يُريهِ أهلَهُ معهُ ... ويقدحُ النارَ بينَ الرأسِ والبَدَنِ

تركتُ أهلي وأوطاني لقصدِ فتًى ... يداهُ أخصبُ مِنْ أهلي ومِنْ وطني

عليٌّ الماجدُ الحُرُّ الجَوادُ ومَنْ ... في حَزمِهِ جمعَ الأشتاتَ للحسَنِ

ومَنْ إذا استمطرَ العافُونَ راحتَهُ ... سَقَتهمُ فوقَ سَقْيِ الوابلِ الهَتِنِ

---

(١) **ترجمته في**: أخبار العلماء ٨٢، انموذج الزمان ١٩٦، معجم الأطباء ٨٢ ـ٨٣.

/٣١٥/ ومَنْ حَوى رُتباً لم يَحوِها بشرٌ إلاَّ الذي ولدوهُ معدِنَ المِنَنِ
والفرعُ عن جَدِّه يُنمى ومَحْتِدِهِ والخيرُ والشرُّ مشروبانِ في اللَّبنِ
تَجري النجابةُ طَبعاً في شَمائِله والمَجدُ والبِشرُ جَريَ الماءِ في الغُصُنِ

ومنه: [من السريع]

يا قائداً ما مِثْلَهُ قائدُ يَشكرُهُ القائمُ والقاعدُ
وواحداً ما إنْ لهُ مُشْبِهٌ وماجدٌ ما فوقَهُ ماجدُ
ومَنْ غَدَا بأبيه والداً بَرَّاً لِمَنْ ليسَ لهُ والدُ
إنْ قلتُ: كالبحرِ عَطاءً فإنَّ البحرَ لا يشكرُهُ الواردُ
أو قلتُ: كالقَطرِ سَماحاً فإنَّ القطرَ مَعْ كَثرتِهِ نافِدُ
أو قلتُ: كالبدرِ فقدْ ينقصُ الـ ـبدرُ وهذا أبداً زائدُ
هذا عليٌّ واحدٌ للعُلا أوحدَهُ في عصرِهِ الواحدُ
أنا الفتى الشاكرُ إحسانَهُ واللهِ واللهِ أَنا شاكِد

ومنهم:

[١١١]
أبو محمد المصري[1]

الحكيم لا يقصر في حكمه، ولا يعجز أن ينطق من تمادى في بكمه، جرى الأدب بقلمه، وسرى نفس في كلمه، وحظي بقبول كان يتلقاه حيث حل، ويحله أكرم محل، ويتحفه بحباء الملوك بما ينعم به بالاً، ويعم حساده وبالاً، وكان لا يجيب دعوة الصلاح ولا يستطيع سلوة الملاح، قد أوثقته الحدق النجل جراحاً، وأوبقته الذوائب الجثل، فلا يجد سراحاً، وكان كالخمر في سلب العقول، وكالسحر في الخلب بما يقول حاذقاً بصيد الدراهم، واستخراج خبايا الجيوب، ولو زررت بحدق الأراقم.

قال ابن بسام فيه[2]: شيخُ الفتيان، وآبدةُ الزمان. وكان رحل إلى مصرَ واسمُهُ

---

(١) عبد الله بن خليفة القرطبي المصري، أبو محمد: طبيب، شاعر، كثير النادرة، حاضر الجواب. من أهل قرطبة. اشتهر بالمصري، لطول إقامته بمصر. خدم المأمون ابن ذي النون إلى أن زالت الدولة «النونية» فانتقل إلى إشبيلية، فكان من رجال المعتمد، إلى أن خلع. وله مدح في بلقين بن حماد وباديس بن حيوس وغيرهما. توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٠٣م.
ترجمته في: المغرب في حلى المغرب ١/ ٨١، الذخيرة ٤/ ٣٤٢ـ ٣٥٩، نفح الطيب ٢/ ٦٩، الأعلام ٤/ ٨٥.

(٢) الذخيرة ٤/ ٣٤٢ـ ٣٤٣.

خامل، وسماؤه عاطل، فلم ينشب أن طرأ على الأندلس وقد نشأ خلقاً جديداً، /٣١٦/ وجرى إلى النباهة طلقاً بعيداً، فتهادته الدول، وانتهت إليه التفاصيل والجمل، وكلما طرأ على ملك، فكأنّه معه ولد، وإياه قصد، فجرى مع كل أحد، وتموَّل في كلّ بلد، وتلوَّنَ في العلوم تلون الزمان، وتلاعب بالملوك بأفقنا تلاعُب الرياح بالأغصان، حتى ظفر به ابن ذي النون، فشدَّ عليه يد الضنين، فوجد كنفاً سهلاً، وسلطاناً غفلاً، فسرَّ وساء، وارتسم في أي الدواوين شاء، وكان بالطبّ أكلف، وعليه أوقف، فتعلّق بسببه، حتى اشتُهر به، وكان حسن البيان مليح المجلس، حاضر الجواب كثير النادر، رواية للشعر والمثل السائر، نسَّابة للمفاخر، عارفاً بالمثالب والمناقب. وكان بالجملة روضة أدب وهيهات أن يأتيَ الدهرُ بمثله.

وتحيّز إلى إشبيلية، فأنس المعتمد بمكانه، وجعل له حظاً من سلطانه، ثم بقي بعده على حاله، مشتملاً بفضل إقباله، مقبلاً على لذاته.

ومما أنشد له قوله[1]: [من البسيط]

قال الوشاةُ ودمعُ العَينِ مُنحدرٌ ... ودمعُهُ فوقَ روضِ الوَرْدِ قدْ حارا
النارُ يُحرقُها قلبي بزَفرتِهِ ... مِنَ العَجيبِ فُؤادٌ يُحرقُ النارا

وقوله[2]: [من السريع]

ظُلمُكَ أضحى لي بلا مِرْيَةٍ ... مُؤثِّراً في خَدّكَ الناضرِ
ما أرفقَ اللهَ بأهلِ الهَوَى ... إذ صَيَّرَ الجَورَ على الجائرِ

وقوله[3]: [من الطويل]

ومَنْ أصبحتْ فيهِ المَكارمُ جَوهراً ... بلا عَرَضٍ فالمَدحُ فيهِ قَبيحُ
[و] لكنْ رأيتُ الشِّعْرَ يثبتُ ذكرُهُ ... فلا غَرْوَ أنْ يُهدى إليكَ مَديحُ

وقوله وهو معنى قول أبي نواسٍ، ولكنه نقله[4]: [من الوافر]

وما يحتاجُ يومَ الحَربِ جَيشاً ... فإنَّ عِداهُ كالزَّرعِ الحَطيمِ
/٣١٧/ وإن أبَقى لهمْ فرعونُ سِحْراً ... ففي يدِهِ عصا موسى الكَليمِ

وقوله في مهرٍ قتله تغالب الفحول عليه[5]: [من البسيط]

يا يوسفَ الخَيلِ يا مقتولَ إخوتِهِ ... قلبي لفقدكَ بينَ الحَرْبِ والحَرَبِ

---

(١) الذخيرة ٤/ ٣٤٥.
(٢) الذخيرة ٤/ ٣٤٦.
(٣) الذخيرة ٤/ ٣٤٩.
(٤) الذخيرة ٤/ ٣٥١.
(٥) الذخيرة ٤/ ٣٥٢_٣٥٣.

إنْ كانَ يعقوبُ لَمْ يقنعْ بكذبهمُ ... إني لأقنعُ منهمْ بالدم الكَذِبِ
وما التناسبُ في القُربى بِنافعةٍ ... إنْ لَمْ تكنْ أنفس القُرْبى ذَوي نَسَبِ

وقوله يصف قصر طليطلة(١): [من الكامل]

قَصْرٌ يقصِّرُ عَنْ مَداهُ الفَرْقَدُ ... عَذُبتْ مصادرُهُ وطابَ المَوردُ
وكأنما الأقداحُ في أرجائِهِ ... دُرٌّ جَمادٌ ذابَ فيهِ العَسْجَدُ

وقوله يصف القبة(٢): [من السريع]

شَمسيةُ الأنسابِ بدريةٌ ... يَحارُ في نسبتِها الخاطرُ
كأنما المأمونُ بدرُ الدُّجى ... وهيَ عليهِ الفَلَكُ الدائرُ

وقوله(٣): [من مخلع البسيط]

أيُّ هِلالٍ أَطَلَّ فِينا ... مَطلعُهُ الطَّوقُ والجُيُوبُ
يقُودُنا كيفَ شاءَ طَوْعاً ... لأنَّ أَعوانَهُ القُلُوبُ

ومنهم:

[١١٢]

أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني(٤)

رْجل يرتع في حديقته، ويرجع في الفضل إلى حقيقته، لا يقف سيف ذهنه عند

---

(١) الذخيرة ٤/ ٣٥٥.
(٢) الذخيرة ٤/ ٣٥٥.
(٣) الذخيرة ٤/ ٣٥٨.
(٤) أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصَّلت: عالم موسوعي، حكيم، أديب، رياضي، مهندس، ميكانيكي، مفكر، طبيب، فيلسوف، مؤرخ، شاعر، موسيقي، ضارب على العود، من أهل «دانية» بالأندلس. ولد فيها سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م، ورحل إلى المشرق، فأقام بمصر عشرين عاماً، سجن في خلالها، ونفاه الأفضل شاهنشاه منها، فرحل إلى الإسكندرية، ثم انتقل إلى المهدية (من أعمال المغرب) فاتصل بأميرها يحيى بن تميم الصنهاجي، وابنه علي بن يحيى، فالحسن بن يحيى آخر ملوك الصنهاجيين بها، ومات فيها سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م.
يُعد أمية أول من أدخل الموسيقى الأندلسية إلى إفريقية وذلك بعد هجرته من إشبيلية حوالي سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٨٥م بيد الفونسو السادس ملك قشتالة. وقد ذكر المقري في (نفح الطيب): «إنه هو الذي لحن الأغاني الإفريقية..» ويؤيد ذلك ما ذكره ابن سعيد في (المُغرب في حلى المغرب): «إن انتشار الألحان الأندلسية في إفريقية كان على يد أبي الصلت».
من تصانيفه «الحديقة» على أسلوب يتيمة الدهر، و«رسالة العمل بالأسطرلاب ـ خ» في المتحف العراقي رقم ١٢٤٨ وفي شستربتي (٣١٨٣) و«الاقتصار» و«عمل صحيفة جامعة تكون فيها جميع =

حد، ولا يخرج ما سمع في حافظته من لحد، حسياً في الطلب لا ينال باللمس، ونسياً في الأدب إلا أن أمية بن عبد العزيز لا يقاس به أمية بن عبد شمس.

= الكواكب السبعة» و«نظم في الفلك والإسطرلاب» و«كتاب في الصيدلة» و«الرسالة المصرية في الطب» و«الملح العصرية من شعراء أهل الأندلس والطارئين عليها» و«ديوان شعره» مرتب على الحروف. و«كتاب في تاريخ الزيريين على حكام المهدية في تونس» و«تقويم الذهن» في المنطق. و«رسالة في الموسيقى» و«الوجيز» في علم الهيأة، و«الأدوية المفردة ـ خ» في مغنيسا، الرقم ١٨١٥ كتب سنة ٦٧٠هـ، في ١٨٨ ورقة. وقد عبث بعض الأغبياء بالصفحة الأولى من النسخة فجعلوا في أعلاها «كتاب القارورة للإسرائيلي وكتاب أبقراط... إلخ» وكتب أحدهم أنه «بخط المؤلف أبو الصلت» ولا قيمة لكل هذا. ومنه نسخة مبتورة غير قديمة في خزانة الرباط آخر المجموع ٢٨١ ق، وشعر فيه رقة وجودة.
ترجمته في: نفح الطيب ١/ ٥٣٠ـ٥٣٢، عيون الأنباء ٥٠١ـ٥١٥، أنباء العلماء ٨٠، معجم الأدباء ٧/ ٥٢ـ٧٠، المقفى ٢/ ٢٩٧ـ٢٩٨ (٨٤٢)، معجم الأدباء ٢/ ٣٦١، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٣ـ ٢٤٧ رقم ١٠٤، الوافي بالوفيات ٩/ ٤٠٢ (٤٣٣٣)، حسن المحاضرة ١/ ٣١١، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٣ـ ٢٥٤، شذرات الذهب ٤/ ٨٣ـ ٨٤، ١٤٤، المُغرب في حلى المغرب ١/ ٢٥٦ـ ٢٥٧، كشف الظنون ٥١، ١٧٢، ٣٠٥، ٤٦٩، ٦٤٦ وصفحات كثيرة، إيضاح المكنون ١/ ١١١ وفي الخريدة للعماد قسم المغرب ١/ ٩١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٣٤ـ٦٣٥ رقم ٣٧٥، تاريخ الحكماء ٨٠، وخريدة القصر (قسم شعراء المغرب) ١/ ١٨٩ـ ٢٧٠ و٤/ ج١/ ٢٢٣ـ ٣٤٣، ومعجم الأدباء ٧/ ٥٢ـ ٧٠، والكامل في التاريخ ١١/ ٨، وتحفة القادم ٣، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ٥٣ـ٦٢، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٠٠، والعبر ٤/ ٧٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢١٦ـ ٢١٧، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٩٦ـ٣٠١، ٢٥٤، وديوان الإسلام ١/ ٤٣ـ ٤٤ رقم ٣٥، وسيعاد مختصراً في وفيات السنة التالية برقم (١٣٢)، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١ـ٥٤٠هـ) ص١٦٣ رقم ١١٤، العلوم البحتة ـ الهيئة ١٨٩ ـ الطبيعة ٢٣٩ ـ العلوم العملية ـ الطب ٥٢ـ٥٣، معجم المؤلفين ٣/ ٢٣، الطب والأطباء في الأندلس ١/ ٢٦، ٥٧، دهمان ـ مقدمة تحقيق كتاب علم الساعات لرضوان الساعاتي ٧٩ـ٨٠، تاريخ النبات ٨٧ـ٨٨ المستشرقون ١/ ١٣٣، تراث العرب طوقان ٣٠٠ـ ٣٠٢، تاريخ العلوم ١٣٠، ٢٢٨، ٢٢٩، وتاريخ الفكر ٥٩٠ـ٥٩٢، د. الطويل: في تراثنا العربي ٢١٧، تاريخ العلوم ٢٠ حاشية (٢) ٤٣، تاريخ تراث الطب ٣٠٥ـ ٣٠٦، بروكلمن ١/ ٦٤١ (٤٨٧)، سارتون ٢/ ٢٣٠ سوتر ٢٧٢، لوكليرك ٢/ ٧٤، فارمر: تراث الإسلام ـ الموسيقا ٥٣٥، جولة في دور الكتب الأمريكية ٩٠، نوادر المخطوطات ١/ ١١، ٥٦، فهرس المخطوطات المصورة بمركز الوثائق بالجامعة الأردنية ٢/ ١٤٨، فهرس المخطوطات الظاهرية ـ هيئة ١٥٦ـ١٥٧، ١٨٣، ٢٠٨، فهرس الطب ٣/ ٨ـ ٩ كونتش: فهرس المخطوطات المصورة ٣٩، فهرس المخطوطات المصورة بمعهد التراث بحلب ٩، مجلة مكة: العدد٢ ص٩٣ـ ١٢٩، ١٤٠٩هـ، مجلة الأصالة الجزائرية: السنة الرابعة عدد رجب ـ شعبان عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ص٧١ـ٧٣، الأعلام ٢/ ٢٣، أعلام الحضارة العربية الإسلامية ٥/ ١٢٥، معجم الشعراء للجبوري ١/ ٣١٥ـ٣١٦.

قال ابن خلكان[(١)]: كان فاضلاً في علوم الآداب، صنف كتابه الذي سماه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي، وكان عارفاً بفن الحكمة، وكان يقال له الأديب الحكيم، وكان ماهراً في علوم الأوائل، وانتقل من الأندلس وسكن /٣١٨/ الإسكندرية، ثم انتقل إلى المهدية، فمات بها.

وذكره العماد في الخريدة[(٢)] وأثنى عليه.

وذكره ابن أبي أصيبعة وقال[(٣)]: وهو من الأكابر الفضلاء في الطب وغيره. وبلغ في الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من الأدب ما لم يدركه كثير من الأدباء. وكان فريداً في علم الرياضي، مجيداً لعلم الموسيقى، جيد اللعب بالعود، لطيف النادرة، فصيح اللسان، جيد المعاني، لشعره رونق.

وأتى مصر وأقام مدة بالقاهرة ثم عاد إلى الأندلس، وحبس بالإسكندرية؛ لأنه كان قد غرق بها مركب فيه أموال جليلة فالتزم بعمل آلات يخرج بها المركب بما فيه، وشرع في عمل الآلة بحبال إبريسم تنطوي على دواليب ليرفع بها المركب الغارق فغرم عليها جملةً طائلة، فلما ظهر المركب الغارق، وقارب الخارج، ثقل على الحبال، فقطعها، وسقط إلى قعر البحر، فغضب الوالي عليه وحبسه، فكتب إلى ابن الصيرفي يستشفع به، وبعث إليه بقصيدتين يمدح بهما الأفضل بن أمير الجيوش وأول الأولى: [من مجزوء الكامل]

الشمسُ دونكَ في المَحَلْ ... والطِّيبُ ذِكرُكَ بلْ أَجَلْ

وأول الثانية: [من الكامل]

نسختْ غرائبُ مدحِكَ التَّشْبيبا ... وكَفَى بها غَزَلاً لنا ونَسِيبا

فأجابه بجواب وهو: [من الكامل]

لئنْ سَتَرَتْك الخِدْرُ عنَّا فرُبما ... رأينا جَلابيب السَّحابِ على الشمسِ

وردتني رقعة مولاي، فأخذت في تقبيلها كأني ظفرت بيد مصدرها، أو تمكنت من أنامل مسطرها، ووقفت على ما تضمنته من الفضل الباهر، وما أودعته من الجواهر [الطويل].

نُكرِّرُ طَوْراً مِنْ قراءة فصوله ... فإنْ نحنُ أتممنا قراءَتَهُ عُدْنا

/٣١٩/ إذا ما نَشَرناه فكالمِسكِ نَشْرُهُ ... ونَطويهِ لا طَيَّ السآمة بلْ ضَنَّا

فأما ما اشتملت عليه من الرضا، فحكم الدهر ضروره، وكون ما اتفق له عارض يتحقق ذهابه ومروره، ثقة بعواطف السلطان ومراحمه، وسكوناً إلى ما جبلت النفوس

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٣.

(٢) خريدة القصر/ قسم المغرب ١/ ١٨٩ـ ١٩٠.

(٣) عيون الأنباء ٥٠١.

عليه من معرفة فواضله ومكارمه. فهذا قول مثله ممن طهر الله دينه، ونزه من الشكوك ضميره ويقينه [الطويل].

لا يُؤيِسنَّكَ مِنْ تَفَرُّجِ كُرْبَةٍ خَطْبٌ رَماك بِهِ الزمانُ الأنكَدُ
صَبراً فإنَّ اليومَ يتبعُهُ غَدٌ ويَدُ الخلافةِ لا تُطاولُها يَدُ

وأما ما أشار إليه من الذي مني به تمحيص أوزار سبقت، وتنقيص ذنوب اتفقت، فقد حاشاه الله من الدنايا، وبرأه من الآثام والخطايا. بل ذلك اختبار لتوكله وثقته، كما يبتلى المؤمنون الأتقياء، ويمتحن البررة والأولياء. والله يدبره بأحسن تدبير، ويقضي له بتسهيل كل عسير. وقد اجتمعت بفلان، فأعلمني أنه تحت وعد، وأنه ينتظر فرصة في التذكار ينتهزها ويغتنمها، ويرتقب فرجة للتقاضي يتولجها ويقتحمها. والله يعينه على ما يضمر من ذلك وينويه، ويوفقه فيما يحاوله ويبغيه.

وأما القصيدتان فما عرفت أحسن منهما مطلعاً، ولا أجود متصرفاً ومتقطعاً، ولا أملك للقلوب والأسماع، ولا أجمع للإغراب والإبداع، ولا أكمل في فصاحة الألفاظ وتمكُّن القوافي، ولا أكثر تناسباً على كثرة ما في الأشعار من التباين والتناهي. ووجدتهما تزدادان حسناً على التكرير والترديد، وتفاءلت فيهما بترتيب قصيدة الإطلاق بعد قصيدة التقييد. والله يحقق رجائي في ذلك وأملي، ويقرب ما أتوقعه فمعظم السعادة فيه لي، ثم أطلق سراحه.

ومن شعره قوله في حالي نجم الثريا مشرقاً ومغرباً وطالعاً: [من المتقارب]

/٣٢٠/ رأيتُ الثريا لها حالتانِ فَمَنظرُها فيهما مُعْجِبُ
لها عندَ مَشرِقِها صُورةٌ يُريك مُخالِفَها المَغربُ
فَتطلُعُ كالكأسِ إذْ تُستحثُّ وتَغربُ كالكاسِ إذْ تَغربُ

وقوله[1]: [من المنسرح]

للهِ يومي ببركةِ الحَبَشِ والأُفقُ بينَ الضياءِ والغَبَشِ
ونحنُ في روضةٍ مُفَوَّفَةٍ دُبِّجَ بالنّورِ عِطْفُها ووُشِي
قدْ نسجتْها يدُ الربيعِ لنا فنحنُ مِنْ نسجِها على فُرُشِ
وأثقلَ الناسَ كلِّهِمْ رَجُلٌ دعاهُ داعي الصِّبا فلمْ يَطِشِ
فَعاطِني الراحَ إنَّ تاركَها مِنْ سَوْرةِ الهَمِّ غيرُ مُنتعِشِ

(١) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٢٩ـ ٢٣٠.

وسَقِّني بالكِبارِ مُتْرَعَةً فتلكَ أرْوَى لِشِدَّةِ العَطَشِ

وقوله[(١)]: [من الكامل]

وارحمتا لمُعذَّبٍ يشكو الجَوَى بمُنَعَّمٍ يشكو فَراغَ البالِ

نشوانَ مِنْ خَمْرينِ خَمْرِ زُجاجةٍ عَبِثَتْ بمقلتِهِ وخَمْرِ دَلالِ

لا يستفيقُ وهلْ يُفيقُ بحالةٍ مَنْ رِيقُ فيهِ سُلافةُ الجِريالِ

عَلِمَ العدوُّ بما لقيتُ فَرَقَّ لي ورأى الحَسودُ بليتي فَرَثَى لي

وقوله[(٢)]: [من الطويل]

إذا كانَ أصلي مِنْ تُرابٍ فكلُّها بلادي وكلُّ العالمينَ أقاربي

ولا بُدَّ لي أَنْ أسألَ العِيْسَ حاجةً تشقُّ على شُمّ الذّرَى والغَوارِبِ

وقوله[(٣)]: [من الكامل]

دَبَّ العِذارُ بخدِّهِ ثُمَّ انثنى عَنْ لَثْمِ مَبْسِمِهِ البَرُودِ الأَشْنَبِ

لا غروَ أنْ حُشي الرَّدى في لَثْمِهِ فالرِّيقُ سُمٌّ قاتلٌ للعقربِ

/٣٢١/ وقوله: [من المديد]

كيفَ لا تُبلي غَلائلُهُ وهو بَدْرٌ وهيَ كَتَّانُ

وقوله يصف فرساً أشهب[(٤)]: [من مخلع البسيط]

وأشهبٍ كالشِّهابِ أضحى يَجولُ في مُذْهَبِ الجَلال

مَنْ أَلْجَمَ الصبحَ بالثُّريَّا وأسرجَ البَرقَ بالهِلالَ

وقوله في طبيب اسمه شعبان[(٥)]: [من الرمل]

يا طَبيباً ضَجرَ العا لَمُ منهُ وتَبرَّمْ

أنتَ شَعبانٌ ولكنْ قَتْلُكَ الناسَ المُحَرّمْ

وقوله[(٦)]: [من الطويل]

يَقُولونَ لي صَبْراً وإني لصابرٌ على نائبات الدهرِ وهيَ فَجَائعُ

---

(١) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٤٦ـ ٢٤٧.

(٢) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤، خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ١٩٨.

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٥، خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ١٩٩.

(٤) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٤٧.

(٥) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٥٤.

(٦) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٣٦.

سأصبرُ حتى يقضيَ اللهُ أمْرَهُ وإنْ أنا لمْ أصبرْ فما أنا صانعُ

وقوله[١] : [من السريع]

سادَ صغارُ الناسِ في عَصرنا لا دامَ مِنْ عَصْرٍ ولا كانا
كالدَّسْتِ مَهما هَمَّ أنْ ينقضي عادَ بهِ البَيْدَقُ فرزانا

وقوله وقد رأى مليحاً أبيض قد قام، فجاء قبيح أسود قعد مكانه: [من الطويل]

مَضَتْ جَنَّةُ المَأوى وجاءتْ جهنمٌ فقدْ صِرْتُ أشقى بعدما كنتُ أنعَمُ
وما هيَ إلا الشمسُ حانَ أفُولُها وأعقبها قِطْعٌ مِنَ الليلِ مُظلِمُ

وقوله[٢]: [من الطويل]

وقائلةٍ ما بالُ مثلِكَ خاملاً أأنْتَ ضعيفُ الرأيِ أمْ أنتَ عاجزُ
فقلتُ لها ذَنْبي إلى القومِ أنني لِما لمْ يَحُوزوه مِنَ المَجدِ حائزُ
وما فاتني شيءٌ سِوى الحَظِّ وحْدَهُ وأمَّا المَعالي فهيَ فيَّ غرائزُ

وقوله[٣]: [من مجزوء الرجز]

/ ٣٢٢/ جَدَّ بقلبي وعَبثْ ثُمَّ مضى وما اكترَثْ
واحَربَا مِنْ شادِنٍ في عُقدِ الصَّبْرِ نَفَثْ
يَقتلُ مَنْ شاءَ بعَينيه ومَنْ شاءَ بَعَثْ
فأيَّ ودٍّ لمْ يَخُنْ وأيّ عَهْدٍ ما نَكَثْ

وقوله[٤]: [من الكامل]

ومُهفهف تَركتْ محاسنُ وجهِهِ ما مَجَّهُ في الكأسِ مِنْ إبريقِهِ
ففعالُها مِنْ مُقلتيهِ، ولونُها مِنْ وجنتيهِ وطعمُهُ مِنْ رِيقِهِ

وقوله[٥]: [من السريع]

عَجِبتُ مِنْ طَرفِكَ في ضَعْفِهِ كيفَ يَصِيدُ البطَلَ الأصْيدا
يَفعلُ فينا وهوَ في غِمْدِهِ ما يفعلُ [السيفُ] إذا جُرّدا

وقوله[٦]: [من البسيط]

(١) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٦٠.
(٢) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤، خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٢٦.
(٣) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤، خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢٠٤.
(٤) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٥.
(٥) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٥.
(٦) خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ٢١٨ـ ٢١٩.

وقُمْتَ إذْ قعدَ الأملاكُ كلُّهمُ ... تَذُبُّ عنهُ وتَحميهِ وتنتصرُ
بالبيضِ تَسقطُ فوقَ البيضِ أنجمُها ... والسُّمْرُ تحتَ ظِلالِ النقْعِ تشتجرُ
بيضٌ إذَا خَطَبَتْ بالنصْرِ ألسنُها ... فمن منابرِها الأكبادُ والقِصَرُ
وذُبَّلٌ مِنْ رِماحِ الخَطِّ مُشْرَعَةٌ ... في طُولهنَّ لأعمارِ العِدا قِصَرُ
تغشى بهِ غَمراتِ الموتِ أُسْدُ شَرًى ... من الكُماةِ إذا ما استُنجدوا ابتدروا
مستلئمينَ إذا سَلُّوا سيوفهَمُ ... شبهتُها خُلُجاً مُدَّتْ بها غُدُرُ
ترتاحُ أنفسُهمْ نحوَ الوَغى طَرَباً ... كأنما الدَّمُّ راحٌ والظُّبى زهرُ
اللهُ زانَ بكَ الأيامَ مِنْ مَلِكٍ ... لكَ الحُجُولُ مِنَ الأيام والغُرَرُ
وللعَجاج على صُمّ القَنَا ظُللٌ ... هيَ الدخانُ وأطرافُ القَنا سُرُرُ
إذ يرجعُ السيفُ يندى خدُّهُ عَلَقاً ... كصفحةِ البِكْرِ أَدْمَى خَدَّها الخَفَرُ
/٣٢٣/ أما يَهولُكَ ما لا قيتَ مِنْ عَدَدٍ ... سِيَّان عندكَ قَلَّ القومُ أو كثُروا
فاضرِبْ بسيفكَ مَنْ نَاواكَ مُنتقماً ... إنَّ السيوفَ لأهلِ البَغْيِ تُدَّخَرُ
ما كلَّ وقتٍ تَرَى الأملاكَ صافحةً ... عَنِ الحَرائرِ تعفو حينَ تَقتدرُ
ومِنْ ذوي البغي [مَنْ] لا يُستهانُ بِهِ ... وفي الذنوبِ ذُنوبٌ ليسَ تُغتفرُ
إنَّ الرماحَ غُصُونٌ تستظلٌّ وما ... لهنَّ شيءٌ سِوى هام العِدا ثَمَرُ
أضَحى شهنشاهُ غَيثاً للندَى غَدَقاً ... كلُّ البلادِ إلى سُقياهُ تَفتقرُ
الطاعِنُ الألفَ إلا أنها نَسَقٌ ... والواهبُ الألفِ إلا أنها بِدَرُ
مَلْكٌ تَبَوَّأ فوقَ النجم مَقْعدَهُ ... فكيفَ تطمعُ في عَليائِهِ البَشَرُ
يُرجَى نَدَاهُ ويُخشَى عندَ سَطوتِهِ ... كالدَّهرِ يُوجدُ فيهِ النفعُ والضَّررُ
ولا سمعتُ ولا حُدِّثْتُ عَنْ أَحَدٍ ... مِنْ قبلِهِ يَهَبُ الدنيا ويَعتذرُ
ولا بَصُرتُ بشمسٍ قبلَ غُرَّتِهِ ... إذا تجلَّى سَناها أغدَقَ المَطَرُ
ولَمْ أُطِلْها بأنِّي جِدُّ مُعترفٍ ... بأنَّ كلَّ طَويلٍ فيهِ مُختصَرُ

وأورد له ابن سعيد قوله في المرقص لمن جاد عليه قبل مديحه[1]: [من الكامل]

لا غَرْوَ أنْ سبقتْ يَداكَ مَدائحي ... فتدفَّقت جَدواكَ ملءَ إنائِها
يُكسَى القضيبُ ولمَّا تُجنَ أثمارُهُ ... وتُطوَّقُ الورقاءُ قبلَ غِنائِها

ومنهم: بنو زهر

فمنهم:

(١) المرقصات المطربات، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤، خريدة القصر ـ قسم المغرب ١/ ١٩١.

[١١٣]

أبو مروان، عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الإشبيلي[١]

حكيم دافع قوى الضراء، وتابع صواب الآراء، فراد الأسقام ومانع الداء، وقد فتح فاه للالتقام على لطف في علاجه، وتسكين لثوائر المرض وعجاجه، ورفقٍ زانَهُ في تأنيه، وزادَهُ في تأتيه، فكان يعد فرداً، ويعد من أمّ مشربه ورداً، ثم لم يخلف له موعد، ولا يخاف معه من سحابه مرض مرعد، لكنه لم تغن عنه حيله، ولم يكن له بُدّ أن يأتيه أجله.

/ ٣٢٤/ قال صاعد: إنه دخل القيروان ومصر، وتطبب بها زماناً طويلاً، ثم رجع إلى الأندلس، وقصد مدينة دانية، واتصل بمجاهد ملكها، وأمره أن يقيم عنده فحظي واشتهر بالتقدم في الطب، وشاع ذكره منها في الأقطار، وله في صناعته إرشاد منه منعه من الحَمَّام لاعتقاده فيه أنه يعفن الأجسام، ويفسد تركيب الأمزجة.

قال: وهذا رأي يخالفه فيه الأوائل، ويشهد بخطأه فيه الخواص والعوام بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب بالتدريج الذي ينبغي كان رياضة فاضلة، ومهنة نافعة لتفتيحه للمسام، وتطريقه للفضول، وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: وأقول: إنه انتقل إلى إشبيلية، ولم يزل بها إلى أن مات، وخلف أموالاً جزيلة ونظيرها من الرباع والضياع.

ومنهم:

[١١٤]

ابنه أبو العلاء، زهر بن عبد الملك[٣]

فردٌ في بني آدم، وواحد ما أتى بمثله وقد تقادم. ابن أبيه، وفوق كل من يليه. لم يقف سيف ذهنه عند حده، ولا جارى البرق وقد أضمر له نار حقده، وأمسى وهو أبو العلاء، وأخو النجم في الاعتلاء. ربي في حجر العلم ربيباً، وأصبح منذ كان في سن الوليد حبيباً، فطلع بدراً كامل الأنوار، وطما بحراً يتمسك له بجوار، حتى استهل

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥١٧. (٢) عيون الأنباء ٥١٧.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥١٧ـ ٥١٩.

سحاباً، واستقل انسكاباً، وكان لبيته تقف عليه زمر وركباً يحج إليه ويعتمر.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[١]: مشهور بالحذق والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على قوته في الصناعة، واطلاعه على دقائقها. وكان له في هذا نوادر ومعرفة بأحوال المرضى من غير أن يستخبرهم، بل لمجرد جسه لعروقهم، أو نظره إلى قواريرهم. وحظي في دولة المرابطين.

وقال ابن جميع: إن رجلاً من التجار جلب نسخةً فائقة لكتاب القانون إلى الأندلس، فاتحف أبا العلاء /٣٢٥/ زهراً به تقرباً إليه، ولم يكن وقف عليه، فلما تأمله ذمه وأطرحه، ولم يدخله خزانة كتبه، ثم جعل يقطع من طرره، ويكتب فيها نسخ الأدوية للمرضى.

وقال أبو يحيى اليسع بن حزم: إن أبا العلاء زهراً كان مع صغر سنه تصرحُ النجابة بذكره، وتخطب المعارف بشكره، ولم يزل طالع كتب الأوائل متفهماً، ويلقى جلة الشيوخ متعلماً حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطلب عن مرامها وصرف الفهم عن إبرامها إلى أن خرجت عن قانون الصناعة إلى ضروب الشناعة بخبر فيصيب، وبضرب في كل ما ينتحله بأوفى نصيب، ويستغرق المدى ويعبر في جدواه سوابق الفضلاء ومحتداً، ويفوق الجلَّة سماحةً لا توصف، وندى لولا بذاذة لسان وعجلة ركب عليها الإنسان، وأي الرجال تكمل خصاله وتتناسب أوصاله.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: توفي بإشبيلية ودفن بها، ومما أنشد له قوله: [من البسيط]

يا راشقي بسهام ما لها غَرَضٌ ... إلا الفؤادُ وما منهُ لها عِوَضُ
أُمننْ ولَوْ بخيالٍ منكَ يَطرُقُني ... فقدْ يسدُّ مَسَدَّ الجَوهر العَرَضُ

ومنهم:

[١١٥]

ابنه أبو مروان ابن أبي العلاء، واسمه عبد الملك[٣]

شيخ الجلالة، وفتى العلم الذي ما ورثه عن كلاله، ارتقى الذروة والغارب، وفاض على المشارق والمغارب. جنى من الفضل غضه، وختم ختامه وفضه. مهدت له

(١) عيون الأنباء ٥١٧.
(٢) عيون الأنباء ٥١٨.
(٣) **ترجمته في**: عيون الأنباء ٥١٩ـ ٥٢١.

المضاجع ليالي اشتغاله فأقضها، ودقَّتْ عليه المعالي أبكاراً فافتضها، فلم يستدر لثام عارضه، ولا تمت أيام رائضه، إلا وهي معنى الجملة، ورأس الأكابر الجلة، ثم لم يصد شيء عن حائمات الحمام، ولا رثاه إلى نائحات الحمام.

قال ابن أبي أصيبعة[1]: لحق بأبيه في المعالجة، وشاع ذكره في الأندلس وغيرها، وعكف الأطباء على مصنفاته، ولم يكن /٣٢٦/ في زمانه من يماثله في صفاته، وله حكايات كثيرة في حسن العلاج مما لم يسبق إلى مثله. وخدم الملثمين، وحصل من جهتهم النعم. وفي وقته الذي كان فيه دخل ابن تومرت الأندلس ومعه صاحبه عبد المؤمن فقرب ابن زهر هذا، واعتمد عليه في الطب وأناله فوق أمنيته، وله ألف الدرياق السَّبعيني، واختصره عشارياً، ثم اختصره سباعياً يعرف بدرياق الأنتلة. واحتاج عبد المؤمن إلى شرب دواء مسهل، وكان يكره الدواء، فعمد ابن زهر إلى كرمة في بستانه وجعل الماء الذي يسقيها به ماء قد أكسبه قوة الأدوية المسهلة التي أرادها لإسهاله، فطلع فيها العنب وفيه تلك القوى، فحمي عبد المؤمن، وأتاه بعنقود منها، وقال له كل منه وكان حسن الاعتقاد فيه، فلما أكل منه وهو ينظر إليه قال له: حسبك يا أمير المؤمنين فقد أكلت عشر حبات من العنب، وهي تخدمك عدد هذه الحبات مجالس فقام العدة التي ذكرها ووجد الراحة، واستحسن منه فعله وتزايدت به منزلته عنده.

وكان يجد في مروره إلى دار الخلافة مريضاً به قنية وقد كبر جوفه واصفر لونه فلما كان في بعض الأيام وقف عنده ونظر إليه فوجد عند رأسه ابريقاً عتيقاً يشرب منه الماء، فقال له: اكسر هذا الابريق فإنه سبب مرضك فقال له: لا بالله يا سيدي فإنه ما لي غيره، فأمر بعض خدمه بأن يكسره فكسره، فطلع منه ضفدع وقد كبر مما له فيه من طول الزمان، فقال له ابن زهر: خلصت يا هذا من المرض.

وحكى أنه كان بإشبيلية حكيم فاضل في الطب يعرف بالفار صنف كتاباً في الأدوية المفردة كان يرى ابن زهر كثيراً يأكل التين الأخضر، وكان الفار لا يأكله إلا نادراً فكان يقول لابن زهر: لا بد أن يعرض لك بمداومة أكل التين علة الثعلة وهي الدبيلة فقال له ابن زهر: وأنت لكثرة حميتك لا بد /٣٢٧/ أن يعرض لك علة السيح، فلم يمت ابن زهر إلاَّ بدبيلة في جنبه، ولا مات الفار إلاَّ بعلة السيح.

قال: وكان ابن زهر يداوي دبيلته، فيقول له: لو زدت هذا الدواء كذا أو أبدلته بكذا أو عملت كذا فكان يقول له: يا بني إذا أراد الله تغيير هذه البنية لا يقدر لي أن أستعمل إلا ما تتم به مشيئته.

ومنهم:

---

(١) عيون الأنباء ٥١٩.

[١١٦]

أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر[١]

نير في سماء، وكوثر في عذب الماء، من بيت زاحم الأيوان وأزاح عن رتبته كيوان، وأسس على خيط المجرة بيت علاه، ولبس من حلية الشفق والأصيل حلاه، ولم يزل منذ [كان] في سن اللبون يصول صولة البزل القناعيس، ولا يقنع إلا أن يكون في أول العيس، فطالما حصل الفوائد الغزار، وحلل الفراقد، وقد سلبت من جفنه الغرار، وبات الليالي في طلب العلم لم يطعم غمضاً، ولا شام لغير سنى الصباح إلى الصباح ومضا.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان جيد الفطرة، حسن الرأي، جميل الصورة، مفرط الذكاء، محمود الطريقة، معتنياً بالطب، اشتغل على أبيه وأطلعه على كثير من أسرار هذه الصناعة وعملها، وكان الناصر أبو عبد الله يرى له ويحترمه، ويعرف مقدار علمه ويثق به، وروي أنه لما خرج إلى حضرة مراكش احتاج في نفقة سفره إلى عشرة آلاف دينار، فلما حضر لدى الناصر شكر سالف إحسانه وإحسان سلفه إليه وإلى سلفه ثم قال: وبيدي مما سلف ووصل إلى أبي من انعامكم ما يغنيني مدة حياتي، وإنما أتيت لأكون في الخدمة كما كان أبي وأجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه بين يدي أمير المؤمنين. فأكرمه كثيراً وأطلق له مالاً جزيلاً وخوّله في النعم الجمة، وأجلسه في مجلس أبيه وكان قريباً منه.

حكى القاضي أبو مروان الباجي عنه قال: كنت يوماً معه وإذا به قد قال: إنني رأيت البارحة أختي، /٣٢٨/ وكانت أخته قد ماتت، قال: فقلت لها: بالله عرفيني كم يكون عمري، فقالت طابيتين ونصف، والطابية هي الخشب يكون طولها عشرة أشبار تتخذ للبناء، قال: فقلت لها: أنا أقول لك الجد، وأنت تجيبيني بالهزو، فقالت: لا والله ما قلت إلا جداً، وإنما أنت ما فهمت، أليس أن الطابية عشرة أشبار، فانظر إلى الطابتين ونصف، خمسة وعشرين شبراً فيكون عمرك خمسة وعشرين سنة.

قال القاضي أبو مروان: فقلت له لا تتوهم من هذا، فلعله أضغاث أحلام قال: فلم تكمل تلك السنة إلا وقد مات، فكان عمره كما قال لم يزد، ولم ينقص. خلف

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٢٨ـ ٥٣٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٢٩.

ولدين كل منهما فاضل في نفسه، كريم في أبناء جنسه، وهما عبد الملك، وأبو العلاء. ولأبي العلاء نظر جيد في كتب جالينوس وصناعة الطب وكانا بإشبيلية.

قلت: كانا علمي طرازها، وآيتي إعجازها على سن شبيبة، ووقت اشتغالي بحبيب أو حبيبة.

ومنهم:

[١١٧]

أبو جعفر بن الغزال(١)

من أهل المرية، تغرب عن الأوطان حتى تقرب إلى السلطان، وباشر في الخدم أخلها، وحصل من النعم جلَّها، فكان واسطة العقد، ولاقطة المنهل العِد، وحل محل الثقة من خليفته، وكان مكان المقة في وظيفته؛ لفضائله التي ثبتت عند إمامه، وأوجبت له أن يتسلم عقد زمامه، فعلا رتبةً، وامتدت إليه الأيدي رغبة.

ذكره ابن أبي أصيبعة(٢): قرأ على الحفيد ابن زهر وعلى غيره وأتقن الطب، وخدم المنصور به وكان خبيراً بالمفردات، وكان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المفردة والمعاجين، ويتناولها منه، وكان المنصور قد أبطل الخمر، وشدد فيه، ثم إنه أمر ابن الغزال أن يجمع حوائج الدرياق ويركبه، فجمعها ثم أعوزه الخمر لعجنه، فأنهى ذلك إلى المنصور فقال تطلبه من كل ناحية، وانظر لعله أن يكون عند أحد ولو شيء يسير فتطلَّبه فلم يجد شيئاً منه، فأعلم المنصور فقال: والله ما كان بي تركيب الدرياق / ٣٢٩/ في هذا الوقت إلا لاعتبر هل بقي عند أحد من الخمر شيء أم لا.

ومنهم:

[١١٨]

أبو العباس ابن الرومية، وهو أحمد بن محمد بن مفرج النباتي(٣)

من أهل اشبيلية جوال في كل تنوفة، وجواب لكل مخوفة، نزل بكل أرض مخيماً، وراد أيما، عشب وأيما وطالما جنى النبات وجاء منها بالبينات، وشخصها بأشخاصها، وبيّن ما بين عامها وخاصها فعلا محلاً، وطاف كالسحاب، فلم يدع محلاً.

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٦.

(٢) عيون الأنباء ٥٣٦.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٨.

قال ابن أبي أصيبعة[١] : من أهل إشبيلية، ومن أعيان علمائها، وأكابر فضلائها وقد أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها واختلاف أوصافها، وتباين مواطنها، وله الذكر الشائع، وحسن الوصف الجامع، قد شرف نفسه بالفضائل وسمع الحديث وانتفع الناس به، وأتى مصر والشام وعاين فيها نباتاً كثيراً لا ينبت بالمغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها، ونظرها في مواضعها، ولما قدم الإسكندرية كان الملك العادل بن أيوب بالقاهرة فاستدعاه وأكرم ملتقاه وأراده على الإقامة عنده، فقال: إنما أتيت، لأحج ثم أعود إلى بلدي وأهلي وولدي، ثم قضى فريضة حجه وعاد.

ومنهم:

[١١٩]

ابن الأصم[٢]

وهو ابن الأصم إلا أنه كان أسمع، وانعقد عليه التفضيل وأجمع، وكان يكرم أبا، ويعد منه والداً. لو كان من الشهور لكان رجبا، إلى طب طالما صاد به المنون، وصاد ما لم تجله الظنون، وانتاش مهجة لم يبق منها إلا آخر الذماء، ورد مرضاً لم يطل زاخر الدماء، وكانت اشبيلية به في حلل المفاخر تختال، وتكف بأس من يغتال، وتتيه بنسبته إليها، وسمته التي دلت دليل نسيم السحر عليها.

قال ابن أبي أصيبعة[٣] : هو من الأطباء المشهورين بإشبيلية، وله قوة نظر في الاستدلال على الأمراض ومداواتها، وله حكايات مشهورة ونوادر في معرفته بالقوارير وأخباره عندما / ٣٣٠/ يراها بجملة حال المريض وما يشكوه وما قد تناوله من الأغذية.

حدثني أبو عبد الله المعري قال: كنت يوماً عند ابن الأصم وإذا بجماعة قد أقبلوا إليه ومعهم رجل وفي فمه حية قد دخل بعضها مع رأسها في حلقه وبقيَّتها ظاهرٌ، وهي مربوطة بخيط قنب إلى ذراع الرجل فقال لهم: ما شأن هذا؟ فقالوا له: إن من عادته أن ينام وفمه مفتوح، وكان قد أكل لبناً ونام فلما جاءت هذه الحية، لعقت من فيه، ودخلته وهو نائم، فأحست بمن أتى، فخافت وانساب بعضها في حلقه، وأدركناها فربطناها بهذا الخيط؛ لئلا تدخل في حلقه، وقد أتينا به إليك، فلما نظر إلى ذلك الرجل، وجده في الموت من الخوف فقال: لا بأس عليك، كدتم تهلكون الرجل ثم قطع الخيط

(١) عيون الأنباء ٥٣٨.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٨ـ ٥٣٩.

(٣) عيون الأنباء ٥٣٨.

فانسابت الحية وبلغت إلى جوفه واستقرت فقال له: الآن تبرأ وأمره أن لا يتحرك، وأخذ أدوية وعقاقير فأغلاها في الماء غلياً جيداً، وجعل ذلك الماء في إبريق وسقاه الرجل وهو حار فشربه، وصار يجس معدته حتى قال: ماتت الحية، ثم سقاه ماء آخر مغلي فيه حوائج، وقال هذه تهري الحية مع هضم المعدة. وصبر مقدار ساعتين وسقاه ماءً آخر قد أغلى فيه أدوية مقيئة، فجاشت نفس الرجل وذرعه القيء، فعصب عينيه وبقي يتقيأ في طست، فوجدنا تلك الحية وهي قطع، وهو يأمره بكثرة القيء حتى تنظف معدته، وخرجت بقايا الحية، وقال له: طب نفساً فقد تعافيت، وذهب الرجل مطمئناً صحيحاً بعد أن كان في حالة الموت.

* * *

[أطباء مصر]

أما أطباء مصر:

فمنهم:

[١٢٠]
بلطيان[١]

وهو رجل مشهور في النصارى، معروف بينهم، معدود في بطاركتهم. طبيبٌ تدارك النفوس، وسيوف المنايا تنوشها، ومواقيت الآمال قد قدمت لها نعوشها. رأس في / ٣٣١/ ملته، وكان رئيس محلته؛ لخلال حمدت، وأفضال شعلة ما خمدت، وكان من أئمة العيسوية وذوي القسمة بالسوية، إلى صحة حدس، وذكاء نفس، وكرم في عشيره، وشيم بالتقلل مشيرة.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: كان نصرانياً من الملكية عالماً بشريعة النصرانية، وجعل بطرك الإسكندرية. حكى أنه كان للرشيد جارية مصرية كان يحبها، فاعتلت علة عظيمة، فعالجها الأطباء، فلم تنتفع بشيء، فقيل له: لو بعثت إلى عاملك بمصر ليبعث إليك بطبيب منها؛ فإنه أبصر بهذه الجارية من أطباء العراق، فكتب إليه فبعث إليه ببلطيان وكان طبيباً عارفاً حاذقاً، فأخذ معه من كعك مصر والصير المعمول بها، فلما أتى بغداد، ودخل على الجارية أطعمها من الكعك والصير، فرجعت إلى طبعها وزالت عنها العلة، ووهب له الرشيد مالاً جزيلاً، وكتب له منشوراً بإعادة كل كنيسة تغلب اليعاقبة فيها على الملكية، ثم أمر بأن يكون يُحمل مثل هذا من الكعك والصيرالى خزانة السلطان في كل وقت، فكان لا يزال يحمل موظفاً فيما يحمل إليها إلى آخر أيام المتوكل.

ومنهم:

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٤٠.

[١٢١]

سعيد بن توفيل[1]

جمرة تشتعل توقداً، وجملة لا يضم إليها إلاَّ فرقداً. سعى للعلم سعيه، وأوعاه وعيه. حظي بالخدم، وحل حيث لا تنصب الخيم، إلاَّ أن الايام قلبت له ظهر المجن، وحققت له خلاف ما ظن، فأفلتت رداءه، وأشمتت به أعداءه، ولم يجن ذنباً سوى نصحه الذي حمل على الغش، وقتل عقاباً به جانيه عليه ولم يعش.

قال ابن أبي أصيبعة[2]: كان طبيباً نصرانياً يخدم ابن طولون ولا يفارقه، فلما أدركت ابن طولون الهيضة التي مات بها، طلبه فلم يجده إلاَّ بعد يومين فعنفه، ثم قال له: ما الصواب؟ قال: أن لا تقرب غداءً، قال: أنا والله جائع وما أصبر، فقال له: هذا جوع كذاب لبرد المعدة، فلما نصف / ٣٣٢/ الليل استدعى بشيء يأكله فجيء بفراريج كردماج حارة، وبزماورد من دجاج، وجدي باردة، فأكل منها فانقطع الإسهال عنه، فخرج نسيم الخادم وسعيد في الدار، فقال له: أكل الأمير فخف عنه القيام، فقال سعيد: الله المستعان ضعفت قوته الدافعة بقهر الغذاء لها وستتحرك حركة منكرة. فما وافى السحر حتى قام قياماً كثيراً، وخرج من أنطاكية وعلته تتزايد، ثم أتى مصر على عجلة تجر بالرجال، فلما أتى الفرما، شكا انزعاجاً، فركب الماء إلى الفسطاط، وضربت له بالميدان قبة نزل فيها، ثم ظهرت منه لسعيد بن توفيل نبوة، وشكاه إلى كاتبه إسحاق بن إبراهيم، فأخذ يلوم ابن توفيل فقال: والله ما خدمني إلا خدمة الفأر السنور، والسخلة الذئب. قال نسيم الخادم وكان ابن توفيل آيساً من حياته؛ لأن ابن طولون امتنع من مشاورته، ويعتقد فيه انه فرط في أول أمره، وجيء بفاكهة من الشام، فقال له: ما تقول في السفرجل؟ فقال: تمص منه على خلو المعدة، فلما خرج سعيد من عنده، أكل سفرجلاً عقيب عصيدة كان قد أكلها على غير رأي سعيد فعصرها، فتدافع الإسهال فدعا به، ثم قال: يا ابن الفاعلة قلت إن السفرجل نافع لي وقد عاد الإسهال، فقام فنظر المادة، ورجع إليه، فقال: هذه العصيدة التي حمدتها، وقلت: إني غلطت في منعها عصرها السفرجل، وأنا ما أطلقت لك السفرجل، وإنما أشرت بمصهن فقال: يا

---

(١) توفي سنة ٢٦٩هـ وقيل ٢٧٩هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤١ـ ٥٤٤، حسن المحاضرة ١/ ٢٥٨، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ٧٣، أعلام الحضارة ١/ ٤٥٠ رقم ٢٣٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٤١ـ ٥٤٢.

ابن الفاعلة تريد تحجني وأنت صحيح سوي، وأنا عليل مدنف، ثم ضربه مائتي سوط، وطاف به على جمل ونودي عليه: هذا جزاء من أؤتمن فخان، وأمر ببيته فنهب، ثم لم يعش سعيد بعد ذاك إلاّ يومين ومات.

[١٢٢]
سعيد بن البطريق(١)

طبيب طالما خلص الأجسام من دائها، واستل النفوس من أعدائها، مع علم بشريعته، وعمل حسن في شيعته، /٣٣٣/ إلاّ أنه لم تصف له موارد الأيام، ولم ينصف على عوائد الأنام، وبُلي باختلاف قومه، وما برحوا في شقاق ولا صحوا من سكرة إشفاق، ولم يزل عُودهم معه في التواء، وعَودهم إليه بغير استواء، هذا ولم يكن غِرّاً، ولا أرى وجوه التجارب إلاّ غُرّاً، مع سعة اطلاع كأنما أشرف عليه من عالي التلاع، واضطلاع قل أن حنيت عليه خبايا أضلاع، ويد ما قصرت في ضبط، ولا غرب عنها في قِطّ قط، ولكنها الأيام وعاداتها، ومواهبها واستعاداتها.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان من أهل مصر، وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعملها، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبها، ثم صير في أول يوم خلافة القاهر بطرك الإسكندرية، وكان في زمانه شقاق عظيم، وشر متصل بينه وبين شيعته، وله تصانيف كثيرة، وتواريخ محررة، ولحقه إسهال مات به بالاسكندرية.

ومنهم:

[١٢٣]
التميمي، وهو أبو عبد الله، أحمد بن سعيد(٣)

جادة إحسان، ومادّة بقاء لإنسان، عرف الأدوية لطول ما ألفها، وركّب مفرداتها

---

(١) سعيد بن البطريق: طبيب مؤرخ، من أهل مصر، ولد بالفسطاط سنة ٢٦٣هـ/ ٨٨٧م، وأقيم بطريركاً في الإسكندرية وسمي أنتيشيوس (Entychius) سنة ٣٢١هـ. وهو أول من أطلق اسم «اليعاقبة» على السريان الذين اتبعوا تعاليم يعقوب البرادعي المتوفى سنة ٥٧٨م. له: «نظم الجوهر ـ ط» في التاريخ، و«الجدل بين المخالف والنصراني» و«علم وعمل» كناش في الطب. توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٥ـ ٥٤٦، حسن المحاضرة ١/ ٢٥٨، آداب اللغة العربية ٢/ ٢٠٠، معجم المؤلفين ٤/ ٢٢١، الأعلام ٣/ ٩٢، اكتفاء القنوع ٧٧ـ ٧٨، أعلام الحضارة ١/ ٤٤٩ـ٤٥٠ رقم ٢٢٩ وفيه قائمة بمصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٥٤٥.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٦ـ ٥٤٨ وفيه اسمه: «محمد بن سعيد..» أخبار العلماء ١٠٥، وفيه اسمه: «محمد بن أحمد بن سعيد».

وألّفها، وجناها من رؤوس الشجر ومما يعرشون، ويبسطون من الأرض ويفرشون، إلى اتقان لقواعد الطب وأصوله، وعوائد المستطب في العام وفصوله، حتى أنه إليه المرجع وعليه الاعتماد في كل دواء ينجع.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال[١]: كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيه، وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته، وكان متميزاً في صناعة الطب، والاطلاع على دقائقها، وله خبرة بتركيب المعاجين والأدوية المفردة، واستقصى معرفة الدرياق الكبير الفاروق وتركيبه، وركب منها شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة، وانتقل إلى مصر وأقام بها حتى مات.

قال ابن القفطي[٢]: إن التميمي هو الذي / ٣٣٤/ أكمل الدرياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات، وكان خصيصاً بالحسن بن عبد الله بن طغج صاحب الرملة، وعمل له معاجين ولخالخ طبية، وأنواع دخن دافعة للوباء، وركب سفوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة، وكان يذكر أنه نقله عن راهب كان بالقدس فاضلاً في الحكمة والطب، أدرك الدولة العلوية بمصر، وصحب يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز، ولقي الأطباء بمصر وناظرهم.

وحكى عن أبيه أنه سكر مرة سكراً مفرطاً غلب على عقله، فسقط في بعض الخانات من موضع عال إلى أسفل الخان، وهو لا يعقل، فحمله صاحب الخان وخدمه حتى أدخله الحجرة التي كان ساكنها، فلما أصبح قام وهو يجد وجعاً ووهناً في مواضع من جسده، ولا يعرف لذلك سبباً فركب، وتصرف في بعض أموره إلى أن تعالى النهار ثم رجع فقال لصاحب الخان: إني وجدت في جسدي وجعاً وتوهناً شديداً لست أدري ما سببه، فقال صاحب الخان: ينبغي أن تحمد الله على سلامتك، قال من ماذا؟ قال: أوما علمت ما نالك البارحة؟ قال: لا، قال: فإنك سقطت من أعلى الخان إلى أسفل وأنت سكران، قال: ومن أي موضع؟ فأراه الموضع، فلما رآه حدث به للوقت من الوجع الضربان ما لم يجد معه سبيلاً إلى الصبر، وأقبل يصيح ويتأوه إلى أن جاءوه بطبيب ففصده وشد على مفاصله المتوهنة جباراً، وأقام أياماً كثيرة إلى أن برىء وذهب عنه الوجع.

أقول: ومما يناسب هذه الحكاية أن بعض الناس كان في بعض أسفاره في مفازة ومعه رفقة له، فنام في منزلة نزلها في الطريق ورفقته جلوس، فخرجت حية من بعض النواحي فصادفت رجلاً فنهشته فيها وذهبت، وانتبه مرعوباً من الألم وبقي يمسك رجله ويتأوه منها، فقال له بعضهم: ما عليك مددت رجلك بسرعة، وقد صادفت رجلك

---

(١) عيون الأنباء ٥٤٦.

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٠٥.

شوكة في هذا / ٣٣٥/ الموضع الذي يوجعك، وأظهر له أنه أخرج الشوكة، وقال: ما بقي عليك بأس، وسكن عنه الألم بعد ذلك ورحلوا، فلما كان بعد عودهم بمدة وقد نزلوا في تلك المنزلة قال له صاحبه: أتدري ذلك الوجع الذي عرض لك في هذا الموضع من أي شيء كان؟ فقال: لا، فقال: إن حية ضربتك في رجلك، ورأيناها وما أعلمناك، فعرض له في الوقت ضربان قوي في رجله، وسرى في بدنه إلى أن قرب من قلبه، وعرض له غشي، ثم تزايد به إلى أن مات، وكان السبب في ذلك أن الأوهام والأحداث تؤثر في البدن تأثيراً قوياً، فلما تحقق أن الآفة التي عرضت له كانت من نهشة الحية، تأثر [من] ذلك وسرى ما كان في ذلك الموضع من بقايا السم في بدنه، ولما وصل إلى قلبه أهلكه.

قلت: ومن نسبة ما حكى عن أبيه ما شاهدته بعيني سنة ست وسبعمائة وذلك: أنه كان عندنا صغير في سطح الدار يلعب وبيده تفاحة، فجعل يلقيها من يده، ثم يجري وراءها ويأخذها، وألقاها مرة فتدحرجت وجرى هو خلفها فوقعت من طاقة في السطح معدة لرمي الثلج ترمي إلى الطريق علوها عن الأرض يقارب عشرين ذراعاً، واستمر هو جارياً خلفها ليأخذها فوقع من ذلك العلو إلى الأرض قائماً على قدميه، واستمر جارياً خلف التفاحة حتى أخذها، ولم يضره شيء البتة. وكان سداسي السن، وكنت قريباً من سنه، وأنا أشاهده وأنا على باب الدار فسبحان الله اللطيف بخلقه.

ومنهم:

[١٢٤]

ابن الهيثم، وهو أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم البصري ثم المصري(١)

رجلٌ أخذ الفرائد فنظمها والفوائد فأجلّها قدراً في الصدور وعظمها، بطَرف طموح، وطِرف تحت عقد بنانه جموح، فأثبت الغرر، وأنبت الدرر، وصاغ النجوم وأشباهها، وتبجس فحكى الغيوم وأمواهها، / ٣٣٦/ لفضائل حصلها من الصغر،

---

(١) محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي: مهندس من أهل البصرة، يلقب ببطليموس الثاني، ولد سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥؛، له تصانيف في الهندسة، بلغ خبره الحاكم الفاطمي (صاحب مصر) ونقل إليه قوله: لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في حالتي زيادته ونقصه؛ فدعاه الحاكم إليه، وخرج للقائه، وبالغ في إكرامه، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل، فذهب حتى بلغ الموضع المعروف بالجنادل (قبلي مدينة أسوان) فعاين ماء النيل واختبره من جانبيه، وضعف عن =

وورد منها أصفى المناهل، ولم يعرف الصدر، فبقيت كتبه قدوة للمتأمل، وجلوة مثل الصباح المتهلل.

قال ابن أبي أصيبعة[(١)]: أصله من البصرة، ثم انتقل إلى مصر، فأقام بها إلى آخر عمره، وكان فاضل النفس، قوي الذكاء، مفنناً في العلوم، وكان كثير التصنيف، ظاهر الزهد، ولخص كثيراً من كتب أرسطو وجالينوس، وشرح العويص، وكان حسن الخط، جيد العربية.

حكى أنه كان قد وزر بالبصرة ونواحيها، فمنعته عن النظر، فآثر التجرد ليتوفر على العلم، فأظهر خبالاً في عقله، وتغيراً في تصوره حتى تمكن من مراده، ثم أتى مصر وأقام بالجامع الأزهر، ثم كان يكتب إقليدس، والمجسطي، ويتقوت بالثمن.

= الإتيان بشيء جديد في هندسته، فاعتذر بما لم يقنع الحاكم، فولاه بعض الدواوين فتولاها خائفاً، ثم تظاهر بالجنون، فضبط الحاكم ما عنده من مال ومتاع وأقام له من يخدمه. وقيد وترك في منزله. فلم يزل إلى أن مات الحاكم، فأظهر العقل، وخرج من داره، فاستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، وأعيد إليه ماله، فانقطع للتصنيف والإفادة إلى أن توفي نحو سنة ٤٣٩هـ/ نحو ١٠٣٧م، وكتبه كثيرة تزيد على سبعين، منها «المناظر ـ خ» نُشرت ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢م، وكان لها ـ كما يقول سوتر H. Suter ـ أثر بالغ في تعريف الغربيين بهذا العلم في العصور الوسطى. ومن كتبه «كيفية الإظلال» ترجم إلى الألمانية ونشر بها مختصراً، و«تهذيب المجسطي» و«الشكوك على بطليموس ـ خ» رسالة، و«الأخلاق» رسالة، قال البيهقي: ما سبقه بها أحد، و«مساحة المجسم المتكافىء» نشر بالألمانية، و«الأشكال الهلالية ـ خ» و«تربيع الدائرة ـ خ» و«شرح قانون إقليدس ـ خ» و«مساحة الكرة ـ خ» و«المرايا المحرقة» ترجم إلى الألمانية ونشر بها، و«تفسير المقالة العاشرة لأبي جعفر الخازن» و«ارتفاعات الكواكب» الخ. ولمصطفى نظيف كتاب «الحسن بن الهيثم ـ ط».

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٥٠ـ ٥٦٠، تاريخ الزمان لابن العبري ٨١، وتاريخ مختصر الدول ١٨٢ـ ١٨٣، ٢٣٨، وكشف الظنون ١٣٨٩، وإيضاح المكنون ١/ ٢٣، ٩٣، ٢٢٦، ٢٩٢، ٣١١، ٣١٥، ٣١٨، ٢/ ٢٨٥، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٧، ٤٣١، ٥٥٩، ٦٧٥، وتاريخ فلاسفة الإسلام للطفي جمعة ٢٦٧ـ٢٧٤، وتاريخ فلاسفة الإسلام لدي بور ١٨٩ـ١٩٥، وعقود الجوهر لجميل العظم ١٥٤ـ١٦١، وفي أدب مصر الفاطمية لكامل حسين ٧٨ـ٨٢، والخالدون العرب لقدري طوقان ١١٧ـ١٢٦، والأعلام ٦/ ٣١٤، وهدية العارفين ٢/ ٦٦ـ ٦٧، ومعجم المؤلفين ٩/ ٢٢٥ـ ٢٢٦، ودراسات في حضارة الإسلام لدي بور ١٨٩ـ ١٩٥، ودراسات في حضارة الإسلام لهاملتون جب ٢٥، وحضارة الإسلام لجوستاف جرنباوم ٣٤٧ـ ٣٤٨، والعرب والعلم للدكتور توفيق الطويل ٣٣ـ٣٧، وشمس الله على الغرب لسيغريد هونكه ١٠٧ـ ١١٣، والأعلام ٦/ ٨٣ـ ٨٤، وتاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١ـ٤٣٠هـ) ص٣١١ رقم ٣٩١.

(١) عيون الأنباء ٥٥٠.

وقيل: إنه بلغ الحاكم أنه كان يقول: لو كنت بمصر، لعملت في النيل عملاً يحصل به النفع في كل حال من حالاته من زيادة ونقص، فاستدعاه ومشى عليه، فلم يجد أنه يتم له ما أراده، فعاد خجلاً، واعتذر إلى الحاكم بما قبل منه ظاهره، ثم إنه ولاه بعض الدواوين، فوليها رهبة لا رغبة، ثم تحقق غلطه إذ قيل لكثرة استحالة الحاكم، وإقدامه على سفك الدماء، فلم يجد طريقاً إلاَّ معاودة الجنون، فاحتيط على موجوده، وقيد ووكل به من يخدمه ويقوم بمصالحه، فلما مات الحاكم أظهر العقل، وعاد إلى ما كان عليه، وأعيد عليه ماله، فاستوطن قبةً على باب جامع الأزهر ملازماً وظائف الاشتغال والإفادة والتصنيف حتى مات.

ومنهم:

[١٢٥]
علي بن رضوان(١)

رجلٌ كان جمال إيوان، وكمال ديوان، ورئيس قوم، ورأس ذكر باق إلى اليوم، طالما أخليت له المجالس، وخليت الصدور له ولمن يجالس، فطال في الدولة الفاطمية ذيلاً، ومال به الدهر ميلاً، وحصل من أولئك الكرام المرام، وبلغ لديهم غاية الاحترام، وفضائله / ٣٣٧/ تقول هل من مزيد، وتتدفق فوق بردى ويزيد، حتى آن أن يخلق رداء مفاخره، وينتهي كل شيء إلى آخره.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): مولده ومنشؤه بمصر، وبها تعلم الطب. وحكى أنه قال:

---

(١) علي بن رضوان بن علي بن جعفر، أبو الحسن المصري: طبيب، رياضي، من العلماء، من أهل مصر، كان أبواه فراناً، وارتقى هو بعلمه، فاتصل بالحاكم، فجعله رأساً للأطباء. قال ابن تغري بردي: هو من كبار الفلاسفة في الإسلام. له تصانيف كثيرة، فيها المترجم والموضوع، منها «حل شكوك الرازي على كتب جالينوس» و«المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع» و«التوسط بين أرسطو وخصومه» و«كفاية الطبيب ـ خ» و«دفع مضار الأبدان ـ ط» رسالة، و«النافع ـ خ» في الطب، و«أصول الطب ـ خ». توفي سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦١ـ ٥٦٧، وتاريخ الحكماء ٤٤٣ـ ٤٤٤، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٣٣١ـ٣٣٤، والعبر ٣/ ٢٢٩، والإعلام بوفيات الأعلام ١٨٧ـ١٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ١٠٥ـ ١٠٦ رقم ٥٠، والنجوم الزاهرة ٥/ ٦٩، وعقود الجواهر ١٦١ـ١٦٦، وشذرات الذهب ٣/ ٢٩١، وكشف الظنون ١٥٩٦، وهدية العارفين ١/ ٦٨٩ـ ٦٩٠، آداب اللغة العربية ٣/ ١٠٥، والمقتبس ٢/ ٣٤٥، والأعلام ٤/ ٢٨٩، وأعلام الحضارة العربية والإسلامية ٢/ ٩٧ وفيه مصادر ترجمته، وإيضاح المكنون ١/ ٤٧٤، والفهرس التمهيدي ٥٣٣ـ٥٣٩، ومعجم المؤلفين ٧/ ٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٤١ـ٤٦٠هـ) ص ٣٥٤ رقم ٨٨.

(٢) عيون الأنباء ٥٦١.

أخذت في تعلم الطب، ولم يكن لي مالٌ أنفق منه، فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة.

قال: إنه ولد بالجيزة، وكان أبوه فراناً، ولم يزل ملازماً للاشتغال والنظر في العلم إلى أن تميز، وصار له الذكر الحسن والسمعة العظيمة على سفهه وإزرائه بالعلماء، وخدم الحاكم وجعله رئيساً على الأطباء، ثم أخذت يتيمة كان رباها مالاً جليلاً كان له نحو عشرين ألف درهم وهربت به فاختل عقله.

ومنهم:

[١٢٦]

أفرايم الإسرائيلي[١]

طبيب صفت له المشارب، وصحت معه التجارب، واتصل بالدولة الفاطمية اتصال اليد بالعنان، وطال بها طول الرمح بالسنان، وكان منها مكان الشجاعة من الجنان، وقر لديها استقرار الخاتم في البنان، فأحرج البيوت بما خزن، وطاول الجبل أو وزن، ثم جاءته منيته، وقرعت بصفاء اللحود ثنيته.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر، وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم، وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئاً كثيراً وكان قد قرأ صناعة الطب على أبي الحسن علي بن رضوان وهو من أجل تلامذته، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكانت أبداً عنده النساخ يكتبون، ولهم ما يقوم بكفايتهم منه ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام الحجري، وهو المعروف بابن ملياقة، ووجدت بخط هذا عدة كتب، وعليها خط افرايم.

وحدثني أبي أن رجلاً من العراق، وكان قد أتى إلى مصر ليشتري كتباً ويتوجه /٣٣٨/ بها وأنه اجتمع بإفرايم واتفق الحال فيما بينهما أنه باعه إفرايم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلدة، وكان ذلك في أيام الأفضل ابن أمير الجيوش، فلما

---

(١) أفرائيم بن الحسن بن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي، طبيب، قرأ الطب على علي بن رضوان في مصر.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٧ـ ٥٦٨، معجم المؤلفين ٢/ ٣٠٨، أعلام الحضارة ١/ ١٧٧ـ١٧٨، وفيه قائمة بمؤلفاته.

(٢) عيون الأنباء ٥٦٧.

سمع بذلك أراد تلك الكتب تبقى بالديار المصرية، ولا تنتقل إلى موضع آخر، فبعث إلى إفرايم من حمل إليه الأموال التي كان الاتفاق من الثمن بين أفرايم والعراقي عليها، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها القابه، ثم خلف من الكتب ما يزيد على عشرين ألف أخرى، ومن الأموال والنعم شيئاً كثيراً.

ومنهم:

[١٢٧]

سلامة بن رحمون(١)، أبو الخير

قِرنٌ يمل المصاع، ولا يكايل بالمُدِّ والصاع، فكان لو عَوّقه في طريقة جبل لاقتلعه، أو أشرقه بريقه أسد لابتلعه، إلاَّ كدية عرضت له فلم يستطع صعود ذروتها، ولا قدر على ارتقاء صفاها ولا مروتها، فباء بخجلته، وبقي تحت مذلة مضلته.

قال ابن أبي أصيبعة(٢): كان يهودياً له أعمال حسنة، واطلاع على كتب جالينوس، والبحث عن غوامضها، ولما وصل أبو الصلت إلى مصر اجتمع به وجرت بينهما مباحث ومشاغبات.

وقد ذكره أبو الصلت في رسالته المصرية قال: وأشبه ما رأيته منهم وأدخلته في عدد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون، فإنه لقي أبا الوفاء المبشر بن فاتك، وأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصص بها، وتميز على أضرابه، وأدرك أبا كثير بن الزمان تلميذ أبي الحسن ابن رضوان، فقرأ عليه بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس جميع المنطق، وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية، وشرح بزعمه وفسر ولخص، ولم يكن هناك تلخيصه وتحقيقه واستقصاؤه عن لطيف العلم ودقيقه، بل كان /٣٣٩/ يكثر كلامه فيضل، ويسرع جوابه فيزل. ولقد سألته أول لقائي به واجتماعي به عن مسائل استفتحت مباحثته بها مما يمكن أن يفهمها

---

(١) سلامة بن مبارك بن رحمون بن موسى المصري اليهودي، طبيب مصري، تتلمذ على المبشر بن فاتك، واجتمع مع أمية بن عبد العزيز أبي الصلت وكانت بينهما خصومة، واطلع على كتب جالينوس واشتغل بالمنطق والعلوم الحكمية وصنف كتباً منها: «نظام الموجودات» ومقالة في «العلم الإلهي» ومقالة عن «خصب أبدان النساء بمصر عند تناهي الشباب»، توفي سنة ٥٣٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٨ـ ٥٦٩، أخبار العلماء ٢٠٩، الرسالة المصرية ٤١، الأعلام ٣/ ١٠٧، وإيضاح المكنون ٢/ ٦٥٦، وأعلام الحضارة ١/ ٤٦٠ رقم ٢٣٧.

(٢) عيون الأنباء ٥٦٨.

من لم يكن يمتد في العلم باعه، ولم يكثر تبحره واتساعه، فأجاب عنها بما أبان عن تقصيره، ونطق بعجزه، وأعرب عن سوء تصوره وفهمه، وكان مثله في عظم دعاويه، وقصوره عن أيسر ما هو متعاطيه كقول الشاعر: [من المتقارب]

يُشَمِّرُ لِلُّجِّ عَنْ ساقِهِ ويغمره الموجُ في الساحلِ

أو كما قال الآخر: [من المتقارب]

تمنيتُمُ مائتي فارسٍ فَرَدَّكُمُ فارسٌ واحدُ

قال أبو الصلت: وكان بمصر طبيب من أهل أنطاكية يسمى بجرجس ويلقب بالفيلسوف على ما قيل في الغراب: أبو البيضاء، وفي اللديغ: سليم، قد تفرغ بالتولع بابن رحمون والإزراء عليه، وكان يزور فصولاً طبية وفلسفية ويقررها في معارض ألفاظ القوم، وهي محال لا معنى لها، وفارغة لا فائدة منها، ثم إنه: ينفذها إلى من يسأله عن معانيها، ويستوضحه أغراضها، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ باسترسال واستعجال، وقلة اكتراث واهتبال، فيوجد فيها عنه ما يضحك منه.

وأنشدت لجرجس هذا عنه وهو أحسن ما سمعته: [من السريع]

إنَّ أَبا الخَيرِ على جَهْلِهِ يَخِفُّ في كِفَّتِهِ الفاضِلُ
عليلُهُ المِسكينُ مِنْ شُؤمِهِ في بَحرِ هُلْكٍ ما لهُ ساحلُ
ثلاثةٌ تدخلُ في دفعةٍ طلعتُهُ والنعشُ والغاسلُ

ومنهم:

[١٢٨]

بلمظفر ابن معرِّف، وهو أبو المظفر، نصر بن محمود بن المعرِّف[1]

عالم بأسرار الطبيعة، وعارف بأخبار الشريعة، وفاضل كاد يحوز الفضل جميعه، وكان محباً لكثرة الثراء، ومبلّلاً بثرى تربته الخضراء، لا يعدل /٣٤٠/ شيء عنده نعمة الغنى، ولا يصرف إلى غيرها همّة المنى، وعانى الصنعة، فلم يبتل له منها عود بماء، ولا حصل له صاد الصديق ولا كاف الكيمياء، مع ما أنفق من مال وأخفق من مآل.

ذكره ابن أصيبعة، وأثنى على فضله، وقال[2]: كان مغرماً بصناعة الكيمياء

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٧١.
(٢) عيون الأنباء ٥٧١.

والاجتماع بأهلها، وكتب بخطه كثيراً من الكتب التي صنفت فيها وفي الطب والحكمة. وكانت له همَّة عالية في تحصيل الكتب وقراءتها.

قال: ومن أعجب شيء منه أن كان قد ملك ألوفاً كثيرة من الكتب في كل فن، ولا يوجد شيء منها إلاَّ وقد كتب على ظهره مُلَحاً ونوادر ما يتعلق بالعلم الذي صنف ذلك الكتاب فيه، وقد رأيت كتباً كثيرة من كتب الطب وغيرها كانت له وعليها اسمه، وما منها شيء إلاَّ وعليه تعاليق حسنه، وفوائد متفرقة.

وأنشد من شعره قوله: [من المتقارب]

وقالوا الطبيعةُ مَبْدَا الكيانِ فَيا ليتَ شِعْرِيَ ماذا الطَّبيعَهْ
أَقادرةٌ طَبَعَتْ نفسَها على ذاكَ أمْ ليسَ بالمستطيعهْ

وقوله: [من المتقارب]

وقالوا الطبيعةُ مَعْلُومُنا ونحنُ نُبَيِّنُ ما حَدُّها
ولَمْ يَعرِفُوا الآنَ ما قَبْلَها فكيفَ يَرومُونَ ما بعدَها

ومنهم: أولاد أبي الحوافر:

وكلهم أفاضل أطباء، وأماثل ألبَّاء، خدموا الملوك، وأحسنوا السلوك، ولاطفوا الأمزجة، وشارفوا في العلم أعلى درجة، لو استسقي بهم الحظ العليل لبرىء، أو سُكِّنَ بهم عاصف الريح العقيم لما ذَرَا.

منهم:

[١٢٩]

أبو عمرو، عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي، جمال الدين[١]

[هو الذي شيّد بناء البيت، ومهدّ لمشاهيره الحي منهم والميّت][٢].

---

(١) عثمان بن هبة الله بن أبي الفتح أحمد بن عقيل بن محمد القيسي البعلبكي، جمال الدين: أكبر أطباء عصره، ولي رئاسة الطب مدة بالقاهرة، ولد سنة ٥٤٦هـ في دمشق ونشأ بها، وخدم الملك العزيز (عثمان بن يوسف) وأقام معه في الديار المصرية، فولاه رياسة الطب. ثم خدم الملك الكامل (محمد ابن أبي بكر) وبقي معه إلى أن توفي بالقاهرة في ٢٣ رجب ٦١٩هـ/ ١٢٢٣م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٤ـ ٥٨٥، التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٨٠ رقم ١٨٨٣، أعيان العصر ٣/ ٢١٤ رقم ١٠٧١ وفيه «عثمان بن أحمد بن عثمان»، الوافي بالوفيات ١٩/ ٥١٥ رقم ٥٢٨، تاريخ الاسلام (السنوات ٦١١ـ ٦٢٠هـ) ص٤٥٤ رقم ٦١٤.

(٢) سقط في نسختنا وأتممناه من نسخة أحمد الثالث.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[١]: أفضل الأطباء، وسيد العلماء وله اشتغال بالأدب، / ٣٤١/ وشعره صحيح المباني، بديع المعاني، خدم العزيز بن صلاح الدين، ودام حتى خدم الكامل.

ومنهم:

[١٣٠]
ابنه الفتح[٢]

وكان مثل أبيه، وإن لم يكن مثله فيدانيه.

وقال ابن أبي أصيبعة فيه[٣]: كان نزهة النفس، صائب الحدس، حسن المداواة، لطيف المداراة، فصيح اللسان، كثير الإحسان، خدم الكامل والصالح وفي أيامه توفي بالقاهرة.

ومنهم:

[١٣١]
ابنه المهذب[٤]

زاد على أبيه فضله، وزان عُلا سلفه نبله.

وقال ابن أبي أصيبعة فيه[٥]: جمع بين الفضائل وتميز على الأواخر والأوائل، علامة وقته في حفظ الصحة ومراعاتها، وإزالة الأمراض وعلاجاتها، اقتفى سيرة آبائه، وفاق نظراءه في همته وإبائه: [من الطويل]

ورثَ المَكارمَ مِنْ أبيهِ وجَدِّهِ كالرُّمْحِ أُنبوباً على أُنبوبِ

فأمّا من سواهم.

---

(١) عيون الأنباء ٥٨٤ـ ٥٨٥.

(٢) فتح الدين بن عثمان بن هبة الله أبي الحوافر الدمشقي ثم المصري، الطبيب، من كبار الأطبّاء، يقرب من والده، خدم الملك الكامل بعده إبنه الصالح نجم الدين أيوب، وتوفي في دولته.
وهو والد شهاب الدين طبيب السلطان الملك الظاهر، ورئيس الأطباء في الدولة الظاهرية.
توفي بعد سنة ٦٣٠هـ.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١ـ ٦٤٠هـ) ص٤٦٤ رقم ٧١١.

(٣) عيون الأنباء ٥٨٥.

(٤) المهذب بن عثمان بن هبة الله.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٥ـ ٥٨٦ وفيه اسمه: «شهاب الدين بن فتح الدين».

(٥) عيون الأنباء ٥٨٥.

فمنهم:

[١٣٢]

الخُونَجِي، محمد بن نَامَاوَر[١]، أفضل الدين، أبو عبد الله، قاضي القضاة

تمام الأفاضل، وإمام كل فاضل، ولهذا لقب بأفعل التفضيل، ولقي الود من كل فضيل. إلى علوم شرعية، وعُلوِّ قدر لرتبة مرعية هذا إلى وفور إحسان، وظهور إياد حسان مع سلامة صدر، وسذاجة مفرطة بلا قدر فلم يكن مثل بزه الرفيع السَّاذج، ومَهزَّهُ الرطب عند قضاء الحوائج.

قال ابن أبي أصيبعة فيه[٢]: اجتمعت به ووجدته الغاية القصوى في سائر العلوم، وكان يعرف له انشداد خاطر لكثرة انصباب ذهنه إلى العلم، وتوفر فكره عليه وولي

---

(١) محمد بن نَامَاوَر بن عبد الملك الخُونَجِي.
أبو عبد الله، أفضل الدين: أبو عبد الله الشافعي، القاضي أفضل الدين، عالم بالحكمة والمنطق. فارسي الأصل ولد سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، انتقل إلى مصر، وولي قضاؤها. وتوسع في ما يسمونه «علوم الأوائل» حتى تفرد برياسة ذلك في زمانه، وصنف كتاب «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار ـ خ» في استمبول والقاهرة؛ في الحكمة، و«الموجز ـ خ»، وكتاب «أدوار الحُمَّيَات». توفي في ٥ رمضان ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.
ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة ٥٨٦ـ ٥٨٧، وذيل الروضتين ١٨٢، وصلة التكملة لوفيات النقلة، للحسيني، ورقة ٥٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٩/ ٣٣٠ وفيه: «ناماد» وهو تصحيف، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٢٨ رقم ١٤٦، والعبر ٥/ ١٩١، والوافي بالوفيات ٥/ ١٠٨ـ ١٠٩ رقم ٢١٢١، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ٢٠/ ٢٥، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ٤٣ (٨/ ١٠٥ـ ١٠٦ رقم ١٠٩٧)، وطبقات الشافعية الوسطى، له، ورقة ١٢٦أ، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٠٢ـ ٥٠٣ رقم ٤٦٠، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٥، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٧٣ب، والوَفَيَات لابن قنفذ ٣٢٠ رقم ٦٤٨ وفيه: «محمد بن محمد»، ووفاته سنة ٦٤٨هـ؛ وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٥٦ـ ٤٥٧ رقم ٤٢٥، والمقفّى الكبير للمقريزي ٧/ ٣٢٥ رقم ٣٤١٧، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٦، وحُسْن المحاضرة، له ١/ ٥٤١ رقم ١٥، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١/ ٢٤٦، (وفيه وفاته سنة ٦٤٩هـ/ بدائع الزهور لابن إياس ج١ق١/ ٢٧٦ـ ٢٧٧، وكشف الظنون ٦٠٢، ٤٨٦، ١٩٨٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣٦، وهدية العارفين ٢/ ١٢٣، وذيل تاريخ الأدب العربي ١/ ٨٣٨، والأعلام ٧/ ١٢٢، ومعجم المؤلفين ١٢/ ٧٦، وديوان الإسلام لابن الغزّي ٢/ ٢٢٢، رقم ٨٥٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١ـ ٦٥٠هـ) ص٣٣٠ رقم ٤٤٨.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٦.

قضاء القضاة بمصر وأعمالها.

ومنهم بنو فَاتَه:

أهل بيت تناسقوا في الفضائل، وتناسبوا في كرم الشمائل، وتناسلوا لا تكذب فيهم المخايل كأنما توالدوا من ظهر اقلنينوس، أو تعاقدوا على حَلِّ مشكلات جالينوس. لو جلسوا في رواق أرسطوَ لسطا بهم في النظر، وسما بهم إلاَّ أنه يرضى حيث القمر.

وأولهم:

[١٣٣]

أبو سليمان، داود بن أبي المُنى / ٣٤٢/ بن فاته[١]

وكان في أهل ملته يأوي إلى جناب منيع، ويهمى بسحاب لا يجحد له حسن الصنيع، وهذا إلى فهم ثاقب، وعزم لا يوني في طلب المناقب.

قال ابن أبي أصَّيبعة[٢]: كان طبيباً نصرانياً من أهل القدس حظياً عند الخلفاء، فاضلاً من فضلاء الأطباء، وأخذه الملك ماري من مصر إلى القدس ليقيم عنده به، ولما وقع الفقيه عيسى عنده في الأسر مرض مرضاً أشفي منه، فأمر ماري ابن فاته بمعالجته فلما رآه مثقلاً بالحديد في قعر الجب، قال لماري: هذا رجل ذو نعمة ولو سقيته ماء الحياة على مثل هذه الحالة لم ينتفع به، فأطْلِقه من الحديد والجب، وأكْرِمه فإن ذلك كاف في علاجه، فقال له: هذا عليه قطيعة كثيرة وأخاف أن يهرب، فقال ابن فاته: أيها الملك سلمه إلي وضمانه علي، فقال له: تسلمه، فإذا جاءت قطيعته لك فيها ألف دينار، ثم أخذه إليه وفك حديده، وأخلى له موضعاً من داره وبالغ في إكرامه، فلما مضت ستة أشهر أمره ماري بإحضاره فأحضره، فوجد قطيعته قد جاءت في أكياس فأعطي ابن فاته منها كيساً فيها ألف دينار كما وعده وأطلق سراح الفقيه عيسى، فقال ابن فاته: أيها الملك هذه الألف دينار قد صارت لي، وأتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم؟ قال له: نعم، فأعطاها للفقيه لوقته، وقال له: أنا أعرف أن هذه القطيعة ما جاءت وقد تركت خلفك شيئاً، وربما استدانوا لك فيها، فاقبل مني هذه في نفقة الطريق فقبلها منه.

وكان ابن فاته عارفاً بالنجامة ورأى أن صلاح الدين سيدخل القدس من باب الرحمة فبعث ولده أبا الخير إليه مبشراً بذلك، فأجازه جائزة سنية، وأعطاه عَلَماً أصفر ونشابة لأمانة، فلما دخل صلاح الدين إلى القدس دخل الفقيه عيسى داره، وحماها أن تنال بسوء هي وجميع ما جاورها.

---

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٧ـ ٥٨٩.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٧.

ومنهم ابنه:

[١٣٤]

الموفق، أبو شاكر، موفق الدين[١]

لم يقف عند غاية أبيه وهي نابية، ولم يقف آثاره والسحب وراءها غير متوانية. تشرف بالإسلام، وتعرف بالهدى /٣٤٣/ وعداه الملام، وحظي ممن خدمهم من الملوك بما لم يحظ به من مخدوم وغلام، وقف له مثل العادة في بهجه، وأمطاه من مراكيبه ما ركب منه في غير سرجه.

قال ابن أبي أصيبعة[٢]: قرأ على أخيه أبي سعيد، ثم تميز واشتهر وحظي عند الكامل، وأقطعه ضياعاً وغيرها، وكان يتفقده بالهبات الوافرة والصلات المتواترة، وكان يدخل في جميع قلاعه راكباً لا ينزل، ثم أسكنه عنده بقلعة الجبل، وركبه العادل مرة بغلته التي كانت قد شدت في النوبة له، وركب ووقف بين القصرين ينتظره حتى جاء، ثم أخذ بيده، وجعل يتحدث معه إلى أن أتيا دار الوزارة، وكان العادل يسكنها وهو معه راكب، والأمراء ومن سواهم مشاة في الخدمة.

وفيه يقول ابن منقذ: [من المتقارب]

رأيتُ الحكيمَ أبا شاكر   كثيرَ المُحِبِّ مَعَ الشاكِرِ
خليفةَ بُقراطَ في عَصْرِنا   وثانِيهِ في عِلْمِهِ الباهِرِ

ومنهم:

[١٣٥]

الرشيد أبو حُلَيْقَة، وهو أبو الوحش بن الفارس بن أبي الخير بن أبي سليمان داود بن أبي المُنى بن فاته[٣]

وسبب تسميته بأبي حُلَيقة؛ لأن أباه كان لا يعيش له ولد فقيل لأمه: لو عملت

---

(١) موفق الدين، أبو شاكر بن داود بن أبي المنى بن فاته.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٩ ـ ٥٩٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٩.

(٣) أبو حليقة، رشيد الدين بن الفارس بن داود: الطبيب النصراني، عالم، متأدب، ولد بقرية جعبر (على الفرات قرب الرقة) سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م ونشأ في الرها. وانتقل إلى دمشق، ومنها إلى القاهرة، فاتصل بالملك الكامل فخدمه ثم خدم ابنه الملك الصالح ثم ابنه الملك المعظم ثم الملك الظاهر بيبرس، توفي نحو سنة ٦٦٠هـ/ نحو ١٢٦٢م، وألف عدة كتب، منها «المختار في =

في أذنه حلقةً لعاش فعملتها. والملك الكامل هو الذي سماه بهذا الاسم؛ لأنه طلبه مع غلام، فقال له: من هو من الأطباء؟ فقال: هو أبو حليقة، فعرف بذلك الاسم. وكان مذ كان منقطع القرين، مهيباً لا يقتحم له عرين، معظماً في النفوس، متمماً لمحاسن أهله الشموس، تجله الملوك، وتحله حيث لا يصل إليه سلوك.

قال ابن أبي أصبيعة: بعد الثناء الجميل عليه بالعلم والدين والمروءة(١): إنه ربي بجعبر وكان أبوه يلبسه زي الجند، فدخل الملك الكامل مرة الحمام قريباً من داره، فبعث إليه أبوه معه ماء ورد وأطباق فاكهة فقبلها وملأ أطباقه تفاضيل سنية، ثم دخل به على أبيه الملك العادل، فلما رآه قال: هذا ابن الفارس؛ لأنه عرفه بالشبه، فقال له: نعم، فالتفت إلى أبيه وكان قائماً في الخدمة، قال له: ولدك هذا ولد ذكي لا تعلمه الخدمة فالجند عندنا كثير، وأنتم /٣٤٤/ أهل بيت تبركنا بطبكم، فسيره إلى عمه أبي سعيد إلى دمشق؛ ليقرئه الطب ففعل فمهر، ثم رحل إلى القاهرة وخدم الكامل وحظي لديه وأقطعه، ثم خدم من بعده إلى الملك الظاهر بيبرس على أجمل العوائد.

قال: وكانت له نوادر في العلاج، منها أنه كان يعالج حظية الكامل. كانت معه بالعباسة، ثم عرض للرشيد شغل دخل لأجله إلى القاهرة، وأقام بها ثمانية عشر يوماً، ثم عاد فوجد الأطباء قد ترددوا إليها، فلما حضر باشر معهم فقالوا له: إن هذه على موت والمصلحة أن نعلم السلطان بهذا قبل أن يفجأه أمرها بغتة، فقال لهم: الذي عندي أن هذه ما هي في مرض الموت، فقال له شيخ منهم: أنا باشرت المرضى أكثر منك، فطالع السلطان فلم يوافقه، فأجمع الأطباء على المطالعة بهذا إلا هو، فكتبوا إلى السلطان بموتها، فأرسل إليهم رسولاً ومعه نجار ليعمل لها تابوتاً تحمل فيه فأتيا والأطباء جلوس، فقال له الرشيد: ما هذا، فأخبره بما أتيا له فقال للرسول: أتضعها في التابوت وهي في الحياة، فقال: لا ولكن بعد موتها، فقال له: ارجع بهذا التابوت، وقل للسلطان عني خاصة إنها لا تموت في هذه المرضة، فرجع وأخبره بذلك فلما كان الليل استدعاه، وقال له: أنت منعت عمل التابوت، قال له: نعم، قال له: بمَ عرفت ذلك دون الأطباء؟ قال: بمعرفتي بمزاجها دونهم، فقال له: امض فطبّبها، فطبّبها فعوفيت.

= ألف عقار» في الأدوية المفردة، ورسالة في «حفظ الصحة» وكتاب في «الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها» وله أخبار ونوادر وشعر حسن. وكانت في أذنه حلقة فلقب بأبي حلقية.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٩٠-٥٩٨، معجم المؤلفين ٤/ ١٦١، الأعلام ٣/ ٢٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١-٦٧٠هـ) ص٣٢٢-٣٢٣ رقم ٣٧١.

(١) عيون الأنباء ٥٩٠.

ومنها: أن الكامل لف مرةً يده وأخرجها مع أيدي الحرم وهو يحس الأيدي فلما انتهى إلى نبض الكامل، قال: هذا نبض مولانا السلطان، وهو صحيح بحمد الله.

ومنها: أنه جاءته امرأة من الريف ومعها ولدها شاب عليه النحول، لتريه إياه واتفق أن جاءت به إليه بالغداة والوقت بارد، فجس نبضه، وبينما هو يجس نبضه إذ قال لغلامه: ادخل وناولني الفرجية لألبسها فتغير نبض الشاب عند قوله تغيراً كثيراً، فحدس /٣٤٥/ أن يكون عاشقاً، ثم جس نبضه بعد ذلك فتساكن وعندما خرج الغلام إليه، قال له: هذه الفرجية جس نبضه أيضاً، فوجده قد تغير فقال لوالدته: إن ابنك هذا عاشق والذي يهواها اسمها فرجية فقالت: أي والله يا مولاي هو يحب واحدة اسمها فرجية، وقد عجزت مما أعذله فيها، وقد تعجبت من قوله لها غاية العجب، ومن اطلاعه على اسم المرأة من غير معرفة متقدمة بذلك.

أقول: ومثل هذه الحكاية كانت عرضت لجالينوس لما عرف المرأة العاشقة، وذلك أنه كان استدعي إلى امرأة جليلة القدر. وكان المرض قد طال بها وحدس أنها عاشقة فتردد إليها ولما كان عندها وهو يجس نبضها وكانت الأجناد قد ركبوا في الميدان وهم يلعبون، فحكى بعض الحاضرين ما كانوا فيه، وأن فلاناً تبينت له فروسية ولعب جيد، فعند ذلك لما سمعت باسم ذلك الرجل تغير نبضها، واختلفت، ثم جسها بعد ذلك، فوجده قد تساكن إلى أن عاد إلى حاله، ثم إن جالينوس أشار إلى الحاكي سراً أن يعيد قوله فلما أعاده، وجس نبضها وجده قد تغير، فتحقق من حالها أنها تعشق ذلك الرجل. وهذا مما يدل على وفور العلم وحسن النظر في تقدمة المعرفة(١).

ومنهم ابنه:

[١٣٦]

المهذب، أبو سعيد، محمد بن أبي حُليقة(٢)

وأيُّ الرجال المهذب، وأي الآصال عصره المذهب، وكان له أي مجلس مغشي، وأنس أضوأ من مصابيح العشى يغشى إلى ضوء ناره، ويعزى الفضل إلى ساكن داره، ويوصف بخلائق تتكفل بري الظمأ، وتلذ لذة العسل بالماء، ولم يزل فجره يتزيد

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٥٩٠ـ ٥٩٤.
(٢) محمد بن رشيد الدين بن الفارس بن داود بن أبي المنى بن فاته.
ترجمته في: عيون الأنباء ٥٩٨ـ ٥٩٩.

في إنارته، وبدره لا يخرج من دارته حتى طما على روضته سيل المنون، وطحنه تحت ضرسه المنجنون.

قال ابن أبي أصيبعة فيه(١): أوحد العلماء، وأكمل الحكماء ولد بالقاهرة وسمي محمداً لما أسلم أيام الظاهر، /٣٤٦/ منحه الله من العقل أكمله، ومن الأدب أفضله، ومن الذكاء أغزره، ومن العلم أكثره، أتقن الطب وعرف الحكمة، ولا أحد يدانيه فيما يعانيه، ولا يصل إلى الخلائق الجميلة التي أجمعت عليه. انتهى ذكرهم.

فأما من سواهم.

فمنهم:

[١٣٧]

الرشيد، أبو سعيد واسمه يعقوب، ويلقب بالموفق(٢)

وكان في فضله موفقاً، وفي نقله موثقاً، يصيب شاكلة الرمي، ويتلقى عدو المرض تلقي الكمّي، وله علاج يقوم بالأبدان، ويدوم تهاديه في البلدان، وينقل من خبره ما يكون أرجاً للمجالس وحرجاً للمنافس، وطالما طال أمثاله في البيع، وكانوا له كالتبع، ثم خدم السطان، فتمَّ ممتد الأشطان حتى شجب بعلته، وأشجى بالبكاء عليه أهل ملته.

قال ابن أبي أصيبعة(٣): هو من نصارى القدس، كان خبيراً في الطب علماً وعملاً، حاد الذهن، وخدم الكامل ثم ابنه الصالح، وعالجه وهو بدمشق من أَكَلةٍ كانت في فخذه، وكانت بينه وبين الرشيد أبي حليقة منافسة، فقال أبو سعيد إن معالجة أبي حليقة على غير الصواب، فنظر الصالح إلى أبي حليقة نظرة غضب فقام من بين يديه، وقعد بباب الدار، ثم عرض أبو سعيد إليه مرة أخرى في مجلس السلطان، فعرض له فالج فوقع لقًى لديه، فحمل إلى داره فمات بها بعد أربعة أيام، ثم عاد الصالح إلى مصر بعلته وبها مات.

ومنهم:

[١٣٨]

ابن البيطار، عبد الله بن أحمد المالقي، النباتي، ضياء الدين، أبو محمد(٤)

سحابٌ أتى سيله، فطم على القِرَي، وسحب ذيله فتم نشج العبقري، وكأنما كان

---

(١) عيون الأنباء ٥٩٨.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٩٩-٦٠٠.

(٣) عيون الأنباء ٥٩٩.

(٤) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٧/ ٥١-٥٢ رقم ٤٧، عيون الأنباء ٦٠١-٦٠٢، العبر ٥/ ١٨٩، =

بأسرار الأدوية مناجى، أو أوتي أجزل من ابن جزلة منهاجا، لعلم بالعقاقير وأشخاصها وعموم منافعها واختصاصها مع حسن جمع، وإتقان ما يلج في سمع. وعرف فيها مقالات الحكماء وحررها، وألف فيها المطولات وحبَّرها وكان نسيجَ وحدِهِ، ووشيج جفان بأُسده. تقلب في البلاد، وجلب ما يبقى على /٣٤٧/ الآباد، ثم مات ولله في خلقه أمر، وجناها على نفسه وقال: بيدي لا بيد عمرو.

قال ابن أبي أصيبعة فيه(١): أوحد زمانه، وعلامة أوانه في معرفة النبات وتحقيقه واختباره، ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ووجد جماعة ممن يعاني هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعاينه في مواضعه، واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وعاين نباته، وتحقق ماهيته، وأتقن دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه، وذلك أنني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات، وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يتعجب منه.

أول اجتماعي به كان بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت أيضاً من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء الأدوية [في] كتاب ديسقوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً، وكنت أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ويذكر أيضاً ما قاله جالينوس فيه من نعته وأفعاله ومزاجه، وما يتعلق بذلك، ويذكر أيضاً ما قاله المتأخرون

= سير أعلام النبلاء ٢٣/٢٥٦ـ ٢٥٧ رقم ١٦٨، تاريخ ابن الوردي ١/ ١٨٠ـ ١٨١، مرآة الجنان ٤/ ١١٥، عيون التواريخ ٢٠/ ٢٨، فوات الوفيات ٢/ ١٥٩ـ ١٦٠ رقم ٢١٥، العسجد المسبوك ٢/ ٥٦٧ـ ٥٦٨، حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٤٢ رقم ١٦، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٦، نفح الطيب للمقري ٢/ ٢٩١ـ ٦٩٢ رقم ٣٠٤، شذرات الذهب ٥/ ٢٣٤، هدية العارفين ١/ ٤٦١، ديوان الإسلام ١/ ٣٥٦ـ ٣٥٧ رقم ٥٥٩، مفتاح السعادة ١/ ٣٣١، كشف الظنون ٥١/ ٣٨٣، ٥٧٤، ١١٤٩، ١٧٧٢، ١٨٧٠، ١٨٧١، إيضاح المكنون ١/ ١٠٩، معجم المؤلفين ٦/ ٢٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١ـ ٦٥٠هـ) ص٣١١ـ ٣١٢ رقم ٤١٦.

(١) عيون الأنباء ٦٠١.

وما اختلفوا ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته، فكنت أراجع تلك الكتب معه، ولا يغادر شيئاً بما فيها، وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة /٣٤٨/ وفي تلك المقالة.

وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة، والحشائش، وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل رحمه الله بدمشق، وبعد ذلك توجه إلى القاهرة، ثم خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، وكان حظياً عنده مقدماً في أيامه وكانت وفاة ضياء الدين العشاب رحمه الله بدمشق في شهر شعبان سنة ست وأربعين وستمائة، وكتابه الجامع في الأدوية المفردة لا يوجد كتاب في الأدوية أجل ولا أجود منه، وصنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل.

قلت: ويحكى أنه سمَّ نفسه فمات، حدثني الحكيم أمين الدولة سليمان بن داود المتطبب، قال: كان الملك الصالح قد أعطى ابن البيطار ألف دينار لينفقها على أثمان أدوية دعت إليها حاجته، واجتناء حشائش شامية ورومية، فلما أتى بيت المقدس رأى امرأة نصرانية اسمها مريم، فأحبها وأنفق عليها ذلك المال حتى أنفده وأهمل حاجة الملك الصالح، فلما قدم الملك الصالح ـ إما قال القدس أو قال دمشق ـ لم يكن لابن البيطار دأب ليلة أراد الصالح يدخل البلد في صباحها إلا أنه أحضر النصرانية، وبات معها في أكل وشرب واستمتاع حتى كان الثلث الآخر، فأخرج حشيشة معه فسحقها في هون، ثم استفها ونام، وقال، غطوني ثم إذا أصبحتم لا تسحقوا شيئاً في الهون حتى تجيدوا غسله؛ فإنه قد صار مسموماً. فلم يفهموا مقاله إلى أن أصبحوا فرأوه ميتاً، ففهموا ما كان قاله وغسلوا الهون، فلما دخل السلطان سأل عنه فحكيت إليه القصة، فقال: لقد أساء بنا الظن، وأين مثله لأشتريه بشطر ملكي؟! والله لو علمت لأعطيته عشرة آلاف دينار يصرفها في لذته وكان أمتعنا بنفسه.

قلت: ويحكى أنه ترك عقاقير /٣٤٩/ كثيرة ومفردات عدة لم يذكرها في كتابه الجامع ضناً بها وبخلاً على غيره بمعرفتها. قال لي الحكيم صلاح الدين بن البرهان: كان ابن البيطار يعرف مما يدخل في علم الكيمياء مصدقاً بعلمها وإن كان لا يعملها بيده ولهذا أظنه قال ما قال: [من الوافر]

فكُلٌّ يدَّعُونَ وصالَ ليلَى ... وليلَى لا تَقَرُّ لهمْ بِذاكا

ومنهم:

[١٣٩]

علي بن أبي الحرم، هو الإمام الفاضل، الحكيم العلامة، علاء الدين بن النفيس القرْشي الدمشقي(١)

فرد الدهر وواحده، وأخو كل علم ووالده، إمام الفضائل، وتمام الأوائل، والجبل الذي لا يُرقى عُلاه بالسلالم، والحبل الذي لا يعلقُ به إلاَّ الغريق السالم، لم يبق إلاَّ من اغترف منه غرفةً بيده، وأخذ منه حلية لمقلده، حل مصر في محل ملكها، ونسخت لياليها بإشراقه صبغة حلكها، وقرأ عليه بها الأعيان، وكلأ فضله وأعان، ولم يكن في علم واحد بمقتصر، ولا شبهه بالبحر إلاَّ مختصر هذا إلى حسب غير مرؤوس، وحسب مثل جناح الطاووس، وشرف قرشي لا يُحلُّ معه في بطحائه، ولا يحثُّ في البيد قلاص بطائه، زكا محتداً، وزها بيتاً لم يضرب غير متوسط السماء وتداً، وكمَّل ذاته بكرم وخير، ومجد في أول وأخير، ومزايا استحقاق، وسجايا كحواشي النسيم الرقاق، ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق.

قال ابن أبي أصيبعة: نشأ بدمشق، واشتغل بها في الطب على المهذب الدخوار، وكان الدخوار منجباً تخرج عليه جماعة منهم الرضي، وابن قاضي بعلبك، والشمس الكلي، وكان علاء الدين إماماً في علم الطب لا يضاهى في ذلك، ولا يدانى استحضاراً واستنباطاً، واشتغل على كبر، وله فيه التصانيف الفائقة والتواليف الرائقة، / ٣٥٠/ صنف كتاب «الشامل» في الطب تدل فهرسته على أنه يكون في ثلاثمائة سفر، هكذا ذكر بعض أصحابه، وبيض منها ثمانين سفراً، وهي الآن وقف البيمارستان المنصوري بالقاهرة، وكتاب «المهذب في الكحل»، وشرح «القانون» لابن سيناء في عدة أسفار وغير ذلك في الطب، وهو كان الغالب عليه.

وأخبرني شيخنا أبو الثناء محمود أنه كان يكتب إذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف وله معرفة بالمنطق وصنف فيه مختصراً، وشرح «الهداية» لابن سيناء في المنطق، وكان لا يميل في هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبي نصر وابن سيناء ويكره طريقة الأفضل الخونجي والأثير الأبهري، وصنف في أصول الفقه والفقه والعربية والحديث وعلم البيان وغير ذلك، ولم يكن في هذه العلوم بالمتقدم إنما كان له

---

(١) **ترجمته في**: الوافي بالوفيات ١٢/ ٢١-٢٢، أعيان العصر ٤/ ٤٠٤، ٤/ ٢٢٢، ٤٤٨، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧، معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، الأعلام ٤/ ٢٧٠- ٢٧١.

فيها مشاركة ما، وقد أحضر من تصنيفه في العربية كتاباً في سفرين أبدى فيه عللاً تخالف كلام أهل الفن ولم يكن قرأ في هذا الفن سوى «الأنموذج» للزمخشري قرأه على ابن النحاس، وتجاسر به على أن صنف في هذا العلم. وعليه وعلى العماد النابلسي تخرج الأطباء بمصر والقاهرة. وكان شيخاً طوالاً، أسيل الخدين، نحيفاً، ذا مروءة.

وحكي أنه في علته التي توفي فيها أشار إليه بعض أصحابه الأطباء بتناول شيء من الخمر إذ كان صالحاً لعلته على ما زعموا، فأبى أن يتناول شيئاً منه، وقال لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر.

وكان قد ابتنى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها. وما رأيت إيواناً مرخماً في غير هذه الدار. ولم يكن مزوجاً ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري. وكان يغض من كلام جالينوس ويصفه بالعيّ والإسهاب الذي ليس تحته بطائل. وهذا بخلاف النابلسي، فإنه كان يعظمه، ويحث على قراءة كلام جالينوس.

وكان علاء الدين / ٣٥١/ قد نزل يدرس بالمسرورية بالقاهرة في الفقه، وذكروا أنه شرح في أول «التنبيه» إلى باب السهو شرحاً حسناً.

ومرض رحمه الله تعالى ستة أيام أولها يوم الأحد وتوفي سحر يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة بالقاهرة.

قال أبو الصفاء[(١)]: أخبرني الإمام العلامة الشيخ برهان الدين الرشيدي خطيب جامع أمير حسين بالقاهرة قال: كان العلاء ابن النفيس إذا أراد التصنيف، توضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا تحدر، فإذا كَلَّ القلم، وحفي، رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم.

قلت: وبهذا حدثني شيخنا أبو الثناء محمود.

قال أبو الصفاء[(٢)]: وأخبرني شيخنا نجم الدين الصفدي: أن ابن النحاس كان يقول: لا أرضى بكلام أحد في القاهرة في النحو غير كلام ابن النفيس، أو كما قال. وقد رأيت له كتاباً صغيراً عارض به رسالة «حي بن يقظان» لابن سينا، ووسمه بكتاب «فاضل بن ناطق»، وانتصر لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النُبوّات والشرائع والبعث

---

(١) الوافي بالوفيات.

(٢) الوافي بالوفيات.

الجسماني وخراب العالم، ولعمري لقد أبدع فيها، ودلَّ ذلك على قدرته وصحة ذهنه، وتمكنه من العلوم العقلية.

وأخبرني السديد الدمياطي الحكيم بالقاهرة، وكان من تلاميذه، قال: اجتمع ليلة هو وابن واصل وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة، شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم. والشيخ علاء الدين كل ذلك يبحث برياضة ولا انزعاج، وأما القاضي علاء الدين، فإنه ينزعج ويعلو صوته، وتحمر عيناه، وتنتفخ عروق رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال، قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين أمَّا نحن، فعندنا مسائل ونكت وقواعد، وأما أنت فعندك خزائن علوم.

وقال أبو الصفاء[1] : قال السديد أيضاً: /٣٥٢/ قلت له: يا سيدي لو شرحت «الشفاء» لابن سيناء كان خيراً من شرح «القانون» لضرورة الناس إلى ذلك، فقال: «الشفاء» عليَّ فيه مواضع تريد أيتها؟ قلت: يريد أنه ما فهم تلك المواضع؛ لأن عبارة الرئيس في الشفاء غلقة.

قال: وأخبرني آخر قال: دخل الشيخ علاء الدين مرةً إلى الحمام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام، واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله.

وقيل: إنه قال: لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعيد عشرة آلاف سنة ما وضعتها. والعهدة في ذلك على من نقله عنه.

وعلى الجملة كان إماماً عظيماً وكبيراً من الأفاضل جسيماً، وكان يقال هو ابن سيناء الثاني.

قال: ونقلت من ترجمته في مكان لا أعرف من هو الذي وضعه، قال: شرح «القانون» في عشرين مجلداً شرحاً حلَّ فيه المواضع الحكمية، ورتب فيه القياسات المنطقية، وبيَّن فيه الإشكالات الطبية، ولم يسبق إلى هذا الشرح؛ لأن قصارى من شرحه أن يقتصر على الكليات إلى نبض الحبالى، ولا يجرى فيه ذكر الطب إلاَّ نادراً، وشرح كتب بقراط كلها. ولأكثرها شرحان مطول ومختصر، وشرح «الإشارات» وكان

---

(١) الوافي بالوفيات.

يحفظ «كليات القانون»، ويعظم كلام بقراط، ولا يشير على مشتغل بغير «القانون»، وهو الذي جسَّر الناس على هذا الكتاب، وكان لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلاً ولا نهاراً، وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء، والمهذب بن أبي خليفة رئيس الأطباء، وشرف الدين بن صغير، وأكابر الأطباء، ويجلس الناس في طبقاتهم. ومن تلاميذه الأعيان البدر حسن الرئيس، وأمين الدولة ابن القف، والسديد الدمياطي، وأبو الفرج الإسكندري، وأبو الفرج بن صغير.

وحدثني عنه غير واحد /٣٥٣/ منهم شيخنا أبو الفتح اليعمري قال: كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب وإتقانه لفروعه وأصوله، قليل البصر بالعلاج، فإذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه، ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا مركباً ما أمكنه الاستغناء بمفرد، وكان ربما وصف القمحية لمن شكا القرحة، والتطماج لمن شكا هواء، والخروب والقضامة لمن شكا إسهالاً. ومن هذا ومثله، ولكل بما يلائم مآكله ويشاكلها حتى قال له العطار الشرابي الذي كان يجلس عنده: إذا أردت أنك تصف مثل هذه الوصفات، أقعد على دكان اللحام، وأمَّا إذا قعدت عندي فلا تصف إلاَّ السكر والشراب والأدوية.

وحكى لي شيخنا أبو الثناء الحلبي الكاتب، قال: شكوت إلى ابن النفيس عقالاً في يدي، فقال لي: وأنا والله بي عقال، فقلت له: فبأي شيء أداويه، فقال لي: والله ما أعرف بأي شيء أداويه. ثم لم يزدني على هذا.

ومنهم:

[١٤٠]

أحمد المغربي، شهاب الدين، والد الرئيس جمال الدين إبراهيم بن المغربي[(١)]

رئيس الأطباء بمصر والشام، وإليه انتهت الحشمة والاحتشام، كوكب الفضائل الطالع نيراً، والمشرق قمراً منوراً، أخذ من كل العلوم الحكمية بنصيب موفر الأجزاء، موفر الجناب يعزى إليه بالإعزاء. قدم مصر واستوطنها، وقطع بفضله من قطنها، وكان فريداً في أنواع العلم إلاَّ أنه عرف بالطب أكثر من بقية ما عرف به من المعارف، وحصل من التالد والطارف.

(١) ترجمته في: أعيان العصر ١/ ٤٤٢، معجم الأطباء ١٢٥ـ ١٢٦.

وخدم السلطان وتقدم الرهط، وتفرد في جماعة الأطباء وأقرأ العلم وأفاد وباشر المرضى وأحسن العلاج وعدّل منحرف كل مزاج، وكان وافر الحظ من السلطان والأمراء والوزراء وسائر الكبراء، وكان بصيراً بالنجامة، متقدماً في علمها، وكان يتكلم فيها مع السلطان وأرباب الدولة / ٣٥٤/ وحصّل النعم الجمّة والأموال الجزيلة، وخدم بنوه السلطان وتقدموا في الخدم، وصحب ابنه جمال الدين السلطان حين همّ بالحج أيام سلطنته الثانية، فلما أقام بالكرك، أقام معه وترك أسبابه وراءه بمصر منقطعة، فرعى له السلطان حق انقطاعه، وزاد في قدر إقطاعه وولاه الرئاسة حتى تجاوز قدر الرؤساء، وقربه حتى كان من أخصاء الجلساء. وكان لا يزال يفاوضه في كل حديث، ويطلعه على أكثر الأمور، ورفع إليه يوماً الصلاح بن البرهان قصة يسأل فيها الإعفاء من وظيفته في الطب بالخدمة، وكنت سفيره فيها، فقال لي السلطان: هذا الصلاح أفضل من إبراهيم يعني ابن المغربي، وما يطلب ترك الخدمة إلا لأجله؛ لكونه مقدماً عندنا عليه، فقل: له نحن نعرف فضيلتك، وكبر قدرك، وأنك أفضل من ابراهيم وأكبر، ولكن ابراهيم له علينا حق خدمة من وقت كنا في الكرك، وهو صاحبنا، وهو طبيبٌ عندنا. فبلغته الرسالة بنصها، فسكت على مضض.

قلت: هذا قول السلطان، وأما الرئيس جمال الدين إبراهيم، فإنه من أعيان الأطباء، وأهل الفضل والتقدم في العلم والعمل في الطب وصناعته، والاجتهاد دائماً في توفير بضاعته، ولهذا اكتفيت عن إفراده بترجمة.

ومنهم:

[١٤١]

السديد الدمياطي اليهودي، ويعرف بابن كوجك(١)

وبنو كوجك وبنو صغير أهل بيت واحد، وهم من يهود بلاد العجم، وكلهم كانوا لا يعرفون إلا ببني كوجك. وكوجك باللغة العربية: صغير فلما قدموا مصر عرّب فريق منهم اسم جدهم المنسوبين إليه، وبقي فريق على اسمه الأعجمي.

وكان السديد شديد المقال، مديد المجال، جالينوس زمانه في الطب الذي لم يبلغ، والعلم الذي لم يدرك، قرأ على ابن النفيس والنابلسي، / ٣٥٥/ وعلى ابن

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٥/ ١٢٧، المنهل الصافي ٥/ ٣٨٤، أعيان العصر ٢/ ٤٠٤، معجم الأطباء ٢٠٠ـ٢٠١.

النفيس أكثر، ومن مدده استكثر، أتقن الحكمة والطب وأخذ من كل فن بطرف، وأذعن كل فاضل له واعترف، وكان يحفظ غالب ديوان أبي الطيب المتنبي بل كله، وينشد منه، ويستشهد به في موضعه إذا تكلم، وخدم السلطان، وتقرر لديه فضله، واستقرر في كل خاطر أنه لا نظير له في الدهر، وتنافست الأمراء وأكابر الدولة في معالجته. وكانت الأطباء إذا اختلفت في حدس مرض أو وصف دواء، عادوا إلى رأيه ورجعوا إلى قوله، فإذا قال سكت كل قائل، وسلم كل منازع، وكانوا إذا عرض للسلطان مرض وحضروا عنده تقدم السديد فأمسك يد السلطان، وجس نبضه قبل الرئيس، وقبل كل واحد. وكان الرئيس هو السائل عن الأعراض بحضوره ثم تحصل الشورى بينهم على ما يوصف، ويكون مدار الكل على كلام السديد واعتماد السلطان عليه دون الكل.

وكان السديد رجلاً عاقلاً ساكناً لا يكاد يتكلم حتى إذا تكلم كان البحر الزاخر والسيل المنحدر والضرام المتقد والأسد الصَّوَّال إلى نقول يستحضرها، وبحوث يحررها، وتجارب يذكرها، وكانت له يدٌ في علم الموسيقى والطرب.

رأيت ابن كر يصفه، ويثني على علمه، وينصفه. وكان على هذا الفضل الغزير والمدد الوافر لا يتوسع في الوصف للإعلاء، ولا يخرج عن الجادة، ولا يعدل عن المعهود، ولا يرى التفقه في الطب كما كان عليه فرج الله بن صغير. وكان السديد اجتهاده لنفسه، وفرج الله اجتهاده للعليل. على أن السديد كان إذا لم يشاركه طبيبٌ آخر يطبب تطبيباً مستقصًى، وإن لم يتوسع فأما إذا شورك سكت وجمد واكتفى بقول المشارك له، وإن كان عنده في الباطن خلافه. وبالجملة كان من الأفراد، وممن تقدم إذا حضرت الأفاضل بالأعداد.

/ ٣٥٦/ ومنهم:

[١٤٢]

فرج الله بن صغير

طبيبٌ لو حضر معه ابن ماسويه، لما مس العلاج، أو أبو قريش، لما اقر له ابن اللجلاج، أو استشعر به حنين بن إسحاق، لحنّ إلى لقائه، أو كان في زمانه ابن الأشعث، للمَّ شعثه ببقائه، لنفع لو كان للمطجّن لأكل جديه الحنيذ، أو لأمين الدولة، لكان عنده ابن التلميذ، وصدق ود لو أنه لابن كلدة لوكل إليه الوفاء، أو لسنى لابن سيناء لنسب إليه دونه الشفاء، ولم يكن شرواه في مداواة سقام ومدافعة سمام بملاطفة ما حظي بها النسيم، ولا عبث بشبهها في ملاعبة عطف الروض النسيم.

قال لي: إنه قرأ على أبيه وعلى ابن النفيس، وتلك الطبقة واقتصر على الطب وحققه وأذن له في الكحل، ثم في الطب، وجلس للتطبيب، وعاد المرضى وظهر أثر علمه، وكثر النفع به، وبرىء المرضى على يده وخدم السلطان، وأطلق له المعلوم والوافر والراتب الكامل، وتفرد بخدمة بكتمر الساقي، وكان يعتمد عليه دون سائر الأطباء، ويعمل بقوله في معالجته ومعالجة ولده وحريمه وخواصه وأعزائه.

وكان سلطاننا الملك الناصر يثق به، وأفرده بعد بكتمر الساقي لخدمة الدور السلطانية والنساء والحرم مع مشاركة الجماعة في مباشرة طبه والحضور عنده، ولم يزل موفر الحظ من الإكرام. وكانت بيننا وبينه صحبة، وله بنا خصوصية، وله من حسن الملاطفة في العلاج ما لم يكن لأحد سواه، وكان في هذا غاية.

جرى ذكره عند الحكيم الفاضل ناصر الدين محمد بن صغير وهو عليل بدمشق، فقال من كان مثل الحكيم فرج الله؟ وأخذ في وصفه، ووصف فضيلته، والثناء عليه، وبالغ في هذا وأطنب فيه، فقال له بعض من حضر، فكيف كان السديد الدمياطي؟ فقال: كان السديد يعمل في ما يصفه مصلحته، وفرج الله يعمل مصلحة المريض.

/٣٥٧/ قلت: والأمر هو على ما قاله: فإن السديد قلَّ أن كان يخوض الغمرات في الوصف، وفرج الله يخوض الغمرات في الوصف ويودّ لو نزع من جسده ثوب العافية وألبسه المريض، وإذا كره المريض أو من حضره غذاءً أو دواءً، أبدله بغيره، فإن كرهوه أبدله بغيره، يفعل هكذا حتى يصيب موافقه من رضاهم أو مقاربة، وكان يرى أن هذا أجدى في نفع المريض. وكانت له معالجات موافقة، وإصابات في تقدم المعرفة خارقة.

حكى لي غير وواحد من جيراننا بالقاهرة أنه كان معوداً بمعالجة رجل بسويقة الصاحب، وقد عرف مزاجه ودربه، فمر به ذات يوم وهو راكب على حماره قد نزل من القلعة على بيته، فرأى ذلك الرجل جالساً على باب المدرسة الصاحبية، فوقف فرج الله قدامه، وذلك الرجل لا يشعر به، وأطال فرج الله النظر إليه، والتأمل إلى سحنته، وهو صحيح سوى لا يشكو مرضاً ولا عرضاً، ثم قال له: يا فلان هل عضك في هذه الأيام كلب قط؟ فقال له: نعم، من أيام قلائل. فقال له: قم اقعد في بيتك، وألحق نفسك بالمداواة، ثم ساق حماره، وأتى إلى أهل بيت الرجل، وقال لهم: اعلموا أنني رأيت صاحبكم ورأيت عليه علائم الكلب، فسألته إن كان عضه كلب، فقال: نعم، فأمرته بأن يقعد في بيته، ويلحق نفسه بالمداواة والطب. فالله الله فيه، والله الله في أنفسكم؛ فإنه قد كلب ويوشك أن يجفل من الماء بعد كذا وكذا يوم، ثم يموت بعد كذا وكذا.

فكان الأمر كما ذكره لم يخرم في شيء منه.

ولما اعتل والدي رحمه الله العلة التي مات فيها، كان أولها انصباب مادة بلغمية إلى يده، فورمت منها يده وهو ونحن لا نكترث بذلك ولا يهمنا، والأطباء تتردد إليه في كل صباح ومساء لمعالجته، وفرج الله منهم، فأصبح ذات يوم وقد تصرف الورم بجملته من يده وأصبح بارئاً لا يشك في ذلك نحن ولا الأطباء، وكان منهم ابن البرهان والسديد الدمياطي، /٣٥٨/ فلما انصرفوا قال لي فرج الله: اعلم أن هذه المادة لم تتصرف، وإنما انصبت بجملتها إلى مكان استضعفته من الأعضاء الباطنة، وأكبر ظني أن تكون انصبت إلى قصبة الرئة، ولئن كان كذلك ليعرضن له آخر هذا اليوم ضيق نفس، ثم قل أن تنجع معالجته مع ما بلغه من هذا السن. فلم يأت آخر ذلك اليوم إلا وقد عرض له مبادىء ضيق نفس، ثم لم يزل يتزايد إلى أن أتى عليه يوم لم نشك أنه لا يخرج عنه، فلما أتاه ورأى ماءه، واستقرأ أعراضه، ووصف له ما وصف، وقام وذلك يوم نصف شعبان، قلت له: تقول يمسي عليه المساء؟ قال: نعم، ويمسك إلى آخر هذا الشهر إلى خمسة [أو] ستة أيام أخرى في شهر رمضان. فكان الأمر كما ذكره لم يخرم.

قلت: وقل أن وصف لي دواءً إلا وبين أثره ليومه، ثم حمدت عاقبته فيما بعده. وعرض لي مرة دوار صفراوي، فأمر بماء فأسخن فوق الاسخان المستطاب، ثم شد قدمي بأنشوطة من فوق الكعبين وأمر بتدليتهما في ذلك الماء وتعجيل حل الأنشوطة عند تدليتهما في الماء ففعل، ذلك ثم أمر بإطالة اللبث ثم حكها بالحجر الخشن والملح والنخالة، فلم يكن بأسرع من زوال ذلك الدوار لانعكاس المادة. وتفتح المسام في سفل القدم، وأثر ذلك لساعته.

ولما أردت الحج في حجتي الثالثة كان الزمان صيفاً والحر شديداً إلى غاية، فسألته عما أعتمده فقال لي: إذا خفت الحر لعِّب بزر قطونا بماء ثم أضيف إليه شيئاً من الخل الحاذق الثقيف، وضمد به صدرك ورقبتك، فإنك لا تبالي بالحر، فوالله لقد كنت أنا ومن معي نعمله ونركب في الهواجر المتوقدة والقيظ المضطرم، ونحن نظن أن على صدورنا قطع الثلج، لا نحس ما الحر، وما ندري ما السموم. إلى غير هذا مما كان فيه من الفضائل، وما فاق به الأنظار، وفاق بالأماثل /٣٥٩/ فليت الشمس لو أبقته قليلاً. وواسفاً على مثله كيف مات على اليهودية.

ومنهم:

[١٤٣]

محمد بن صغير، ناصر الدين[١]

طبيب جامع، ولبيب تشرق كلماته في المسامع، وفاضل لم يقصر في نوع من الفضائل على كثرة تشعبها، ووجي الدراسة ولقبها، مع أخلاق لو تخلقت بها المدام، لما قطب شاربها، ولما قدر أن يذكرها عائبها، إلى فضائل شريفة وشمائل ظريفة، وأخوة صحيحة الإخاء، صريحة الانتحاء. ولقد قال قول جزم أنه قد أصبح اليوم فرداً واحداً لما جمع من شتى المحاسن وكمال الأوصاف.

قرأ العلم واشتغل به، وخدم السلطان، وباشر المرستان، وقرأ النحو والأدب وتطبع به حتى صار خلفاً له، وله في حسن العلاج يدٌ طويلة وآثار جميلة وأفعال حسنة مشكورة، وهو يرى لطف التدبير في معالجة المرضى، وعدم الإقدام عليهم بالأدوية، وكان السلطان يشكره ويثني على نشأته الحسنة. إلى غير هذا مما يتفكّه به من جني الألسنة.

* * *

آخر الجزء الثامن[٢]

من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

ويتلوه إن شاء الله تعالى: وممن يعد من الحكماء أهل علم الموسيقى

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) توفي سنة ٧٤٩هـ.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/٢٥٨، الدرر الكامنة ٤/ ١٩٠، أعيان العصر ٥/ ١٨٠، معجم الأطباء ٤٢٦ـ ٤٢٨.

(٢) صوابه: «التاسع».

مصادر ومراجع التحقيق

• الأئمّة الاثنا عشر: شمس الدين محمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ طبعة ١٩٥٨م.

• آثار طرابلس الإسلامي: د. عمر عبد السلام تدمري.

• أخبار العلماء بأخبار الحكماء: الوزير جمال الدين، أبو الحسن، علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ) ـ طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.

• أخبار العبّاس وولده: مؤلّف مجهول ـ تحقيق د. عبد العزيز الدوري ود عبد الجبار المطلبي ـ طبعة بيروت.

• أخبار القُضاة: القاضي وكيع محمد بن حيّان (ت ٣٠٦هـ) ـ طبعة عالم الكتب. بيروت.

• أخبار النحويين البصْريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨هـ) ـ تحقيق د. فريتش كرنكو ـ المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.

• آداب اللغة العربية: لجرجي زيدان، ط مصر ١٩١٣ ـ ١٩١٤.

• أُسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة طهران.

• الأسماء والصفات: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).

• الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة مصر ١٩٣٩.

• الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ) ط٤/ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩.

• أعلام الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية: زهير حميدان، ط سوريه ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦م.

• أعيان العصر وأعوان النصر: لصلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرين، ط مركز جمعة الماجد ـ أبو ظبي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

• الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت٣٥٦هـ) ـ طبعة مؤسسة جمّال ببيروت، المصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.

• الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: الأمير هبة الله بن ماكولا (ت ٤٥٧هـ) ـ نشره المعلمي اليماني ـ حيدرأباد ١٩٦٢م.

• الأمالي: أبو علي القالي اسماعيل بن

القاسم البغدادي (ت٣٥٦هـ) ـ تقديم محمد عبد الجواد الأصمعي ـ طبعة دار الكتاب العربي ببيروت المصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.

• أمالي المرتضَى (غُرر الفوائد ودُور القلائد): الشريف المرتَضَى علي بن الحسن الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧.

• الإمتاع والمؤانسة: أبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ) نشر: أحمد أمين وأحمد الزين ط القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

• أمراء دمشق في الإسلام: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد ـ طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٥م.

• إنباه الرُواة على أنباه النُحاة: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م.

• الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة ـ يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٣٦٤هـ) ـ القاهرة ١٩٥٠م.

• الأنساب: الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ـ تحقق محمد عوّامة ـ نشره محمد أمين دمج ـ بيروت.

• أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت ٢٧٩هـ) ـ الجزء الثالث ـ تحقيق عبد العزيز الدوري ـ منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٩٧٨.

• أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت ٢٧٩هـ) ـ الجزء الخامس ـ نشره غويتن ـ طبعة القدس ١٩٣٦.

• الأنساب المتّفقة: أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ) ـ تحقيق دي غويه ـ طبعة المثنَّى ببغداد.

• الأوراق: لمحمد بن يحيى الصولي نشر منها: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله، ط مصر ١٩٣٥، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ط مصر ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

• الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية: ـ د. صبحي المحمصاني ـ بيروت ١٩٧٨.

• البدء والتاريخ: المنسوب لأحمد بن سهل البلخي، وهو لمطهر بن طاهر المقدسي، ط شالون ١٩١٦.

• البداية والنهاية في التاريخ: اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ـ طبعة بيروت، الرياض ١٩٦٦م.

• بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضَبّي (ت ٥٩٨هـ) ـ نشرته دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م.

• بغية الوُعاة في طبقات اللُّغَويين والنُّحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) ـ طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ.

• البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي - نشره ج.س. كولان، وليفي بروفنسال - طبعة دار الثقافة، بيروت.
• البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - طبعة دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨.
• تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبُيدي - سلسلة التراث العربي، منشورات وزارة الإعلام، الكويت.
• التاج المكلَّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: أبو الطيّب صدّيق بن حسن القنوجي - طبعة بمباي ١٩٦٣م.
• التاريخ: يحيى بن مَعين، أبو زكريا يحيى بن مَعين بن عون بن زياد المرّي الغَطَفَاني (ت ٢٣٣هـ) - تحقيق د. أحمد محمد نور سيف - منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة ١٩٧٩.
• تاريخ أبي زُرْعَة: أبو زُرْعَاة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي - رواية أبي الميمون بن راشد - تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠م.
• تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم (٣٩٦).
• تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - نشره حسام الدين القدسي - القاهرة.
• تاريخ بغداد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) - طبعة محمد أمين الخانجي - مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١م.
• تاريخ بيروت والأمراء البُحْتُريّين: صالح بن يحيى (توفي في القرن التاسع الهجري) - تحقيق فرنسس هورس وكمال الصليبي - طبعة المشرق، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٧.
• تاريخ جُرْجان: أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي - طبعة حيدرأباد ١٩٥٠م.
• تاريخ الحكماء (مختصر الزَّوْزَني المسمَّى بالمنتخبات الملتَقَطات من أخبار الحكماء): جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) - نشره ليبرت - لَيْبزغ ١٩٠٣م.
• تاريخ حكماء الإسلام: لظهير الدين البيهقي، تحقيق: محمد كرد علي، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
• تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - طبعة السعادة بمصر ١٩٥٢.
• تاريخ خليفة بن خياط: خليفة بن خيّاط، أبو عمر شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - طبعة

مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧.
• تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف بمصر.
• التاريخ الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ـ طبعة الهند ١٣٢٥هـ.
• تاريخ علماء الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي المعروف بابن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ) ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦.
• التاريخ الكبير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) صحّحه عبد الرحمن بن يحيى اليماني ـ نشرته دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٢هـ.
• تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ نسخة خطيّة بدار الكتب الظاهرية، دمشق رقم ٣٣٨٧.
• تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ نسخة خطّية بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٤١ تاريخ ـ تيمور.
• تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ نسخة مصوّرة تتضمّن تراجم من اسمه «عبد الله» ـ نشرها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٨م.
• تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ (تراجم حرف ع ـ من اسمه: عائذ ـ عاصم) ـ تحقيق د. شكري فيصل ـ مطبوعات، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٧.
• تاريخ الموصل: أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي (ت ٣٣٤هـ) ـ تحقيق د. علي حبيبة ـ القاهرة ١٩٦٧.
• تاريخ واسط: أسلم بن سهل الرزّاز الواسطي المعروف ببشل (ت ٢٨٠هـ) ـ تحقيق د. كوركيس عواد ـ مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.
• تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) ـ منشورات دار صادر بيروت.
• تتمة اليتيمة: لأبي منصور الثعالبي، ط طهران ١٣٥٣هـ.
• تذكرة الحُفّاظ: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٩٥٥ـ ١٩٥٧م.
• تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) ـ تحقيق عبد الرحمن بن يحيى اليماني ـ طبعة حيدرأباد ١٩٥٢.
• تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلانّي (ت ٨٥٢هـ) ـ نشره عبد الوهاب بن عبد اللطيف ـ بيروت ١٩٧٥.
• تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا

محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ـ طبعة بيروت.

• تهذيب التاريخ الكبير (تاريخ دمشق): الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) ـ هذّبه عبد القادر بدران ـ طبعة دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩.

• تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٣٢٥ وما بعدها.

• الثقات: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ).

• الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ).

• جذوة المقتبس في ذكر وُلاة الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيْدي (ت ٤٨٨هـ) ـ طبعة مصر ١٩٦٦.

• الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي (ت ٣٢٧هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٩٥٣م.

• الجماهر في الجواهر: لمحمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) تحقيق: يوسف الهادي، ط مركز نشر التراث المخطوط، إيران ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

• الجمع بن رجال الصحيحين: أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٣٢٣هـ.

• جمهرة أنساب العرب: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

• الجواهر المُضِيَّة في طبقات الحنفية: محمد بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٣٣٢هـ.

• حُسْن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) ـ طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.

• حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ـ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

• خريدة القصر وجريدة العصر (قسم العراق): للعماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ط بغداد ١٩٥٥ وما بعدها.

• خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦.

• خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال: صفيّ الدين الخزرجي الأنصاري ـ طبعة مصر ١٣٢٢هـ.

• دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي، وأحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، ط مصر ١٩٣٣ ـ ١٩٥٧م.

• دفع شُبَه التشبيه: ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ).

• دُول الإسلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكاتب ـ القاهرة ١٩٧٤م.

• ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي ط بغداد ١٩٩١.

• ديوان رؤبة بن العجّاج: رؤبة بن العجّاج (ت ١٤٥هـ) ـ نشره وليم ابن اللورد البروسي، سنة ١٩٠٣.

• ديوان ابن سينا: تحقيق: د. حسين علي محفوظ، ط طهران ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٩م.

• ديوان عرقلة الكلبي (حسان بن نمير ت ٥٦٧هـ): تحقيق: أحمد الجندي ط دار صادر بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

• ديوان ابن عنين (شرف الدين، أبي المحاسن، محمد بن نصر الدمشقي): تحقيق: خليل مردم بك، ط المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

• ديوان كثير عزّة: جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة ـ بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

• ديوان المعاني: أبو هلال العسكري ـ طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٢هـ.

• ديوان أبي نؤاس (الحسن بن هاني): تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، ط دار الكتاب العربي ـ بيروت [دت].

• ذِكْر أخبار أصبهان: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ـ نشره سنن دررنج ـ طبعة ليدن ١٩٣١م.

• ذيل مرآة الزمان: لموسى بن محمد اليونيني، ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٧٤ وما بعدها.

• رجال السند والهند إلى القرن السابع: القاضي أبو المعالي أطهر المباركبوري ـ طبعة دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.

• رجال الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ـ نشره محمد صادق آل بحر العلوم ـ المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦١م.

• رسالة محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي ـ أحمد بن محمد بن أحمد الموصلي المعروف بابن زيد (ت ٨٧٠هـ) ـ نشره شكيب أرسلان، القاهرة ١٩٣٣.

• رفع الإصْر عن قَضاء مصر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ـ تحقيق حامد عبد المجيد ـ نشرته وزارة الثقافة والإرشاد بمصر، ١٩٦١.

• روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات: ميرزا محمد باقر الموسوي الخُوانساري ـ طبعة إيران ١٣٦٧هـ.

• زهر الآداب وثمر الألباب: الحُصَري ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ طبعة مصر ١٩٥٣م.

• السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد: الحافظ أبو بكر

أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ـ تحقيق ودراسة محمد بن مطر الزهراني ـ طبعة دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

• سرح العيون: في شرح رسالة ابن زيدون: لابن نباتة، ط الإسكندرية ١٢٩٠هـ.

• سِيَر أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط ـ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

• شَذَرات الذَهَب في أخبار مَن ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، المصوَّرة عن الطبعة المصرية ١٣٥١هـ.

• شرح مقامات الحريري: الشريشي أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦٣٠هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة المدني بمصر ١٩٧٣.

• الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ـ طبعة دار الثقافة ببيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

• شعر أبي الفرج بن هندو: جمع وتحقيق: د. عبد الرازق حويزي، ط القاهرة ٢٠٠٠م.

• صفة الصفوة: جمال الدين أبو الفرج المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ـ تحقيق محمود فاخوري ـ خرّج أحاديثه محمد روّاس قلعه جي ـ طبعة حلب ١٣٩٣هـ.

• الضعفاء الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) (ملحق بالتاريخ الصغير) ـ تحقيق محمود إبراهيم زايد ـ طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

• الضعفاء والمتروكين: الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي ـ (ملحق بالضعفاء الصغير للبخاري) ـ تحقيق محمود إبراهيم زايد ـ طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

• الطبقات: أبو عمر خليفة بن خياط شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ طبعة العاني ببغداد ١٩٦٧م.

• طبقات الأطباء والحكماء: لأبي داود، سليمان بن حسّان، المعروف بابن جلجل، ط مصر ١٩٥٥.

• طبقات الأمم: لأبي القاسم بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ)، ط السعادة بمصر.

• طبقات الحُفّاظ: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) ـ طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

• طبقات الشافعية الكبرى: لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تاج الدين، أبو نصر (ت ٧٧١هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، د. محمود

محمد الطناحي، ط٢ دار هجر ـ الجيزة ـ مصر ١٤١٣هـ/ ١٤١٢م.

• طبقات الشعراء المحدثين: ابن المعتزّ ـ تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٦.

• طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ طبعة بيروت ١٩٧٠.

• طبقات القراء= غاية النهاية.

• الطبقات الكبرى: محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ١٩٥٨م.

• الطبقات الكبرى: المُسَمّاة (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار) ـ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراين ـ طبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٤.

• طبقات المدلّسين: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).

• طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى بن المرتضَى ـ تحقيق سوسنة ديقلد ـ فلزر ـ طبعة بيروت ١٩٦١.

• طبقات المفسّرين: محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت ٩٤٥هـ) ـ تحقيق علي محمد عمر ـ طبعة القاهرة ١٩٧٢.

• طبقات النُّحَاة واللُّغَويّين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبَّيدي (ت ٣٧٩هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٣.

• عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام: طه الولي ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

• العِبَر في خبر مَن غَبَر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق د. صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ـ طبعة الكويت ١٩٦٠ـ ١٩٦٦.

• العِقْد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) ـ تحقيق الأساتذة: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ١٩٥٢م.

• العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تَقيّ الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ) ـ تحقيق فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناحي ـ القاهرة ١٩٥٩ـ ١٩٦٩م.

• العلوم العملية: عمر رضا كحالة، ط دمشق.

• عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: أحمد بن علي الداودي الحسني ـ تحقيق د. نزار رضا ـ طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت.

• عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والتَيْسِيَر: أبو الفتح محمد بن أبي عمرو محمد المعروف بابن سيّد الناس (ت ٧٣٤هـ) ـ طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٦٥هـ.

• عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرَي (ت ٢٧٦هـ) ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥.

• عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أُصَيْبعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ) ـ شرح وتحقيق: د. نزار رضا، ط دار مكتبة الحياة ـ بيروت [دت].

• غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ) ـ تحقيق أتو بدتزل وبرجستراسر ـ القاهرة ١٩٣٣ـ ١٩٣٧م.

• الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

• الفهرستْ: محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت ٣٨٠هـ) ـ طبعة مصوَّرة عن طبعة أوربة بتحقيق فلوجل ـ مكتبة خيّاط، بيروت ١٩٦٤م.

• فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنَّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ).
نشره فرنستسكه قداره زيدين وخليان رباره طرغوه: طبعة سرقُسْطَه ١٨٩٣ (مصوَّرة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩).

• فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٣، ١٩٧٤.

• القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ) ـ مصوَّرة دار الفكر، بيروت.

• قُضاة قرطبة وعلماء إفريقية: أبو عبد الله الخشني ـ طبعة القاهرة ١٣٧٢هـ.

• قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: لكمال الدين، أبي البركات، المبارك ابن الشعّار، الموصلي (ت ٦٥٤هـ) تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

• الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتّة: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ نشره عزّت علي عيد عطيّة وموسى محمد علي الحوشي ـ طبعة القاهرة ١٩٧٢م.

• الكامل في التاريخ: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥.

• كنوز الأجداد: محمد كردعلي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

• كشف الظنون: عن أسامي الكتب والفنون: لمصطفى بن عبد الله الشهير

بحاجي خليفة وبكاتب حلبي، ط استانبول ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م.

- اللُّبَاب في تهذيب الأنساب: عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجذري (ت ٦٣٠هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت.
- لسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٣٢٩هـ.
- مجاني الأدب: الأب لويس شيخو.
- المجروحين من المحدّثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ)، نشره محمود إبراهيم زايد ـ طبعة حلب ١٣٩٦هـ.
- المحبّر: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكّري، عن أبي جعفر محمد ابن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) ـ صحّحه د. إيلزه ليختن شتيتر مصوَّرة دار الآفاق الجديدة ببيروت عن طبعة حيدرأباد ١٣٦١هـ.
- مراتب النَّحْويين: أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللُّغَوي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة القاهرة ١٩٥٥م.
- مِرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان: أبو محمد عبد الله اليافعي (ت٧٦٨هـ) ـ طبعة حيدرأباد ١٣٢٨.
- مروج الذهب ومعارف الجوهر: علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٥٨.
- مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حِبّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ) ـ نشره م. فلا يشهم ـ طبعة القاهرة ١٩٥١م.
- المشتبه في أسمال الرجال: شمس الدين محمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ طبعة القاهرة ١٩٦٢.
- المصايد والمطارد: محمود بن الحسين، أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت ٣٦٠هـ) ـ تحقيق د. محمد أسعد طلس ـ طبعة بغداد ١٩٥٤.
- المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيَنَوري (ت ٢٦٧هـ) ـ تحقيق د. ثروت عُكاشة ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) ـ نشره د. مرجليوث ـ القاهرة ١٩٣٦ـ ١٣٩٨.
- معجم الأطباء: لأحمد عيسٰى، ط مصر ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.
- معجم البلدان: أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) ـ طبعة دار صادر، بيروت.
- معجم بني أميّة: د. صلاح الدين المنجد

ـ طبعة دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٠.

• معرفة علوم الحديث: الإمام الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) ـ تحقيق د. السيد معظّم حسين ـ مصوَّرة المدينة المنوَّرة ١٩٧٧ عن طبعة حيدرأباد.

• معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق محمد سيّد جاد الحق ـ طبعة دار التأليف بمصر ١٩٦٩م.

• المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ) ـ تحقيق د. أكرم ضياء العمري ـ طبعة وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٤ـ ١٩٧٦م.

• المُغني في الضعفاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق د. نور الدين تمر ـ مصوَّرة ببيروت (لا مكان للطبع ولا تاريخ).

• مفتاح الكنوز الخفية: فهرس مخطوطات وقفها بهادر خدابخش خان، ط الهند ١٩١٨ـ ١٩٢٢م.

• مقاتل الطالبيين: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر ـ طبعة القاهرة ١٩٤٩.

• مقدّمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ طبعة القاهرة.

• الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط مصر ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

• مناقب أبي حنيفة: الإمام الموفَّق بن أحمد المكّي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) ـ نشره محمد حيدر الله خان الدراني الحنفي ـ صوّرته دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠١هـ. عن طبعة حيدرأباد.

• مناقب أبي حنيفة: الإمام حافظ الدين بن محمد المعروف بالكردَري (ت ٨٢٧هـ) مُلْحَق بالذي قبله.

• المُنْتَخَب من كتاب ذيل المُذَيَّل: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

• المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم: الحسن بن بِشْر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) ـ نشره د.ف كرنكو ـ طبعة القدسي بالقاهرة.

• موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي: جمعها د. عمر عبد السلام تدمري ـ طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٩٨٤.

• موسوعة المستشرقين: لعبد الرحمن بدوي، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٤٠٤هـ.

• ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة ١٩٦٣م.

• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تعزي بردي (ت ٨٧٤هـ) ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.

• نزهة الألباء في طبقات الأدباء والنُّحاة: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ـ تحقيق د. إبراهيم السامرائي ـ بغداد ١٩٥٩م.

• نزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ـ نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٦ مصطلح الحديث.

• نسب قريش: مَصْعَب بن عبد الله بن الزبير (ت ٢٣٦هـ) ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

• نَكْت الهميان في نُكَت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٤٦هـ). نشره د. أحمد زكي ـ القاهرة ١٩١١م.

• نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.

• نور القَبَس المختصر من المقتبس: للمرزباني ـ اختصار الحافظ أبي المحاسن يوسف بن أحمد (ت ٦٧٣هـ) ـ تحقيق رودلف زلهايم ـ المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤م.

• الهدايا والتحف: للخالديين.

• الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ).

• منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية: ببيروت ١ ـ ١٧ جزءاً.

• الوزراء والكُتَّاب: محمد بن عبدوس الجهشياري (ت ٣٣١هـ) ـ تحقيق مصطفى السَّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ـ طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨.

• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ طبعة دار الثقافة بيروت، وط دار صادر ـ دار الفكر ـ بيروت [دت].

• الولاة والقضاة: أبو عمر محمد بن يوسف الكِنْدي المصري (ت ٣٥٠هـ) ـ نشره رفن كَست ـ مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

***

فهرس الموضوعات